هاني الراهب

بلد واحد هو العالم

رواية

هاني الراهب

بلد واحد هو العالم

رواية

منشورات اتحاد الكتّاب العرب ١٩٨٥

حقوق الطبع والاقتباس والترجمة
محفوظة لاتحاد الكتّاب العرب

صمم الغلاف : عبد القادر أرناؤوط

فإذا كنت سوريّاً
فلماذا تتعجّب؟
أيّها الغريب!
إننا نعيش في بلد واحد هو العالم

ملياغر

١٤٠ - ٧٠ ق. م

عاش بين طبريا وصور واليونان.

إلى تيسير السبول

مضى ثلاثة عشر عاماً على هجرتك ...

برجوازيان صغيران

- ١ -

في ركن غير ملفت للنظر لمعت عبر ضوء النهار وكان لمعانها مثيراً . على القمة تماماً ، تمددت واحدة مازال حبل سرتها عالقاً بها . وكان الزغب الأبيض الشفاف على بشرتها الرهية ينضح بكورة وصفاء وأصالة . وفوق هذا ، اللون الدافىء العميق ، النضارة المستحيلة ، الميسة الخفيفة الرشيقة .

« علوان ، اشتر لنا كيلو . »

« نازك ! قلت لك مستحيل . هذا ترف برجوازي وضيع ، نحن لم نخلق له . »

« هل خلقنا لنبلع ريقنا وبس ، امام هكذا مناظر ؟ »

« ابلعي ريقك أسبوعاً ، عشرة أيام ، بعدها يصير الكيلو بثلاث ليرات ، والفرحة واحدة . »

« لو كل انسان أجّل استجابته لجمال الطبيعة أسبوعاً ، عشرة أيام ، لما تلهف على شيء . »

« نازك ! الكيلو سعره تسع ليرات . ماذا أقول لضميري وفي العالم ملايين الجائعين ؟ »

وبعدها اشتريت كيلو كاملاً من الخيار ، لأن نازك اشتهته . وكالعادة أحسست بالبهجة لأني حققت رغبتها . في الحقيقة أنا أحب ما تحبه هي وأكره ما تكرهه وأستسيغ ما تستسيغه ، والذي تقبله أقبله ، وترفضه أرفضه ، وتقترحه أوافق عليه ، ولست أدري إذا لم لكن هذا هو الحب ، فماذا يكون ؟ إن نازك هي وعيي ووجداني وموئلي .

حملا كيسهما ومشيا عبر الزحام الكثيف . لم يفتحاه . الحديقة : أشجار باسقة ومرج أخضر وأزهار لا حصر لها ، ونوافير ترذ الماء على بطات صغيرات في البحيرة . لم يدخلا . اختطفت نازك الكيس فتناولت خيارة . وللتو تناول علوان واحدة . تأملها بسكون : ملساء على نحو مثير ، ونضرة وخضراء ، وتكاد تنفجر من العافية . متينة ومخططة بتموجات طولانية لا تكاد تبين .

في لحظة واحدة تقريباً ، وبعد تردد خاشع ، قضم كل منهما قضمة صغيرة . وأحس علوان بخدر منعش يتسلل في خلايا فمه ووجهه ، برائحة ترتعش ، ونكهة فاغمة . وأوشك ان ينتشي .

وعندما وصلا الى قبوهما القريب كان الكيس قد عاد الى فراغه السابق .

[تقرير :

كان يوماً شتوياً قارساً اصطكت فيه عظام البشر . وكان اليوم الثالث لهبوط ثلج تراوح بين الجنون والحلم . لحظة انفتح الباب الضخم هب هواء ساخن بوجه علوان وارتعشت مسام بدنه . ربع ساعة وهو يرفل في تيارات الدفء داخل بهو فسيح كالملاعب . ثم أطل فؤاد بك . كانت الجلسة سلسلة من الادراكات الصغيرة المفاجئة . أولها إدراك علوان ان هذا الرجل المهيب كعصر مضى ، المشرق الوجه بابتسامة أبوية رحبة ، يمشي بساق خشبية . ثانيها أن علوان بالذات لم يكن المقصود بالابتسامة ، وإنما شخصاً آخر ، ربما ، لا وجود له . ثالثها أنه تلبس دور الابن المحتاج بوعي كاف ولكن بلا ارادة : « فؤاد بك ، لن أقول ان الايجار عال وفوق طاقتي . سأقول فقط إني أحاول انشاء بيت وتكوين أسرة ، وانك أنت حتماً من ذلك الصنف من الرجال الذين يساعدون على إقامة البيوت لا على تهديمها . »

كان ذلك منذ سبع سنوات . لقد قبل فؤاد بك خمسمئة ليرة شهرياً ، متنازلاً دفعة واحدة عن مئتين . لم يفرض سوى شرط واحد : أن لا يكون علوان موظفاً مهماً في الدولة . وسرعان ما اطمأن قلبه الفزع ، ف « الأخ » ، كما أشار بيده ولسانه الى علوان ، لم يكن سوى برجوازي صغير حياته مسفوحة على دروبها االوعرة الضيقة . ومرت الأيام فرسخت في علوان حساً بأن فؤاد بك تصرف في الحقيقة بدافع شهامة تنتمي الى زمن مضى .

استأجر علوان القبو ، غير أنه لم ينشىء بيتا ولم يكون أسرة . لقد وضع أثاثاً من نوع ما في هذا القبو الممتد عشرين متراً بعرض أربعة . ولكن ، عندما تزوج قبل خمس سنوات ، لم يكن ثمة غير سرير عريض وخزانة ثياب ، أربع كنبات مستعملة ، قاطع متداع ، طاولة صغيرة لجميع لمناسبات ، وملء كيس من أدوات المطبخ . وصار هذا الأثاث توأماً للأبدية .

كان اشتراكه في جمعية تعاونية سكنية يمتص دخله المجهري على الدوام . وعلى الدوام كان مضطراً الى شتى الحيل والأساليب كي يعطل أرخص سلعة وأجلها على الاطلاق : ولد ، ذكراً كان أم أنثى . لقد صمما على عدم الانجاب ماداما في القبو . وهل ينجبان ولداً يتهمهما في المستقبل بأنهما لم يورثاه غير الروماتزم ؟]

قالت نازك : « شفت ابو خليل . مجيئه الى الحارة كثير في هذه الأيام . »

نظر علوان اليها وهو يرتمي على الكنبة منتظراً بقية الكلام .

« سمعنا أنه باع البناية للدكتور جارود . وهذا سيحفر تحتها ويوسع القبو حتى يصير شقتين كبيرتين ، الواحدة منها تأتيه بسعر يزيد على مصاريفه كلها . »

« وقبونا داخل هذا المشروع التنموي ؟ »

وقفت في باب الغرفة . « طبعاً ، نحن مفتاح نجاحه وفشله . »

« ولماذا أنت تتراقصين طرباً ؟ هذا الدكتور سيحفر تحتنا بدعوى إخلاء ، ويرمينا في الشارع » .

« لا يا أستاذ سيدفع لنا فروغية محترمة ليخرجنا من البيت . أبو خليل دفع خمسين ألفاً . وهذا الدكتور . . نحن سنطلب مئة . »

ضحك أبو خليل عندما قلت له ألا يتعب نفسه ، فالفروغية عملية لا أخلاقية ، وهي الحرام بعينه . التفت الى نازك وهسهس بضحكة موجزة : « زوجك مرتغب بمبلغ كبير ، باين عليه الفهلوية . هه هه ! » وكدت أستشيط غضباً . أحسست بجرح اهانة مباشرة . هذا الفدم ، الذي لا يعرف كيف يصوغ جملة مفيدة ، لا يخطر له أنني أن أقف موقفاً أخلاقياً مبدئياً ، أو أرفض ان تبتلعني جاروشة رأسماليته الطفيلية الحقيرة .

في الوقت المناسب تدخلت نازك . كان علوان قد بدأ يغلظ القول لأبي خليل ، فأرسلت اليه نظرة سديدة جامدة . التفت اليها بانصعاق جامد ولكن رصين . تأملها طالباً بصمت تغييراً فورياً في معنى نظرتها . لكن عينيها أرسلتا المعنى نفسه ، الذي ازداد قوة بفضل جمالها .

اقترحت نازك : « قهوة علوان لايمكن ان تنسى مذاقها ، عمي أبو خليل . ما قولك يا علوان ؟ »

« أمرك مدام . »

بعد ذهاب أبي خليل راضياً ، تناولت فنجانها ورشفت ما بقي فيه : « أنت مساوم رديء . شوية ثانية ، وكان أبو خليل طفش . عرض خمسين ألف ليرة ! ألا تعجبك ؟ »

هتف علوان منفعلاً : « شفت كيف جلس يعرض ماله ؟ ولا كأننا سنتردد لحظة في تقبيل يديه . »

« بالعكس . . هو كان مسخسخاً باللطف . أنت الذي عاملته كأن عليه ان يدفع لك جزية . لأن القضية قضية مبدأ ، ومالا أعرف . »

لم يعد أبو خليل اليهما ، ودخل القنوط في نفس نازك . اعتادت ان تجلس شاردة ، محبطة ، أو تتكلم بمرارة وعصبية . « كل ما في الأمر ، انك لم تعرف بأية طريقة تقبل عرضه . لجأت الى العنترية والجاهلية . أنت أضعت علينا فرصة العمر . بعد سنة نستلم شقتنا وليس في جيبتنا فرنك واحد لنفرشها . »

كان أبو خليل أعمق حساً بالخطر على ماله من أن يمنح علوان أي شعور بالأهمية . لم يظهر متعجلاً أو حتى مهتماً ، أو ذاكراً . ذلك المشهد العصيب ضاعف حذره وخوفه من علوان . جعله يعتقد أن هذا المستأجر لقبو تعاف سكناه الأرانب ، رجل صعب المراس ، غير معتاد على الأخذ والعطاء ، وقادر على تضييع خصمه بالكلمات الغريبة التي لا يفهمها أحد . انه لن يترك القبو بأقل من مئة ألف .

سوى أنه لم ينقطع عن زيارة الحارة . لقد دفع لورثة فؤاد بك ملايين في صفقة غير منتهية ، أوشك تدخل الدكتور جارود أن يجعلها خاسرة حقاً . كان يظهر عند مدخل الحارة ، وطيات شرواله تتقلقل بين ساقيه ، ويده اليسرى تروح وتجيء في نصف دائرة . يلمحه علوان فترتد الى واعيته ذكرى تلك المقابلة الموحشة ، ويراها أكثر وحشة وأقل وضوحاً . كان متلهفاً الى أن يعرف ما الذي دار داخل وجدانه في تلك الثواني التي رافقت وتلت عرض أبي خليل للمال . أية كيمياء فعلت فعلها وماذا فعلت حقاً . لقد اندفع برجولة وكرامة

يصاول أبا خليل ويحجم انتفاخه الرأسمالي البغيض . أيكون فعلاً أنه قال كلاماً مختلفاً ؟ وكلما مضت الأيام أخذت معها شظايا ونثرات من المشهد حتى استحال أخيراً الى صور متقطعة : فم أبي خليل المفتوح كالمغارة ؛ منخل النافذة المثقل بالغبار ؛ عينا نازك الجارحتان .

ذلك ما أحزنه . هو لم يرد أن يسقط في الفخ وينسج لنفسه أساطير عن نفسه . لكنه كان متأكداً تماماً أن بنيانه العقلي يخلو من الأرجاء الشاسعة التي تعشعش فيها المكبوتات ، وان حياته خالية مما يخجله أو يضيره كي يدفع به الى أصقاع النسيان . لقد اعترف دائماً بخطئه عندما أخطأ ، وبإثمه عندما أثم . أساساً ليس هناك أمر يخجل منه الانسان سوى ايذاء الغير أو استغلالهم . وفي هذا المضمار فهو لا تأخذه من الناس لومة لائم . اما بقية المحرمات ، فيجب ألا تكون لها أية سلطة أخلاقية على الضمير . إنها مفروضة فرضاً ، ولا جذر لها في الطبيعة البشرية . منذ بواكير وعيه الشخصي حاول أن يقتلع من وجدانه أو يخضخض ، كل ما أثبتته فيه التربية والطفولة ، ما أسماه محطات إنذار مبكر تتجسس على الصبوات والعفوية والنزعات ، وهي لبنات النفس البشرية ، وترسل تقاريرها الى محتل غاشم هو الضمير .

لقد سحره دائماً تجدد الحياة ، وسحره أيضاً ان يسبر أغوار الطبيعة البشرية : أصلاً ، ما الذي نسميه بهذا الاسم ؟ من أية مادة هو ؟

وكانت نازك تزداد ضيقاً وعصبية كلما ابتعد الزمن بذلك العرض الاسطوري من أبي خليل . وصار يبدو عليها أنها تريد ان تعاقب علوان لغياب ذلك الرجل الاسمنتي . ورغم محاجاته ، بدت بائسة تماماً . وقد طغى شوقها المستبد الى ولد على وعيها ، وابتلع عشرة أشهر من عمرهما : هي

تندب حظ حياتها العقيم ، وهويرزح تحت حس جارف بالذنب . لم ينتبها الا منـذ شهـرين ، عنـدمـا انقطـع ابـو خليل نهائياً عن المجيء ، أن خمسين ألفاً ليست مكـافأة على وجـودهما في هذا العـالم وانـما تعويض عن ترك القبو . أين يذهبان ؟ هذه المدينة لا تحتوي على بيت واحد ـ لهما .

كان اكتشافاً مذهلاً ميّاداً . كان ناراً خفية اندلعت فجأة وفجرت أحلام نازك ، وومض في عيني علوان وعيـاً أنـار له الحضيض الـذي وقف عليـه وكان يرى نفسه واقفاً على جبل .

قالت نازك : « خلنا نسأل عن بيتنا الاشتراكي . أما حان وقت تسليمه ؟ »

كان الليـل عتمة أنيسة وأضواء مبثوثة تتداخل فيه ، وفضاء غامضاً وارفاً بين حين وحـين هبت نسـمات حاملة خليطـاً من روائح الازهـار والنبـاتات . وكـانت المـدينـة هاجعـة وأثـيرية ، وصوت اقدامهما المتمهلة الخلجةَ الوحيدةَ المعلنة في مدى وعيها المنظور .

قال علوان بهدوء : « تعـرفـين يانـازك . أحيـانـاً تخطـر لي أسئلة مقلقة فعلاً . يعني ، أنا عمري ثلاث وثلاثون . لا بيت عندي ولا ولد . ولا عندي ملكية من أي نوع . ماذا حققت حتى الآن ؟ ماذا تساوي حياتي ؟ ما الشيء الذي يمكن أن أشير إليه وأقول : هذا من إنجازي ؟ »

« أنا أتمنى أن أشـير بأصبعي ، واحـد ، اثنـان ، ثلاثـة وأعدّهم ، وأقول هؤلاء أولادي . »

« مع أني أحيـانـاً أرى أني قادر أن آتي بما لم تستطعـه الأوائـل . أنا غير مرتاحٍ . غير مرتاح . أشعر أحياناً أني الأخير في زمانه ، ولن آتي بشيء . »

« وحتى لو شقيت لأجلهم بقية عمري . »

« هل يمتلك الانسـان سبعـين سنـة من هذا الدهر كله ليعيشها راكضاً لاهثاً وراء اللقمة ، الفراش ، القميص ، ووراء ألف حاجة تافهة وحاجة ؟ »

« وقتها سأحس أنه عندي شيء يستاهل الشقاء والتعب . »

« أهـذه هي الحيـاة ؟ أهـذا هوكل شيء في عمـر الانسان ؟ حياة ، أم عيش وكفى ؟ »

كفت نازك عن قطف أزهار الياسمين المبكرة ، وبهدوء تأبطت ذراعه . انعطفا صامتين في شارع صغير آخر . قالت : « الحياة ماشية وتتقدم . بكرة نستلم بيتنا الجديد ، ويصير لنا أولاد . نحن لسنا أصحاب رسالات . »

هز رأسه باستنكار : « ما قيمة الحياة بلا رسالة ؟ »

« ألم تفرح اليوم برائحة الخيار ونكهته ؟ »

« بلى . الحقيقـة ، كل فرحي بالأشيـاء يأتي عن طريقـك أنت . أنـا لولاك إنسان كئيب . ربما بسبب إيماني ان الحياة رسالة . »

قالت وهي تدفعـه برفق : « عال . وأنـا آخذ من ايمانك بأهمية الانسان ومغـزى حيـا تـه صلابـة الذين يؤمنون برسالة . أنا لولاك يمكن تصنيفي في قائمة السوائل . ألن نذهب غداً الى مقر الجمعية ؟ »

« أذهب . . أنا ، لا نذهب نحن . »

« لن تأخذني معك ! »

« لا . على طريق الجمعية أربعة دكاكين على الأقل فيها خيار . »

« الخيار ، خلص . مرة واحدة تكفي . »

- ٢ -

أنـا الـذي أمضيت كل هذا العمـر باحثاً عن الأجمل والأفضل . الذي آمنت بالحياة كما يؤمن البدائي بالطواطم . رفضت كل مساومة على ريعانها ، وكـل مجانيـة في التعـامـل معهـا . هكـذا ؟ هكـذا دفعـة واحدة ؟ أمل العمر الأكـبر ، ينهـار ، يتبـدد ! أليس لأجـل هذا تقـوم الحـروب ويقـدم البشر أرواحهم ؟ أربعـون ألفـاً ! مستحيـل . مستحيـل . كيف أزعم أني سأعيش إنسـانـاً ولست أملك أربعـين ألفـاً . ياللبلاهة . ياللطيران الفاجع على متن الكلمات المجنحة .

قالت نازك : « مستحيل ! هذه مؤامرة . أي مشترك يستطيع أن يدفع هذه الزيادة ؟ »

طبعـا مؤامـرة . يريـدون للتجـربـة التعاونية أن تفتح ساقيها لهم . في البداية كل شيء على مايرام . في كل مكان تنتشر الدعاية . يتورط الناس . يدفعـون الـذي فوقهم والـذي تحتهم . حتى إذا ما عاد يسعهم الـتراجـع ، تحترق السفن فجأة . ويـرمـونـك في البحـر. هذا الـتراث العـريق . منـذ حكـايات شهرزاد حتى حكايات التلفزيون . وعندها يتقدم التاجر لينقذك . ليشتري بالسعر الذي يريد .

« أنت السبب . أنت السبب . »

« نازك . كفانا الذي نحن فيه. لا داعي للمشاعر المريرة بيننا . »

وكنت موقتـاً عن الكـلام . لكنهـا لم تكـف عن الـدمـوع . هذه المـرأة القوية ، الشارِبة للحياة ! أين مستودع هذه الدموع كلها ؟

« لو تركت لغة المثاليات التي تعيشها كنا في غير حال . »

« نازك ، أرجوك اهدئي . »

« كيف أهدأ ، لو من يومها أخذت خمسين ألفاً كنا استلمنا شقتنا بعد شهر . »

« أبـو خليـل لم يلعب اللعبـة بطـريقـة صح . أنـا ماذنبي ؟ مرة واحدة وبس ! لو عرض مرة ثانية ، كنا شفنا تدبيرة . انتظرناه ولم يجيء . ماذا بودك يعني ؟»

« بودي ولد . ولد خمس سنين . ثلاثة إجهاضات . بودي ولد . »

« نازك ، يا حبيبتي . . »

«أبعد عني ، أنت ورسالتك وأفكارك . أنا أكرهك . أكره أفكارك ولغتك . »

وأنـا ماذا أفعـل ؟ أحـاول أن أعيش بصدق إيقاعات النفس وإيقاعات الحياة . يأتون إلي ويقولون ادفع أربعين ألفاً لأجل بيتك الاشتراكي . وهناك زيـادة محتملة بعـد تسليم الشقق . ارتفعت الأسعـار في العالم . ليس في العالم رؤى . فيـه أسعـار . وهي ترتفع . ترتفع فينخفض البشر . يجب أن أكيف نفسي مع الأسعـار ، لا مع الـرؤى . يجب الا أخرق ناموس الطبيعة . يجب أن أرفـع الـرايـات لبرمـائيـات طحلبيـة مثل أبي خليل ، أو غيلان تقنية مثل الـدكتـور جارود ، كي تسنح لي الفرصة . إنهم يدفعونني تحت . نحو القاع . مع أنني لا أتطلع الى فوق ، على الأقل الى فوقهم .

وقف على الـدرجـة العليـا وأمسـك بإليـة شروالـه فرفعهـا بين فخذيه. حمحم وصـاح : « الله ! » وعنـدمـا لم ينـاده أحد سعل وخعخع . ثم لم يجد مناصاً من رن الجرس ، هو الذي يكره أن لا يدق الباب بيده .

قال انـه شخصيـاً ، وبعـد تلك المقـابلة ، ما كان ليأتي علوان إلا طلباً لفنجان قهوة ، أو اطمئناناً على حالة صحية ، لا سمح الله . ليس لأنه حمل في نفسه ضغينة او جرحاً . معاذ الله . بل لأن السيد علوان رجل يخاف الله ، وصاحب مبدأ ، يعتبر الفروغية حراماً والمال وسخاً دنيوياً ، والحديث فيه مقتاً وتضييعـاً . « كبر مقتـاً عنـد الله ان تقـولـوا ما لا تفعلون . لذلك ، ياابن النـاس ، خلنـا نقم الى جامـع الـرشيـدي ، نصـلي ركعتين صلاة الجمعة ، ونحكي لنا كلمتين نظيفتين هناك . »

كان وجـه علوان خاليـاً من أيـما تعبير . استدار ببطء ودحرج نحوعيني نازك المتسائلتين نظرة متسائلة . كانا يتوقعان الدكتور جارود ، فجاء أبو خليل .

« أنــا ياابني ما لي ناقــة ولا جمل ، يشهـد الله . أنـا جئت أوشـوشـك كلمتين ، خذهما مني نصيحة أخوية . الدكتور حمد لا تعلق معه . أنا علقت وخسرت ، أنـا المجرب ابن الكار»

مرة ثانيـة اختطف علوان نظـرة الى نازك ، ثم قال بأريحيـة مدروسـة : « بس يا عمي أبـوخليـل ، حتى الآن ليس بيني وبـين الدكتور حمد غير كلمة مرحبا . من أي شيء تحذرني ؟ »

كان أبـو خليـل فارداً ذراعيـه على ذراعي الكنبـة ، ومـاداً رجليـه على الأرض . بســرعــة أدرك ان الكـرة ارتـدت الى مرمـاه . وفي لحظـة الادراك الخاطفة جمدت عيناه المتضاعف حجمهما خلف نظارته الطبية ، فبدتا كأنهما محنطتان.

تنحنح وتلحلح . نهنه قليلاً . ابتسم لأعين الزوجين المعلقة به . « لهذا الشيء ، نعم سيـدي ، جئت أتـوسـط بينـك وبينـه . . » وقـاطعـه علوان .

باستخفـاف عصبي : « تتـوسط ! كلك مفاجآت اليوم ، يا عمي أبو خليل . وهل بيننا حرب البسوس ؟ »

رهـره أبـو خليـل مطمئنـاً الى أنـه استعـاد رباطة جأشه : « صل على نبيك . هالوقت نبدأ الحكاية من أولها . اي سيدي . بالمشبرحي . كم ألف بودك لتترك القبو بسبعة أيـام ؟ على إيش نتفق ، أنا بأمر شواربك ، وكلمتي سنـد . الـدكتـور حمد كلفني أفاوضك باسمه . وإذا الخانم عندها بنّ ظريف للقهـوة الحلوة ، أنت وأنـا نبـدأ المحـاورة ، على ما يقول المثل ، حتى يعرق الجبينان والحاجبان . »

أريـد أن أقـول أن أبـو خليـل هذا كلب ابن كلب . بكـل موضوعية . ودون أي تأثـر بقـرفي من شخصيته البزاقية . صحيح أنا أحسست بالقرف من كوني وإيـاه ننتمي الى جنس واحـد ، وشعب واحد . إنه هو ، قبل أي شيء آخـر الـذي يشعـرني أنـه لولم يكن التمايـز الطبقي موجـوداً لكان واجباً خلقه بالقـوة . على الأقـل لكي أشعـر أننا مختلفان ، متضادان . لكني أستطيع أن أقـول بكـل موضـوعيـة إن هذا النمط من الناس يتحدون نظريتي عن أن لكلّ فرد ـ وليس فقـط لكـل شعب ـ أسطـورة يصنعهـا لنفسه بنفسه . أبو خليل لم يصنـع لنفسـه أيـة أسطورة . لم يجرؤ حتى على أن يحلم . لم يجرؤ على رؤ ية نفســه قويـاً إلا بالمـال والبنـين . الميـادين الأخـرى التي ينطلق منهـا صنـع الأساطير ، لاشيء ، لا شيء عنده اطلاقاً . انه لا يمت لها بصلة . وهو لا يمد ساقه الا اذا كان متأكداً تأكداً رقمياً من مكان نزولها . حتى إيمانه معزول تمامـاً عن تلك اللمسـة الـرهيفـة التي تصل المؤمن بكون رحيب مخيف وتجعله يطمئن فيه . إنه يصلي لله كمن يسدد كمبيالة . ويتصدق للفقراء كمن يدفع فاتـورة . وربـما أخـذ توقيعهم عليهـا . اذا اقـترف إثماً ، صلى . وإذا غشّ،

أخـــاه ، صلى . وإذا ربـح ثلاثمئـة بالعشـرة ، صلى . وإذا قطـع شجـرة خضراء ، صلى . وإذا صلى ، عقد صفقة تجارية .

مكثت على الكنبــة نفسهــا ، ربـما ثلاث ساعـات أخـرى . ولعلني أغفيت . لأول مرة في حيـاتي عشت حالـة لا أعـرف ماذا أسميهـا . انعـدام الشخصية ، مثلاً . كنت بلا ذات . مجرد كتلة عضوية . هناك شيء لا أريد أن أكونه ، وشيء لا أستطيع أن أكونه ، وشيء لا أعرف كيف أكونه . ولم يعد في وعيي أي شيء هو أنا .

كنت عارفـاً بأمـر واحد على الأقل ، هو أنني لا أريد أن أرى نازك ، أو أتحادث معها بشكل خاص . لقد زللت في حياتي زلات كثيرة . لكني لم أشعر أبداً بمثل هذه الاهانة والاحتقار . لقد قلت من قبل إني لا أخشى في وجداني لومـة لائم . وهأنـذا لأول مرة أفعـل فعلاً فلا أجرؤ على ايقافه أمام ضميري والتأمل فيه .

عادت نازك وهي تتأفف باسمـــة : هذه الجـارة التي هبطت عليهـا بلا توقـع ، وجـرّتهـا الى بيتهـا . دخلت « غرفـة الضيوف » نصف مزوبعة ، ثم ركنت . لم يكن قلبهـا متهيئـاً لغير النشوة والتوقعات النضيرة . فوجئت بسيماء وجهـه السـوداء فجلست على الكنبة المصأصئة وقالت : « هيه . كنت نائماً ؟ ما أعجبـك . إنـما معـك حق . الحقيقـة انـك كنت شمشمون الجبار . كنت ماسكـة قلبي بيـدي . لكنـك كنت رائعـاً . رائعـاً . هذه القـوة ، والجَلَدَ . والتماسك والبرودة . أمام رجل مصنوع أساساً من خشب . تصدي ، يحترق ولا يحس بالحـرارة . إنـما قل لي ، كرمـى لربـك ، من أيـن جاءتـك هذه العبقـريـة ، هذه العبقـريـة ، هذه المـوهبـة الفـذة ؟ أنت غلبت أبو خليل ! وبلعبته هو ! ياإلهي يا علوان ! كنت رائعاً . وأنا التي ظننت أني أعرفك . وإذا

بك فهلوي ، مسبّع الكارات . الآن ، أنت حققت أحلامي . الآن أفرح بك وبالمستقبل . بابنا الذي انتظرناه وانتظرناه . أنا فخورة بك . أراك سيداً للرجال . سأسعد أيامك حتى الرمق الأخير . »

وكما يحدث في مناسبات مشحونة كهذه ، فقد انقطع دفق خيالها النشوان بصيحة منه يائسة كالسقوط وثابتة كالطلقة . وأعقب الصيحة ضربة من قبضته على ذراع الكنبة .

أعقبها أيضاً سكون مطبق ـ طال أمده عند نازك لأن المفاجأة عقلت عقلها ، وعند علوان لأن السكون كان نوعاً من الانتهاء تمناه في تلك اللحظة أن يتأبد .

صنعت نازك من راحتيها قبضة واحدة ، ورمتها في حجرها . لم تستطع ان تسحب عينيها عن وجهه كانت المفاجأة مذهلة وهي لم تفهم شيئاً . وأحس هو بجلستها دون أن يراها . تعارم الضيق في داخله وراح يتشكل غضباً . ها هي ذي تقف مرة أخرى في الطرف الآخر فتوحي له أنه مخطىء . نظر إليها نظرة دفاع شرس عن النفس . وأراحه أن أجفانها تلجلجت . أطرقت . رأى ان دوره قد جاء الآن ، لا ليقول كلاماً أخرق كالذي قالته قبل ثوان ، بل ليتفرس في وجهها الجميل الشرير ويصرخ في أعماقه محتجاً على أخطاء الطبيعة .

نهضت نازك بهدوء . لم تدر الى أين تذهب . تقدمت في الممر العاتم بخطى ثقيلة ، وهي على وشك البكاء . لعل فنجان قهوة يحل عقدة لسانه . أغلب الظن أنه يرى أن أبا خليل هزمه . جعله يقبل بسبعين ألفاً ، وكانت عينه على المئة . لكن سبعين ألفاً انقلاب هائل . انقلاب حياتي .

عندما عادت بفنجاني القهوة بعد دقائق ، لم تجده في الغرفة . تبدد

الفـرح الـذي اسـتردتـه وهي تصنـع القهـوة وغـذته بخيالها . كان باب القبو مواربـاً ، والـدرج الصـاعد خالياً . وقفت وتأملت الدرج والفضاء الضيق ، وأصابعها تشد على الصينية . بعد ثوان غام المشهد في عينيها .

في الـليـل ، وهــو آيـب الـى الـبـيت ، كان سؤال جسيم يجثم على وجدانه ! ما الذي يضمن أنه لن يدخل مساومات أفدح يوماً ما ؟ قال لنازك : « أصدقائي ورفاق طفولتي كثيرون . كلهم صاروا مهمين . مال ، أو مركز ، أو أمـلاك . عبـد اللطيف رئيس بلديـة ، وأسعـد وزيـر . كنـا سوية في حارة واحـدة . أنـا أشـوف حالي عليهم . أحس انـه عنـدي بُعـد ليس عنـدهم . أبعـاد ، حتى . أولهـا ، أن أهميتي هي إنسـانيتي . أنـا أفـرح فعلاً ، وأحزن فعلاً ، وأحب فعلاً . وثانيها أني لا أملك شيئاً . لا أملك ما لم أدفع ثمنه من عرق جبيني . اليـوم ، عرق جبيني . فعـلاً ، مثلما قال أبـو خليـل . من كان يظن أن عنـدي كل هذه المـواهب . أنا أقدر أن أكون مساوماً ممتازاً ، سمسـاراً ممتازاً ، أقدر أن أكون قواداً ، يمكن . من يعرف ؟ ليس ما يميزني عن هؤلاء غير حيـونتي . كنت حماراً بالنسبـة للفـرص ، بينما هم كانوا ثعالب . هذا هو الفـرق بيني وبينهم . أنـا لا أصـدق . لا أصدق . لكان أفضل بألف مرة لو أني لم ألتق بأبو خليل في حياتي . »

صاحت نازك : « أنا التي لا تصدق . يعني كل زعلك وحردك ، لأنك وقفت قدام أبــو خليـل نداً لنـد ؟ يعني كنت تريـد أن تظهـر مثـاليـاً لتحـترم نفسك ؟ كنت تريدنا أن نخسر سبعين ألفاً ، والشقة ، والأولاد ، ونكسب المثاليات ؟ »

صاح علوان : « اسمعي أنت ، ولا تصـرخي ! أنـا لا أقـدر أن أتكلم كلاماً وأتصرف بعكسه . »

« تصرف بعكسه ولا تقله ! تصرف ، وقل أي كلام . لكن لا ترهق عمرنا بأثقال أفكارك . . »

« أنت السبب ! »

كانت صرخة عظيمة ، وخبطة يد على المنضدة . انقلب فنجان القهوة وسقط . جفلت نازك انكسر الفنجان واندلق السائل على الأرض . وانداح في وجه علوان اكتشاف متفجر ! إنها هي التي دفعته الى هذا الهوان ، هي فعلاً . وإذ تدفق الكلام الزبدي الصاعق من فمه ،انكمشت هي في الكنبة ، ثم انزلقت عنها ببطء ، تلملمت متراجعة ، تعثرت قدماها بالأرض وكتفها بالباب ، وركضت الى غرفة النوم .

كان علوان يصرخ وهو يتابعها خطوة بخطوة : « أنت السبب ! سنة كاملة ، وأنت مكوسة علي بشعور الذنب والفشل . أنت السبب . كلما قطعت شوطاً الى الأمام ، أرجعتني الى الوراء . الفشل . تطلعاتك البرجوازية الحقيرة . طلباتك . . »

عند كلمة « الحقيرة » التفتت نازك وصاحت نصف باكية : « احترم نفسك كلامك لا يشرفك . أنا لا أعيش هنا لأهان . »

« أنت لا تعيشين أصلاً . أنت لا معنى لحياتك أصلاً . أنت عبء على عمري وتطوري . »

« والنعم من هكذا تطور . صار لك لسان وتحكي . »

« أنت ملأت عمري بالسقم ! »

«تتظاهرين بالتقدم ؛ والتخلف ناخر فيك نخراً ! »

« يخزي العين على تقدميتك أنت . أنت أين وغيرك أين . »

« أنا حذائي أعلى من كل هؤلاء . . . »

« يكفي أني متحملة العيش معك . . »

« يلزمهم نصف قرن ليلحقوا بي . . »

« رح شف غيرك عنده أولاد وأموال . . »

« أنا أبول عليهم كلهم . . »

« ونحن نعيش عيشة الكلاب . . »

« تقارنينني بحثالة البشرية . . »

« بس من دون جريوات . . . »

« أنا لن أنجب منك ! أكون كلباً حقيقياً لو أنجبت منك ! أنت روحك عاقر . . »

« تعمل حالك رجلاً ، تتقاوى على أنثى ! »

« اغربي عن وجهي ياأفعى يا مدينة السقم ! »

كانت نازك قد هرعت الى السرير وانطرحت عليه . بعد أن انفجرت لطمة يده على وجهها ، لم ينتبه كثيراً الى نشيجها المقهور ووجهها المنطمر بين راحتيها . نظر الى ساقيها اللتين انحسرت عنهما التنورة وراعه نحولهما البشع . رآهما عصوين مشكولتين في تلة ترابية . أهذه هي المرأة التي أحبها ! كان المنظر مباغتاً بقبحه وفظيعا . حاول أن يستدير ويخرج ، لكن جسده بقي مسمراً بصدمة وعيه . أحس انه خدع ، أنها خدعته منذ البداية . هاتان الساقان !

جلد على عظم ! مستحيل ! هذه المرأة ليست العالم !

ارتفعت عينـاه الى ظهـرهـا المختلج بالنشيـج . رآه محدودبـاً ناتىء العظمتـين . وكـان صمت مرير . كيف غفل عن هذه التشوهات طوال سبعة أعوام ؟ كيف أحب قصبة عوجاء ورأى أنها العالم ؟

- ٣ -

كنت مثخن النفس بالجـراح . ذلـك الأسبـوع الأسود . لقد حرصت دائـماً على ألا تربطني بأحـد رابطـة على أثـاث موروث . إخوتي ، أقربائي - علاقـات محدودة جداً . جيراني - كذلـك . تقـريبـاً ، ليس هناك غير نازك ، وشحّ من الأصدقاء . ليس لأنه لا توجد علاقات أوروابط ، وإنما لأنه لا توجد علاقـات وروابـط صادقـة ، مشبعـة بالـروح وتشبـع الـروح . وتصـور تلك الغـربـة . أن تمشي قدمـاك نحـو البيت ، وقلبـك يرجع الى الخلف ، لأنك ستدخل هناك وتواجه بشعور غربة كاسح . سألت نفسي ، ما الذي يربط أي إنسان بأي إنسان اطلاقاً ، في هذا العصر الأبتر المجثوث ؟ من قبل ، في عصر العبودية ، كان كل شيء مرتباً ومتفقاً عليه . الغلط غلط ، والصح صح . في عصـر الاقطـاع ، الشيء نفسـه . في عصر الرأسمالية ، العلاقات أيضاً قائمة على أساس . عندما تتخلع يبحثون عن غيرها . لا يصرون على أنها متينة . ولكن نحن - الـذين خارج العصـور . ما هي أسس علاقـاتنـا ونحن خارج الـرأسـمالية وخـارج الاشتراكية ، وتنوس بين بقايا ومخلفات العصور ؟ علاقة الانسـان بالانسـان ، والانسـان بالمجتمـع ، وبـالـوطن . من الـذي يملك الوطن ؟ الذي لا بيت له فيه ؟ أو جارود وأبو خليل ؟ أو أناس مجهولون لا نعرفهم ؟

كنا نستيقظ في الصباح الباكر ، ليذهب بعدها كل منا الى مركز الامتحانات المعين له . لا « صباح الخير » . لا كلمة . مرت هي من هنا ؛ أمر أنا من هناك ـ ونحن نقوم بضرورات الصباح . كأننا في فندق ، وبسبب الزحمة اضطررنا الى هذا الوضع . نازك تتحرك وكأنها تمشي في نومها . لا ترى شيئاً . أنا أيضاً لم أرها . كانت شكلاً ، لا غير . بعد ذلك المساء الجاهلي الذي زلزل أوصال علاقتنا ، صار مستحيلاً أن نستعيد رواءها الأولى أو نعيش كأن الزلزال لم يقع .

ذلك الأسبوع الأسود . لعله تأجل عاماً كاملاً . كان يجب ان تنهض الأزمة منذ زيارة أبو خليل الأولى . لم تحدث . لكنها تجمعت وتكاثفت حتى هذا الأسبوع الأسود . يتحدثون في العلوم عن حالة انعدام الوزن . لكن احداً لم يبحث هذه الظاهرة في علم العلاقات الانسانية . ليس فقط الصمت الفيزيائي وانعدام الحركة . بل صمت النفوس النهائي . انعدام حركة الشعور . انعدام الشخصية .

وأنا كنت أراقب نفسي . دخلت داخلها لأعرف . ما هي أعمق نقطة في الشعور بالنسبة للآخرين ـ نازك بالطبع . لاشيء : لا حب ؛ لا كراهية ؛ لا شفقة ؛ لا ندم ؛ لا غضب . جليد . جليد على مساحة سنة ضوئية . والعقل أيضاً عطالة تامة . لا فهم ولا تفاهم . لا محاولة للخروج من الأزمة .

بعدها تغير ملمح في سيماء نازك . نظرة خاطفة تستطلع . دونما كلام . ثم انصراف تام الى شأنها الخاص . كأن النظرة لم تكن . وفي المساء نظرة أخرى باهتة ، وزفير ساخر يخرج من المنخرين . عندما يسقط في يدك كن ساخراً ، محل العمى الخلوي حلت قسوة عقلية شعورية . هي تدرك الآن ان الحق معي . أعرفها أنا . أصلب من الصخر وقت يكون الحق معها .

صاح صوت من الخارج : « أستاذ علوان ! بودنا نشرب فنجان قهوة عندك ، أخي . »

دخل الدكتور جارود دون أن ينتظر الدعوة التقليدية ، ومشى إلى غرفة الضيوف . وقف وظل صامتاً . رفض الجلوس بابتسار وحزم وأدب . انتظر بصبر واضح توقف علوان عن ترحيباته المألوفة . ثم اضطر الى الكلام حين هتف علوان : « أنت نفسك طلبت القهوة قبل دخولك . » قال : « هذا لأشعرك بروح الوفاق والجيرة . ليس لأني فعلاً أريدها . الآن ، فتشت عن بيت ؟ قل لي بالضبط متى تسلمني مفتاح القبو ليكون بيننا موعد قاطع . والسبعون ألفاً جاهزة . »

نظر إليه علوان بعينين هادئتين كتيمتين . رآه راسخاً وجارفاً في وقت واحد . لم يكن في نيته أن ينجرف بذلك الغيظ السكّيني الذي ينتاب برجوازياً صغيراً مثله يقف أمام متسلق نسي وضاعة أصله مثل الدكتور جارود . وجد نفسه يبتسم ، يرخي وركه متمهلاً ويقول بنبرة راسخة وجارفة : « خمسة وسبعون ألفاً يادكتور . » وكان مستعداً في تلك اللحظة أن يبدأ مباراة ملاكمة .

قال الدكتور مندهشاً ولكن غير مرتبك : « خمسة وسبعون ؟ أبوخليل قال سبعون . »

« لا . خمسة وسبعون . »

« ماش الحال . خمسة وسبعون ، أخي . كما تريد . خمسة آلاف لا تقدم ولا تؤخر . » وهكذا استعاد هدوءه الراسخ الجارف . « الآن ، قل لي . في أي وم يكون القبو فارغاً ؟ المبلغ جاهز ويصلك فور الفروغ . »

لم يكن علوان متهيئاً لهذه السرعة الحاسمة : « هل ستقطع الصنوبرات ؟ »

« كيف أقطع الصنوبرات ! كل واحدة غرامتها خمسة آلاف ، وفوقها شهر توقيف . »

« ولكن ، كيف ستحفر وتوسع القبو ؟ »

« هذه مسألة ثانية ، أخي ، الآن ليس وقتها . قل لي ، أسبوع ، مليح ؟ »

« بودي سلفة لأدفع فروغية بيت ثان . »

« مني أنا ؟ متأسف . ولا فرنك قبل أن تسلمني المفتاح . »

« يمكن أن تصل الفروغية الى عشرين ألفاً . »

« ألم تدخل في مشروع من مشاريع السكن الكثيرة في البلد ؟ كل الناس دخلت . »

« كل مشروع يبدأ بدفعة كبيرة فوق طاقتي . »

« هذه مشكلتك ، أستاذ علوان . خلنا في الأمور الجوهرية . ماذا قلت ؟ »

« قالت انا بحاجة الى سلفة . . »

« استدن ، من قريب ، أو صديق ، كلها يومان أو ثلاثة وترد الدين . »

« متهيء لي أنك ضعيف الثقة بالناس . »

نظر الدكتور جارود الى ساعته : « ما موضوع ثقة ، أخي . الثقة شغلة الأقوام البدائية . في عصرنا تتم المعاملات بالعقود . ليكون كل شيء بيّنا . والعقد شريعة المتعاقدين . »

« لكن أنت تطلب مني أن أتعامل معك بثقة . بينما ترفض أن تعاملني بنفس الطريقة . »

« أنت تقدر أن ترفض كل مالا يعجبك . »

ديمقراطية رائعة . ماذا يقصد ابن الموطوءة هذا؟ أليس عجيباً ان فؤاد بك زوجه ابنته ؟

« وإذا رفضت إلا أن آخذ سلفة ؟ »

« لا يكون بيننا عقد . لكن أنت انسان عاقل . مستحيل أن تفركش صفقة مربحة لجميع أطرافها بقرار عصبي .. وعفواً منك . أنا مستعجل ، وجئت على أساس كلمة ورد غطاها . ستلاقي كثيرين يسعفونك بمبلغ صغير كهذا لمدةأسبوع . »

« طيب ، واذا أخليت القبو ، ولم تدفع ليأنت . »

«كيف ! ها هو الشيك جاهز ، هه . »

تناول من جيبه دفتراً ، وانتزع منه ورقة تبين لعلوان خلال ثانيتين أنها شيك . لقد استعد سلفاً .

« والشيك يظل معك أنت ـ حتى أعطيك المفتاح . »

لم يجب الدكتور جارود ، راح يملأ الشيك أرقاماً وكلمات ، ثم وقعه ولوّح به أمام عيني علوان .

« أقرأ . هذه خمسة وسبعون ألفاً . خمسة زيادة مثلما طلبت . »

« لكن الشيك سيبقى معك . »

« ياأستاذ ، معقول أعطيك شيك بخمسة وسبعين ألفاً ، وافتح فمي للهواء ؟ فرضاً لم تخل القبو أنت ، تريد أن تبلوني بالمحاكم ؟ »

« ما الذي يضمن لي انك ستعطيني الشيك ؟ أنت بهذا الحذر وانعدام الثقة تخليني مصراً على موقف مماثل . »

« أخي ، مبيّن أنك لا تعرفني ، أنا لي اسم في هذا المجال . اسأل عني في المقهى العقاري ، على الأقل . أنت في سوق المال والمشاريع الانهائية ، لا اسم لك . هناك ، إذا قال الرجل كلمة أعطى سنداً . لأن الذي يخل بكلمته يخسر مالاً ، لا سمعة وبس ، خارج هذا السوق لا توجد معايير حاسمة للصدق والكذب ، وأنا ، في مجال المعاملات المالية ، اسمي له قوة العقد والسند . لا تؤاخذني ، أنا لا أخرب أسمي لابلع عليك خمسة وسبعين ألفاً . اسمي يساوي ملايين . فارجوك ، لا تضيع وقتي . »

« متأسف . أنا بودي ضمانة ، مثلما أنت بودك ضمانة . »

« تحب أن نضع الشيك أمانة عند جارنا السمان ؟ بعد سبعة أيام ، يسلمني المفتاح ، أسلمه الشيك . »

« وهو كذلك . يسلمني الشيك ويسلمك المفتاح . »

طبعاً كانت هناك أسئلة كثيرة ينبغي ان أسألها ، تتعلق برصيده الحقيقي ، وأصلية الشيك ، وتاريخ استحقاقه . وطبعا كان ذهني مشغولاً بنوع آخر من الاسئلة . سؤال واحد رن في رأسي أكثر من غيره : هل تجمعني مع الدكتور جارود طبيعة بشرية واحدة ؟

كانت نازك قد تحركت في الغرفة مثل الخيال . وجه معافى وابتسامة ظليلة . وعندما انسحب ، كانت في غرفة النوم .

رأيتها واقفة وساعداها متمددان على رخامة الشباك . لم تتحرك عندما دخلت . كانت قاعدة الشباك تزيد عن ثمانين سنتمتراً عرضاً ، لأن فؤاد بك أصر على جدران سميكة . لصق مرفقها الأيمن فنجان القهوة وصحفته . وعيناها شاردتان . شاردتان الى درجة لا تصدق . وشاردتان أين ؟ عبر الزجاج المعشّق الكتيم الذي فصل عنها العالم الخارجي . كانت واقفة وقفة قوية لا استجداء فيها . مسترخية على ساق . كتفاها نفرا قليلاً إلى الأعلى ، فبدا ظهرها منساباً كمرج مستطيل ، يضيق قليلاً في الأسفل ثم يغيب في رابية صغيرة . هبطت عيناي على فستانها المنسدل حولها ، وساقيها الرشيقتين الملساوين .

قلت لنفسي كيف لامرىء ألا ينطق بالشعر أو يخفق به أمام هكذا منظر . ومرة أخرى دخلت في داخلي لأرى ماذا هناك ، فارتطمت بشحنة جائشة من المشاعر المحتشدة في شوارع شقتها آنئذ سرحة قوامها المنساب .

اقترب منها بخطوات بطيئة متقطعة . لم تلتفت . لم يختلج قوامها . ازدادت خطواته ثقلاً . كأن يداً تمتد كل لحظتين وتدفعه الى أمام . يكفي ، سبعة أيام . وحملق إليها في نصف إطار من ضوء النافذة الأدغم ، ورآها تكبر وتتضح ، وتزداد غموضاً ، وتزداد تفتحاً ، وتملأ عدستي مجهر صارتها عيناه .

كان يقول إنه أحبها ، ليس لكونها جميلة أوشهية ، بل لأنه في عمق قلبه فرح بالعيش معها . وقد رآها الأن مرساته الوحيدة في بحر سيطر عليه الغضب والتجارة . لكن نفسه التي تفتحت بطلائع الرغبة ظلت مغلولة بفلول الغضب . وإذ مشى نحوها خطوته الأخيرة ، التي يجب ان يعقبها احتواء يديه

لقـامتهـا الفارعة ، توقف دون ايقاعات الصدق التلقائية العارمة التي تدافعت بين قلبه وعينيه .

في تلك اللحظـة اطـرقت عينـاهـا . عرف أنها كانت تنتظر . عرف أنه صار أقـوى من كبر يـائهـا . ضعفت فاحتمى بكـبر يـائـه . قويت هي بوجـه الكـبر ياء ، وضعف هو . صار أقوى بكبر يائه ، وصارت أضعف بصدقها . وتقـدم خطـوتـه بعد الأخيرة . وصارت هي أضعف فأضعف ، وهو يقوى ، يقـوى حتى ليمـد ذراعيه ويختطفها عن الأرض . أضعف حتى لتلف ذراعيها على ظهـره وعنقـه . أقـوى حتى ليـوشـك أن يحطم صدرهـا برأسـه الهـابـط كالصخـرة . أضعف حتى أنهـا جعلتـه يركع على الأرض ويتنفس في صدرها كطفل منهور أغرق وجهه في الأعشاب .

هذه الانـدفـاعات الرائعة التي يطفر بها الجسد بوجه العالم ! صدقني انه مثلما تثور الشعوب على قامعيها ، يثور الجسد على قامعيه .

واحـدة من تلك الانـدفاعات التي حملته كله ، جسداً ووعياً ومشاعر ، التقت مع أخـرى حملت نازك أيضـاً ، فاعتلتا الفضاء لجة عاتية وأخرجتهما من مكـان الحـزن الـوسيـع الى الفرح الأوسع . وراحت اللحظات تنفجر بزخمها الخـاص ، حتى جاءت لحظـة صارت الثياب فيها جداراً مستحيلاً . وبضربة وضربتين ، تناثرت في سماء الغرفة التي لا سماء لها . وبدأ انسياح من التلمس المستغـرق المتـوغـل ، فكأن البشرة البكماء نهاراً ، الغافية ليلاً ، راحت تبكي من أعين خلاياها حتى شرقت بالسعادة .

ظلت أيـديهـما تجتاح وترتاح ، وشفاههما تضرم حرائق ، حتى تكثف في الاحساس الفريد ، العصي الكنه ، الناشب بأقصى مرادته وشدته . أرادا أن يكتشفـا انهـما مازالا قادرين على الاحتفال بجسد الحياة ، وأن الاعصار الذي

هب لم يفعل شيئاً في حياتها المؤسسة على الحرية . كل حركة أترعها حس حي ، حار : إن ملامحها لم تتشقق . هب عليها دالجاً والجاً ، أبوابه مشرعة لكي تتغلغل هي وتلحم فيزياءها بفيزيائه ، ليهاجر شعور كدّر حياتها وأقلقها طيلة نيف وعام . رآها جميلة ـ معافاة ، ناسية ، غافرة ، حرة الجسد ، طليقة الاعضاء والنفس ، فرحة الحب ، أثيرية وتجعله أثيرياً ، توشك ان ترمح على ذروتها ولكن بلا أنانية ، فانية وموجودة ، أماً كالأرض وابنة كالثمرة .

على تلك الذروة المارجة دخل سؤال كالسهم في وعي علوان . همس : « في أي يوم أنت ؟ » لم تجبه . شدت ذراعها على ظهره وأمسكت لسانه بشفتيها . لم يشأ أن يهشم لحظاتها . لكن ذعراً أربد اخترقه : صمتها يعني أنه يوم اخصاب . بلا زمن ، تصور جنيناً يضطران الى اجهاضه . وراحت نازك تتأوه وتشهق . تطلبه . لقد أحبت قدرته على ايصالها قبل أن يصل هو . وصار معشار الثانية هاماً وخطراً . هو لا يريد إجهاضاً . سمح بمعشارين ، وثلاثة . بعدد من الثواني ، تربص يحصي بعقله ويحرك جسده . وأحس من طول شهقتها ونبرتها أن الوقت قد حان ، فخرج .

هبط عن ذروته المنبترة ، وانكب على نازك بسبعين كيلوغراماً من الوزن البشري الثقيل . كان الجسد كله متوهجاً . وفاض . لكنه كان في الخارج . شد على جسدها ليدخل ـ ولكن عبر مدخل آخر مستحيل سوى ممر الحرير . غير أن الذروة انخسفت . انساحت الجنّة . تمددّت غارت . سكوت . لا حراك في الغرفة في الخارج سيارات وأطفال يتعاركون وضوضاء غامضة .

نحن كما ترى لسنا شخصيات في رواية أومسلسل تلفزيوني . الواحد هناك تكون موازينه مائلة شوية . إما طيب بزيادة ، متردد بزيادة ، طموح بزيادة ، غيور ، أناني ، راضخ ، شرير ، مثالي . وبسبب هذه الزيادة تنشأ

المشاكل . مثلما عند شيكسبير . نحن لسنا هكذا . نحن نعرف دوافعنا . لا نسمح بالزيادة ولا بالنقصان . وإلا ما جدوى الوعي ، بالنفس وبالعالم ؟ لذلك يجب ألا تحدث بيننا مشاكل . لأنها اذا حدثت يكون الغلط خطيراً فعلاً . يكون صراع ، ومأساة أكبر من فردية .

في غرفة الضيوف رأيتها تبكي ، وأنا أهم بتقديم فنجان القهوة لها . هذه الدمعة ، في الأحوال العادية أصعب نزولاً من نزول الرؤساء عن عروشهم . تخرم عقلي بالدهشة والبؤس . أدركت أنها تبكي لأني ضربتها . ورأيت أني يمكنني تفسير فعلتي دونما هياج أو غضب . قلت إني معتاد أن يكون كل شيء عندي قاطعاً . إذا احتقرت أحداً ، يعني احتقرته . ليس أني أحتقره في حين وأتعامل معه باحترام في حين ثان ، الشيء نفسه بالنسبة للحب والثقة ، وكل تعامل في مجتمعنا المتفكك . قلت إننا نستمد احترامنا لأنفسنا من سلوكنا اليومي ، وتعاملنا مع الناس ، لا من أسطورة صنعناها عن أنفسنا ، ولا من موروث صار الآن شعاراً لكل شيء قذر ومشين . « أنا لا أريد أن ألجأ أو أضطر الى سلوك احتقره اخلاقياً . »

قالت : « مادمت مؤمناً بالعدل وترفض الحرام والاستغلال ، فماذا يضيرك أن تكون مساوماً بارعاً ؟ »

« هذا هو المنطق الذي أودى بتطلعات البشرية نحو الأجمل ، وبثوراتها . كل مساومة تعني تنازلاً . تراجعاً . »

« بالعكس . ألم يساوم لينين ابداً ؟ عمرها المثاليات لم تحقق ثورة بسيفها هي . شف أبو ذر الغفاري . ماذا طلع منه ؟ »

« ظلت شعرة معاوية أقوى من سيفه . لكن أنا غير أبو ذر . أنا شخص عادي . القادة ، إذا حلّوا البراغي شوية ، لا بأس عليهم . هيغل يقول ، الضرورة التاريخية تجبرهم على اقتراف الشر ليحققوا التقدم لشعوبهم . هذا مفهوم ومقبول . إذا كانوا بمستوى لينين ، طبعاً . لكن اذا انحلت البراغي

عند الشخص العادي ، لا يعود مفكّ قادراً على شدها . الشعب كله ينهار . »

«أنت شخص عادي ؟ »

« نعم . رغم أساطيري الشخصية . »

« لكن أنت مؤمن بالعدل والحرية . لا تقبل السرقة ولا الاستغلال ، ولا العنف ! »

« أي شيء يضمنني تجاه نفسي ؟ »

« علوان ! انت رجل صاف ، ومستحيل ان تنحرف . »

« حتى بعد تجربتي مع أبو خليل والدكتور حمد ؟ من يبقى صافياً ومستقيماً في عصرهما ؟ »

« نحن ! نازك وعلوان . ولو مالك هكذا ؟ نسيت أنه عندنا وعي حر ؟ وأننا في طريقنا الى بيتنا الاشتراكي ؟ »

- ٤ -

في اليوم الأول قصدت مناطق السكن التي عرفتها وأنا بعد طالب في الجامعة . مادام الأمر موقتاً ، قلت لنفسي ، يمكننا أن نلجأ الى غرفة ومنتفعاتها ، مثل أيام زمان ، ريثما يمضي هذان الشهران ونعطى شقتنا . وسيتم كل شيء بهدوء ، ولن يكتشف جارود أننا خوزقناه .

هناك اكتشفت أني بت غريباً عن مدينة ولدت وعشت فيها . جميع المساكن صارت متاجر . جدران لا عدّ لها ، ثقبت لتنشأ فيها أبواب تحول

ماوراءها الى دكاكين . وفوق ذلك الحفريات في الأرصفة ، والأتربة والسيارات عليها . وبالطبع لم تبق غرفة للايجار . رأيتني غريباً عن ذلك العهد الذهبي من حياتي . صحيح أني ولدت في بيت بالايجار . وكبرت وحياتي كلها إيجار بإيجار . لكني لم أشعر بالغربة أبداً ، حتى ذلك اليوم .

في اليوم الثاني رجت الى مناطق العمران الجديدة . عندها أحسست اني كنت مسافراً خارج البلد سنوات عديدة . من قبل كانت المدينة مدينة فؤاد بك . وكنا نخرج من حارتنا الى أحيائها الجديدة، ونعرفها بيت بيت . مررت الآن من هناك ؛ ويا للعجب . صحيح أنا لم أكن أتفحص البنايات الجديدة ، لكنها دون أن أدري أنستني كل شيء قبلها . كأنها كلما مررت قربها ونظرت إليها ، كانت تمسح شيئاً من منقوشات الذاكرة . ومرة بعد مرة ، شهراً وراء شهر وسنة بعد سنة ، حلت نقوش جديدة محل القديمة ، دون أن أدري . لقد صعب علي أن أتذكر مكاناً أفرح به من تلك الحارات العتيقة . وحارتي نفسها ، صارت أثراً بعد عين .

في اليوم الثالث بحثت في الأحياء التي ليست قديمة ولا جديدة . فتلت في الحواري ، وطرقت جميع الأبواب . يومين كاملين . أفضل الردود كانت تلك التي خلت من السخرية وابتسامات الاستغراب . وقلت لنفسي لقد مضى عهد فؤاد بك فعلاً .

وجدت نفسي في قلب المدينة . لمن هذه البنايات الضخمة المروعة ؟ هذه الأبراج البابلية ؟ لا أحد ممن يلطمونني بكثافة وجودهم يمتلك شيئاً من تلك السوامق . هناك شيء كنت دائماً أستغربه ، هو ضخامة الآثار . الأهرامات . المعابد البوذية . الكوليزيوم . جامع قرطبة . قلعة حلب . كنيسة نوتردام . البيت الأبيض . وهذه البنايات . ليس صحيحاً أن وراء تلك الضخامة مرامي جمالية ، أو نوايا تعبدية ، أو أسباباً تتعلق بالعيش .

أعتقد ان السبب الوحيد هو إرهاب الناس . الضخامة رمز للسلطة . ولازم ان يحس واحد مثلي ، والناس كلهم ، أنهم ضئيلون كحجم وقوة إزاء هذه التنانين العظيمة .

في اليوم الخامس كانت نازك على الطرف المعاكس . عندما قلت لها إنني لم أعثر على شيء ، أكفهر وجهها وخبت حيويتها تماماً . مستحيل ، مستحيل أن تضيع منا فرصة العمر . قلت لها وأنا أرتمي على الكنبة المصأصئة : « الله سبحانه وتعالى خلق أشياء كثيرة لا تحصى في ستة أيام ، لكن البيوت لم تكن من بينها . »

بعد غلي القهوة ، جلسنا في غرفة الضيوف وكل منا يحمل فنجانه .

قالت : « علوان . قصدي ، لو ننزل في بيت أختك هذين الشهرين . سندفع لها . »

قلت : « كنت أفكر ، لو نقدر نتحمل عقلية أبيك وأمك ، ويتحملوننا ، كنا ننام على الشرفة هذين الشهرين . »

« لا . بيت أختك لا يطاق . أولادها سينامون فوقنا . لكن بيت أخيك معقول . فيه صالون . . »

« ستة أمتار مربعة في هواء الليل الصيفي العليل . وفوقنا ناموسية ، سنشتريها من أموال الفروغية . ونأكل الغداء في المطاعم . . . »

« . . بس المصيبة في زوجته . مسمّة ، وكل مادق الكوز بالجرة تلسع لسعة . . »

« سيعتبرنا أبوك مجنونين ، أو متقصدين فضحه وشرشحته بين الأكابر . »

« أنا مستعدة أتحملها . »

« مستحيل . ستصيبه نوبة قلبية . »

« مستحيل . المكان الضيق ؛ لا بأس . القلب الضيق ؛ مستحيل . »

في اليوم السادس ، والوقت عصر ، وجد علوان نفسه في مكان غريب . كان حمض اللبن قد حقن عروق ساقيه بالتعب . ودونما انتباه انعطف باتجاه مؤخرة أحد المباني الشاهقة ليستظل بفيئها الكثيف المديد ، ويبول هناك . أمامه شاهد ساحة خلفية للسيارات ، سوّرتها من اليسار المباني ومن اليمين جدار طيني شبه دائري . وخمن ان بوسعه الجلوس على مقدمة إحدى ابل العصر الحديث . وهكذا اضطر للمشي في معبر ضيق ومستقيم كالصراط . بصورة أدق ، اضطرت قدمه اليمنى أن تمشي على تراب أغبر ، وقدمه اليسرى على ما بقي من مساحة اسمنتية ملأتها أدوات العمران والغائط وأكياس القمامة . كان المعبر محصوراً بين المبنى الاسمنتي وكتلة ترابية خلفها هدم الأبنية القديمة .

التفت علوان يمينا ، ورأى في الكتلة الترابية درجاً من الحجارة يعلو عن أفق عينيه . هذه حارة قديمة ، قال لنفسه ، هجم العمران الحديث على بدايتها والباقي ينتظر .

في تلك اللحظة بالذات ، فيما هو يهم برفع قدمه اليمنى عن التراب الأغبر ، خطر له ذلك الخاطر الذي لم يتسم في بدايته بأية خطورة أو دلالة ، الذي افتتح تجربة ظنّها لوقت طويل قدراً ثم عرف أنها عكس ذلك : ربما كان في هذه الحارة منزل ينتظر أن يأتي هو ويسكنه ، مرصود باسمه على نحو شبيه بملحمة سيف بن ذي يزن .

كان توقفه في المعبر الضيق خاطفاً . صعد الدرجات الاثنتي عشرة ، وانفتح أمامه زقاق . تقدم بين صفين من الجدران الطينية القبيحة وحشد من الفتية الواقفين أو القائلين على الأرض . لم يدر حقاً الى أين يمضي . ولوهلة نسي لماذا . اقترب من الفتية واضطر الى التنحي يميناً كيما يتابع مشيته . في سكونهم الرخو ، وفي أعينهم المسلطة عليه كذاك القيظ ، أحس بمزيج مقلق من العدائية والبدائية . مذ برز رأسه فوق صعيد الدرج ، سربلوه بنظراتهم . وأوشكت رهبته ان تتضاعف عندما نظر أمامه متجنباً الفتيان ورأى زقاقاً طويلاً يغور في قلب حي شعبي يعرفه هو منذ الطفولة .

طرد هواجسه الخرقاء بسرعة . تابع المسير . هؤلاء صبية أتعبهم حر الدار والنهار فخرجوا يلتمسون برودة الزقاق . وسرعان ما نسي كل شيء عنهم . بعد خطوات قليلة صار أقرب الى مشهد تغلغلت تأثيراته في نفسه بسرعة غير عادية . كان الزقاق قد بدأ يضيق . وفي النقطة الأضيق نفرت غرفة من لجانب الأيسر فخيمت على الزقاق وأوشكت ان تلامس الجدار على الجانب المقابل .

في البداية ظنها صورة ضخمة لها إطار خشبي قديم . كانت بكل بساطة خارقة التأثير ، غريبة الجمال . لا شك أن شيئاً مثل هذا لا يراه المرء في العمر مرتين . كأن في العين والتقاطيع كثافات عصور وخلاصات من المواد الحية في الطبيعة ، استحالت بفعل كيمياء خاصة الى صبوات ودعوات .

مرت لحظات وهو يغتبط في دهشته . تأمل اللوحة باستغراق وإعجاب . وكان للجسم ذلك الجمال الخارق الذي لا يوصف ، والتناسق المطلق الذي لا خلل فيه .

لطمت قدم علوان بحجر ناتىء ، ولولا بطء خطوته لوقع . لفحته من

الخلف ضحكات الفتيان الصاخبة . التفت محنقاً ولكن مستطلعاً . توقف الضحك . كان كل اثنين منهم يتبادلان النظر والابتسام . أدار ظهره ومد قدمه متفادياً تعثراً ثانياً بالحجر . افترت شفتا المرأة وابتسم وجهها بأكمله . غير معقول ! هذه امرأة من لحم ودم جالسة وراء شباك ! تعالت الضحكات من جديد . ووضع قدمه ببطء على الأرض . بات كل شيء واضحاً . وهذه الابتسامة الرجيمة على الشفتين الشفقيتين . رعاع يحاصرونه بضحكات السعادين ، وامرأة تلطمه بابتسامة . ولكن كيف توجد امرأة كهذه في حارة كهذه ؟

الى يساره شاهد مدخلاً أغرب من كلا المرأة والفتيان . كان مدخلاً الى بيت تقليدي ولكن لا باب له . استدار نحوه كمن يفر من سماء توشك أن تطبق عليه ، وولجه : بسرعة كافية لأن يهرب ، وبطء كاف لأن لا يبدو هارباً .

ممر عاتم في رابعة النهار . جدران ثخينة . شيء من البرودة . في الطرف الداخلي منعطف حافل بالضوء . في صدره باب مغلق لغرفة .

ولكن كيف توجد امرأة كهذه في حارة كهذه ؟

وطور سينين وهذا البلد الأمين . حتى تقاطيعها غابت عن عيني . لكنها جميلة . بلا عمر . يمكن لمصور أن يظهرها ابنة الخامسة عشرة ، ولآخر ابنة الخامسة والاربعين . جمال عدواني ، مستبيح . سمرني ، ثم لطمني . أهانني أنني ظننتها صورة ، بينما هي مخلوقة تسعى . أيعقل أن أصل الى هذه الغفلة ! في لحظة واحدة نسيت زماناً في بؤرة عين ونسيت المكان . كانت لحظة أعماق ساحت فصارت لحظة آفاق .

كان قليل من العزم كافياً لأن يدفعه الى دخول الدار . وكان كل شيء

هنـاك مألـوفـاً . البحـرة المنـوفـرة ، الغـرف على الجـوانب الثلاثة ، والدرج الخشبي الصـاعـد الى الطـابق الثـاني ، والأرض المبلطـة بالأسـود والـرمادي والقـرميـدي . شيء واحـد فقـط كان غير مألـوف : المكـان مهجـور : عاينه جيداً : لا ناس ولا أثاث . وشيء آخر : هو نفسه : انه الآن حجم ضئيل في بنيـة سكنيـة ضخمـة . هز رأسـه ساخـرا من الـوضـع الـلامعقول كله : دار مهجـورة ، امـرأة لوحـة ، ورعاع في زقاق . شيء أشبه بأخيولة ولكن لا دلالة لها . حلم رديء ، لو رواه لنازك لما صدقت .

لم يشأ العـودة السـريعـة الى الزقاق . تجول في الباحة . أحس أن فراغ الـدار مريـح له شخصيـاً ، وأنـه الآن مالىء هذا الفـراغ بوجـوده وحـركاته . اكتشف ان الماء والكهرباء مقطوعان ، أن الشبابيك والأبواب في حالة لا بأس بها . وخلال لحظات نسي الفتيان والمرأة ، ونفسه أيضاً .

قالت نازك : « وكـل هذا الـوقت ، ولم يخطـر لخيـالك الواسع ان الدار يمكن أن تكون فردوسنا المفقود ؟ »

كان يوشـك على الـوصـول الى هذا الخـاطر . عندما وضع قدمه على أول درجـة تصعـد الى الطـابق الثاني ، أيقن على نحوما أنه متبوع . وأحس كأنـه في جو سحـري أسطـوري لم تعد له علاقة بالواقع . اذا كان صحيحاً انه متبوع ، فهذا بلا أدنى شك كابوس .

التفت وشـاهـدهـا . بالتأكيد . إنها هي ذلك الشبح الذي مشى وراءه ومـا زال مذ ترك الممـر العـاتم ودخل باحة الدار . وقفت بما بقي لها من قوام ، ملمـومـة اليـدين المعـروقتـين على البطن الأجـوف ، ملمـومة الشفتين داخل الفكين الأجوفين ، وعيناها المتوفتان تدفدفان بلا انقطاع .

أيقن أنها خرجت للتو من قمقم يماني . نظر إليها ، ولم تستطع أية كلمة

أن تصل الى فمه . رغم زجاجيتها ، وقفت راسخة ثابتة الجنان . بادلته عيناً بعين ، وصمتاً بصمت . رنت إليه منتظرة ان يتكلم لترد عليه . وتأملها منتظراً أن تستطيل أذناها فوق رأسها .

مد يداً كليلة الى جيبه وأخرج ليرة معدنية ، تابعت حركته بترقب بارد . أدرك عدم اكتراثها . لكنه كان قد لوح بالليرة .

« بودك شيء ياخالة ؟ » .

« أنت بودك شيء يابني ؟ »

صمتا . رغم الكلام لم يتقاربا .

« أنت ، من أين جئت ؟ »

« أنت من أين جئت ؟ »

أعوذ بالله ، قال لنفسه . كلما لفظ كلاماً ببّغته بعده . إنها ولا شك جنية هذا البلقع المهجور .

بحزن مفاجىء أرخى جسده المشدود وجلس على الدرج . وأرخت هي يديها . خبّت نحو باب لاحظ الآن أنه مفتوح ، وغابت داخله . وران صمت حزين انعقد فوق رأسه . حقاً ان زمام وعيه قد أفلت منه .

عادت المرأة تحمل كرسياً صغيراً وقدمته له : « اقعد يابني ؛ ليتوسخ بنطلونك . »

لم يكن بالغ الاكتراث ببنطاله . لكنه نهض وجلس على الكرسي .

قالت نازك : « أنا لا أفهم كيف لفلفت مشوارك بهذه الملاءة الاسطورية . واضح انها امرأة غلبانة . »

قال علوان : « لكي تعرفي ـ المستويات المتعددة لوعينا بالعالم . أحياناً يمكن ان نرجع الى أنماط بدائية في التعامل ، ظننا اننا خلصنا منها . القصة وما فيها أني ومن عند البنايات الحديثة وحتى اجتماعي بأم يسير ، كنت تعبان . وإذا ضعفت فاعلية العقل نشطت فاعلية الخرافة . »

قالت نازك بترفع مقصود ، وهي تضع ساقاً على ساق : « ثبت نهائياً أنك من فلذات العالم الثالث . »

لم يكن في الدار سر ولا سحر . فالحي ، كما أخبرته أم يسير ، جزء من مخطط عمراني هدفه تحديث المدينة وتجميلها . وهذه الدار غادرها ساكنوها قبل الأوان ، ليس لأنهم ظعنوا ، بل لأن الدولة باعت لكل عائلة نصف بيت في منطقة سكنية جديدة . هذه الدار قبل غيرها ، لأن ساكن الطابق الثاني ، كالعادة ، مهم ويعرف أناساً مهمين ، حكوا له في البلدية وتم الأمر . بقية الدور ؟ يعلم الله . سنة ، سنتين ، يعلم الله . عندما يحين وقت الهدم . ومع الأسف لم يغتنم الفرصة أحد : الكل يعرف إنها سكنى موقتة ، ولا أحد يغامر . الناس لا تحب الشغلات الموقتة .

« وأنت يا خالة ، لماذا لم تعملي مثلهم ، وتأخذي نصف بيت ؟ »

« نص بيت ياابني . وعائلة ثانية النص الثاني . »

« ما فيها شيء . يكونون مثل أولادك . عندك أولاد ؟ »

« هالصبي . »

« حفيدك ؟ »

« ابني . »

« وما له ؟ بيت صحي . كهرباء وماء . لماذا بقيت هنا ؟ »

« ياابني ، أنا وها لولد ، عقلنا ما مدوزن الا على هالدار . »

« لكن الدار سيلحقها الهدم . والله واجعني قلبي عليك . »

وإذا صمتت ، تأمل هو الدار وطابقها الثاني . صعد وتفقد المكان كله . وعندما هبط كان يقول لنفسه : مثلي من يرحب بهذه الاقامة الموقتة .

[بطاقة : أم يسير :

تحققت أماني حياتها وهي بعد في الثالثة عشرة ، عندما تزوجت في هذه الدار نفسها : فتاة تعلو الأبصار لكي تراها . ولأنها كانت أجمل َمن أن تتملاها الأعين حملها زوجها الى بيت صغير لا جيران فيه . بعد صبي وبنت ، مات . في السادسة عشرة تحققت أماني حياتها مرة ثانية . بعد ثلاث بنات ، توفي أبوهن . في العشرين حدث لها الزواج الثالث . بعد عشر سنوات تأكد الزوج أن خصوبتها المدهشة متخصصة بإنجاب البنات فقط ، وليس الرجال . طلقها . بعد عامين حدث لها الزواج الرابع . كانت تزداد جمالاً ، لكن داء خصوبتها ظل بلا دواء . في الثامنة والثلاثين طلقت مرة ثانية . في الأربعين حدث لها الزواج الخامس . هذه المرة لم تأتها حتى البنات . وأيقن زوجها انها اصبحت عاقراً . بعد أن طلقها بسبعة أشهر ، وكانت في الخامسة والأربعين ، ولدت بنتاً أخرى وأرسلتها له . كانت ماتزال جميلة ورشيقة ، سوى اثنتين اوثلاث من بصمات العمر . بعد ثلاثة أشهر تزوجت للمرة السادسة ، وظلت أماني حياتها متحققة حتى الستين ، مع ثلاث بنات أخريات .

بين الزواج والزواج كانت زيجات غير مكتوبة . وربما في الزواج نفسه . على كل حال ، كان الحديث عنها كافياً لأن تقرر بناتها هجرها ، ولأن يصاب ابنها بداء عضال قيل انه نوع من الاحتجاج المقهور على سيرتها . في الخمسين بدأت تضمحل . انتابتها ثلاث حالات من الوحام الكاذب خلال خمس سنوات . وازدادت اضمحلالاً .

بعد وفاة السادس التحقت بابنها الذي حظر عليها الزواج ، وقامت على خدمته . ومنذ ذلك اليوم وصوت في داخلها يهتف ان أماني حياتها لم تتحقق . وقد ازدادت اضمحلالاً . ترى ، ولكن بلا أجفان . تأكل ، ولكن بلا أسنان . تمشي وتفكر وتحس ، ولكن بلا بنيان .]

نهض علوان بحيوية : « الأمور واضحة . هذه فرصة جاءتنا من السماء. من ناحية عملية ، ستحل جميع مشاكلنا . من ناحية وجدانية ستكون تجربة رائعة . تصوري ، خلوة في ذلك البيت العريق . بالطابق الثاني . كأننا في جفن الزمن وهو نائم . في رحم الحياة . وخاصة وقت نجلس مع ضوء شمعة ، ونستمع الى ايقاعات المدينة . »

قالت نازك بحزم : « لن أدخل هذا البيت بلا كهرباء . . »

أيقن علوان أنها ستودي بكل رومنتيكية خطرت له وهو يعود أدراجه من هناك.غير أن حيويته لم تهبط . كان واثقاً من حسها السليم وفطرتها الرضية . قال : « سنعيش مع الصفاء والاصالة ، في حي شعبي مئة بالمئة . بائع العرقسوس . وقبضاي الحارة . والسوق . وماء السبيل . بذمتك ، أليست فرصة من السماء ؟ »

قالت بنبرة : « السماء لا تمطر فرصاً ولا سخافات . أنا غير مطمئنة . خاصة هذه المرأة في الشباك . والصبيان الذين أخافوك . وهذه الدار ، قصتها تركيبة . لا تصدق . »

زنخر هو : « وما الذي يصدق في هذا العصر ؟ لا شيء ياعزيزتي ، إلا ما يصنعه الانسان بيديه هاتين . »

ردت هي بهدوء : « معقول أن توجد دار ، تتسع لعشر عائلات .

فاضية هكذا ؟ والناس لاثبة على خم دجاج ! »

نبر علوان بحرارة : « شغلتها موقتة . هذه ستهدم بعد شهرين ثلاثة . هناك من اشترى ترابيتها وسيهدمها بسرعة ليأخذ الخشب والحديد والحجارة ، وغيرها . »

صمتـا ، كان علوان يرتفق فسحة النـافـذة . هنـاك هدأ وقـد استغرقته فكرة طارئة . وسرحت نازك من جديد .

أخـيراً رفعت رأسهـا نحـوه وهي تبتسم : « علوان ! الآن، الآن ، سأقوم وأضب الأغراض . »

ونهضت . نظـر إليهـا بعـدم المـوافقـة : « الـذي قلتـه أنت عن الدار صحيـح . لوكانت صالحـة للسكن مارأيتهـا فارغـة . ولو أنها فرغت من وقت قصير بس . »

«كـلام فاض . ياالله ، ياالله . وإلا شفنـا بكـرة بيـوتهـا مسكونة على آخرها ، وطلعنا من المولد بلا حمص . »

« تأنّ قبل الموافقة . لن أسمع كلمة ندم واحدة ، ها.»

« لي أنـا تقـول هذا الكـلام ؟ عجل قبل ما يسبقنا غيرنا . من ؟ أليس برنـارد شوهو الـذي قال ، لكي تجني من العـالم أجمـل ما فيـه عش في خطـر ؟ الآن ، قم نفك الخزانة والسريرين ، ليكون كل شيء جاهزاً »

« نازك ! »

« المغامرة أولاً ، والخوف ثانياً . أظن أنه ليس برنارد شو . »

[تقرير :

استيقظ يسير وأمه . وفيها لبس ثيابه أعدت هي الشاي ليشربه . تناول

الابريق وتوضأ . صلى . جلس على الكرسي الصغير وتناول كاسة الشاي . شرب . نهض وهو يلفظ اسم الجلالة . غادر الدار الى شغله .

استيقظ أبو حسن ونهض من مرقده المثلثي . لبس بنطاله وقميصه . لف فراشه وأوكاه تحت الدرجات الثلاث الأخيرة من السلم . تناول الابريق واغتسل . هم باقامة الصلاة ، لكن نظرة الى الساعة جعلته يسرع بالخروج الى شغله .

استيقظت أم اللولو على رنين الهاتف . كان رنيناً عذباً أقرب الى صوت الأرغن . نهضت . مدت يدها الى الرداء . انزلق بخفة ورشاقة أفعوية . أخيراً انسدل عليها . تناولت السماعة . كلام بلغة أخرى . أصغت . أعادت المساعة . لم يكن على وجهها الجميل أي تعبير سوى اليقظة . رفعت السماعة . أدارت القرص اثنتي عشرة مرة . بعيدة مهوى القرط .

استيقظت نازك . تفحصت الكرتونات . أطلقت تنهدة ارتياح . تأملت الأكوام الصغيرة المتجانسة لحاجيات بيتها . شمرت عن ساعديها .

في الزقاق ، فتحت أبواب الدكاكين وخرجت مواد العيش والتجارة الى البسطات والواجهات . سوق الخضرة في باب شعوب كان مكتملاً كالعادة قبل ان يعرف أحد كيف . باعة العربات اتخذوا مواقعهم المكتسبة بقوة الساعد والاستمرار . انتظروا رزق الكريم . موفق الكهربائي ، نصوح الكوافور ، مازن الحذاء المودرن ، غازي الدهان ، مفيد سمسار البيوت ، معتز بائع المفاتيح ، أحمد بائع الخردة ، عبد الله الوراق ، بدأوا يوم عمل آخر ، أيضاً منتظرين رزق الكريم .

مع علوان مشى موفق الى دار أم يسير . قال انه فاهم كل شيء ويعرف من أين يسترد الكهرباء . وأضاف : « بودك سرقة مرتبة ، والا كيف ما

كان ؟ » وفي المدخل العاتم ، تسلق سلماً وانصرف الى عمله .

بعـد ساعـة ، هبط وسعى الى حيث علوان وأم يسير يشربان الشاي . انضم اليهما .

كانت أم اللولو ترتدي جلباباً موشى بالقصب ومزركشاً بأسماك ذهبية . في السـوق ، وسـط الحضـور البشـري الـلاغب النـاصب ، تحركت أبعـادها وأعضـاؤ هـا تحت الجلبـاب بحـريـة كاشفـة . سطعت الشمس على وجههـا النضـير وشفتيهـا اليـانعتـين . تغلغلت في شعرها القرميدي . لفحت السوق حرارة غير قائظة ، وتجمهرت في العيون المشاعر . مشاعر أطلقتهااستحالتها . لم يعتقـدأحد للحظـة واحـدة انـه سينال أكثر من ابتسامة رضية ، أو لمسة عابرة لزندها الرعبوب ، أووقفة لماحة أمام قوامها المستفيض الرشيق . ولم يكن ذلك محزناً .

خلال لحظـات كانت أم اللولـو قد انتشـرت على عيـون السوق كقوس قزح في فضاء من الضياء .

تبخـتر الفتيـان في الـزقـاق ببطء وضجر . بين الدرجات الحجرية وآخر دكـان في الـزقـاق ، منطقـة نفـوذ » قال الـرقم واحد : « ام اللولو برّاة السوق ياشبـاب . » باتجـاه الـدكـاكـين تقـدمه الآخرون بطيئين ضجرين . « روحوا تتفـرج كيف يقـرصهـا الخضرية في السوق . » « اخرس انت يازبالة . » فتح المتكلم الأخير سكيناً لمعت رغم ضوء النهار ، وراح يحفر بها الجدار الطيني لدار تواجـه دار أم اللولـو . أشعـل الـرقم أربعـة سيجـارة . توقف الرقم اثنان عن المشي وأطلق ريحـاً . تابع المشي . قال الرقم واحد : « اطو سكينك ياحمار ، ما ناقصنـا شرطـة . » « أين أطـويهـا ؟ » « في قفـاك . » ضحـك ذو السكـين ضحكة صاخبة .

تلكأت زينب في النهوض من مرقدها . كانت الدار صامتة ساكنة . أدركت ان أباها في الخارج . والدار نظيفة وكل شيء في مكانه الصحيح . مع ذلك نهضت . أرادات ان تمشي في الباحة ، مستمتعة بحرية ما في غياب أبيها .]

- ٥ -

قالت نازك : « طالما سائق الشاحنة يعرف الحارة والدار ، ما رأيك لو تسبقه ، وتمسح البيت بالماء والممسحة . أكيد أن الغبار موجود فيه بالكيلو . طالما ان الماء مقطوع عنها . »

ينبغي أن يرتب بيته أولاً . لا يمكن ان يتحقق حلم في بيئة وسخة . ولعل أم يسير تملك جردلين .

في الزقاق رآها للمرة الثانية . كبرق لمع وتأطر وظل ثابتاً لا يتلاشى في تلك النافذة العجيبة . في هذه المرأة عنصر غريب ينسف حس المرء بالواقع والحياة العادية . وعلوان ليس من النوع الذي يخون ارتباطاته بالحياة وعلاقاته . امرأة بلا عمر . بألف ملمح وبلا ملمح . تهيمن بعينيها على المكان ، وقد هيمنت بوجهها على الزمان . ذلك الغموض المستبد . ذلك الجلاء الآسر .

هذه المرة لم يتعثر . بهدوء وبراعة حول عينيه عن محياها الممغنط ، ودلف في المدخل.ألبسه العتم راحة آمنة . والتفت يساراً فأقبل الى الباحة .

كانت خطوته الثالثة في الباحة أطول ما خطاه في حياته . ملء المكان واجه مشهداً جعله ينسى برهة اوبرهتين قدمه الممدودة في الهواء ، ثم ينزلها ببطء سينمائي . نسي المرأة في الخارج ، وتسمر على الأرض مروعاً .

بادىء ذي بدء ، أدرك أنـه لا قبـل له بما يرى . موقف واحـد ينم عن الـرفض سيقـابل منهم بهذا العنف الذي نشروه في الدار كلها . هؤلاء الرعاع الذين التقاهم بالأمس ، وغابوا عن واعيته فكأنهم أبناء دهر سحيق ، انتشروا الآن في الدار كجراد مستطير وجعلوها جثة بين مخالب ذئاب ناهشة . أحدهم استـوى على الـبركـة وراح يقتلع بلاطـاتهـا ويحطمهـا . آخـر ممسـك بإزميل طويـل ، جعـل يحفر جدار الطين ويهيل ترابه على الأرض . ثالث كان ممسكاً بدرفة شباك ، التفت إلى علوان وأطاح بالدرفة على الأرض ، فتناثر في المكان شظـايـا الـزجـاج والخشب والصـوت . رابـع كانت يداه غائبتـين داخل لفافة ضخمـة من أسلاك الكهرباء المقطوعة . خامس حمل بيديه مطرقتين خشبيتين وراح يوقع بهما على باب أم يسير . هو بالذات استأثر بوعي علوان فانتزع من رأسه التفاتة خثرة : كان قرع المطرقتين يتقطع ويتتابع ، فيما سادس يهز ردفيه مع الايقاع .

على الـدرج الخشبي كان الـرقم واحد يهم بالصعود . التفت إذ أحس بقدوم علوان، وتبادل مع سابع يقعي في شباك نظرة غامضة بلا تعابير . فجأة بدا الاثنـان شيخـين طاعنـين في الـزمن ، إن لم يكن في السن ، قديمين كهذه الـدار ، أغـبرين مثـل طينهـا . مد الـرقم واحـد ذراعيـه وبسـط راحتيه على جداري الدرج .

توقفت الحـركـة المسمـوعـة . واحداً بعد واحد التفتوا بحيث واجهوا في النهـايـة علوان . فجأة أيضـاً رأى نفسـه يواجههم ، من اليمين الى اليسار ، بزاويـة انفـراجهـا مئة وثمانون درجة . انتشروا حوله ثابتين كشواهد أضرحة ، كشـاخصـات مرور ضوؤ هـا أحمر . بالتفاتة ، بنصف التفاتة ، وجهاً لوجه ، جعلوه مركزاً لانتباههم دون أن يكون حتى على حافة اهتمامهم .

كان أمـامي الشيء المباشـر : الخراب الـذي ألحقـوه بالدار ، العنف

الـرقـراق المنسـال منهم كماء السبيـل ، الـزجـاج المكسر ، الخشب المقتلع من الاطارات ، الاسلاك المقطعة ، الطين المتجمع كومات هنا وهناك ، الأبواب والشبابيك المخلعة المرمية في الباحة او داخل الغرف . وهم ، كأنهم جن أفلتوا من قماقمهم . وهـذا القـرع المـدوي على باب أم يسير . لو كنت في الداخل لاصابتني نوبة صرع .

أدركت في لحظة تماسك خارقة أن هذا المستوى الجنوني من الواقع يمكن أن يطيح بالمستوى العاقل من وجودي كله اذا استجبت للوحشية التي أيقظوها في أعماقي . لقد بعثت تلك المرأة فيّ حلماً ، أما هم فانهالوا علي بكابوس . أين انسانية هؤلاء ؟ ما الذي أهدرها ؟

البعض يقـول عاقـل ، والبعض يقـول جبـان ، وأنـا لا أكـذب على نفسي : بقـدر ما كنت مشققـاً بالغضب ، كنت خائفـاً . وهـذه هي أصعب لحظـة تواجـه انسـانـاً . الصدام المتلاطم بين اثنين من أعمق ينابيع طبيعته : منتهى الغضب ، ومنتهى الخـوف . الخـوف فقـط ، وفي حده الأعظمي ، أوقف الغضب الذي كان يقتطع جلاميد نفسي . الخوف أوقف سفك الدماء المحتم . لا شك أبداً أنه واحد من أعظم أسس الحضارة .

مئـات الثـواني تجرجـرت ، عبرت بالصمت المنيـخ ومضت . كذلـك تجرجـرت عينـا علوان من وجـه الى وجـه ، أعينهم والصمت ظلاً ثابتـين منذرين . الدار وفسحة السماء فوقها رزحتا تحت الصمت والانذار .

هبطت يدا الـرقم واحـد على الجدارين . وتحـرك قليـلاً كل واحـد بدوره . حركـات رخـوة كارهـة أبعـدت الشـر وقـرّبت التوقعات . قال الرقم ثلاثة : « يالله ياشباب . يمكن الاستاذ انزعج . »

لم يتزحزحوا . قال علوان بصوت يمشي على حد سكين : « والشباب

جاءوا هنا لأي شيء ؟ »

« جولة تفقدية.»

همهم الرقم ثلاثة ، ودفع رفيقه أمامه ، وبدأوا يخرجون .

كانت حركة سلحفاتية ، لكنها راحت تزيح ثقلاً هائلاً جثم على صدر علوان وفيه . ولحظة أحس أن آخرهم قد غادر المدخل ، أحس بجسده . كان متخشباً . أحس بدبيب نصف مثير في صدغيه وكتفيه وركبتيه ، كأن الدورة الدموية عادت بعد توقف . تذكر جردلي الماء ، وسيارة الشحن القادمة بعد حين . تنفس بعمق . وقد استرد رئتيه .

أدهشه ان يسمع حركة وراء باب أم يسير . تقدم . « يسير ! يسير ! » سمعها تصيح . وقبل ان يقرر ماذا سيفعل ، سمع صرخة وحشية جمدت الدم من جديد في عروقه .

كانت صرخة ممطوطة ، بدأت بغرغرة ولكن ليس في الحلق فقط بل ممتدة حتى في الرئة . أو هكذا خيل لعلوان . وتضخمت الغرغرة فصارت عواء دون أن تفقد زخم انطلاقتها الأولى . وانفجر العواء كأنه يرسم في الفضاء قنطرة اهليلجية هائلة من الأصوات الصعبة الحاشرة . ثم تدلت القنطرة حتى لامست الأرض ، والجبين أيضاً والجدران ، دون أن تفارقها حشرجة (الغين) المتضاعفة المسعورة .

للمرة الثالثة يحس علوان بالحصار . اذن هذا هو الداء . وهذه الصرخة كأنها مبعوثة له . لماذا ؟ لم يعرف . كيف ؟ ان جسده وعقله ينطقان بالأجوبة . ان في هذه الصرخة لغة علامات عنيفة . وقد تغلغلت في كلا جسده وعقله .

في النصف الثاني من الصرخة صدرت صيحة الأم مرة أخرى :

« يسير ! يسير !» وبعد هنيهة صارت الصيحة هتافاً مناشداً يائساً : « يسير ! »

تحول علوان الى الـدرج الخشبي شبـه مذهول . فتحت أم يسير الباب وخـرجت مرفـوعة الوجه الى السماء . كان فمها يتلجلج بكلام أبتر ، وعيناها ووجههـا . انسنـدت الى الجـدار ويداها قرب وجهها ، غمغمت وتمتمت . لم يبد أن ما حدث في الباحة لامس وعيها ، أو أنه فعل ولم يعد يثير هذا الوعي . بعـد ثوان استـرخى جسـدهـا الضئيـل على الجـدار ، وانكفأت يداهـا الى حجـرهـا . لمعت الشمس على الـدمـوع التي احتشـدت في عينيهـا . وبدت أضأل مما هي ، عاجزة وغير آملة .

كان علوان يراقبهـا واقفـاً على أول درجـة . تحرك فجفلت هي بذعر . عرفتـه فاطمأنت . لكن دمعهـا انـدفـع في عينيهـا وخارجهما . ولحظة حاذاها علوان لم يعـد بوسعهـا سوى أن تنهـار بين يديـه الممـدوتين المتسائلتين . بكت بشهيق متواتر ، كمن لم يعد الخوف يلجم أعصابها .
قالت نازك : « أمّـا شخصية ! البارحة ظننتها شبحاً يسكن الخرائب . وبعدئذ رقصت مثل المراهقات للكهرباء . وبعدها ، هذه الدموع الكاوية . وفوق هذا تشطف لك البيت . أي نوع من الناس هي ؟ والصرخة ؟ من صرخها ؟

« من غير ابنها يسير ؟ أظن أنه الصرع . جاء السائق عندها فانشغلت عن السؤال . »

« ولكن ، كيف بهذه السرعة رتبت الأغراض ؟ »
« كنا ثمانية . سبعة من هؤلاء الرعاع ، وأنا . »

« الذين خربوا الدار وأرعبوكم ! »

« تماماً . أنزلوا الأغراض من السيارة حملوها للطابق الثاني . وباسوا يد أم يسير ، فوقها . وبعدئذ ركبوا الخزانة والسريرين ، ورتبوا كل الأغراض !»

« وأنت عامل خواجه مثل أبو خليل . »

« أبداً ، هم : ماقبلوا أني أمد يدي الى شيء . »

« لله تعالى ؟ »

« جننت ! أخذوا مئة ليرة . وباسوها مثلما باسوا يد أم يسير . »

« يا بلاش ! من يقول عندنا ارتفاع في الأسعار ! »

« بس صرنا عالحديدة . إذا لم نقبض الصبح من حمد بيك ، فتحنا فمنا للهواء . »

ذلك الليل ناما في الدار القديمة الجديدة . كان الطابق الثاني ملعباً . الى اليمين غرفة فسيحة تتصل بدار الرعاع ، كانت بلا شك مخصصة للضيوف . بحذاء جدارها الأيمن درج آخر يفضي الى السطح . الى يسار البهو غرفتان شاسعتان أخريان ، تتصل احداهما بدار أم اللولو ، ومطبخ وحمام .

الآن وقد صار ذلك القفر أنيساً ، تجولا في البيت بلا هدف معين سوى مزيد من التعرف إليه.«ما زلت أحس كأنني في حلم . » وخرجت نازك من الغرفة المطلة على الدار ، فوق غرفة أم يسير ، عيناها تتنقلان بين الجدران والسقوف . « يجب أن تفيق منه صباحاً ، وتروح الى حمد بيك لتأتي بخمسة وسبعين ألف ليرة . » زنخر هو : « نازك : خففي قليلاً من واقعيتك الفظيعة . عيشي معي هذا الحلم السعيد الجميل . أنا أحس كأني دخلت جنة لا يمكن أن أراها إلا اذا أغمضت عيني . أنا أعي نفسي الآن في عالم جديد . أرجوك ، اتركيني مغمض العينين حتى نستلم شقتنا ونغادر هذا الحلم . »

كانت أضواء الفنادق الحديثة تهمي الى الداخل خفيفة كالندى ، ومن الـزوايـا العاتمة ينشأ إبهام منعش يمنح المكان حساً بالعمق . « لن يصدق أبي وأمي ان هذا جرى لنا . » وتقدمت داخل المطبخ ، فإلى الغرفة الثالثة . وقف علوان امـام شبـابيك البهو الزجاجية ، وتأمل الباحة والغرف التحتية . مؤكد أن أم يسـير نامت . وصلت اليـه همهمة المدينة بخفوت زاده احساساً بكثافة الصمت . انـه الآن في قلبهـا وغير محتاج لها . التفت ورأى نازك مقبلة . يداها تحت إبطيهـا . توقفـا وجهـاً لوجه . راحت ابتسامة بطيئة تحل محل الاندهاش وعـدم التصـديق . « نحن فعـلاً سكنّـا » هتفت هي . مشيـا الى غرفـة الضيـوف . نظـرا معـاً الى الـدرج . وضـع يده على ظهرها . بدأت تصعد الدرج . تبعها .

على السطـح ، التفتت نحـوه محاذرة الا تنفصـل عن يده . في ثوان لامس خصـرهـا ذراعـه ، فساعداها كتفيه ، وحط جبينها على زاوية عنقه . كانـا يطـلان على قسم كبـير من المـدينـة القـديمـة ، اخترقته المباني الجديدة الشـاهقـة . غير أن مسـافـة أمـان شعـوري كافيـة فصلتها عن هذه وتلك . استنـدا الى استطـالة جدار الغرفة فوق سطوح الغرف السفلية . تعانقا بهدوء واستغـراق . تغلغـل فيهـما انفعـال متصـاعـد . « نروح وننـام ؟ » سألهـا . ابتسمت . التفتت متعـابثـة : « من هم جيرانـنـا هنـا ؟ » تقدمت خطوتين ، وتبعها . نظرا .

على باحـة الـدار المجـاورة تمددت عشـرات من الاجسـاد الصغـيرة النائمة . همس : « سننام هكذا في الصالون . »

« لكنهم نائمون هكذا بسبب الزحمة »

« ولهذا يخاطبون النفس بانسانية رائعة . كلما ازدحم الناس تكاثفت انسانيتهم . »

« أظن انهم يفضلون ان يناموا وسرير صغير يفصل كل واحد عن الآخر »

« نحن لن نفصل هذه النومة . »

« لكن ، من هم هؤلاء ؟ »

« أكيد هذه دار الأوباش الذين حدثتك عنهم . »

. « ما معقـول ! شف منظـرهم ، كم يلامس النفس . تطلع ! من هنـا يمكنهم أن يصعدوا الى سطحنا ! »

« ولماذا يصعدون ؟ سيجدون مدجنة يعني ! اومسمكة ؟ »

« واذا صعدوا؟ »

« عندها يكون لكل حادث حديث خلينا ننزل . »

« اليوم يوم خصوبة . إلا إذا صرت تريد ولداً . »

« لا . بعد لم يأت الوقت . »

ردت بسخـريـة خفية : « صبرك أربعة أيام اذن ، على أي حال نحن متعبان اليوم . »

مشيـا الى نهايـة السطـح وأطـلا على الـزقـاق . في الـزقاق شاهدا لمبة ضخمـة ولكن وحيـدة ، معلقـة أسفـل الاستطـالـة النافرة من دار أم اللولو . لذلـك يمـر السكـان والعـابـرون من هناك فتراهم ولا يرونها . ترى وجوههم المقـتربـة من الضـوء بتفـاصيل متزايدة ، فيما ظلالهم تتضاءل حتى تنعدم مع انعـدام سمتهم تحت اللمبـة . وعندها حتى أم اللولو لا تعود تراهم . وإذا ما خرجـوا من ذلـك المدار ومشوا نحو الطرف الثاني من الزقاق . توارت ملامحهم واستطـالت ظلالهم . وبـالطبـع ، لا يمكن لأحـد أن يُعرف من ظهره . وفي المآل تطول ظلالهم وتطول ، وتبهت وهي تتقدم ملامحهم الغائبة ، حتى تنعدم في ظلام الحارة وتتلاشى .

« لأنهم ساعدوني ، تقولين ليسوا أشراراً ؟ يعني ساعدوني كرمى لسواد عيوني ؟ »

« أنــا امـرأة تهتـدي الى الحقيقـة بقلبهـا . وقلبي يقـول لي ، إنهم في الأحوال العادية أولاد طيبون . »

« مرحبـا أحـوال عاديـة . كانت أحـوال استثنـائيـة وقت جاءوا وخربوا الدار ؟ حالة حرب ، مثلاً ؟ انقلاب عسكري ؟ مجاعة ؟ زلزال ؟ طوفان نوح ؟ »

أعتقـد ان الحيـاة في تلك الحـارة شبيهة بقوقعة كبيرة متحلزنة . لهذا لا أعـرف كيف أتحـدث عنهـا ومـا هي التفاصيل المهمة . إذا انطلقت من أصغر الأمـور ، أومن الخصـائص الـذاتيـة الـداخليـة ، تجد بعـد قليل أنك تلولب وتلولب حتى تصير على طرف القوقعة الخارجي . وأنك خرجت من القبوات الى السموات . وإذا دخلت ، حتى قرون الاستشعار تنكمش وتنغرز في تجاويفها .

سبعة أيام كلها تعب . ضيق وشدة وتعب . ومع ذلك ، خمس ساعات من النـوم غسلت كل شيء . هذه هي البـداية فقط في دارنا العريقة . الهدوء والهـواء النقي والاكتفـاء . أي حلم أروع من هذه الحقيقة ؟ ماء جار ، وباب للدار ، ويصير استقلالنا كاملاً وثابتاً .

« هذه أم يسير بيدها صحين . طالعة الينا . »

سلمت ووضعت الصحين على الطاولة . « كلوا يا حبوباتي . (غريبة) من يد هالولد . » كانت وجنتاها قرصين صغيرين حول ابتسامة لم تفتر مذ برز رأسها وهي تصعد الدرج . يسير صنع هذه الحلوى بيديه . هو يصنع كثيراً من المعجنات السكرية ، لكن صاحب المحل يفضل (الغريبة) أكثر ، لأنها تبيع ، والأطفال والناس يحبونها . أليسا « ساعين بزغنون صغير على الطريق ؟ » إي ، ألله يبعث . وقولي يا حبيبتي يابنتي . الماء ؟ هذه الدار كانت تأخذ الماء من قصر أم اللولو ، وعلى الماسورة ساعة . الآن سحبوا الساعة وسدوا الأنبوب . .

سألت نازك : « من هي أم اللولو ؟ »

تهدلت وجنتا أم يسير وغاضتا . تأمل الزوجان الغضون التي عادت الى التخدد في وجهها المنكفىء .

« من هي أم اللولو؟ اسم غريب . . بس حلو . »

انتقلت عيناها بين نازك وعلوان . ليست عاجزة عن الجواب ، لكنها لا تعرف ماذا تقول . سؤال صغير . اتسع وكبر بالانتظار والترقب . تبادل الزوجان نظرة مستفيضة متسائلة . « ياابني ليش الحكي بالعيون ؟ يوه ! أم اللولو جارتنا ! »

جواب خارق . هزة خفيفة من نازك وإطراقة باسمة : قردة ملفلفة . نظرة متبادلة ثانية . ولكن لماذا لا يأكلان من (الغريبة) ؟ فنجان قهوة ؟ لا والله . هي لا تذوق القهوة أبداً . شاي ، إذن . لا والله . لن تتعب نازك نفسها . حلفت بالله . وهؤلاء الزعران ؟ معتادون على دخول الدار بهذا الشكل ؟ لا ، ليس بهذا الشكل . لماذا جاءوا هذه المرة ؟ الله العليم . لا شغلة ولا عملة ، يضيق خلقهم . ما شاء الله على خلقهم . لماذا لا

يشتغلون ؟ ليست عاجزة عن الجواب ، لكنها لا تعرف ماذا تقول . تابعت نقل نظرتها بين نازك وعلوان . تبادلا نظرة قلقة . ولكن من هم ؟ أولا يعرف ؟ هؤلاء هم أولاد أم عبودة .

« أولاد أم عبودة ! »

صيحة مزدوجة . نظرة متبادلة متسائلة . إذن ، فالجميع أصحاب قضية واحدة . مطمئناً اذن ، يمكن لعلوان ان يذهب الى لقاء الدكتور جارود . هؤلاء أبناء طبقته .

« أي استاذ علوان . سمعنا أنك رحلت من البيت . »

كان يقف بحذاء الأولدزموبيل ، طافح الوجه بالسعادة ، وسترته منفرجة عن كرش صغير يوحي بالنعمة وراحة البال . المال جاهز ، ويأمر الاستاذ . يريده شيك أو نقداً ؟ ولكن لابد من تسليم المفتاح أولاً . لأن الدنيا فيها موت وحياة . يمكن ان يستلم الاستاذ المال من هنا ، ويقع الدكتور ميتاً من هنا ، يروح المال والمفتاح .

« أظن أنك ستلغي اتفاقنا كله اذا أنا رفضت تقديم المفتاح أولاً . »

« تماماً . مع أن هذه مسألة إجرائية ، لا تستاهل انفعالك . »

« أنا في القبو . بانتظارك أنت وجارنا السمان . »

كنت منفعلاً . لكني أخفيت انفعالي . في القبو تمشيت وقتاً لا بأس به قبل أن انتبه الى العري الفاضح البشع . ها هنا أمضيت سبع سنوات . كان حمد وأبو خليل أثناءها يكدسان الثروات الطائلة . لهذا السبب فقط ، لأنهما يملكان المال ، يحسان أنهما يملكان الحق في احتقاري . وكل مواقفي ورؤيتي ووعيي تتدرج على مهابط العجز .

قرع السمان باب القبو وهو يهتف : « أنا جاركم . جاركم» ودخل فهتف متعجلاً : « هات المفتاح ، واخذ الشيطان . هات المفتاح ، والمال معه ، وسآتيك به . خلّك هنا . »

« لكن . . أين أضع المال ؟ لم أكن أنتظر . . . »

« ما عليك . . ما عليك . . الشنطة من عندي . . جاهزة. هات المفتاح.. »

ثمة فرق بين رنين الكلمة وهسهسة الورقة . في هذه المنطقة من العالم ، يتعلم المرء وهو بعد صغير أن المال أول زينة للحياة . وإنها لحظة خارقة في هكذا حياة . أكبر بكثير من مجرد زينة . إنها حجم هائل من القوة والعزم .

طول الطريق وهو مثقل بإحساس من يجر بيده جبلاً . لذلك راح يهرول وسط الشارع ، محاولاً ألا يصطدم بأحد ، وأن يظل رافع الرأس . رأى الناس ولم يرهم . أحس بهم حوله كحركة في الهواء . وكان عليه أن يبدو متزناً متماسكاً . أكبر من الحقيبة التي يحملها ، كما هو فعلاً وكما لم يتأكد تماماً من أنه كذلك ، بل وربما خشي العكس في وهلة لم يستطع ضبط جماحها ولا اللحاق به . وهو يحس نصف إحساس بأنه يهرول وان هذه الهرولة مضادة تماماً لطبعه الرزين وللثقل والكبر . لكن اللحظات أضاءت وعياً ماكان ليضيء قط لولا ذلك الجبل : هؤلاء الناس الذين عبر بهم ، جميعهم نظر إليه نظرة غير طبيعية . كان ثمة عداء ممكن متربص ، احتمال قوي أنهم ما إن يبتعدوا درجة واحدة وراء كتفه حتى يستديروا . وهم الضباب الشبحي ، وينظروا الى الحقيبة بعين متآمرة ناوية . رغم ذلك ، كانت تنطلق منه بين حين وحين ضحكة صغيرة مخنوقة .

قلت لنازك أني كنت مثل من يعبر داخل غيمة ، لكن عيني بقيتا قويتين

وتريان الى مسافة أمان بعيدة . مشيت بقدمين راسختين ، قويتين خفيفتين . لأني أردت لقاءها بأقصى سرعة . لكن كل شيء كان عادياً ، بل ومشرقاً . سوى أن إحساسي بالحقيبة زاد عن المنسوب الطبيعي . مع أني لم أشك لحظة في أن الشنطة لم تعط أي انطباع خاص . رغم شيء يسير من الافكار السخيفة ، التي كانت تضحكني على الطريق ، ورأيتها ممتعة حقاً .

لكني عندما بدأت أصعد الدرج الحجري ، انتابني تردد حقيقي وأوشكت على التوقف . هذه الأفكار المضحكة استبدلت بالأشخاص الغامضين في الشارع هؤلاء الرعاع الداشرين . اضطربت فعلاً . قلت لنازك إني خفت ، بالمعنى الأساسي للكلمة . وطول الطريق ، من بداية الزقاق الى باب الدار تصورتهم يتدافعون على يدي كذباب ذي مخالب . ولولا أني رأيت فجأة تلك المرأة - مطلة من شباكها المطل - لتعثرت وسقطت الحقيبة ، واندلقت الأوراق في الزقاق .

« وهم كانوا في الزقاق ؟ »

« ولو لم يكونوا . في أية لحظة ممكن أن يمتلىء بهم الزقاق . »

« الآن ، افتح الشنطة لأشوف . مالك متكمش بها هكذا ! »

« أبدا . تفضلي ياستي . »

نظرت نازك الى الشنطة المفتوحة نصف مقطبة ، فإلى علوان نصف باسمة . أخرجت زفيراً قصيراً قوياً ، ثم ارتدت الى كرسيها بلا انفعال .

لبث علوان صامتاً . استرخى الاثنان في جلستهما . حسوتان من فنجاني القهوة . نظرة الى الدار . وأخرى الى درج السطح الخشبي .

« تأكدت أنها أوراق غير مزورة ؟ »

« ماذا جرى لعقلك ؟ »

جرجرت كرسيها بيديها وهي جالسة عليه . وصلت الى الحقيبة الصغيرة .

في ذلك القاع الضحضاح رقدت سبع رزم ونصف . كانت يدا السمان قد رتبتاها كما تغطي يدان أبويتان طفلاً نائماً في ليل الشتاء . بالطريقة نفسها لامستها يدا نازك على مهل . الأصبع الوسطى أولاً . اليد الأخرى توقفت في الهواء . على مسافة سبعين ملمتراً . تزلجت الأصبع الوسطى على نصف الرزمة . اصطدمت بشريط المطاط . تناولت الوسطى والسبابه والابهام رزمة .

كانت الرزمة فعلاً مئة مئة .

أخيراً . بعد خمسة عشر شهراً من الشدة والحصر . باليد الأخرى سحبت الشريط المطالي . انفردت الأوراق . تركتها تهبط . متتالية ، متتابعة .

تناولت رزمة أخرى . نزعت شريطها المطاطي . كرستها تماماً فوق شقيقتها . بالوسطى والابهام أمسكت الرزمتين من خاصرتهما . رفعت كثيراً من الأوراق . تركتها تهوي . متتالية ، متتابعة .

« مجنونة ! »

ورزمة ثالثة ، ورابعة . وخامسة . ارتفعت الأوراق . ارتفعت كثيراً . لم تعد في حاجة لوسطى وإبهام . أوشكت من ذاتها أن تهوي . انفلتت على اليدين . غرفتها اليدان . تخربطت . تطايرت .

انتشرت الأوراق في الهواء . ترنحت كالمراجيح أو كالأناشيط . تهابطت كل واحدة في اتجاه خاص بها ، عصي على التنبؤ .

« مجنونة ! »

« أوي ! ! بعد سنة يكون على حضني ولد ! »

قبضت على الأوراق الطائرة . رمتها ثانية في الجو . قبضت عليها ، وأطاحت بها .

انتفض علوان وقد خرجت ورقتان من النافذة ، وهمت ثالثة أن تلحق بهما .

« أنت جرى لعقلك شيء حتماً . نازك ! »

هدأت . ارتفع بؤ بؤاها الى الأعلى ، وتحتهما دمعتا فرح . ثم التفتت الى علوان : « شف من على السطح . »

التفت . كان الرقم واحد واقفاً كشبح منفرج الساقين مسبل اليدين . التقت عيناه بعيني علوان . همست نازك : « هذا الوحش ! يغرز عينيه في عيني . »

اقترب علوان من النافذة . . أولج رأسه في فتحتها . نظر الى الفتى بعناد شرّاني . فجأة راحت تتطاير من قلبه خفقات هائجة . تفاعل فيه استعداد متسارع للعنف وخوف منه . واحد لواحد ، وخير الحساب عاجله . ومن العدل تصفيته الآن . سمع الخفقات تنفجر في صدره . حملق الى وجه الفتى الهادىء اللامبالي ، وفي أعماق وجدانه أيقن أن لحظة الشر آتية لا ريب فيها .

ارتد عن النافذة . أمسكته يد نازك : « ما لنا وما له . »

« المسألة لازم تنحسم . »

تعاركا هنيهة قبل أن تنفلت ذراعه . ثم توقف . شاهد الفتى يغادر السطح بابتسامة ملتبسة . وحسب أن العقل يقتضي التريث ، لكن بسيماء مهددة منذرة : مثل هذا الانخلاع التام عن كل عرف وذوق وحس سليم ، يجب ان يشطب عليه بلا تردد . وحادثة الأمس المجنونة ، التي لا يمكن ان ترد في أي قاموس ، يجب ألا تتكرر .

تناولت نازك ورقة علقت بشعره . ضحكا .

« تعال نلم الأوراق . »

« يامجنونة . »

جمعا بضع عشرات . ثم سمعا وقع خطى على الدرج .

« هذه أم يسير ! هات المكنسة هات . »

التقطت الرزم غير المفلتة . وبدأ هويكنس من أمام المطبخ ، ويتناول بيده . وراح يحشر المئات في جيبه . أذعرتها خطى أم يسير . وبسرعة حشرت نازك الأوراق في الشنطة وأغلقتها .

« يابنتي ، الدنيا صيف والا شتي ؟ السلام عليكم . »

ونظرت الى علوان . كان رأسه مرفوعاً باتجاهها ، وجذعه محدودباً فوق المكنسة . « تاعب حالك ياابني بكناسة هالوسخ ! »

«لتعرفي يا خالة اني زوج ديمقراطي . »

نظر الى نازك مستنجداً . وخنخنت هي باضطراب : « تفضلي ، خالة ، تفضلي اقعدي . »

هتفت أم يسير بجزع : « ياابني خذوا بالكم . المال وابليس أخوة . وإذا فرح ابن آدم فيه قبل ما تجيه الخلفة ، انقطع نسله . ألف بعيد الشر عنكم . لأنه يقول : المال والبنون ؛ ما قال المال بس . »

وابتسمت كمن أدت واجبها الأخلاقي ، وعادت تتساءل : « ألا قولي يا بنتي ، الدنيا صيف والا شتي ؟ »

« والله يا خالة حيرني سؤالك . أنت عارفة نحن في عز الصيف . »

« لكن إيش هالمطر النازل ؟ » وسحبت من عبّها ورقتين ناولتهما نازك . أعادت يديها إلى عبّها وابتسمت للمرأة الفتية بحنان وارف .

كل هذا في نهارين وليلة كأنني قمت بانقلاب على حياتي . أو كأنني بدأت حياة جديدة مختلفة تماماً . انطلقت نهائياً من القبو الذي* توسلت يوماً لفؤاد بك إن يؤجره لي . عندما جلسنا في المساء بحذاء النافذة الزجاجية ، وكانت نازك كنست الأرض من الوسخ ، الرمزي والحقيقي ، كنا فعلاً في جو آخر ، في مكان آخر ، في صيغة عيش أخرى . كان في الأمر شيء من الطرافة والجدة ، الغرابة الممتعة المقلقة . واقترحت نازك ان نبقى في الدار الى ان يهدموها . هتفت موافقاً : « ونؤجر شقتنا لشركة اجنبية تدفع عشرة آلاف في الشهر . » يمكننا أن نؤسس هنا علاقات جديدة ، قالت نازك . وأضفت أنا : « تتوافق فيها ايقاعات النفس وإيقاعات الحياة . » إننا لا يمكن ان ننكفيء داخل هذه الدار الرحيبة ونستغني عن الآخرين . وحتى أهلنا وأصدقاؤنا . سنثابر على زيارتهم .

وهكذا قمنا معاً بجولة تفقدية في الزقاق والحارة . مشينا سعيدين . كنا نعيد التعرف بعالم انقطعنا عنه فترة ، سميتها فترة كمون ، ورأينا الآن كم هو ساحر وأصيل ومترامي الأطراف . بائع العرقسوس ، والدكاكين العريقة .

ماء السبيل ، الأكثر عراقة . وساحة الحارة ، المسماة « ساحة العروة الوثقى » ، والشارع والجامع . وساحة باب شعوب . كنا سعيدين أيضاً لأن أحداً لا يعرفنا . كنا مستمتعين بما تراه أعيننا التي لا عين تراقبها فتفسد عليها متعتها .

في المساء الثالث فهمت نازك من أم يسير أن أم اللولو أكثر من مجرد « جارتنا . » الحارة تعرفها زرافات ووحداناً . ولكن تصعب مخاطبتها أو تستحيل الا عبر زوجها سلطان .

ثم جاء ابوحسن ، بائع الفول السوداني شتاءً والكازوز صيفاً ، والعامل نهاراً في شركة نسيج : أراد ان يستطلع الدار كأنه لم يشاهدها من قبل قط ، أو كأنه اكتشفها فجأة ، وسأل أم يسير عن جارها الجديد .

لكن المهم هو ، كما يقول المثل ، أن يرتب المرء بيته أولاً . بعد أن دفعت الزيادة القاصمة في ثمن الشقة ، وأخذت كلمة الشرف أننا خلال شهرين سنستلمها ، عدت الى البيت ، وجلسنا سوية أمام النافذة الزجاجية ، نعد ما بقي معنا من مال ، رغم أننا نعرفه ، كي نفرح بالخلاص من ربقة الفاقة وارث الأقبية والظلام . خمسة وثلاثون ألفاً !

قالت نازك : « بس ، لو الله سبحانه وتعالى ، بعث لنا حظاً أطيب . »

« حظ أطيب ! هه . »

« يعني . شيء يتكرر ، بئر بترول مثلاً . »

« كانت الامبريالية جاءت بدبابة ومدفع لتستثمر بترولنا . »

« لا ياأخي يمكن ان تدخل بلطف . دون ان تحس بالفرق بينك وبينها . »

« لا ياعـزيـزتي . هكـذا أحسن . قبضنـا قرشـين ، قولـة أبوخليل ، تحسنت أحـوالنـا ، صرنـا سادة أنفسنا ، وخلص . يكفي أننا طلعنا من القبو الى العالم . »

يومهـا تكلمت ما لا أذكـر عن ولادة جديـدة ، أو صدمة وعي ، جاءتنا بمجيئنـا الى هذه الحـارة ، وعن قوانين النفس وقوانين الحياة وضرورة معرفتهما أولاً ، واكتشاف العلاقات الجدلية بينهما ثانياً ، ليصار الى ترسيخ حياة سعيدة ثالثاً . قلت إننا يمكننا ـ الآن وقد تحررنا ـ ان نتسلل الى ذلك العنصر الجميل في نفس كل انسـان من سكـان الحـارة ، ونتعمشق به . انـه لا يمكن أن يظل خافيـاً ، بينـما الحـارة تفيض بإرث عريق ، لا بسبب ضيق العيش مثلاًـ ، ولا لأي سبب . لابد لقوانين النفس أن تطفو فوق قوانين الحياة . وهذا العنصر هو أبرز ما يظهر أو يفيض . يمكنك أن تراه على الوجوه المنشغلة بأحاديث الخاطر في زحمة الشارع . تراه في التفاتة عابرة . إطراقة . رد فعل عفوي . أو ضحكة ذات رنـين خاص . وأهم من هذه الأشيـاء ، ظهـوره في نوع الأسطـورة التي يعمـرهـا كل امـرىء بنفسـه ولنفسـه . إن الأمر لن يقتضي عندئذ أكثر من ان تكون حقيقياً ، وأن تتعاطف مع هذه الحاجة الغلبى الى اسطورة .

كان صوتان يصلاننا من باحة الدار ، أحدهما عال وينادي اسم يسير ، والآخـر بالكـاد مسمـوع . مددت رأسي عبر النافذة . رفع ذو الصوت العالي يده وحيـاني باسمي : « أنـا أبو حسن ، جارك الجديد بإذن الله . » تذكرته . كان ضئيل الجسم وسيم الوجه ، وفي ثلاثيناته .

هتفت بنـازك ان تنظـر . قلت : « كم تظنين عمر « هالولد » يسير ؟ » غمغمت : « عشـرون ، خمس وعشـرون . » قلت : « تطلعي إذن . بالله عليك ، تطلعي . »

كان يسير في حوالي الخمسين ، الخامسة والخمسين ، ربعة كثيف الجسم . أجلح ، شائخ الوجه ، ولكنت ظننته نوعاً من المومياء المنتصبة ، المشبعة بالمحاليل والأكاسيد والأحماض ، لولا أنه رفع رأسه برهة صغيرة ونظر إلي وأنا أخاطب أبو حسن . عيناه فقط كانتا شيئاً آخر . عينان شابتان حتماً . لكن قديمتان أيضاً . عميقتان كنبع ، نعم ، ولكن لافحتان كفرن ، وفوق هذا كله ، كانتا عينين تنتقلان بين وداعة الحمل والانذار بشر وشيك ، بحيث تبعثان الاضطراب في النفس . كانتا تقولان كلاماً مقلقاً ، في الحد الأدنى ، ومجهولاً تماماً بالنسبة ليسير نفسه . وما عداهما ، هيكل ضخم متداع . يكاد ينفرط عشرين شقفة .

بعد جولة أخرى في الحارة ، ومتعة أخرى بأننا نعرف كل شيء ونحبه ، ولا شيء ولا أحد يعرفنا ، عدنا والليل قد اعتدل . ارتمت نازك على كرسيها بخبطة صغيرة غير طبيعية . فهمت . نظرت اليها مبتسماً ، واثقاً أن كدرها الخبيث هذا سيزول . كان الليل غامراً وجميلاً ، موشى بذراري ضياء غامضة تقاطعت معه . كنت منتعشاً بأحاسيس تتفتق في داخلي ، واثقاً أنها ستهب داخل نازك ، ان لم تكن . مددت يدي وأمسكت يدها . في البداية همت بسحبها ، غير أنها أرختها . رأيت ان ايقاعات النفسين قد بدأت تلتقي . ازداد الليل جمالاً وألقاً . للمرة الأولى في حياتنا تتناسج بهذه المتانة والروعة ايقاعات النفس وايقاعات الحياة ، تنتج عنها وتنتجها . فاليوم تمت علينا النعمة واكتمل أفق حياتنا . خرجنا كما لو بصاروخ ، من الظلمة الى النور .

شددت على يدها وخاطري معبأ بحضورها الجسدي ورؤيا طقوسنا الوشيكة . لكن يدها ظلت مسترخية ككتلة زئبق . ظل رأسها أيضاً بلا حراك ونظرتها بلا يقظة . لا شك أن أجمل ما في الخطاب الانساني تعامله بالرموز . في تلك اللحظة اعتراني احباط صغير : صحيح إني منذ بواكير وعيي ـ وأنا

أعتز بهذا الوعي - رافض الأساطير الذاتية مصمم على تحطيمها ، ولكن أيكون أني قد بت لا أمتلك رموزاً أيضاً ؟ أليست عندي لغة من الاشارات والشارات ؟ ألم تحمل يداي الى يدها قليلاً من روائح الغابة ؟

بعد ثوان سحبت نازك يدها . شبكت ساعديها تحت صدرها ، وظل رأسها مطرقاً . كان واضحاً أنها بلا رغبة . سرحت أنا واسترخيت . وراحت رطوبة نفسي تبخر في الاستغراق والحنق . الآن وقد امتدت قدمانا بأول خطوة على الطريق المعبد ، تجف نفسها بهذا الشكل .

انتصبت واقفاً . لن أقبل لهذا الشعور العفوي أن يهدر . استدرت وراءها ولمست كتفيها عند العنق . إن لها عنقاً جميلاً على الدوام ، وبشرة كنسيم الغابات .

فاجأتني بوقفة سريعة ، وارتعاشة أنثى تحس بالبرد رغم قيظ النجوم .
« بودك فنجان قهوة ؟»

« بودي ان نحب بعضنا . القهوة فيما بعد . »
قالت وهي تغادر الى المطبخ : « ما زلت في الخصوبة . »

عدوت وراءها ، والتقطت زندها : « وأنا أريد ولداً . انتهت مرحلة العقم . خلص . »

حَارَةٌ قَدِيمَةٌ جَدِيدَةٌ

- ١ -

[بطاقة : أبو حسن :

شريط ضيق متطاول اعتدى بلونه الأخضر على مساحة شاسعة صفراء ، وشقها مع نهر ضامر ، بدءاً من كواحل الجبال وانتهاء بمدى الصحراء . في قرية على سفح ذلك الوادي ولد محمود محمد أحمد ، المعروف بأبي حسن . وهذا هو أهم شيء في حياته .

في سن اليفاعة بدأ الشريط الضيق المتطاول عند قريته يتقلص ويغيب تحت البيوت الجديدة وقصور المصطافين . ولم يجد هو شيئاً يفعله أفضل من أن يتزوج ، فتزوج . كان قد ترك المدرسة منذ أعوام ، وعاش على ماصادفه من أشغال . في الثامنة عشرة كان معظم شغيلة قريته إما مهربين أو أنصاف متسولين في المدنية . وكان حظه طيباً فسيق الى خدمة العلم قبل أن يصير أيا منهما . في الثانية والعشرين كان أباً لولدين فقط ، لأن اثنين آخرين ماتا غب الولادة . وقد توصل الى يقين اسمنتي بأن زوجه ، رغم حسنها ، كارثة حقيقية . والا فأي شيء هي امرأة تحمل في اليوم الحادي والاربعين بعد الولادة ؟

بضربة حظ ثانية صار أبو حسن عاملاً موقتاً في شركة المغازل والمناسج . كانت أربعمئة وخمسون ليرة في الشهر نقلة نوعية في حياته المالية التي لم تكن قد وجدت تماماً بعد . كانت بركة تجمعت فيها أحلام لا تنقطع عن المطول . لقد بدأ يحلم بسكنى دائمة في المدينة الساحرة . وتجرأ فحلم بالسينما ، والمقهى ، واللحم المشوي ، وحتى ساعة في الكاباريه لاتدري بها أم حسن .

مضى عامان وتثبت في الشركة عاملاً . إلا أن حظه راح يتضاءل ولداً بعد ولد . لقد اضطر الى الاقامة في المدينة . وكلفته كل زيارتين الى القرية ولادة جديدة . اذ أنى لعقله ان يقاوم جاذبية أم حسن وملمس بدنها المعافى .

وهـرب حلمـه ببيت صغـير وزريبـة للدواب الى زريبة في المدينة تتسع لمضلع بشـري من ثمانيـة أنفس . كان واثقـاً ان هذا سيحدث يوماً ما . كان واثقاً أنه سيكسب مالاً يكفي لأن يقتطـع من أرض غفلت عنهـا الحكـومة ، عند طرف المدينة ، مساحة يقيم عليها غرفة كبيرة ومطبخاً وحماماً . ومنحته الثقة طمأنينة المؤمنين . بل إنه كان كل يوم ، عندما يداعب الكرى أجفانه وتغفل عن وعيه الحياة ، يسترد ذلك الحلم وتلك الثقة بقوة غامرة منعشة تسلمه الى نوم رغيد .

أخـيراً اضطـر الى البحث عن عمـل إضـافي . لقـد تخلفت الـزيـادة السنـويـة في راتبـه عن الـزيـادة البشـريـة في أسـرته والزيادة الشهرية في غلاء المعيشـة . ثم لم يجد بداً من الاستغنـاء عن الغـرفة في أشهر الصيـف ، لينام في مدخل مبنى جعل منه مقراً لبيع المرطبات . ويوم التقى علوان فيها الثاني يسأل عن موفق الكهـربـائي ، وفهم سر السـؤال ، قال في ذات نفســه : يا سبحان مقسم الارزاق ! غريب يأتي ويسكن داراً أراها صباح مساء ، ولا يخطر لي أني يمكن أن أبقى فيها سنتين قبل أن تهدم ! كل حلم يمكن ان يتحقق ، إذا توفر له شيء يسير من الشجاعة .]

في الصباح أيقظ يسير أبا حسن : « قم ، قبلما تفوتك الصلاة . »

غمغم أبو حسن وهو ينقلب على الجنب الآخر : « بعدين ، أوفيها . »
فتح عينيه ، ورأى إبريق الشاي بيد يسير .

شربـا الشـاي معـاً . ثم انطلقـا في الـزقاق . عند ماء السبيل تودعا . انعطف يسير باتجاه المخبز ، ومضى أبو حسن الى الشركة .

كانت أسـواق باب شعـوب قد بدأت تستيقظ . وفي الشوارع تحرك نفر قليـل من البـاعـة والعـمال . لكن الصمت والقطـط كانا مايزالان سارحين في الأزقة والزواريب . الاستثناء الوحيد كان الفرن . هناك تجمهر عدد غفير من

الناس ، بعضهم بالبيجامات ، وبعضهم بالجلاليب ، وبعضهم بالملابس العصرية . غير أنهم جميعاً تدافعوا وتصايحوا .

عند الضحى ، ومثل كل ضحى ، كانت الأسواق قد شاخت . بعد دفقة النشاط الأولى ، هبط المنسوب وتلكأت التوقعات . ثم صار الزمن الباقي ثقلاً . وتفسخت طراوة كل صباح تحت ضربات الشمس ووقع الخطى وسقوط الغبار . حتى يسير ، المتسنم مكاناً قرب السبيل يبيع فيه حصته من المعجنات الحلوة ، أضحى يستثقل ان ينهر طفلاً اختطف قطعة من صينيته المعدنية . وهكذا ترك بسطته ودلف الى دكان « سيد نصوح » بائع الخردة . وفي ثوان جلس الرجلان امام الواجهة مسترخيين راضيين .

منذ سنين طويلة وهذه البسطة ديدنه والدكان مستراحه . وقد ألفه الناس والأطفال ، حتى باتوا يضعون المال على البسطة ويتناولون « تحلية الضرس » فلا يجشمونه عناء الاستلام والتسليم . وربما زاد لأحد شيء من المال ، فسامح ، وربما جاء طفل بأقل من الثمن ، فلم يحرم ما اشتهى .

وقد يضجر حيناً فيوزع ما بقي من المعمولات على أطفال تصادف وجودهم في ساحة العروة الوثقى . وكلما دخل الحارة طفل صار في عمر اللعب ، توجه الى الساحة . وعبر معابثات الآخرين الفظة المؤذية ، يتعرف على الطفل الخافق في داخل يسير فيأنس عليه بالفظاظة والأذى ، ويزداد جرأة يوماً بعد يوم .

وفي زمن ما تلج الى الأذهان فكرة غامضة رهيبة عن مرض غامض رهيب يحل به فجأة ويطرحه أرضاً . شاهده كثير ون منهم مرة واحدة على الأقل وهو يهوي ويتخبط ويصرخ صراخاً لا يعرفه البشر ، مثل من يضربه شخص لابس طاقية الاخفاء ، أويشد مارد بلسانه كي يقتلعه . وكان مستحيلاً أن

يخمن حتى الكبار أي محرض خارجي يوصله الى هذه النوبة .

على ان المرض ، مثل بقية مظاهر الحياة الأخرى ، اندرج في بساط شاسع نسجته الشمس والأرصفة ووقع الأقدام . لاشيء في تلك الحارة راسخ كالتاريخ أوحاضر وغائب كالزمن . في كل زاوية ومنعطف ، على الشبابيك النافرة ، وفي الدكاكين ، بين حجارة الشوارع الرمادية ، يهبان ويهرهران ، وهما يجرضان بريقهما المشرشر . في جدران الطين عششا . في شبابيك الخشب توحشا . في هواء الأزقة والزواريب خشخشا . لكن مستراحهما الأزلي وجوه تنطق بهما وتصمت عنهما . تتعاقب الفصول وهذه الوجوه لا تتغير . تختلف الملامح وتتشابه القسمات . إذا غاب وجه قام وجه آخر . ومع كل قيام يعلو في الوجه الجديد منسوب التراكمات العتيقة . لكأن ثمة تناسخاً في الوجوه . لكأن الجديد لا يجد ، والقديم لا يقدم . ههنا لا يسع أحداً أن يقول كان ، لأن كان دائماً تكون . وفي ساحة الحارة ينهض تساؤل غارب عن جدوى صيغ الزمان الثلاث وضرورتها .

في هذه الحارة ، كل شيء يجاور كل شيء . الفرن التنوري يجاور الفرن الغازي . سيارات زجاجها مرايا تجثم بحذاء جدران من العيدان والقش والطين . سيدة يترنم ردفاها بجوار خانم يترنح رفداها . كشاشو الحمام يتنقلون على الأسطحة بين موجهات التلفزيون . وسوق الحرير يجاور سوق الصاغة ، الذي يجاور سوق النايلون ، الذي يجاور سوق الخضار ، الذي يجاور سوق الزجاج ، الذي يجاور سوق الملح ، الذي يجاور سوق النحاس ، الذي يجاور سوق الحرير . وكل هذه تصب في ساحة باب شعوب .

وأنا أجاور سيدة خرافية مثل أم اللولو توجد في زقاق واحد مع رعاع هم أيضاً جيراني . أقول هذا لأنني بعد فصل الولد الذي كان يراقبنا ونحن نتعثر

بعقلنا لرؤية المال ، عشت فصلاً جديداً لم يكن ليخطر لي .

كانوا على السطح . على كل الأساطيح . اثنان فوق رأسي وأنا في البهو أنظر الى نازك منطرحة على كرسي في نصف إغماء . صرخت : ماذا بك ؟ فهزت رأسها يمين يسار . ليس كمن تعجز عن الكلام ، بل كمن لا تعرف ماذا تتكلم . دون أن تجيب أتاني الجواب . كانوا على السطح المقابل . ثلاثة . واثنان على السطح الأيسر . بكامل أبعادهم وحريتهم . بكامل استباحتهم للفضاء ، وفرديتهم ، وانتهاكهم لراحتي وأمني .

تحركت لصق النافذة الزجاجية لأشعرهم أني أراهم . تذكرت استباحتهم للدار في اليوم الأول . لقد رأوني حتماً . كانوا يتكلمون ببلادة . كأن كل واحد يصغي الى صوته وهو يتكلم .

كيف أقول ؟ مادام هناك سبب ، فكل تصرف يمكن فهمه . حتى ولو كان لئيماً أو مدمراً أو مجرماً . أما أن تعجز عن فهم اللؤم والتدمير والاجرام ؛ أما ان لا تستطيع العثور على سبب واحد تحت قبة السماء يدفع هؤلاء الجانحين الى استباحة الأساطيح وتقاذف الحجارة ؛ أما أن ترى التراب يهدر من شقوق الخشب فوق رأس نازك ، وهي من غيظها لا تريد ان تتحرك ؛ فأقل ما يمكن أن يفعله المرء هو ان يرتكب جريمة او تنفجر أعصابه مثل يسير .

بغمضة عين كنت على أول درجة من درج السطح . وصرخت نازك ، ومع الصرخة الثانية ، كنت على السطح . لن تصدق . كان هناك واحد فقط ، واقف على سطح دارهم ، وبين يديه حمامة . حمامة بلونين قويين ، أسود وأبيض ، مستكينة تماماً بين يديه .

استدرت وهبطت الدرج مثل البرق . فالدرج الثاني . صرخت

نازك . وصـرخـت إني سأضـع حداً لهذه الهـمـجيـة التي تهدد استقـراري وسـلامتي . اعـترضتني أم يسير : « دخيلة عليـك ياابني . » أمسكت بي فاضطررت للتوقف « كرمى لي ياابني . أخز الشيطان وارجع . »

فعـلاً ، هل أرد على الـوحشيـة بالـوحشيـة ؟ عاد إلي انشغـالي بطبيعة الطبيعة البشـريـة . أين الحضـارة ؟ « خالة أم يسير ، بودي بسبب واحد بس لتصـرفـاتهم . » ابتسمت وقـد لمست هدوئي ، ونـبرت : « قالوا للقاق ليش بتسرق الصابون قال لهم الأذى طبع . »

ضحكت . وفجأة انتبهنـا الى ضوضـاء حاشـدة في الزقاق . أفلتتني . وخـرجنـا معـاً . كانت المسـافة بين غرفة الطلاب المفتوحة على الزقاق ودار أم اللولـو ممتلئـة بصبيـة دون الثـانية عشرة . حوالي عشرين . وقد تظنهم خمسين بسبب حركاتهم الشيطانية وأصواتهم الزاعقة . في الوسط تماماً كان يسير حاملاً بسطتـه . لم يكن يمشي ، وإنـما ينجـرف . وجهـه أصفـر كالشمـع . عينـاه معلقتان بمدخل الدار . ووراء الجميع اثنان ، أحدهما أبو حسن ، رافع يديه ويصيـح بهم منـاشـداً : « ياشبـاب ! حرام ياشباب ! الرجل مريض ، حرام عليكم ! » كانت أيديهم تعبث بيسير ، بشعره ، بقميصه ، بقفاه ، تلطمه . تنعره .

إلى أن استـوعبت المشهـد ، كانت طليعتهم قد وصلت الى مدخـل الدار . صرخت بهم . ضاعت صرختي فوراً في هدير صياحهم . لطمني مرفق في صدري ، وداست على قدمي أقدام . بالضرورة تراجعت . كانوا جلاميد صخر يحملها سيل من الوحشية الظافرة .

وصل يسير الى مدخل الدار . خطوة واحدة ويدخل . كتفه الأيسر من ناحيتي . وقف . برم رأسـه نحـو كتفـه الأيسر ببطء . كأن عينيه تتابعان جسماً

يسـري في الجـوعلى مهـل . وظـل رأسـه يبرم حتى اخترقت نظرته وجهي . ووقفت هنـاك . كأن ذلـك الجسم سكن جمجمتي . هي نفسها نظرته المفعمة شراً ، المنذرة بالشر .

في تلك الـلحظـة سقطت البسطـة من تحت إبطـه . صارت عينـاه المـرعـوبتـان مخرزين في عيني . وطغت صرختـه على الأصـوات كلهـا . إنها صرخة اليوم الأول .

مع الصرخة احتقنت عيناه بالذعر . كأن عيني أنا ردّتا المخرزين اليه . أما جسده الذي كان حجراً حتى تلك الثانية ، فتهاوى دفعة واحدة ككتلة من عجـين ، وسقـط بين ذراعي الأم النـائحـة . وراح في لجة من التقلصـات والتشنجنات يخفق كأمواج البحر .

لا أعـرف . هل ينتـاب كل مشـاهد لنوبة صرع ما انتابني من هواجس سوداء . وهـل الـذي كنت أراه هو فعـلاً الـذي يحدث في تلك الحـالـة . لقد جحظت عينـاه جحـوظـاً جعل النظر اليهما مستحيلاً ، ومجرد رؤ يتهما عذاباً . انشبحت فيهما خطوط الدم كأنهما جلدتا بسياط إبرية . وكان فمه الفاغر ينفث بقـايـا الصرخة حشرجةً توالدت وتوالدت حتى صارت غرغرة ، جسماً فيزيائياً يهم بالنـزول في رئتـه فيـدفعـه الـزفـير الى الخارج . وفي هذا كله رأيت نبوءة بالشر ، صورة لشظايا تتناثر في بحر هائج ، وكماشة خوف .

أيـة أعـماق بشـريـة عجيبـة تلك التي تختزن رعباً وألماً وانفجاراً من هذا النوع والحجم . لقد أصابني المد . ولولا وعي أكيد بأني لا أختزن شيئاً أخاف أو أتألم منه ، لتوهمت أني قد أصاب يوماً بمرض هذا الرجل المثنى .

بين المدخل والباحة كانت نازك واقفة مثل الفزاعة . لقد نهبها ذهول لم تعشـه من قبـل ، ولم يبق منها سوى ما يوحي بأنها على قيد الحياة . كان يسير

قد نام . وتعاون علوان وأبو حسن على حمله الى الغرفة ، ويدا أمه تحملان رأسه .

وصل رفيق أبي حسن ويداه وراء ظهره . وقف بحذاء نازك . لم ينتبه أحدهما الى الآخر . راحا ينظران الى جدث يسير وهويدخل الغرفة . وإذ غاب في الداخل ، تمددت في المكان وحشة داكنة مثلما يتغلغل اللون في الماء . « أنا كنت أشاور عقلي ، أسكن هنا أم لا . الآن ، أمام هذه المأساة ، أعتقد ان من واجبي ان أسكن هنا . »

قبل ان تهز نازك رأسها بالايجاب ، التفتت اليه كمن تفاجأت بوجوده . تفحصته بنظرة طويلة فرفرف أجفانه وأطرق .

آخر المساء جاء أبو حسن ورفيقه . سألت نازك من هو هذا الشاب ، وتمتم علوان إنه طالب جامعي يعمل في إحدى الصحف . كانت تدرجات العتم على الجدران تنشطر بالضوء الخفيف القادم من الخارج . صاح أبو حسن : « أستاذ علوان ! » وسأله ان كان يعترض على مجيء « الأخ سعدون » للاقامة في الدار . رفع علوان صوته بالكلام المتواضع المناسب . وغمغمت نازك : « على الأقل سنشعر بوجودهما أننا لم نرم أنفسنا في الفراغ . » ومال جذعها فاستقر على فخذيه . انحنى فوقها . لملم شعرها في حضنه وأرسى يده على خصرها . « معقول ! ولو كانوا أطفالاً . هؤلاء الأبرياء . ماذا جرى لهم ؟ »

ذلك الليل احتل سعدون غرفة ثانية . القاطع الذي يصير فراشاً ساعة النوم ، تصدر الغرفة . عند الشباك الأيمن ، وضع وأبو حسن طاولة فورمايكا كبيرة رزحت تحت تلة من الكتب . تحتها وفي الزاوية ، اصطف قليل من أدوات الطبخ والشاي والقهوة . الى اليسار علت سبع أو ثماني علب كرتون

تكدست فيها وفوقها الكتب . في الزاوية الداخلية وضع مشجب معدني تدلت منه ثياب قليلة .

وبعدها طلب أبو حسن من « الأستاذ علوان » فنجاني قهوة ، « اذا كانت أختي لا تمانع . »

« سأغلي لهم طنجرة قهوة . » قالت نازك . اندهش علوان . « المهم ان أحس بالناس حولي . »

بعد الرشفة الأولى تأوّح سعدون إعجاباً وتقديراً . ورحب علوان بضيفيه مرة ثالثة .

قال أبو حسن لنازك : « لا يهمك منهم . قريباً ان شاء الله تجيء أختي وزوجها ، وتسكن هنا . ووقتها نصير جبهة لها وزنها . » رشف سعدون رشفتي قهوة بانتظار توقف أبي حسن عن الكلام . وللتونبر برخاوة نصف مشمئزة : « لو كانوا بروليتاريا حقيقية كنا تعاطفنا معهم . هؤلاء بروليتاريا رثة . وأسوأ من رثة . جرب . صحيح ، بعضهم فلسطينيون ، وأنا أنحني خشوعاً أمام المأساة الفلسطينية . لكن الرعاع الوطنيين مع المستغلين الرأسماليين أفسدوا عظمة مأساتهم الانسانية . »

التقت عينا علوان بعيني نازك . كان واضحاً ان الجلسة قد انتقلت الى عالم مختلف . سألته : « تعني انهم ليسوا كلهم فلسطينيين ؟ »

« أقل من الثلث ، بحسب إحصاءاتي . عشر عائلات من أربعين . وعائلة كردية . وعائلتان أرمنيتان . وكل هؤلاء لا يصلون الى ٤٠ ٪ من عدد أفراد عائلات البلد . فهمت علي كيف ؟ أنا أعرف أم عبودة جيداً . هي صديقتي الشخصية . »

عادت نازك تسأل بدهشة فظيعة : « أربعون عائلة ! مستحيل ! أين ينامون ؟ »

ورد سعدون برصانة : « وراء الدار يوجد غيتو صغير مسوّر ، يدخلونه من ممرات بعضها داخل الغرف . شعوب ! الفقر جعلهم كلهم لاجئين . »

وعلقت نازك بلا نبرة : « ولهذا السبب يسمونهم فلسطينيين كلهم ؟ »

ابتسم سعدون بثقة : « من قبيل إطلاق الجزء على الكل . ولكن الحقيقة ، أمامك نموذج صارخ عن الشر والتشوه والانحطاط ، الذي يصيب جماهير البر وليتاريا ، لكونها سُلخت عن وطنها بالقوة الاقتصادية . ليس أن نلجأ الى وطن آخر بالضرورة . يكفي أن يقع عليها هذا الحجم الماموثي من الاستلاب والاغتراب ، حتى تصير لاجئة وهي في وطنها . »

جرع علوان نصف فنجانه ، وسأل بلؤم : « كنت ساكناً غرفة في الزقاق ، أظن . مع طلاب آخرين . »

« إي . لكن الباب على الزقاق مباشرة . الضجيج غير معقول . لا تستطيع أن تقرأ صفحتين بتمعن . وأنا أحب أن أتفاعل مع كتبي . وفوق هذا ، لي شريكان في الغرفة . »

دونما توقع نهض عن كرسيه وقصد درج السطح . تأمله قليلاً وعاد : « يمكنهم بسهولة أن يتسلقوا جدار دارهم وينزلوا في بيتكم ، اذا كنتم غائبين . »

نزلت الجملة كاللغم في آذان نازك وعلوان . تبادلا نظرة سريعة تعي ؛ والتقطها سعدون بسرعة : « حتما عندكما شيء تخافون عليه . شوية مال ، مثلاً . طالما الأثاث شبه مفقود . »

سأل أبو حسن بنبرة : « وما يدريك ؟ »

« بورجـوازيـان صغيران ، لازم ان يكون معهم شوية مال ، ويتطلعوا الى المزيد . »

مشى ثانيـة الى الـدرج . وقف وأسنـد راحتيه على وركيه . . تفحص المكـان من جديـد وعـاد : « بكـرة ، أنا وأبو حسن نشتري مسامير ضخمة ، ونمسمر الباب فوق فيستحيل عليهم النزول . »

هدّأت الفكرة من روع نازك . وبسرعة صار الوقت سلحفاة بحجم الجبل .

صاح سعدون بعد أن جلس : « فعلاً عندكم مال ، باين على وجوهكم . »

هتف علوان : « أموال لا تأكلها النيران . ما رأيك لو نخبئها عندك ؟ »

« لا حبيبي ، لا . أنا عدو الرأسمالية رقم واحد . . في هذه الحارة . »

ضحـك الأربعـة للاستـدراك . وكـانت آخـر ضحكة . غادر سعدون وأبـوحسن . ومـع وقع أقدامهما المبتعد ، وثب علوان ولحقت به نازك . هرولا الى الغرفة الداخلية ، وعادا بالكيس .

جلسـا الى الطـاولـة . قبـل أن يمـد علوان يده داخل الكيس نظر الى السطـح . لم ير سوى العتم والضـوء المتداخلين بغير تمايز . نظر الى الباحة . لمح أبا حسن متدثراً بملحفته تحت السقيفة الظلماء ، ثم ضوء الكهرباء القوي السـاقـط من غرفـة سعدون على بلاط الباحة المظلم كتابوت دقيق الأبعاد ولا لون له .

بعـد أن أحصيـا المـال بلهفـة متـوترة ، استرخيا سوية على كرسيهما .

وغمغم علوان : « تعرفين ؟ أكيد أني كنت سأرتكب جريمة لو حدث شيء . »

- ٢ -

[بطاقة : سعدون :

ليس طويلاً ولا قصيراً . ليس نحيفاً ولا ممتلئاً . ليس شارباه ثخينين ولا رفيعين . يعرف أن أصل الأفكار هو الواقع ، والواقع موجود في الكتب . يعرف أن يصف بدقة كيف تتناثر البرادة البشرية على مغنطيس السلم الاجتماعي . ويمكنه أن يعرف الخلل الذي يصيب أي انسان اذا انخلع عن درجته .

أقرب الى الفقر . يعرف أن يصير غنياً ، لكنه لايريد . أقرب الى الفشل . يعرف أن يتخرج بدرجة جيد ، لكنه لا يبالي . باستثناء أبويه وأسرته ، فإن أصدقاءه ورفاقه ذوو أهمية ، وبعضهم ذو سلطان . يعرف ان يحصل على بعض الامتيازات لكنه يرفض .

رفض قربى الدم وعانق وشج العَرَق . بعد أن غادر أبويه وانتمى الى العالم ، أقام على الدوام في الأقبية أو الغرف الحقيرة . الشيء الوحيد الذي أعاق حركته من قبو الى قبو ، وغرفة الى غرفة ، كمية الكتب التي كانت تتزايد بازدياد حاجته الى معرفة الواقع . ما الفائدة من ملايين المعلومات والحقائق اذا لم تستطع تصنيفها ونسبها الى منظومة ـ كان يقول لأبي حسن . ويجيب بالقول : « اذا لم يكن هناك علم يدرس المجتمع ويعطيك حقائقه فلا فائدة من أي علم بالمجتمع . »

يشكو الوحدة أساساً ، فهو منذور كفرد . يشكو الكثرة أساساً ، فهو يتماهى بالبشر . ليس حاراً ولا بارداً . يتصالح على الدوام عملياً ؛ فقلبه يحب الانسانية . يتشاجر على الدوام ـ فكرياً ؛ فعقله يرفض العالم المملوء أخطاء . يعرف أن يطيح بالأخطاء ، لكن الأوان لم يحن بعد .

أول ارتباك حقيقي تغلغل في خلاياه كان يوم شاهد زينب في غفلة منها ، وصعقه جمالها الخرافي اللامعقول . وفي السابعة والعشرين من عمره صار عاشقاً .]

بيد نازك صحن بامياء حارة . وهي واقفة في طرف الباحة . وأم يسير ترش البلاط بالماء الغزير ، وتملأ رئتيها برائحة الأرض ، وتصلي على النبي .

وعلوان وسعدون يثبتان باب السطح بالمسامير والزوايا . وسعدون يهتف : « فكرة عظيمة ياأخ علوان . هكذا نتحكم نحن بالباب ، نفتحه عليهم ساعة نشاء ونرتجه ساعة نشاء . فهمت علي كيف ؟ » وأم يسير أحياناً تموت رعباً من الفلسطينيين . والباب يوشك على الثبات المتحرك في محوره . و« أم اللولو يمكن تجيء لزيارتنا . » ونازك تندهش : « لكنها لا تعرفنا ! » وأم اللولو تعرف كل الناس . وأبو حسن يدخل بأنصاف خطوات وحركة لولبية . على رأسه وكفيه حزمة هائلة . « أختي عزيزة يا أم يسير . » واتجه نحو الغرفة القصوى . وعلوان وسعدون يفرغان من انهماكهما العملي ، ويدخلان في استغراق لغوي . و« ألله يعطيكن العافية . » وترد المرأتان التحية بأحسن منها ، وتتأملان بشغف هادىء جارتهما الجديدة ، وابنتها الصغيرة . « وجهها يقول بنت حلال ، وقدمها خير . » وعلوان يكتشف أن الباب لا فائدة منه ، فالأسطح ستبقى ملكهم . وينصحه سعدون بالتعقل : « الاسطح ليست مشكلتك . » يؤكد أن سلطان هو الذي سيضطر الى مجابهتهم . ومن هو سلطان ؟ وأبو حسن والنساء الثلاث يرتبون الأغراض في الغرفة . « سلطان

ملك الحارة . » « طظ ! ملك على امرأته ، لا علي أنا . » ضحكة صغيرة : « امــرأتــه هي الـوحيـدة التي ليس سلطـان ملكـاً عليهـا . » وانتهى ترتيب الأغراض ، وصفت أواني الطبخ تحت الدرج الخشبي . و« أم اللولوهي امرأة سلطـان . » « ماذا تقـول ؟ مستحيـل ! » « الـزوج السـادس . » « وسيأتي السـابـع قريبـاً جداً . هذه امـرأة لم تخلق لرجـل واحد . » و« أين ابن عمك ياعـزيـزة ، يابنتي ؟ » « عنـده دوام اليـوم . منـاوبة . » « خسبت . من غير شر . يعني هو لاحقك لهالمخدع . »

ترك سعـودن عنـدي انطباعة أحببت أن أختبرها . رأيته واثقاً بنفسه ، وهذه مسألة تحيرني تماماً . أعني ، يستحيل أن يثق الانسان بنفسه ، إلا اذا لم يعد هناك شيء يكتسبه أو يجربه . إن الثقة تعني انسداد العقل .

لذلــك كنت حريصـــاً على هزمـــه بالنـــرد . وضعت كل امكـانـاتي وخـبرتي ، ومهـارتي في مسك الحبتين ، وأرخيت له الحبل وشددته . هوبقي كما هو . لم يتضـايق مرة واحـدة . وطـول الـوقت كانت طريقته في اللعب هي هي . كأنـه آلـة مدوزنـة على حركات معينة . وكنت متأكداً ان هذا التماسك قشرة خارجية غطت على اهتزاز أعماقه بالهزيمة .

عندما انتهينا أخيراً ، والنتيجة ثلاثة لصفر ، صاح طرباً وهنأني . ورفع يدي عاليـاً . وبعـدهـا طيلس علي بهذه الجملة الـروثيـة : « لم أجد برجوازياً صغيراً يلعبها مثلك بهذا الانشداد المصيري ، واللهفة ، مع انها لعبة العقول المتخلفة . »

في ذلـك اليـوم زارت أم اللولـو دار أم يسير . كانت النساء مجتمعات في بهو نازك ، وأمـامهن أكـواب الشـاي . أطلّت أول البـاحـة فأحست نازك باضطـراب ووقفت منبهـرة . وبعـد الصحـوة الأولى ، خيل إليها أنها تشاهد

تمثالاً رومانياً بعثت فيه الحياة فتحرك قادماً من الكابيتول . وجاءتها الصحوة الثانية ، عندما وصل صوت المرأة الأخن ينادي أم يسير بلكنة طفلة غريبة ، فرأت أفانين من الذهب والأحجار الكريمة رصعت شعر المرأة وأذنيها وجيدها وساعديها وكاحليها . إن شيئاً مثل هذا لا يمكن اقتناؤه بما تملكه من آلاف .

صاحت أم يسير بغبطة متضرعة : « فوق ، خانم ، فوق . تفضلي . »

وإذ أطلت السيدة المتألقة في البهو ، كانت نازك وعزيزة في صحوة ثالثة ، تراقبان دائختين القوام المتين المتثني يتقدم رافلاً بالجمال والعافية والسيماء .

قالت نازك انها امرأة ساحرة . قالت إنها كانت سعيدة لغيابي عن البيت وقت زيارتها . هذه المرأة خلقت ليخون الرجال معها زوجاتهم . وهذا التواضع . والديمقراطية : التفتت الى أم يسير وسألتها متى ستتزوجان للمرة السابعة .

لكن هذا ليس أهم شيء ، قالت نازك . أم اللولو جاءت تحذرنا من التورط في معاداة أم عبودة وأولادها الثعابين . إنهم يتخذون من كش الحمام ذريعة لاقلاق راحة البشر ، ولكن يجب ان نكون ماسكي الأعصاب ، أمام استدراجاتهم لنا نحو العنف . هؤلاء ، كشاشو الحمام ، لا تقبل شهادتهم في المحكمة ، لأنهم يستدرجون الحمام بالخديعة والكذب ، لذلك يجب أن لا نتوقع في تعاملنا معهم أي وعي بالأخلاق أو بحرية الآخرين .

لكن هذا ليس أهم شيء . إن أم اللولو أساساً امرأة تعلم بالغيب - تقريباً . أو هكذا يخيل إليك وأنت مدوخ بقولها إنك قبضت منذ عشرة أيام خمسة وسبعين ألفاً ، كانت أصلاً سبعين ، وأنك تخبىء الآن خمسة وثلاثين

بعـد أن دفعت أربعـين زيـادة في ثمن شقـة قد لا تسلم في المستقبـل المنظور . وعنـدهـا يخطـر لك ان تسأل خمسمئـة سؤال ، وستكـون متأكـداً أن أم اللولو ستجيب عنها كلها .

وعنـدهـا انقلبت هذه المرأة الرقيقة الواضحة المباشرة ، في نظرها ، الى امـرأة غامضـة مرهـوبة يمكن أن تفعل شيئاً لا يتوقعه أحد ولا يدري به . إنها عرافـة ولكن لا تسكن المعـابـد . لقـد قالت ـ وهنـا انقلب وضـوحهـا الى غموض خطر ـ ان الدكتور حمد أحد زبائنها ، يشتري عن طريقها أجهزة طبية لمخـزنـه ، وتمنحه أحياناً اعتمادات مالية بمئات الآلاف ؛ وإن أبو خليل يتكل عليها في تجارة البناء .

لكن هذا ليس أهم شيء . الشيء المهم المهم ، أننا نقدر بهذه الخمسة والثـلاثـين ألفـاً أن نفـرش بيتنـا الاشـتراكي على آخـر طرز ونحس أننـا فعلاً عائشـــون في هذا البلد الصعب . غرفـة نوم بخمسـة عشـر ، لوكس . طقم كنبات بسبعة . لوكس اللوكس . غسالة باثنين ونصف . طاولة سفرة ودرسوار بخمسـة . ويمكن أن نؤجـل الـدرسـوار ونشـتري فرنـاً . وهنا وهنا ، خمسة آلاف ، ونرتب بيتنا بكل ما هو ضروري وبسيط وجميل . وأم اللولو ستؤمن لنا كل شيء بنـصـف ثمـن . حتـى المسجلة ، والتلفـزيـون ، والفيـديـو ، والأشرطة ، واللوحات والسجاد ، نشتريها بالتقسيط .

في ذلك المساء جلسنا معاً في العتم ، كما صارت عادتنا مذ سكنّا البيت الجـديـد القـديم . كان جارنـا الأخـير قد جاء ، وانـزوى مع أسـرتـه داخل الغرفة . وكانت أم يسير وهذا « الولد » نائمين . وكانت أم اللولو في مخيلتي . وفي لحظة عجيبة تحولت نازك في وعيي الى صديق من النوع الذي يبوح له المرء بأسـراره العـاطفيـة . ألح علي الخاطر حتى أوشك ان يتجسد في كلمات . غير

أني أمسكت نفسي في اللحظـة الأخـيرة . نازك امرأة غير سهلة . وهي يمكن ان تصير لبوة حقيقة ، أو أبو هول يقتل بصمته . وهذا ما يعجبني فيها . قوتها تجعلني أحس أني أعيش مع امرأة هي ند لي . وأكره شيء في المرأة هو التبعية .

تلك المرأة ، أم اللولو ، أقلقتني . التقيت بها في الباحة ،ووراءها النسوة الثـلاث ، فسـربلني إيحاؤ هـا المغنطيسي المخثـر . أحسست أمـامها أنني بلا دفـاعـات . لكن نازك شيء آخـر ، بالطبـع . هي الحقيقـة الـوجودية الأعق بالنسبـة لي . إنهـا جذري وكل ما يربطني بهذه الأرض ، وهي جذعي وكل ما يربطني بالناس .

في الليـل تهب أحيـانـاً نسـائم منعشة . وهذا الجو ، الذي ليس ظلاماً فيمنـع الـرؤ يـة وليس ضوءاً فيفسدها ، صار في اللحظة المناسبة نسيجاً ماصاً للمشـاعـر الضـاغطـة . تمطت نازك ، ورفعت يديهـا في الجـو فبـان إبطاها ، وصـرخت صرخـة صغـيرة ثاقبـة ثم أطبقت فمهـا بارتخـاء وزورتني . وصـار إبطـاهـا ، بتموجاتها وحشائشها البنية الطازجة ، مصدراً لهذه المشاعر . كان ذراعـاهـا ممدودين على ذراعي الكرسي ، وكتفاها محمولين قليلاً الى أعلى . خط نشأ عند الكتف . امتد مسافة ثم كان النهد . وتحت هذا الريف هجعت وهدة صغيرة بضة .

كنت محتـاجـاً لأن أبطـل تفـاعـلات أم اللولـو وسعـدون والفلسطينيين والحـارة كلهـا ، التي توغلت في خاطـري مثـل كيميـاء سامة . وقالت نازك : « بكرة يأتي شغيل صحية ، ويصل لنا الماء من عند أم اللولو . لا للا ! ونأخذ حماماً . » وقفت وعينـاي عليهـا . وفي ثوان كانت يدي قد امتدت بين زندها وأضـلاعهـا ، ويـدي الأخـرى تحت ركبتيهـا ، وصارت هي على صدري . اعتقلت ذراعاها عنقي ، وراحت ساقاها تشعبطان في الهواء .

عدة مرات صرخت . ضايقني الصـراخ . وكنت مثـل من يدق سبعـة أبـواب دفعـة واحـدة لأعرف من أين الدخول الى مخبرها النفسي . في البداية تحركت بغـزارة . أعـاقتني حركتهـا . لكنهـا بدأت تتـوافق . ثم امتصصت حركتها في إيقاعات حركتي . ولجنا ودلجنا . وكان المطر يسقط فعلاً في داخلي . كأنني كنت محمولاً في جوف غيمة ، أو صرت نهراً لها هي وحدها لتسبح فيه ، وهي بحـيرة لي أنـا لأصب فيهـا . وبعـد أن فاضت آخـر خلجة ألقيت رأسي على نحرها .

أذكر هذه التفاصيل لسبب مهم . بعد وهلة قصيرة على غير العادة ، حمحمت هي ، وفهمت أنـا فتنحيت . وفيـما أغـادر الى الحـمام ، انكبت هي على وجههـا وغطت رأسهـا بيديها . كانت تشبه جروداً جبلية شاهدتها يوماً في لبنان . كانت فعلاً جميلة .

عندما عدت حاملاً مغلاة القهوة والفنجانين ، كانت هي تبكي . ليس هنـاك سلوك عصيـاً على الفهم . فإمـا ان يرضيـك وإما أن يغضبك . لكنني هذه المرة اندهشت .

« أنـا صرخـت عشـر مرات . لأي شيء لم ترد علي ؟ كيـف أعطيت لنفسك الحق بالاستمرار ، وأنا أتوجع من وحشيتك وأختنق ؟ » وكانت مصرة ان تعـرف سبب هذه الـوحشيـة لأن إحساسها يقول لها اني كنت أمارس الحب مع امرأة أخرى . أو أني صادفت جسداً متوفراً فألقيت رحالي فيه .

مبغـوتـاً ، حائـماً حول منفـذ للدفاع عن نفسي ، قلت : « لكن كنت مبسوطة . أنا متأكد أنك كنت مبسوطة . »

هوت بقبضتيهـا على فخـذيهـا وصرخت : « وهذا الذي خلاني أحتقر نفسي . كنت تدوسني ، وأنا ، أوه . . ياربي ! »

كان إحساسها صحيحاً . لا شيء يخفى على نازك . غير أنه ـ وعلى الأرجح بسبب كبر يائها ـ لم يصل بتفكيرها الى أم اللولو . وفيما أطيب خاطرها ، وأستنجد بحبي لها الذي تعرفه تماماً ، كان حس مبهم بالخطر يحوم حول دائرة رؤيتي ويرسم حلزونات متضاخمة لقامة أم اللولو .

[بطاقة : أم اللولو :

بعد أن ذهب العمر بجمال أم الجوجو القاسي ، اضطرت الى ترك الحارة والعودة الى بلادها في الشمال . وكانت ابنة عمها أم اللولو الوحيدة المهيأة للحلول محلها ، فأطلت من الغرب ، وأشترت هذا المسكن الضخم ، وهيمنت منه على الحارة . وسرعان مااكتسبت ثقة نضرة ، فتطلع اليها الجيل الجديد وأصحاب الدكاكين . تزوجت سلطان ، قبضاي الحارة ، وشيخ العروة الوثقى ، ودون أن يدري أحد كيف أومتى ، صارت جزءاً مكملاً لحياة الحارة ، شرياناً لاغنى عنه ، وعلامة محلية .

تعرف العالم قطباً ومداراً وخط استواء . إذا جاء حديث الصومال ، تكلمت من الموز فكأنها مقيمة هناك . إذا جاء حديث البرازيل ، تكلمت عن البن فكأنها انبثقت من وادي الأمازون . إذا جاء حديث اليابان . تكلمت عن (تيبين ياكه) فكأنها ترعرعت في المطبخ الياباني . لرؤيتها يستغرب المرء لم لا ينتهي الفقر . إذا شاءت غطت جسدها الروماني بملابس من مناجم جنوب افريقيا . إذا شاءت رصفت أزقة الحارة بالذهب وفرشتها بالقطع النادر . لكنها تشاء البساطة غالباً والتقشف .

توشك ان تنفجر باللون والعافية . اسمها على كل شفة في الحارة ولسان . والدكاكين دائماً مفتوحة لها . لرؤيتها يستغرب المرء لم لا يباح تعدد الأزواج . لا يعرف أحد متى تتزوج . لكنهم يعرفون متى تطلق . والعصمة

دائماً بيدها . لا تخاف منها النساء . لكن الرجال يحلمون بها . وهي ليست ملكاً لأحد . استطاعت ان ترضي جميع الأذواق بتنوعها اللانهائي ، وتلبي جميع التطلعات بآفاقها اللامحدودة ، وتقنع جميع العقول بديمقراطيتها الصارمة وحبها المتساوي للجميع ومشاريعها التي لا تنتهي .

عافتها فئة من الناس فلم تحس تجاهها بالالفة ولا بالمحلية . نصف هؤلاء لم كن لديهم بيوت ، وثلاثة أرباعهم لم تكن لديهم أحلام أو دكاكين ، وكلهم لم يحبوا أحداً .]

علوان وسعدون وماجد في المدخل ، يحفرون تحت الجدار الفاصل بين دارهم ودار أم اللولو . تراقبهم أم يسير . عزيزة منهمكة في اعداد الطعام . نازك هادئة ، فرحة باستعادة الماء . قالت ام يسير : « لازم تفرحي يابنتي . الله خلق من المية كل شيء . محسّبة شغلة هوينه ان الواحد يبرم حنفية وتنزل منها الميّه ؟ بس ، رددي بفمك آية الكرسي ، حتى ما تحل الجن في المواسير . »

ماجد يحل عزقة الخط الرئيسي . يحرر الانبوب الفرعي . علوان وسعدون قطعا الماء عن دار أم اللولو الجنوبية وفصلا أنبوبها . راحا يلفان النهايتين المسننتين بفتائل القنب تمهيداً لنقل الأنبوب الفرعي اليهما . « أين الشد وصل يا ماجد ؟ » « في جيبك يا أستاذ.»

أم يسير مشبوكة الذراعين . وهم أمام عينيها منهمكون مستغرقون . صامتة وشعورها أقرب الى النشوة . انطلقت ثانية الى نازك .

« قرّبوا يخلصوا ، قرّبوا يخلصوا . حضري لهم الشاي . »

« القهوة يا خالة . الجيل الجديد يفضل القهوة . »

فتحت جميع الحنفيات في بيت نازك . اندفع الماء بخرخرة خشنة متقطعة . تدفق في الجورذاذاً وعلى الأرض جداول . وبين الجو والأرض رقصت معه أم يسير .

الرجال الثلاثة وقفوا يحتسون البيرة الهولندية . جرعوا مباشرة من الصفائح . أحأحوا . استغرب سعدون أن يدفع ماجد ثمن بيرة ، بينما فقر الدم مؤكد في جسد ابنته . ضحك ماجد . « هذه على البيعة . » باع صندوقين وربح منهما ما يكفي لأن « أشتري لحالي خمس تنكات . » ضحك بقوة ، استجابة للنكتة التي صاغها بنفسه . وبشره سعدون بأنه التحق نهائياً بالمجتمع الطفيلي الاستهلاكي . « مرابح بدون انتاج . لكن الغريب ان يصل اليك أنت ، ولك هذا الموقع الطبقي . »

رمى ماجد بالصفيحة الى الزقاق . تفّ على راحة يده وفركها بالأخرى : « يا الله نسد الثغرة . »

في المساء تعزز نفور حميم عندما لعب الأربعة بالورق . ولأن أبا حسن يرفض أن يشارك زوج أخته ، فقد صار حتماً ألا يتشارك علوان وسعدون . وكانت النتائج غير عادلة . لقد ربح علوان وماجد على طول الخط . وانتهت المباراة بتثاؤبة وديعة من أبي حسن ، وتعليق رخي : « لو كان عند شريكي شوية جرأة ، كنا بطحناكم . » ونظر الى اللمبة الكبيرة المعلقة فوق رؤوسهم .

ثم تبين أنه لم يعد لدى أحد ما يقوله . تمطى علوان مستريح النفس . وتثاءب أبو حسن مرة أخرى . وخلال لحظات عاد كل منهم الى البوابة التي خرج منها نحو الآخرين ، ثم لم يلتفت .

هذه الدار التي كانت قبل أيام قليلة منزلاً للأشباح، صارت الآن ظاهرة حاروية .

قال سعدون انه كان متوقعاً ان يعصف المخطط الجديد بدور أخرى ، فينتقل سكانها الى مساكن جديدة ، وتدرج في قائمة البيئة المحكوم عليها تقدمياً بالاعدام ، ولكن ها هي ذي تبعث حية وسط دهشة الناس أولاً ، وعبر فيض من المشاعر المتضاربة المتناقضة ثانياً . كان هذا البعث هاجساً مستحيلاً ، مضاداً تماماً للتوقعات ، بعد أن أوشك الصدام بين المشروع السياحي والرعاع ان يقع ويصير دموياً . ولكن ها هي ذي الدار ، الآهلة الآن والمنتظرة مزيداً من الأهل ، تجتذب سعدون نفسه ، فيترك حياة الغرف المأجورة ويحل فيها . ان مدخلها يقابل تماماً مدخل دار زينب . وذلك هو الغنم الكبير .

- ٣ -

نعم سيدي . أم عبودة بشحمها ولحمها جاءت تسلم علينا . « لو كانت اسوارتي اوقية ، مالي عن جارتي غنية . » قالت . اعتذرت عن تأخرها في السلام حتى ذلك الوقت . ماذا يعني : اعتذرت ؟ هذه امرأة لا تعرف تلك اللغة . لم تنقل كلمات من نوع : أنا آسفة ، وأنا مقصرة ، والمسامح كريم . أبداً . حكت لنا كيف لم تقدر على المجيء ، بلا كلمة اعتذار واحدة . لكن كل نبرة ، كل لفتة ، وبحياء عفوي أصيل غير مرتبك ، كان تقول كم هي آسفة فعلاً .

نازك استسلمت تماماً للهفة والفضول . هذه المرأة التي كانت الى عهد قريب خدامة بيوت . بدت أمّاً بحق وحقيق . بل كانت متخمرة بالأمومة .

كأنها أنجبت ألف ولد . تتكلم ببطء . تبتسم بسرعة . تبتسم ، تنكمش شفتها العليا وتفصح عن أسنانها الناصعة . بينما تنفرش الأخرى على الأسنان الدنيا . لم يبد أن لها عقلاً ضخماً . لكنها التقطت كل صغيرة وكبيرة بحسها وشعورها . وهي تنصت . تنصت بشكل عجيب وتوريطي . حسبنا ان واحدة مثلها لن ينطبق فمها عن الكلام . ولكن أبداً . بعد نصف ساعة صار واضحاً أنها لا تحسن الكلام ولا تحبه .

لكنها كانت تحسن الإجابة عن الأسئلة . سعدون مثلاً ، سألها عن المكونات العميقة لهذا الصراع الدائر بينها وبين أم اللولو ، فاكتفت بالقول « يابني ، لما بيغنى شخص واحد ، بينفقر مية ، وبهالحارة ، نحن المية ، وأم اللولو الواحد . » وسألتها نازك لماذا تترك الأولاد على حريتهم في اللعب على الأسطح ، فقالت : « حتى لا يأكلوا بعضهم في الدار . كل واحد يابنتي ، الله سبحانه وتعالى خلق له شفقة أرض يقف عليها ، نحن كل عشرة لهم شقفة . ونعيش محرومين من كل شيء . لكن ، رضينا بالموت والموت مارضي فينا : أم اللولو مخططة ترمينا في الشارع كرمى لمشروعها السياحي وتجارتها . »

لكن الذي هيمن على مشاعري وأفكاري أن هذه المرأة اللاشيء تمتلك تاريخاً خاصاً بها . تاريخاً حقيقياً منسوجاً في التاريخ العام . تستطيع ان تقول في عام ١٩٤٨ اغتصب وطني ، وفي عام كذا صرت لاجئة ، وعام كذا تزوجت ، وعام كذا قتل زوجي ، أو ابني . وعندما غادرت انكفأت الى نفسي وسألت : صحيح أنا أرفض أن تكون لي اسطورة شخصية ، لكن ماهو تاريخي ؟ وما معنى أني وجدت في هذا الزمان وهذا المكان ؟ وما الذي ينتظرني وانتظره من بقية العمر ؟

حتى إذا جاءت أم اللولو في اليوم التالي ، ومعها مفاجأتها الكبيرة ،

كانت أعصـابي مطبقـة أحدهـا على الآخـر . انفـردت بنـازك في الغـرفـة الـداخليـة ، وقلت : « اسمعي نازك . مشـروع أم اللولـو تبـديـل أثاث بيتنا مشـروع مرفـوض تماماً . البيت الاشـتراكي الـذي ننتظـره ، لا تدخله هذه الآفات البرجوازية إلا على جثتي . »

قالت نازك : « أما كلام ! من أي شيء أنت خائف ؟ »

« أنا لست خائفاً . هذا موقف مبدئي ، ويجب ان يظل ثابتاً . يجب أن لا نفقد الرؤ ية ولا الاتجاه . »

قالت : « علوان ! أخـذنـا خمسة وسبعـين ألفـاً ، ولم نفقد الرؤ ية ولا الاتجاه . ماذا جرى ؟ »

« لم يجر شيء . لكنـه سيجـري . يمكننـا ان ننجـو من منزلق واحد . لكن اذا كثـرت الانـزلاقـات ، لابد أن نقع . نحن لم نأخذ مصلاً مناعياً ضد هذه الغوايات . »

لكنهـا ابتسمت متخففـة من ثقـل انـذاراتي ، ومشت : « الذي عنده وعينا وإيمانتا ، لا خوف عليه . »

وكانت أم اللولو قد أوعزت لرجالها ففكوا السرير ـ سريري ! ـ والعلاّقة وكـل شيء . حملوا الـتر بيـزات وكل شيء . وقد تصدرت بهو المنزل وأعطتهم الأوامر والتوجيهات . انتصبت هناك ، أكبر من أن تلاحظ اعتراضي ، أرهب من أن أجرؤ انا على اعتراضها . انتصبت بقوامها الناضج البهي ، وذراعيها الصـافيتـين الصيفيتين ، أقرب الى الظهور منها الى التجسد ، فألغت كل ما بوسع العقل واللسان ان يفعلا لايقاف الجنون الذي يحدث .

في الليل قالت نازك إنها وفرت عشرة آلاف . « تصور ! غرفة النوم هذه

بخمسة وعشرين ألفاً ، أقل شيء ، في السوق . حسبتها لنا بعشرين . أخذت عشرة ، وأخذت رثاثتنا بعشرة . »

قال : « أما كان لازماً ان ينزل السعر ألفين او ثلاثة ، مقابل ذكرياتنا ؟ » ثم وجد نفسه يتكلم بحرارة ولكن دون انفعال ، عن حياتها التي تعمدت بالحب والدم والصفاء والشجار والأسرار والهموم والفرح . « كيف تبيعين هذا التراث ؟ »

وإذ برز شعوره أمام وعيه مرسوماً بالكلمات ، صار حقيقة مشخصة . واندفع من الإشفاق الحزين على ذكريات غنية بيعت ، الى حس بغربة كاسحة عن نازك وتطلعاتها . لقد اقتطع منه جزء حميم ، استلب بفظاظة .

وارتدت الى وعيه فكرة قديمة متوارية ، هي أن الموت لا يأتي الانسان فجأة ، وانما بالتدريج ، بعد ان تكون أجزاء مثل هذا الجزء قد استلبت من الكائن الحي بفظاظة . فكأن لحظة ما يسمى بالموت مجرد تتويج نهائي لموت بدأ متقطعاً ولكن منذ عهد قديم .

كانت نازك تدور بين قطع الأثاث الجديد ، وتتفقدها مرة تلو مرة . وفيما هو يتبعها كالمسرنم ، كانت أصابعها تتحسس ، وجسمها يجرب الاستلقاء على السرير ، وعيناها تستغرقان في المشهد والفرح . أخيراً التفتت اليه ووجهها يطفح بشراً وبشرى : « بذمتك ، أليس هذا الجمال والفن دواء للأعصاب ؟ افرد وجهك شوية . افرده . صار لنا سنين ، عائشين بلا أهل ولا أصدقاء ، لنتمكن من تسديد أقساط بيتنا الاشتراكي . الآن ، أو بعد قليل ، نستعيد كل علاقاتنا ومحباتنا مع الناس . ونزيد عليهم ، أهل هذه الحارة التي تحبها . »

كانت سعيدة وواثقة الى حد جعل مشاعره تقترب من مشاعرها في محاولة للفهم . كان السرير آية جمالية حقاً . والخزانة الكبيرة الرشيقة ، والعلّاقة ، والمرآة ، وكل شيء . وسرعان ما أفسح لحسه الجمالي مكاناً ، وأيقن أن ما يراه أمامه فرح وراحة ، وأنه ليس ضرورياً أن تقترن الاشتراكية بالبؤس والبشاعة .

وسألت نازك : « نحن لسنا خائفين على أنفسنا يا علوان : أتذكر حديثنا بعد اتفاقك على الفروغية مع الدكتور حمد ؟ نحن ضمانتنا أنفسنا . »

وعندها أيقن أنه رومنتيكي خائب ، وان خوفه الداخلي يتناقض مع وعيه الخاص ويعكر عليه فرحاً حقيقياً لا خوف منه . غير أنه ظل يتساءل إلى أين سيقوده ذلك الفرح .

وذلك الليل أحبا بعضهما بعضاً على السرير الجديد . وقبل أن تغفو أعينهما ، تمتمت نازك : « علوان . بدلاً من أن نندب ذكرياتنا يجب ان نصنع غيرها . حتى أم يسير زلغطت للأثاث الجديد . »

وقد ناما حتى الظهيرة . وعندما استيقظا كانا مايزالان خاملين . غير أن نازك هزت كتف علوان هزات متتالية : « قم ياأخي ! بعد شوية تزدحم الطاولات . لا يعود لنا مكان عند طرف النهر . » وتذكر ساعتها ان اليوم جمعة .

نهض وتمطى . انتبه الى قامة ضخمة تدخل باحة الدار . رجل فوق الثلاثين بقليل ، على وجهه ابتسامة منتظرة سمحاء ، يمشي بإلفة وثقة وهدوء ، والى جانبه تتحرك قامة يسير كأنها تستتر به .

كان الطلب مربكاً تماماً : علوان يذهب لصلاة الجمعة ! انه لم يرفع

راحتيـه نحـو أذنيـه مذ توفي والـده . لكن موافقة ماجد السريعة ، وقبول أبي حسن المتضع ، ورفض سعدون الصلف ، جعله ينضم الى الرجال الأربعة ـ بهدوء قرير وفتور مستتر .

تلك كانت الانطباعة الأولى عن سلطان . رجل عملاق القامة ، متين البنيـان ، وسيم المحيـا . أطـل بابتسـامـة رضيـة وأدب آمـر . وقـد نظـر الى سعدون ، الذي تعلل بالدرس والامتحانات ، نظرة أوشكت لكثرة اعتذارها وتفهمهـا أن تكـون خفـرة . كان يرتـدي جلابية فضفاضة بيضاء وينتعل خفاً حديثـاً . من يده تدلت مسبحـة لازوردية حدقت اليها عزيزة باستغراق ، وفي خيالها تصورات كثيرة .

كان يوحي بأنه من عالم مختلف . رجل جاء بالصدفة الى دنيا لا شأن له فيهـا ولا وقت طويـلاً . انـه مقيم وليس باقيـاً . لم يكن في خاطـره أن يتكبـد النـاس . لكن كل بضع خطوات في الزقاق اجتذبت اليه رجلاً خرج من باب الـدار ، فكأنـه مع المركب الصغير على ميقات . وفيما ينضم اليه الرجال عبر الـزقـاق ، فالسـاحـة ، فشارع العروة الوثقى ، بقيت ابتسامته المتفرجة ترسم وجهاً مغتبطاً ، وديعاً ، محباً .

قبـل أن يصلوا الى الجـامـع ، وسـط رهـام منعش من تراتيـل أطلقتها مجهـرات الصـوت ، كانت سيـماء وجهـه قد صارت حالـة شعـورية في نفوس مرافقيه ، صفاء ورضى وتسليماً للقلب والخاطر . وراح علوان يتعثر في مشاعره الحاضرة كما يفرح جسد تخوض ساقاه في البحر وهو يريد أن يعانق الموج حتى أذنيه .

[بطاقة : سلطان :

كان فتى جائش النفس لا هف التطلعات . لم تستطع بصارة في الحارة

أن تتنبأ له بغير الكلمات المشوشة . ومرحين من الدهر ألقى على الحارة فيه ظلاً كثيفاً من الرهبة والتوقعات الدكناء . ربما لأنه لم يستطع أن يقرأ الا القليل من حارة أنبأت بالكثير . وكان فتى فائر الامكانات . ثم جاءه من علمه القراءة : فتى آخر ، هادىء الوجه ، بركاني الوجدان ، قليل الكلام ، كثير الايحاءات ، على لسانه شرائع ، وفي نفسه عزم على تطبيقها ، ويسمونه الشيخ محمد .

في أواسط عشريناته استوى سيداً ضخماً . بعد أن مات رفيق عقله فجأة أحس بالوحدة والفزع . لكنه استعاد بالتدريج عافية روحه ، وبعد حين قصير أحس أن ذلك الرفيق قد مات ليسكن فيه . وهكذا أضيفت الى أدوات القبضاي في يده ، أدوات المشرّع في عقله ولسانه . وأصبح اللمسة التي يحتاجها متوعك الوجدان ليطيب ، والمرجع الذي تحتكم اليه القلوب المخلولة المتنافرة . وكان قد جمع ثروة صغيرة ، فأعطى الناس مثالاً في كيفية مضاعفتها بالجهد والراحة والكسب الشريف . واذ اجتمعت لديه قوة الايمان وقوة الصولجان ، ظهرت أم اللولو .

كانت تحمل بيدها مشاريع كثيرة ، فالتقت باليد التي تحمل أدوات كثيرة . واستعدا لجميع العوائق والعائقين . كانت امرأة تحب الشباب ، وكان هو شاباً . وكانت تحب المنذورين لرسالة عليا ؛ وكان منذوراً . وكانت امرأة جميلة وقوية ؛ وقد أحب القوة والجمال .]

فرغ الزقاق من رجاله . أنصت سعدون ، وفرح للصمت الناشر . في المدخل العاتم فرك يديه . تقدم خطوتين . مد رأسه الى الزقاق . صمت كثيف ، وخلاء جامح . صفر نغماً قصيراً خاصاً . نظر الى الباب المقابل . صفر ثانية . وثالثة . ثم هتف رغماً عنه : « زينب ! زينب ! » عيناه ثبتتا على الباب . تحرك الباب . انفتح شبراً .

« الزقاق فاض . مافيه أحد . »

اتسعت الفتحة شبراً آخر . أطل من قلب العتمة وجه أبيض تحيط به هالة كثيفة سوداء . والعينان بحيرتان . تنظران الى المكان الذي توقعتا رؤ ية سعدون فيه . كان يموج فيهما شوق أخضر وتوقع مقلق لشر محتمل . وإذ انجلى الخوف ، انجلت القامة الباسقة الفرعاء . واجتاحت سعدون ببشرة جلتها الاقامة المتواصلة في العتم فصارت أرق من أن لا يجرحها هبوب الريح . ثم انتشلته عينان ذابلتان واسعتان . واستلت شغاف قلبه شفتان مثمرتان ، وابتسامة انتشرت في الوجه اللجيني كله وهي تتعرف على سعدون .

قبل حوالي عام لمحها وأمها تعبران أمام غرفته السابقة . كانتا مسربلتين بالأسود . لكن بياض وجهها ولهفة قلقة في عينيها نفذا الى قرارة نفسه وأنهضاه الى الزقاق . أمثل هذا السحر موجود في هذه الدمن ؟ عندما همت بدخول دارها وراء أمها ، التفتت وتطلعت الى آخر الزقاق دون أن تخصه بالنظر . تأملها مبهوراً . على بعد أمتار ! وكان يمكن ألا يراها قط ! ان ثقافة من هذا

النوع ، ومجتمعاً مركباً هذا التركيب التجاوري الالغائي ، لن يسمحا بغير القطيعة بين الانسان والانسان .

ولماذا انتقل الى دار أم يسير ؟ لكي يناديها هكذا فتأتي ويراها . لكنها لن تتمكن من رؤ يته كالسابق فيما هي تعبر الزقاق ، لأنه سيكون في الداخل . الرؤ ية لم تعد كافية الآن . وما هو الكافي اذن ؟ الرؤ ية والمحادثة . هو ولد خبيث . والملامسة أيضاً . أف ، أف ! طبعاً ، المادة أساس الحياة . انه شاب رذيل . بل شاب عاشق ، مسحور بعينين كالسماء ؛ وهي يجب ان تتعرف على جاراتها الجديدات وتزورهن . والسكين المسنونة ؟ تهديدات

فاضية وهي يجب أن تقاوم ؛ هو لا يعرف أباً في هذا العصر يمكن أن يذبح ابنته . هو لا يعرف أبا زينب .

تراجعت زينب فجأة ، كأن يدين قويتين شدتاها من الخلف . استدارت وغابت . كان فتيان فلسطينيان يقتربان بخطوات خرقاء .

قلت لنازك ان سلطان هذا رجل ساحر . انه بديل عالم فؤاد بيك المفقود . مبرأ من التجارة والازدواجية والوسطية . سرمد من الثبات والرسوخ والاستقرار . هذه البساطة . الجلال . صحيح هو محافظ ؛ لكن ما لنا وما له ؟ ليس المهم أفكار الانسان ، وانما علاقاته ومقدرته أن يقبل بالآخر الانسان . نعم ، انا كنت على حق . هذه هي الحارة العريقة الأصيلة . وهذا هو التراث العظيم . وسلطان ، باختصار ، شيخ حارة أصيل .

بعد الصلاة جاء بنا الى قصره ـ وهو واحد من ثلاثة في الدار ـ وصعد بنا درجاً متحلزناً ، فيما هو يخبرنا عما يفعله الأشقياء على سطوح المنازل . لم يتعب ، رغم الكلام المتواصل . وعلى السطح تركنا للمنظر الفريد . سعة وامتداد واطلالة . وانا الذي لم أمارس أي شعور من مشاعر السيادة ، أحسست أن قدمي ترتعشان وهما تطآن السطح الاسمنتي المستوي . تقدمت بوجل ، وحسي بالارتفاع الشاهق يتفاقم حتى ليغدو خوفاً . لقد امتدت المدينة كلها تحت قدميه . كيفما التفت ، أحسست أن هذه البيوت المترامية ترسم دوائر حوله وتتكاثف تحته .

هذا الحس لم يدم طويلاً . كان الرعاع يحتلون الأسطحة التي تحت . مثل ملعب متفاوت الأصعدة ، انبسطت المساحات الطينية المتلاصقة المتلاحقة تحت أقدامهم وجعلت أوائلهم ملء العين وأواخرهم ملء الأفق . وفي السماء المتعرقة قيظاً رفرفت قطعان الحمام وتقاطعت فأوشكت أن تصير

مظلة . ونحوها تعالت حجارة ترميها الأيادي ، وصيحات تطلقها الحناجر .

« ما رأيكم ؟ » هتف سلطان بمتعة وابتسامة . كان منظراً ينفرد بشحنة استفزاز هائلة . « أوهكذا يكون كش الحمام ؟ » كان صوته مفعماً بالنخوة . « غاب الرجال عن الحارة لأجل الصلاة ، فاستباحوا محرماتها . كم أختاً تكون الآن متمددة في الدور من شدة الحر ؟ »

بدا على الفتيان ارتباك . ثم انتشرت الفوضى . حتى الحمام تعثر في طيرانه إذ تشوشت موجهاته . ضل مسالكه السماوية وطار كيفما اتفق . « ما رأيكم ؟ تعالوا نجرب حظنا مع هذا الحمام المنافق . »

أخرج من جيب جلابيته مسدساً . صوب في الجو . انطلقت رصاصة وهوت حمامة . ثم انطلقت رصاصة ثانية وهوت حمامة ثانية . « أظن الحمامتين وقعتا عند أم يسير ياأخ علوان . »

كنا جميعاً مبتسمين مأخوذين . تحركنا بوحي من حركته ، هوويستدير عائداً . كانت الأسطحة شبه خالية الآن ، والبقية الباقية من الفتيان تغادرها ببطء وصمت .

لكن أم يسير رفضت أن تمس الحمامتين . « ياابني ماتوا ولا أحد صلى عليهم . وإذا دخل أكل الحرام في المعدة انصابت بالقرحة . » لذلك انتقلت سعادة ذلك الصيد الى عزيزة .

كان قتل الحمامتين بشيراً براحة مقبلة طويلة المدى . لذلك لم أتضايق كثيراً عندما أخبروني في الجمعية السكنية ان اختلاسات ضخمة قد اكتشفت واكتشف معها السبب في الزيادة الرهيبة الأخيرة على ثمن « بيتنا الاشتراكي » . قلت لنفسي ان الهدم لن يبدأ قبل سنتين ، وطالما ان الأهالي

لا يضمـرون لنـا عداوة أو مكـروهـاً ، فيمكننـا ان نبقى الى ان يصير استلام الشقق جاهزاً .

لكن نازك ثارت ثورة عميــاء : في العـالم كله رجـل يتراخى في مسألـة سكنـه وسكن أولاده ؟ قالت إننـا يجب ألا ننسى أن إقـامتنـا هنا موقتة ، وهذه الأحلام الرومنتيكية عن الحارة والأصالة لا تبني شقة . قالت ان حياتنا مرتبطة « ببيتنـا الاشـتراكي » وليس بصيـد الحـمام على الأسـاطيح . « استلم بيتك وبعدها اسكن في الأصالة قدر ما بودك . »

قلت مازحاً ان سعدون سيطير فرحاً لو يسمع هذا الكلام ، وسيعتبرها زعيمة اشتراكية منافحة عن الخط التعاوني .

« اسمـع علوان . لا تضيع مستقبلنا بالرخاوة والكلام . بودنا الشقة ، يعني بودنا الشقة . هي مستقبلنا . والحياة بعمرها ما قدمت شيئاً لواحد مطمئن . »

« عجيب أمرك ! كأني بجرة قلم أقدر أغير واقعاً فاسداً ! »

« قم شف زمـلاءك المشـتركـين . تحركـوا . افعلوا شيئـاً . لأن هذه السرقات ستلفلف . كفى ادانات للواقع الفاسد ، قوموا غيروه . »

« شفت هناك أبو خليل ، وعرض علي أني أبيعه الشقة . »

« شفت ؟ معناها هذه بيوت لها قيمتها . »

« معنـاهـا ، ناس مثلنا ناس صغار . لا يقدرون على أبو خليل وأمثاله في صراع اقتصادي .

« ماذا نفعل ، طيب ؟ »

« نتحد في حزب سياسي ، ونتحرك حتى نستلم السلطة . »

« كرمى لربك ، بلا خفة دم . »

« وعندما نستلم السلطة ، لا نعود بحاجة الى بيوت اشتراكية ، لأننا سنسكن في العلالي . »

« يا الهي . لمسوه . »

«وسنبطح أبو خليل وأمثاله ، ونرسي القواعد الراسخة التي لا تخرق للمجتمع التعاوني الديمقراطي . بيت لكل أسرة ، حديقة لكل حي ، وعندها يولد فجر اشتراكي عدالي تاريخي أصيل . »

« إيش كان جوابك لأبو خليل ؟ حتماً استعجلت ورفضت . »

« طبعاً . هو أيضاً قال استعجلت . وجوابي لكما أنتما الأثنين : أنا صاحب مبدأ ولا أقبل المساومة . حتى لو قبلت عقلياً . منطقياً . نفسياً لا أقدر . تركيبتي هكذا . »

« تركيبة غلط ، أستاذ . الدنيا أخذ وعطاء . المهم ألا تخسر نفسك . »

وهكذا كان . توارى عن الوعي والاهتمام موضوع الاختلاسات ، وبرزت أمور أروح للنفس وأقل عناء فاستأثرت بالاهتمام . كان المشروع السكني التعاوني برمته أملاً فضائياً هائلاً ثقيلاً . ومنذ البداية لم يستطع علوان ولا نازك أن يعرفا ماهيته أو يستوعبا اتجاهه . كان عليهما أن يدفعا أقساطاً شهرية ، فدفعاها . زيادات متقطعة ، ثارا عليها بالطبع ، ثم لم يجدا مناصاً من قبولها . بعد كل شيء سيكون لهما بيت ، وطن صغير صحي ، وسينجبان فيه . وكانت ثمة تأجيلات متقطعة . وهذه أيضاً قبلا بها . كان يكفيهما أن

ذلك الحتم سيتجسد ، وأنهما لن يصيرا فلسطينيين داخل وطنهما . ولأن المشروع عالم بمثل هذه الضخامة ، فقد اعتادا ألا يبحثا في أموره . ولأن للبيت ذلك الرصيد الضخم من طمأنينة الوجود ووجود الطمأنينة ، فقد نفرا من كل فكرة حملت الى خاطريهما الواجفين تلويحة شك بتحققه .

في اليوم التالي جاءهما واحد من تلك الأمور الأروح للنفس . كنبات مصأصئة تخرج وكنبات مذهلة تدخل . وأم اللولو واقفة في باحة الدار ، ذراعاها القويتان البلوريتان أشارتا بالأوامر للشغيلة ، وأحياناً فمها العقيقي . كانت ترتدي سربالاً بطولها الكامل ، مخصراً تحت الخاصرة ، وشعرها الخرنوبي مربوطاً ذيل حصان . وعندما دخل أبو حسن ، مبكراً في عودته على غير العادة ، تقدم نحو غرفته بهدي ذاكرته ، وظلت عيناه ملتفتين على قوامها حتى تعذر على رقبته الالتفات . وعندها ارتطم بالعتبة ، فمد يده وتلمس الباب ، ثم مد وجهه وعينيه .

غادرت أم الولو الدار بعد أن رتبت الكنبات الجديدة في غرفة الضيوف . ولم يطق أبو حسن أحلامه التي انهمرت عليه سيلاً عتياً ، فغادر الغرفة . ومن الباحة لمح نازك تتأمل المكان الذي هي فيه . رأته فلوحت له بيدها تلويحة سعادة . ياللانسانة اللطيفة الجذابة . وخرج الى دكانه .

عاد علوان . رأى نازك واقفة بباب غرفة الضيوف . تنحت ؛ ورأى . ابتسم وهو يكتشف القطع الجميلة المتقنة الصنع ، واحدة بعد الأخرى . كان القيظ قد أناخ عليه ، فنخ على اول كنبة . وتنقلت نظرته المتفحصة في أرجاء الغرفة . اتضح له أكثر فأكثر نصول هذه الجدران وبباسها ، بشاعتها ، شيخوختها ، وحتى تسوّسها . وسط هذا التداعي والتآكل سطعت الكنبات ببهاء وحياة وجمال . كانت لمسات لا يمكن الاعتراض عليها ولا تجاهلها .

« ولكن ، اذا ظللنا نصرف أموالنا بهذا الشكل ، ربما قرروا زيادة مفاجئة على ثمن البيت ، ونخسر الشقة وكل ما اشتريناه . »

« قوموا قاتلوا لأجل حقوقكم . اجبروهم على الالتزام بتعهداتهم . من أين تصح لي هكذا فرصة مرة ثانية ؟ »

وعادا يتأملان الكنبات ـ خشبها ، وقماشها ، وشكلها ، وتلاوينها ، وحفرها ، ونتوآتها . من أين يأتي الناس بهذه التصاميم المدهشة ؟ وكم يستغرق من الزمن صنع أشياء بلا حياة ، يتحايل بها الناس على الحياة ؟ إنها أكثر اتقاناً من أية لوحة ، وأكثر فائدة أيضاً .

أحس بالراحة والانشراح ، وبشيء من السمو والكبر . إن هذا الذوق الرفيع ملكه ، مرشوش في بيته . وقال لنازك : « اعملي حسابك ، هذه آخر شروة نشتريها . أرجوك ، لا تخلقي سبب للشجار فظيعاً كهذا . نحن لا قبل لنا بالتطلعات البرجوازية هذه . » ونهض الى قيلولته .

في المدخل العاتم كان سعدون يطلق تصفيرته للمرة الثانية . لقد كان نجاح الأمس باهراً . نادى بصوت شحيح . تحركت درفة الباب المقابل . ومن قلب الظلمة أطل وجه زينب المنير . همست : « كنت عارفة وانتظرتك . » « كيف عرفت ؟ » « بهالجو ، من يظهر غير المجانين ؟ » « مازرت جاراتنا . » « شغلة بودها ترتيب . » « ومتى نلتقي في الجنينة ؟ » « أنت مجنون . » « زينب ، أرجوك لا تضيعي الوقت . أنا أحبك ، وأريد أن أسعدك . » « لو أنك تحبني كنت تخاف علي من سكين أبي . » « أنا أحترق ، احترق ، كلما شفتك بهذه الطريقة . » « وكيف بودك تشوفني ؟ » « عالطبيعة . من دون ما أكون خوفان . »

وعندئذ وصلوا . وتقريباً باغتوهما . كانا قد مدّا بين مشاعرهما أرجوحة

وأقاما بين أعينها جسراً لا يعبره أحد . وبلمحة خاطفة قذف الرعب بسعدون الى الداخل ، ووقعت زينب في قبضة أحدهم .

همت بالصراخ . لكنها سدت فمها بيدها الثانية . حشرجت : « اترك يدي ! ياكلب ! ياسافل ! » قال الأول : « اترك يد زينب ياولد . » تحررت يدها فاندفعت عائدة . مد الثالث يده بخفة فأغلق بوجهها الباب . التفتت زينب الى الأول : « هكذا ياعادل ؟ » قال عادل : « صرت تخافين منا يازينب ؟ أنت ! نسيت العيش ، والملح ؟ » « افتحوا الباب أوأصرخ ! » « اصرخي بالله عليك . » « عادل ! خله يفتح الباب . » قال عادل : « أنت عارفة نحن مثل أخوتك . نحن قصدنا نوعّيك . » وقفت مخذولة تماماً ومتخشبة . قال الذي أمسك بيدها : « حرام ! زينب تحط رقبتها تحت سكين أبو زينب ، كرمى لواحد صايع ، عصّ مصّ . » قال عادل : « خله يطلبك للزواج ، ونحن لادخل لنا . »

كان سعدون يجوس أرض السقيفة . يمشي الى باب غرفته ويعود . يضرب قبضته براحة يده ، ويمشي الى باب غرفته . أسرع الى المدخل . عند المنعطف توقف . إذا رأوه فضيحة . واذا لم يروه خيانة . جبن وذل عار . وإذا رأوه فضيحة . جناية . وهي الآن بينهم . أم لعلها هربت . حتماً هربت . ماذا يريدون منها ؟ لا أخلاق في الدنيا تسمح لهم بالإساءة اليها . بل هي بينهم :

« أنتم كل الحارة تكرهكم وتخاف منكم . » « هنيئاً للمتهم البريء . » قال عادل : « اذا عرف أبوك ، زوجك بالقوة لواحد غني ؛ يمكن سلطان ، يمكن أبو خليل . » « أنتم ما لكم دخل . » « ولو ! نحن ربينا سوا ، يازنوبة . » « نحن قلبنا عليك . » « أنتم قلبكم عالشروبس ! » قال عادل : « يابنت الحلال ! كفانا كل الناس تسبّنا . » « لأنكم تكرهون كل

النـــاس . لأنكم مصيبـة على الحـارة . » قال عادل : « مصيبـة ، لأننـا بلا مسكن ؟ مصيبة ، لأننا لا نشبع الأكل ؟ نسيت نحن من ، يازينب ؟ افتح لها الباب ، يانوبار . اذا كانت زينب تسبّنا ، ما عتب على أم اللولو . »

هرول سعـــدون الى غرفـة أبي حسن وأيقظـه : « أبـوحسن . قم ، فوراً . الزعران أمسكوا زينب . . يريدون أن يغتصبوها . »

انتفض أبـوحسن واقفـاً . هرول الى الـزقـاق . قبيل منعطف المدخل التفت الى سعدون :

« زينب ! مادخلنا نحن ؟ »

« أبو حسن ! أرجوك ! سيفترسون البنت . »

« لاتعلقنا مع أبو زينب الله يرضى عليك . هذا واحد يحكي بالسكاكين . »

ثم هز يده في الهواء ، ومضى في المدخل . كان الزقاق خاوياً . دار أبي زينب مغلقة الباب ، ولا أحد عند دار أم عبودة . عاد أبوحسن ولطم سعدون بنظرة تقريع غافرة .

للتو انطلقت عزيزة الى الدار المقابلة تطلب لبناً ، وعادت بأخبار الهدوء التام .

[تقرير :

قيـل ان أبـا زينب استطـاع ان يفهم ما حدث عـنـدمـا نصحـه سلطان وعقـلاء الحـارة ـ الـذين جاءوا بعـد سريـان النبأ كالنـار في الهشيم ـ أن يزوج

البنت : مادامت هي بهذا الجمال ، ومـا دام الأوباش بهذا الشر ، فالفضيحة مؤكدة والمأساة قائمة . وطمأنهم بكل الكلام الممكن ، أنه لن يتصرف الا كما يرتأون . كان هادئاً مسكيناً ، أقرب ما يكون الى التماس الصفح والقبول .

في المساء شاهدته أم زينب في المطبخ يسن السكين التي يذبح بها خراف عيـد الأضحى ، فصـرخت . صرخت ولطمت ، وطـارت الى ابنتهـا ، وولـولت . وحـاولت المـرأتـان الهرب ، فشاهدتاه يسد الباب بوجههما . وراح الصـراخ والجعـير يلطـمان الجدران ويهزانها ، فيما الباب يدور ببطء ، ويد أبي زينب تقفله بالمفتاح . لم يقل كلاما . بل وحافظ على بطء حركته ، فتمكنت زينب من الـدوران في أرجـاء الغـرفـة هربـاً منـه . سقطت الأم بين قدميه . رفسهـا . داس على وجههـا . ثم لم تستطـع النهـوض . وراح الرعب يضيّق المكان في عيني زينب وأمام قدميها ، ويطيل نصل السكين في يد أبيها . ولولا بقية من حميا الشباب ووثبة الحياة لتهاوت أرضاً هي الأخرى .

لم يعلم أحـد كم من الـزمن مر . لكن أبـا زينب انتبـه الى أن البـاب يتأرجـح تحت ضربـات أقـدام مصممة . كان قد أمسك بذراع الفتاة المذعورة الهـائجـة . لكن انشغال يده الأخرى بالسكين ، شبابها وشيخوخته ، أعطاها فرصـة لمزيـد من الحـركـة والتأبي . ولحظة التقط جدول شعرها ولفه على يده بحـركـة خاطفـة ، وأيقن أنها الآن ستنخ وتركع ، وكشرت شفتاها عن أسنانها وجعاً ، والتوت قامتها مع التواء عنقها ، انخلع الباب واندفع منه خالها زيد .

لحظـتهـا حدث شيء لأبي زينب . طوّح بالبنت وأفلت شعـرهـا . تداعت هي وارتمت أسفـل الجـدار الآخـر . وقف أبـو زينب . مسـح بذارعه العـرق عن جبينـه . « الحمـد لله أنـك وصلت . » ونـاول زيـداً السكـين . امسـك زيـد السكين بيد ، وذراع صهره بيد . خرجا من الغرفة الى الباحة . رمى زيد السكين في البئر . وعاد فجلس على حافة البركة .]

كان سعـدون مثخنـاً بجـراح النفس . لأول مرة في حيـاتـه تبـدو عليـه شراسـة من سيفجـر ثورة في اللحظـة التـاليـة . لكنـه ظل صامتا . أطبق فمه بإصرار ، كأنه اذا انفتح سيلفظ صديداً وقذى . ووشى الغضب الملجم الذي نفـر من أعطـافـه بجهـد هائل لضبط النفس . ليس فقط العجز المطلق ، قال لعلوان ، « ولكن . . تصـور انـه لولا خالهـازيـد ، كان الـوحش ذبحها . » مفاجأة المفاجآت ، قال . وخبط بيده على الكرسي : « وانا الجبان العاجز . اختفيت كأي جبـان . ولكن ماذا كنت أقـدر ان أعمـل ؟ حتماً . هي تحتقرني الآن بكل صدق واخلاص . »

باستغراق كلي فيما حدث ، خاطب علوان . سأله ان كانت في ذهنه أية استفسارات عن الطبيعة البشرية . « أنا لم يخطر لي أبداً ان أطرح اسئلة حول الطبيعــة البشـريـة . » وتلقى من علوان جوابـاً صابـراً بالايجـاب . « هؤلاء الأوبـاش هجمـوا عليهـا . تصرف اغتصابي لا جدال فيه . ظننت ان المأساة خلقت شعباً شفافاً . وهذه الوحشية من والدها . مرة أخرى يثبت خطأ نبوءة هيغـل عن سيرورة البشـر نحو الروح الخالص . وانا ؟ كأني خلقت للفرجة . كيف أرفع عيني الى عينيها بعد اليوم ؟ كيف أقول لها إني سأنتشلها من وحول التخلف ؟ »

قالت أم يســير لعــزيـزة : « معلوم يابنتي . لومـا المعلم سلطـان يغـزّ بوجــوههم كانــوا أكلوا الحـارة . ياويـل قلبي عليـك يازينب يابنتي . لوما انخضّت هالخضة من أبوزينب كان انتشر غسيلها . وأحست بشجاعة كافية في تلك اللحظــة ، فسحبت جارتهـا من يدهـا ، وسـارت بها الى باب غرفـة سعــدون . « شف يابني . ان كانت زينب غاليــة عليـك من حق ، سيّبهـا بحال سبيلها . لا ترتكب خطيّتها . والا قسماً بالله ، لا تدخل رجلك هالدار . »

كانت ممسكة قلبها بيدها ، لكن سعدون فاجأها حقاً : « معك حق ياخالة أم يسير . أنا ، خلص ، لك علي أني لا أكلمها أبداً . »

وقد استغرب علوان لماذا صنعت الحارة من الحبة قبة . « طول عمرهم الزعران يتحرشون بالبنات ، والبنات يدفعن الثمن . » ثم مالبثت الحارة ان اكدت له أنها عند حسن ظنه . المعتادون على شراب عرق السوس حملوا أوانيهم أو مجرد قروشهم عندما مر بائعه في اليوم التالي . أصحاب الدكاكين أشرعوا واجهات محلاتهم ، ولم تنقص مبيعاتهم شيئاً . وفي باب شعوب استقبل البائعون أم اللولو بعراضة وتظاهرات . هناك كان ضجيج وحياة دافقة متقاطعة . واستمر الزحام المتلاطم أمام فرن سركيس . وكالعادة شهدت الساحة روافد مستمرة للحياة والحيوية . وعند الظهيرة احتل يسير ركنه في ساحة العروة الوثقى ، وانهمك يبيع حلواه للأطفال .

إلا زينب ، التي أمضت سبعة أيام رهينة المحبسين : غرفتها ويأسها .

- ٤ -

كانت أم اللولو قد استأذنت نازك في اهداء علوان بدلة صيفية . « أنا استأذنت سلطان ، ورحب كثيراً بالفكرة . عوديه على حياة الفن والذوق الرفيع . البدلة لها مفعول السحر . لبسيه بدلة جنرال ، يصير جنرال . بدلة رئيس وزارة ، يصير رئيس وزارة . وصدقيني - بعد شوية لا تعودين تعرفين الشخص القديم . »

ومع أن نازك آثرت ان تظل تعرف علوان كما هو ، وبلا بدلة ، فقد وافقت بهدوء نسبي وسرعة غير نسبية . « أنت امرأة ذات كبرياء» قالت أم اللولو . « احترامك لنفسك خلاّك هادئة ومستجيبة . أنا أحب هذا النوع من النساء . المرأة التي تغار على زوجها تخسره . »

اوشك علوان ان يقبل ويغمغم كلمات شكر مرتبكة ، لولا نظرة من عيني أم اللولو الزرقاوين مؤطرة بهالة من الشعر المختلط قرميده بشقرته . تذكر . وخاف . هذه المرأة أوشكت ان توقعه أرضاً أول مرة رآها وجها لوجه . وهو يعرف أن انفتاحه على الاحتمالات والتناقض أضعف صلابة الرجل فيه . وزاده خوفاً أن ذهنه ضاء في تلك البرهة بحقيقة شعوره : إنه يريد هذه المرأة ، ولكن دون أن يقع ؛ يريدها حقاً ، ولكن كيف يصل الى المستحيل ؟

« بدلة صيفية ، كيف هذا ؟» نظر إليها ما سحاً من عينيه ألوانها وتقاطيعها وملامحها . لأول مرة منذ زمن بعيد ، أحس أنه فعلاً ابن حارة ، أنه الأصل والملح ، المبتدأ والخبر . « اذا كان الحال يمشي بقميص وبنطلون ، لأي شيء البدلة ؟ »

لم تبتسم أم اللولو . نظرت اليه بعلو مغلف بالمودة ، مبطن بالنذير : « ولو سيد علوان ! رجل مثلك ، له قيمته ومركزه ، والحارة كلها تنظر اليه كشخصية خاصة استثنائية ، لازمة له بدلة . هذه لأحد يناقش فيها . وبعدئذ ، البدلة أبرد من القميص ، لو انك تجرب . ترد عنك الشمس ، وتنعشك . » ووضعت سيجارتها بين شفتيها .

نظر إليها علوان مستعيداً كل ألوانها وتقاطيعها وملامحها . رآها تبتسم . ابتسم . التفت الي نازك بهدوء مستنجد . « خذ بالك ، أنا عمري ما أحد رفض لي شغلة . » ومدت اصبعين منفرجتين فاحتوت بهما السيجارة . شدتها لتسحبها من بين شفتيها . لكن السيجارة سحبت معها الشفتين . بدت الشفتان أملأ قليلاً ، وقد انفرجتا لانفلات السيجارة . وبان لعيني علوان باطن الشفة السفلى البرتقالي المثلوم .

وجد نفسه يقول بنبرة اعتذارية مرتبكة : « يمكن المدام شايفة اني من

نوع المعلم سلطـــان . انـا رجـل بسيـط ، صدقيني . عرض كريم من سيـدة عظيمة . أكيد لن تأتيني مناسبة لاستعمال البدلة . »

هتفت نازك : « علوان ! أنت جرى لعقلك شيء ؟ أم اللولـو تهديـك هدية ، وأنت حارن لاتعرف أن تقول شكراً ! »

ابتسمت أم اللولو : « أحب أن أؤكد لك أنك مختلف عن سلطان . » واتسعت ابتسـامتهـا حتى اكتسبت حسـاً بالمـداعبة . ثم علا الصوت المرنّ : « وتواضعك هذا لا ينسجم مع مواهبك . يخيل إلي أنك خلقت لتأمر فتطاع . »

تلك كانت أول خيـانـة مني لنـازك . كن واعيـاً ومتحمساً بجبر وت أم اللولو وسحرها الطاغي . وقفت ضده حتى تكلمت نازك . وبعدها سمحت لقلبي ان يزني بأم اللولـو . قال لي زيـد فيـها بعـد ، ان أشياء مثل (البدلة) و (القميص) لها معـاني عميقـة بلغة فرويد . وقال إن عادة التدخين ، وطريقة إمساك السيجارة ، ممارسات جنسية .

لكن ذلك اللقاء كان أعظم من هذا بكثير . أنا الذي رفضت كل شيء لأؤكـد شيئـاً واحـداً هو صدق نفسي ؛ ودفعت عن وجهي ويقيني هذا العـالم المـؤسس ، الـراسـخ ، الحـامـل لي كرسيـاً كي أجلس بين أنسـاقه وأرتاح ؛ وفتحت قلبي وجبيني لأيـة حقيقـة تنبثق من داخـلي حتى ولو أرمضتني ؛ رأيتني أطـل على العـالم وبيـدي صولجان شاهدته بعد أن سمعت كلمات أم اللولو . كان ثمـة نداء يصلني ـ يشق غيبـاً وأعـماقـاً ، ويفيض داخـلي كما يفيض الهواء النقي في الـرئتـين المليئتـين بالدم الأزرق . المسألة ليست مسألة خيانة . انك ترتب العالم في ذهنك على نحو ما ، وبذلك يملأ قلبك الرضى والعافية . ثم فجأة يظهر أمام عينيك وحواسك وجميع تلقياتك ترتيب آخر ، نظام آخر غائب

عن ذهنـك تماماً ، فتحس منـه بذلـك النـداء ، كأن المعـابـد تتكلم اليك ، وتسحبك . وتجد نفسك مندفعاً نحوه بلا تفكير ولا حسابات ، لأنك في لحظة عمياء رأيت رضى كالبحار وعافية صاخبة ، أعظم بكثير مما كان يملأ قلبك . وهكذا رأيت أم اللولو .

المـهم . كانت نازك ممتنــة ذلــك الليــل . أن أرفض ، وأصــر على الـرفض ، مكـافأة ثمينـة لها . قلت لها ، هناك أصناف من الرجال يمكن أن يهيمـوا حبـاً بأم اللولـو . بالأحـرى ، شهـوة . إنهـا امـرأة دسمـة ، ناضجـة مبججـة . ورجـال عالمنـا يحبون الوجبة الشهية . ينعمون بكثافة الوجود . أنا أحب الجسم ، لأنـه قوام وحـركـة ، متـوهـج بالمشـاعـر والفهم . لهذا أحبك أنت . أرى ألف أم اللولو ؛ وأحبك أنت . أنا أحب الحرية ، لا الاختناق ولا التخمة . أرى قوامك المختلج داخل هذا القميص فأحس أنه يجمّع الحياة .

« ولكن ماذا تريد أم اللولو منا مقابل هذا الكـرم ؟ » سألت نازك باتضاع .

« حسن الجوار ، طبعاً . ماذا تريد ؟ لن نكون خدماً عندها . »

ماذا أقول ؟ سمعت سعدون يوماً يتحدث عن شرك اللغة . سخر من الكتاب الذين يقولون بهذا الرأي . في يقينه أنه هذه كلها فذلكات برجوازية .

لكن ، قل لي ، كيف طلع معي ذاك الكــلام وأنـا لم أكن أكـذب وهـو لم يكن حقيقيـاً ؟ كنت فعـلاً أتكلم بغبطـة وحـرارة وصـدق . كنت أنبش أعـماقي ، وأمسـك بالكلمـة الآتيـة فتجسـد ما أحس به وتجعلني أتعـرف عليـه ، تعطيه شكـلاً فأراه ، كأن الكلمات ليس فقـط أكدته ، وإنما أعطته وجوده بالذات . وهـو لم يستطـع أن يوجـد حتى صار كلامـاً . قصدي ، أنا فعلاً أحب نازك ؛ ولكن من قال إني لا أحب المناسف . سؤال واحد فقط لم يقع في شرك اللغة : ما الثمن الذي ستطلبه أم اللولو لقاء رعايتها ؟

كانت نازك ممتنة ذلك الليل . وبقيت أنا . . بقيت . . مغلقاً . . هي انتشرت ، تفرفدت ، حرة الحركة ، طليقة الجسد . وكنت خائفاً . وثخن خوفي عندما راحت تتربص بي المفارق الجنسية ، تدعوني ، وكل الدروب مفروشة برياحين نفسها المتألقة الواجدة . لا شيء أعظم . . بل هناك شيء واحد فقط عظيم : المرأة التي تعطي .

طبعاً صار علي أن أفعل شيئاً . وإلا خذلان شديد لنازك . وأنا صغير ، كنت أقول : قتل طفل ولا كبت رغبة . ولم يكن معقولاً أن أطفىء فيها تلك الصبوة الشفافة العابقة .

لكني بقيت بارداً . صحيح أن طبيعتي تحركت . لكني بقيت بارداً . أية طبيعة ؟ هناك أكثر من طبيعة . واحد تتحرك شهوته ، ويبقى رأسه وصدره باردين . أو يدفأ رأسه وقلبه ، ولا يجرؤ جسده على التحرك باتجاه أن يمتلك . كم إنساناً في الانسان ؟

استعاد وعيي حبي لنازك . استعاد ذكريات عديدة جميلة . وضع نازك في أصفى الصور والرؤى . بحثت يداي وشفتاي عن مواطن الجمال والنشوة في جسمها . لكن رقعة الرؤية ، رقعة الذكريات الجميلة والمشاعر الحميمة راحت تضيق . تقلصت ، ومعها المشاعر والذكريات . ولحظة وجب ان تصل نازك الى تلك الذروة السحرية ، كنت ما أزال أتلكأ على السفح . هي تخفق وترتعش ، وتتلمس جناحين تطير بهما ، وأنا مبعثر ، ورقعة الضوء تضيق .

من قلب الظلمة ، برزت لي أم اللولو . برزت وجسمها الأشقر البلوري مضواً بكهربائه السوداء . وبدأت أصعد بهمة . احتلت أم اللولو المساحة كلها ، وفي أشد الأوضاع وجعاً . وانفعلت نازك بصعودي انفعالاً ملأني بالذعر . في أذني تطن أصواتها ؛ وفي عيني تمرج أوضاع أم اللولو . على

جسدي تطفح النشوة العظيمة الرائعة لجسدها الموجز المنمنم ، ومن جسدي يطفح الشبق نحو الصورة المزدحمة في عيني .

تلك كانت أول خيانة مني لنازك ، لم تنتبه هي الى شيء . ولأن الانسان ما هو ، من استغراق في الذات ، ظننت أن تحولي ، الهبوب المفاجيء ، نعم ، لمشاعري ، كان لها وبسببها . ونحن نشرب القهوة ، ظلت ممتنة وكريمة وعظيمة ؛ وزكمت انفي روائحي الكريهة . كلما مشت هي خطوة نحو الوجد والصفاء ؛ مشيت خطوة نحو العكر والنفاق . أيها الضمير ، يا شرطياً لايجيء إلا متأخراً .

كانت البدلة شيئاً خارقاً . لبسها علوان واكتشف أنها صنعة يدي صناع ، مأخوذة مقاساتها بالملمتر . تأمل مثناه في المرآة ورأى أنه شخصية ومتميز . رأى أن النفس تنتعش لهذه التلاوين .

لكن أم عبودة جعلته مساء اليوم التالي يعيد النظر في أناقته . عند الأصيل وقد تلاشى كثير من طبقات القيظ المتكدس على الأجساد والدروب ، جاء الزقاق رجل غريب . دخل قادماً من منطقة الفنادق . مشيته المتأنية ونظرته الفاحصة دلتا على أنه زائر للمرة الأولى . تأمل الفتيان المسترخين الى الجدران ، وقد سربلوه بنظرات أكثر استرخاء . وتقدم هو من أحدهم وسأل ان كان هنا ـ وأشار الى بيتهم ـ دار أم اللولو .

قال الفتى : « يمكن . تفضل وشف . »

تقدم الغريب شبه ممدود اليد ، يشق بينهم طريقاً . ثم وقف . حذر غامض جعله يتريث . نظر الى وجوههم . لم يقرأ فيها شيئاً . هز رأسه باستخفاف وولج المدخل بثبات .

قال الأول : « طلباتك من أم اللولو . »

توقف الغريب . لم يفهم . « موضوع خاص ، هكذا ، بيني وبينها . »

قال الأول : « بودك أفلام . » وأشار بقبضته إشارة جنسية .

غضب الغريب . لكن عزة نفسه جعلته يمسك عن الكلام . وتابع دخوله .

لم يكن الحادث جديداً على الحارة ، لكن المشهد كان . الذين يسألون عن أم اللولو لا يثيرون استغراب أحد . لكن أحداً منهم لم يخطىء ويدخل دار أم عبودة . قال موفق الكهربائي ان الرجل وقع في عش دبابير . لم يكن ليبين بين تلاطم حشدهم . واذا مالاحت فرجة صغيرة تلامح منها ، فلثوان . كان يحاول أن يتكلم ، يفهمهم أمراً . لكن أصواتهم كانت إذاعة وتلفزيون .

طوقوه كفكي كماشة . وهو يتراجع بظهره . ولقد فهم أن أية محاولة للهرب ستدينه نهائياً وتقضي على سيماء حسن النية التي تلبسها .

داخل فكي الكماشة ، ومحاطة بحشد متلاطم من الفتية الصاهلين ، تقدمت أم عبودة وعيناها مغروزتان فيه . راقبها الجميع . تأملها علوان باستغراق أسير . وجه أسمر مكتنز كفطائر الفلاحين . عينان سوداوان ينفر منهما شواظ أسود ، تحت حاجبين قويين أسودين . رأس متلفع بنصيف أبيض . قامة أربعينية متموجة ، مليئة ، رشيقة الهدوء .

ملأت الأصوات السماء . الصخب والضجيج واللَغة . لكن صوت أم عبودة وحده ظل مفهوماً . على الرؤوس وفيها ، نشر الصور التعبيرية المستحيلة لأبناء الشوارع والسافلين . كان قاموساً كاملاً للغة الاشارات العنيفة . لم تدخر شتائمها كلمة واحدة نابية أو فاحشة .

وصرخت طالبة سلطان أن يحضر ويريها مسدسه . « تعال ! اضرب ! » وشدت بيديها فتحة الفستان عند النحر .

في الايقاع البطيء حتى الموت لحصار سرعته خطوة واحدة في الدقيقة ، تراجع رجل جسّد على نحو لا يوصف معنى الاستسلام . كانت قدماه ظلاً لقدمي أم عبودة . وجه مزمجر متقد ، مقابل وجه مستسلم مصغر .

قال سعدون : « تصور انهم لم يشتموا أم اللولو إلا الشتائم الجنسية . »

وكان أبو حسن مفتوناً . « شوفوا ، شوفوا ، ياجماعة ! » هتف بمن حوله دون أن يعي من هم بالتحديد . وحرك ذراعيه بحيرة ، منفعلاً بذراعي أم عبودة العبلين اللذين انفرشت أصابعهما على خاصرتيها . امرأة وحيدة بين رجال ، صات رجلاً بين نساء . وهذه الكلمات الشافية التي لا يستطيع هو أن يتلفظ بها . آه ما أجمل اللغة البذيئة !

تحير ماجد كيف لأبي حسن ان يعجب بامرأة وجهها مثل القرع الشتوي .

وصاحت أم عبودة : « بودك دار هالـ . . أم اللولو ؟ ياكلب ياو . . ؟ ها نحن نوصلك اليها . »

كان الموكب يقترب من قصر أم اللولو . وفي لحظة خاطفة من لحظات الزحف البطيء ، أطل أبو زينب نفسه ، مدفوعاً بإثارة أصوات اخترقت حتى جدران داره . لم يدهشه حصار هؤلاء السفلة لرجل بريء ، فالأبرياء دائماً ضحايا لهم . لقد أخجله وأدهشه هذا العدد الكبير من المتفرجين . لا شك أنهم أنفسهم الذين اجتمعوا ليسمعوا أصوات زينب الأسبوع الفائت ـ الذين لا يمدون يداً لايقاف شر .

فجأة انتبهت أم يسير لوجه ابنها المتسمر بأمواج الرعب . وأيقنت أن هذا العنف سيودي به . نظرت حولها بضراعة . كانت الوجوه كلها مستغرقة تماماً في المشهد الرهيب . نظرت ثانية الى يسير . الأمواج تلاطمت على وجهه : من شفتي أم عبودة ، أولادها ، ذلك الغريب التعس ، ضربته وتجمعت في عينيه .

« يسير ياولدي . ما لنا ولهم ياحبيبي . تعال نرجع للدار . »

ثم حدث ما أسكت المتفرجين كلهم . بطريقة ما ، حانت من الغريب التفاتة الى الوراء . ويلمح البصر استدار وانفلت هارباً . لم يتبعه أحد . وخلال ثوان معدودات غاب . كأنه لم يكن مطلوباً قط . كأنه لم يكن في الزقاق قط . تابع الموكب مسيرته . تقدم بالسرعة نفسها ، والصراخ والتكتل . ووصلت طليعته بوابة أم اللولو .

غمغم يسير كالهاذر : « اقتربت الساعة وانشق القمر . » وهتفت أمه : « دخيلك ياأستاذ . » وتعاونت مع علوان فحملاه على الدخول . غمغم علوان : « ما لنا ولهم ؟ أحسن شيء الحياد . »

وصرخت أم عبودة : « أين هالجبان ومسدساته . » حولها تحلق الأولاد واتكأوا على البوابة . « خليها تنزل ، هالـ . . لأفرجيها من هي أم عبودة . »

كان واضحاً أن أم اللولولن تنزل . ولم يعرف أحد ما إذا كانت هي أو سلطان في القصر أصلاً . ولأول مرة صمتت أم عبودة . لم تنزل يديها عن خاصرتيها . لم تمس البوابة . وزغرد أحد الفتيان حباً بها . انطلقت الزغاريد . جلجلت . وعادوا .

هبط العتم على الحارة . وبدا لمعظم سكان الزقاق بديلاً ممتازاً للغضب والعنف اللذين شجا راحتهم بلا دلالة واضحة .

لكن سعدون ، الذي حضر زيارة الأصدقاء وأنصت بأدب ، قال إن الموضوع ككل يجب ان يعالج من زاوية واقعية جدلية . مبدئياً ، هو يرفض فكرة أن تكون الحارة كلها في أزمة ، بكل قواها وطبقاتها .

« إن الضجيج الذي أقلق راحتنا اليوم ، تعبير عن أزمتهم هم ، وليس أزمتنا نحن الممتدين على أفق التقدم والاشتراكية . يجب ألا يتسرب أي شك الى نفوسنا في أننا نحن الوارثون ، ومأزق سلطان ليس مأزقنا ، لأنه أسير عدميته البطريركية الكهنوتية ، بينما نحن نخوض معركة الطبقة العاملة ، متسلحين بشرطها الكينوني الكلي الصيرورري ، ومرتكزين على فعاليتها في قاع الوادي المادي . » قال ان كل رؤية لحادث إنساني من زاوية أخلاقية أو غيبية ، رؤية سكونية . إنها لا تستطيع ان تصير أو ترصد فاعليات الحياة وسيرورتها . هؤلاء الذين اتفق الجميع على تسميتهم ، باحتقار ، رعاعاً ، أو تسميتهم ، بإدانة ، فلسطينيين ، ليسوا تجليات مرعبة لطبيعة بشرية حيوانية أو غريزية . إنهم تعابير مرعبة عن ضياع الجهد الثوري الذي يجب ان يكرس في الوقت المناسب لخلق تغيرات جذرية تقتلع الشروط الحياتية القامعة من جذورها وتهيء نواميس جديدة لملكوت العدالة والحرية والسلام . والشر الأكبر ليس معاملتهم لبريء أخطأ ، بل كونهم مفصولين عن قوانين الصراع المستقلة عن إرادة الأفراد والجماعات ، بحيث لا يجدون أنفسهم ككتلة بشرية فاعلة . إنهم محرومون بالقوة من ان يكونوا طبقة ثورية . وهم ليسوا بروليتاريا بأي معنى . « لأن تخوم الصراع الطبقي في هذا الوضع متداخلة بتداخل القوى الاجتماعية إلى حد أن الطبقة العاملة لا تتصدر لوحة الصراع الطبقي ، رغم أنها قد شادت ايديولوجيتها . هل هناك وضع بشري أفدح من وضع هؤلاء ؟ ان كل ما حولهم يشترك في تدمير قواهم الحية . »

والتفت الى الجميع ، الذين عبر له صمتهم عن موافقة جماعية متحيرة ، رغم ان هذه الحارة لم تدخل عندهم في ذلك الإطار .

[بطاقة : ام عبودة :

فلسطينية وصفدية أيضاً . بين عامي ١٩٤٧ و٤٨ قتل أبوها ومعظم أهلها . مطر من الانفجارات . صفد تخردقت واحترقت . هي : هاربة أولاً ، ثم مهاجرة ، ثم لاجئة . ثقة عمياء بالمذياع . ذات يوم سيعلن نبأ استرداد بلادها من الغزاة . ذات يوم ستعود . سترى أخاها .

أمكنة كثيرة . من مكان الى مكان . صور لا نهائية للموت . أمكنة كثيرة قبل أن تستقر في الحارة . بيوت كثيرة ، وشغل كثير ، ومخيمات ، وشوارع ، ثقة دائمة بالمذياع . ذات يوم سيعلن النبأ . وستعود . وتتزوج .

وعشرون عاماً . فئة قليلة اجتاحت أراضي فئة كثيرة . حقيقة بسيطة : المذياع لن يعلن بعد الآن ذلك النبأ . من يحرر لها صفد ؟ من يحررها من صفد ؟ تزوجت . وجاء عبودة . عام ١٩٧٠ قتل الزوج . عام ١٩٧٧ مات عبودة . المذياع لا يصنع الأخبار .

الأهداب طويلة ومكسورة ومتراصة . الشعر الأسود رغيف ملفوف وراء رأسها . والبيوت هي البيوت . والشغل هو الشغل . ذات يوم انفلت الرغيف . تساقطت شلالاته الفاحمة على أرض حليبية . تأملت هي تلك الأرض . أخيراً استوطنت المرارة . استقرت في القلب والجوارح .

والكراهية ، والحقد . والجنون أيضاً . داهمها حس طاغ بشيخوخة منيخة . إنها تتفسخ أو توشك أن . لم تدر أهي الشيخوخة الزاحفة ، أم المنفى المقيم ، أم العالم النسيان . تداعت أبواب النفس ومتاريسها . انفتحت الآبار العميقة . هل نضبت ؟ لم تعبأ بأن تدري .

فلسطينية : كانت صفة للوطن فصارت للمنفى . اقتحم الواقع

النفس بالحنظل . اقتحمت النفس الواقع بالرعد . تلطخ الاثنان بالصديد والدم والتجارة . الآبار نزّت . فلسطينية : كانت صفة للرثاء فصارت للكراهية . ينفتح بئر : كيف لا تحتضن أفاعيه ؟ كيف لا توسدها ذلك القلب ؟ كيف لاتضم الى صدرها أم نوزاد وأم نوبار ، وكل أم دخلت دارها وهي بلا مأوى ؟]

- ٥ -

مرت ثلاثة أيام من الهدوء . أعني لم يظهر في الزقاق أحد من سكان الدارين اللتين الى يميني ويساري . ودفع الضجر نازك فذهبت الى مزين الشعر . وهكذا رأيتني وحدي بعد ان عدت من تصحيح أوراق الثانوية العامة . طبعاً كانت عزيزة تطبخ تحت الدرج ، وابنتها تجعر قربها . لكن هذا لم يجعلني أحس أني لست وحدي . والحقيقة أنك اذ تشغلك فكرة من نوع البلبال أو الهاجس ، تعطل عليك انتباهك الى العالم العادي . هذه الفكرة هي ان الحارة تعيش أزمة . رغم أن الرعاع يحطمون لكل واحد أسطورته ، فكل واحد في الحارة عنده مشكلة . تفاقمت المشاكل فصارت أزمة . أزمة الحارة هي تفاعل هذه المشاكل . لكنني رأيت انه ربما يكون العكس هو الصحيح ، ربما كانت في الحارة أزمة رئيسية تتفرع عنها كل هذه المشاكل .

قلت لسعدون ان أساس العالم وتوجهه يقومان على اللامعقول . اذ كيف لمجتمع بشري ان يتقدم بلا قيم ولا مثل عليا ؟ ولكنه على طريقته التي باتت مألوفة ، قال : « خلنا في المهم . المثل والقيم هذه بنى فوقية . وتخلخلها محصلة منطقية لتخلخل غير منطقي في البنى التحتية لمجتمع وقع ، بصورة مناقضة لكل منطق تاريخي ، في قبضة طبقة متوسطة ، تابعة ، مبددة ، غير

منتجة . وهذا الوضع جزء فقط من لا معقول رهيب تحاول الامبريالية العالمية فرضه على الشعوب . »

كما هي الحـال دائماً ، تتكلم مع سعدون في مشكلة ، واذا بك بعد خمس دقائق تتكلم في الأفكار والنظريات والعالم كله ، وتنسى المشكلة . مع انها محصورة في زقاق وليس في وول ستريت .

سألته عن أحوال زينب ، وهل يراها في هذه الأيام . تنهد وأطرق ، وغمغم : « أسيرة في زنزانة . لن تقدر أن تكون يوماً سيدة نفسها . » ثم ترك الموضوع برمته مثلما يترك الواقعي معادلة مستحيلة .

عادت نازك . الى جانبها كانت أم عبودة . « أم اللولو عرضت عليكم تشغيل عشرة ، خمسة عشر من الشبان الذين في داركم » ابتسمت ام عبودة ابتسامتها الأمومية : « لنسكت عن الأوتيل يابنتي . لحتى تشتري الحارة .

عاملة حسابها في دارنا وداركم والدارين المقابلين ، تعمل بهم أوتيل لوكس ، ومستودعات تهريب ، وسينما لزبائنها ، ليشوفوا الأفلام إياها . »

وقفت المرأتان تحت شباكي تماماً . قالت نازك : « أنا ماضدك ياست أم عبودة . بس أنا بودي أفهم . انتقلوا لبيت صحي ، كل شيء فيه على أحسن ما يرام . » وردت أم عبودة بابتسامة متعبة : « وهالأولاد ؟ » وزفرت شبه مطرقة « قصة طويلة يابنتي . »

حكت لها كيف جاءت عام ١٩٦٧ عائلات كثيرة بعد الحرب وحلت في الدار . وبعدها « أخذت رجل الناس » وجاوا يسكنون ، وكلهم بلا عقود ايجار . « صاحب الدار ما قبل يكتب لهم عقود إيجار . قال بكرة رجعتهم قريبة . ياحسرة . مثل ما رجعنا إحنا . » وتنهدت ثم أضافت : « أم اللولو

رايـدة تعمـل كيبـوتـز ، محل ما أحـط رأسي وأنـام . لكن هالمرة مش حتسلم الجرة . أو تطلع روحي لعند باريها . »

حاولت أن أخفف من حماس نازك الأخلاقي ، بمخـاطبـة عقلها الذي أعرفه بارداً . وقلت إننا على الحياد ، فالأزمة برمتها ليست أزمتنا . ولكن بدا لي ان حديث أم عبودة قد هزها وأشجاها . بعد انصراف تلك المرأة . لم تترك فرصة واحدة تفوتها دون أن تستخدم فيها كلمة (كيبوتز) . طلبت منها الصبر ريثـما تمضي هذه المرحلة الانتقـاليـة ونستقـر في بيتنـا الاشتراكي : « نحن في ظروف خاصة ، لا تسمح لنا بالانحياز الى اي جانب . »

« بيتنـا الاشـتراكي ! » هتفت : « أين هو ؟ عملتم بمشروع ، وقلتم اشـتراكيـة سكنيـة . اخترعتم مثل العادة الاسم الكبير . بعدها ـ تركتم كل شيء لمجلس الادارة . مرحبـا مجلس الادارة . مرحبـا اللجنـة المـركـزيـة للاشتراكية السكنية . قل لي كلمة واحدة ، عن تسليم الشقة ، بعد خمس سنين . »

قلت ضابطـاً نفسي : « تحملينني مسـؤ وليـة السـرقـات والهـدر في التعاونية . ماذا جرى لك ؟ أصابك أحد من الحارة بعدوى الأزمة ؟ »

أجابت بانفعال قوي ولكن مستتر : « ولا أحد من الحارة . »

ثم هدأت رويداً رويداً ، وتوسدت صدري . وبعد قليل رأيت شفتيها منفرجتين ، فعرفت أنها أغفت .

جاء المساء وجاءت أم اللولو . كان يجب أن أفهم شيئاً . ففي أقل من أربعـة أيـام تعـرضت أدمغتنـا لدوامتين من التأثيرات أشد تعقيداً من الهندسة الفـراغيـة . جهـاز تلفـزيـون ملون ، قياسه أربع وعشرون بوصة ، وفيديو ،

وموجه تلفزيون ، وجهاز تحكم ، ومنضدة مغدنية خاصة . وجاء رجالها فأثبتوا كل شيء خلال نصف ساعة ومضوا . وكانت السيدة البهية في أنعش حالاتها وأكثرها طغياناً. لقد علمت أن نازك دافعت عنها بوجه أم عبودة . وهي ببساطة متشكرة . أم اللولو وحدها فقط ، ولا أحد غيرها ، كانت تستطيع الهاءنا عن نشوة تأمل الأشياء الجديدة المدهشة . وجهاز التحكم ذاك . وعدة محطات تلفزيونية ، لا تتوفر للكثيرين . ولكن . . لا أحد يستطيع أن يصف أم اللولو . ولا أن يرد رغباتها . هي مثل مولد للطاقة . يحمل عالماً . ينث جمالاً وغنى وقوة . هي تجعلك تحس بأن الحياة والعيش فوقك ، يفوقانك . وتسأل نفسك كيف تكون بيدراً أو تياراً في هذا العالم .

بعد أن اجتمعت النساء صار وجودي زائداً . بدأن حديثاً غريباً عن الأدوات التي ابتعناها من أم اللولو ، وكيف أن « الأستاذ علوان » يلزم له بيت مرتب ، وكل ما أمكن من انتاج المدنية ، فهو ليس أي واحد في الحارة .

وتمتمت أم اللولو : « المعلم سلطان والرجال منتظرون في المضافة . »

وحقاً فقد رأيتهم هناك ، وسمعتهم يكيلون له المدائح . لكنه كعادته كان يسمع كل كلمة دون أن ينظر الى أحد . . حتى عندما يعيد مسعود صب القهوة المرة في فنجانه . وهو لا ينقطع عن شرب القهوة المرة . يظل مضطجعاً على مرفقه الأيسر ، ساقه اليسرى مثنية في وضع أفقي ومختفية داخل جلابيته ، ساقه اليمنى مثنية شاقولياً ، وساعده الأيمن مرخى عليها بحيث تتدلى يده نحو الجالسين . ويشرب القهوة . ولا ينظر الى أحد .

عندما انفردنا استأذنته في أن أكون وقحاً . ابتسم بصفاء ، ونظر إلي . قلت إني رغم حديث الأخوان ، ما زلت أسأل لماذا لم يتصد للرعاع والفلسطينيين ذلك اليوم .

قال إن التصدي لهم كان غلطاً . وسألت كيف . قال إن ذلك الأخ الغبي ـ الرجل الذي حاصروه ـ جعل الحق معهم في تحركهم . وماداموا هم على حق ، فهو لا يقف ضد الحق . سألت كيف يعني . ورد علي بصبر ومودة : « إذا وقفت ضدهم وهم على حق ، يقف الناس ضدي لأني على باطل . طبعاً أنا أقدر أن أردهم شذر مذر . لكن الحكمة ترفض هذه المجازفة . القوة وحدها ، تخسر في النهاية . » وكان يتكلم كرجل صقلت عنفوانه السنين ، دون أن تهدره ، ودون أن تهبط بصاحبه عن سدة عُلاه .

قلت إن هذا سيشجعهم على التمادي . ورد هو بمودة وابتسامة :

« كلما تمادوا خسروا . هذه مشكلتهم . لماذا لم يعطهم الله فضلاً في هذه الدنيا ؟ لأنهم لا يحسنون شيئاً الا الضجيج . إذا لم يراعوا حرمة الله في جيرانهم ، صار جيرانهم ضدهم . وعندها يعلم المفسدون في الأرض أي منقلب سينقلبون . »

ربت على كتفي بمودة وأخوة : « الظاهر يا أخي علوان أنك لا تأخذ وتعطي كثيراً في السياسة . » التفت اليه مندهشاً : « هذه سياسة ! » فطبطب على كتفي بأصابعه التي كانت ماتزال هناك . قال : « أنا آخذهم بالسياسة .

حارتنا لا تحتمل العداء ولا سفك الدماء . كل عمرنا عائلة واحدة . والله سبحانه وتعالى يريد منا إشاعة التضامن ، لا بذر الشقاق . ولكن ، بما أنك رجل متميز ، وعندك مقدرات ، أقول لك كلمتين . السياسي الماهر لا يخوض أي معركة حقيقية . عندما يجابه عدو يريد فعلاً أن يحارب ، عليه أن يؤجل المعركة الى ما لانهاية . عليه أن يعمل استعراضاً ما ، أو يهيء سوقاً فيه هرج ومرج ، ويجعله معركة عظيمة رابحة . الخائضون معارك حقيقية ، هم المثاليون التائهون ، أو أطفال السياسة المضاربون . من يستطيع ان يربح في

هذا الزمن ؟ الشاطر هوالذي يطبق المثل الأمريكي الذي تردده أم اللولو : خلّ غيرك يقم بالعمل الوسخ . »

في اليوم التالي قال سعدون ان مشروع بناء مجمع سياحي كبديل للرثاثة والبق في الحارة أعظم خطوة تقدمية ممكنة ، رغم أن أصحابها رجعيون عتاة ورأسماليون جشعون . « يجب أن تتهدم هذه البنى ، ليصير كل ظهر مسنداً الى جدار . » لكن تلك الظهور مستندة الى تلك البنى ، ولا تحس أنها مهددة . بالتالي لا تفعل شيئاً . وبحزن كثيف أضاف : « شف زينب . بقيت عند الحدود المعرفية للصف السدس الابتدائي . بينما أنا أستشرف آفاق ثورة عالمية . ستكون رابطتنا مثل رابطة فاوست ومرغريتا . أصلاً ، التزامي بقضية الطبقة العاملة لا يسمح لي بحياة شخصية عادية ، مثل بقية الناس . لأني أيضاً ضد هيلين الأغريق . »

أول الليل كنت ونازك جالسين على كراسي الخيزران الهزازة التي جاءتنا بها أم اللولو بنصف ثمن . ولقد امتعني الجلوس عليها ، أكثر مما فعل المسلسل التلفزيوني الذي كانت نازك تشاهده . لقد تغير مضمون بيتنا حقاً . الفقر شيء كئيب ، خشن ، ويجعل النفس كئيبة وخشنة . أصلاً لماذا تقوم الحضارة ؟

كان المسلسل يتناول حارة فيهاكل ما هب ودب من النماذج الشعبية . الغني والفقير ، والمرأة والرجل ، والمتعلم والجاهل ، والآدمي وابن الحرام ، وكل نموذج يخطر على البال ، إلا أم اللولووأم عبودة . واذ نتهت الحلقة قالت نازك : « مقنع تماماً . لكن تلك الحارة مختلفة عن حارتنا . من الحقيقي ؟ »

قلت : « أما سؤال . حارتنا طبعاً ، نراها ونعيشها ؛ معقول ان تكون غير حقيقية ! »

« هذا يتوقف على تعريفك للحقيقة . الحارة ممكن أن تكون حقيقية ، والناس فيها مزيفين . أو لا يعرفون الحقيقة . عندهم وعي كاذب . »

« هذا كلام جميل . »

« الغريب أني قرأته في رواية تجري كلها داخل وعي البطل . أظن أنها كتبت لتفزعك بسؤال : أين توجد الحقيقية ؟ في الواقع أو في الوعي ؟ »

كانت تهزهز جسمها على كرسي الخيزران ، وتعبير وجهها واقف على مسافة بين الجد والعبث والشرود . قالت : « هذه الواقعية الحرفية . أنا أكرهها . تسعة أعشار القصص التي أقرؤها ، تزعجني ، إما لأنها حرفية وتسجيلية ، وإما لأنها تبشيرية مضجرة . أحب أن أقرأ قصة تتضمن رؤيا .

كل شيء فيها ، كل وصف ، كل علاقة ، رمز لعلاقة كبرى . كل شخصية تجسد مجموعة كبيرة ، أو هامة من الناس . وإذا لم تكن هكذا . سأبقى فزعانة من السؤال : أين توجد الحقيقة ؟ في الواقع أو في الوعي ؟ »

كنت أهزهز جسمي على كرسي الخيزران ، وأرمق نازك وأعاين دون أن تعي كم هي جميلة وشهية . من الذي يسعه القول إنها مرغريتا ؟ وقد استطعت ان أطلق إيقاعات نفسي كلها باتجاه هذا الكيان النحيف القوي المتسق . لكن السؤال كان في الحقيقة مرهقاً بالنسبة لواحد مثلي . هذه المستويات المتعددة للحقيقة ، وبالتالي للوعي ، تتطلب أن نكون شخصيات مركبة . وهذا لايمشي في عالمنا الذي يصفه سعدون وزيد بأنه آسيوي . نحن نتجه باستمرار نحو الوحدانية في كل شيء . والا لما ظهرت عبادة الاله الواحد في منطقتنا ، ولما ظهر الحاكم الواحد المطلق الصلاحية . صحيح ، الشخصية المركبة تعني وعياً أشمل وأوسع . لكن الشخصية المتوحدنة تعني نفاذاً أعمق بكثير . أنا أقرأ نازك كصفحة مكتوبة بخط جميل . وهي تقرؤني كصفحة

مكتوبة بخط رديء . هذا النفاذ المتبادل يجعل مسيرة الحياة الصعبة ممكنة ومحتملة ، وفرحة أيضاً .

قالت : « لذلك ، أرجو ان تتخلى عن عادة عقلية عندك صارت غير مقبولة . » وصمتت قليلاً حتى تأكدت أني مصغ تماماً ، فأضافت : « أنت تتلكم بثقة المعصومين عن الخطأ . ويحار الانسان من أين لك . »

أيقنت ان فرصة الحب تلك الليلة يمكن ان تكون قد ضاعت . يوم سألت أم عبودة كيف تتأكد أن ام اللولو وسلطان أصل بلائها ، أجابتها : لا بد للحقيقة من شاهدين . لكن كلام نازك كان جارحاً بما يكفي للاستغناء عن الشاهد الثاني . وخمنت أن ام اللولو ، وربما شيئاً من سلطان، وراء هذا الموقف .

وتابعت هي : « خمس سنين . سنة وراء سنة . نحن : ضد الملكية الفردية ! نحن : لنا شرف الموقف وموقف الشرف ! والحقيقة أننا أبطال العالم في الخداع الذاتي . أنا أمشي في الشارع ، ويلهف قلبي لكل منظر تشوفه عيني . أرى طاولة فأتمنى لو عندي مثلها . أرى لوحة فأقول ليس في بيتنا لوحة . الدكاكين . معقول ! كل هذه الدكاكين ، ونحن لا علاقة لنا بها ؟ عالم كامل . كله جميل ، وكله بحسرتي . »

كنت أتساءل عما إذا بقيت هناك فرصة لتجاوز هذه الغثاثة ، والتطهر في مخبر الحب من أدران الأزمة وغوايات أم اللولو ، وكل شيء . كانت أم عبودة قد وعدتها وعداً قاطعاً ان الفتيان لن يزعجونا أبداً . ولعل ذاك الوعد أعطاها راحة أعصاب كافية لأن يستغرق ذهنها في احتمالات العيش والرخاء ، وينزاح خيالها كلية الى عالم ام اللولو المحظوظ الجميل .

قلت : « طالما صرت فجأة حريصة على الملكية ومتعة العيش ، أظن

أن أفضل ما تملكينه وتعيشينه هو الولد . »

زنخرت : « متأسفة ياأستاذ . أنا الآن في عاشر أيام الدورة الجديدة . جاءت أبكر بأسبوع . »

« مستحيل ! ما معنى هذا الكلام؟ »

صمتنا قليلاً . انتبهنا الى الليل الموغل فينا .

قالت : « وفرضاً جاء ولد . ما هي القيم والمثل العليا التي نعلمها له ؟ المبادىء . ما هي ؟ أين هي ؟ أم نتركه ليصيبه الصرع مثل يسير . »

كان موقفي ان أزمة نازك زوبعة في ذهن حساس أثارها المسلسل وتلك الرواية . وهي أساساً نتيجة محسوبة لانخراطها في جو الحارة وعلاقاتها الصادمة . إن التضحية النبيلة لأجل الحب لا تعني بالضرورة استمرار الراحة والرضى . لابد للمرء أن يتوقع عاصفة ، أوحتى هزة أرضية ، فالتضحية نوع من القمع يمارسه الوعي على الرغبات الحقيقية المشروعة لأجل صعيد من التعايش الانساني أنبل وأجمل .

نهضت عن الكرسي :«وعلى أي حال ، أنا لم أخدعك في شيء . »

ومع الخطوة الأولى جاءني الرد : « صحيح . أنا خدعت نفسي بنفسي . »

وقفت عند الشباك الزجاجي ، وهناك سمعت جلجلة النواقيس التي قرعتها نازك . كان ضرورياً أن يقال ذلك الكلام ، وأن أسمعه . ويومها نمت على السرير الجديد وحدي . وبعد أن نمت نمت مع أم اللولو . أنا الذي غادرت رحماً سعيداً لأظفر بوعي شقي . أعرف أني مسكون بالخماسين والطين ، ولست أحتقر نفسي . أنا مجمّع تناقضات ، كما قالت نازك ، ولست

متفاجئاً . أتشرنق في هذه الحارة وأراها أضيق من أوردتي . أندّ عنها وأراها ألصق من أنسجتي . لا أريد أن أكون شيئاً فلا أكون ضده . أضيق بكوني رجلاً ، وألتقي أقواساً طرية وامتدادات فتلتهب مساحات من حوضي وبدني . يملؤني غبار وتقودني سحابة . أحاول أن أمشي نحو فضاء أسمع فيه صوتي وأعرفه . أحاول أن أمشي نحو فضاء أسمع فيه صوت العالم وأعرفه .

أريد أن أسمع صوتاً غير الصرخة التي أطلقتها يوم انقذفت في هذا الكون ، وظللت أطلقها . وتلك هي بطاقتي . أعرف أن وجهي لا يمت بصلة القربى لزرقاء اليمامة أو لسيف بن ذي يزن ، وقلبي ليس شجرة في غابة أو دفقة في نهر . غير أني أنظر كل صباح الى مثّناي ذي التقاطيع العادية وأحس أنها مجبولة من طين البيوت وعتم الأزقة ومطر الوداد ورفات الغائبين . ان بي حنيناً الى ساكني عينيّ وذاكرتي . والى هؤلاء تتجه الخفقات المتتالية كما تتجه الجذور نحو الأعماق الرطبة لرحم التراب .

- ٦ -

اجتازت زينب دار أم اللولو وبوابتها الضخمة . خطر لها انها بوابة عجيبة فعلاً . صفحة سميكة من المعدن ، رصعت وجهها مسامير ضخمة فظيعة ، تناسقت في أشكال هندسية . وفي الأعلى مسامير أشبه ببثور رصاصية تفنن ذوق ممروض في صفها . من بينها تدلت مطرقة رصاصية لها شكل اليد فوق أضخم هذه المسامير حجماً واتساعاً .

بين دارها ودار أم يسير وقفت . كان قيظ الهاجرة قد أفرغ الزقاق من أناسه وأخمد الأصوات والنبسات . وقفت كأنها نسيت شيئاً أو فكرة . ثم بدر منها عزم مفاجىء حملها مباشرة الى المدخل العاتم لدار أم يسير . هناك منحها

العتم حماية مطمئنة من أعين العالم الخارجي ، وفرصة لتعي أي جنون أقدمت عليه . انتصب فيها شعور ليس أقل من الرعب . داهمها وجه أبيها ويده الشبيهة باليد الرصاصية على بوابة أم اللولو .

أحست بالصمت والسكون وارتاحت . لقد فعلت مافعلته ، ولا مجال للتراجع . وكما تقول أم يسير ، « اللي له شعرة بالجمل بينخخه . » وها هي ذي تقارف ذلك المستحيل وتتقدم . ثلاث خطوات واذا هي في أول الباحة .

نظرتها تعبر المسافة بلا زمن ، وتلتقي في منتصف الطريق بنظرة سعدون المتخثرة دهشة وتكذيباً .

كان جالساً الى طاولته بين هضاب من الكتب . وكما لو أنه في حلم أو أخيولة ، أوقفه انفعال جارف على قدميه . ومع النظرة الواعية الثانية كانت زينب قد اختفت .

ثار انفعاله من جديد فأخرجه من الأرخبيل اللولبي بين الكرسي والكتب والطاولة . مشى ببطء عبر الباحة ، جالداً عقله بمحاولة فهم حاسمة ، وجاهداً ألا ينبىء مظهره عن أي اضطراب .

رأى الزقاق خالياً . باب زينب مغلق . لا . ليس مغلقاً تماماً . ومثل رذاذ خفيف يهمي من جميع الجهات ، جاءه صفير معروف تماماً تناثرت نغماته الأليفة في كل اتجاه ثم اجتمعت وراء بابها .

زينب تناديه . تسأله لماذا لم يعد يطلق تصفيرته لتخرج فتراه . زينب تعابثه وتسأل ان كان قد نسيها . تأتيه إلى عقر داره لتقول ان كل شيء يمكن أن يحدث ، لكن لا شيء يحدث للحب . لتحدد موعداً طالما طلبه .

انصرم اللقاء بظهور أم يسير الصاعق . أمسكت بذراع سعدون مؤنبة

وجرته وراءها الى الباحة . بغضب ألجم لسان سعدون ، ولغة قوية ، هتفت وهي تحاول ألا يسمعها أحد : « قالوا للكلاب ليش وأنتو راكضين مابتغنوا موالات ، قالوا يا الله نلحق اللهيت . شف ياولد . اترك زينب بحال سبيلها . البنت الحلوة لازم لها بيت حلو . ودهب وألماظ وجزدان قد البطيخة . وأنت ماقد هالطبخة . لا تعمل فيها مثل ما عملوا في أنا . وإلا والله والله ، يصير لك شيء ينذّمك . زينب قطعة مني . زينب أنا . لا تحرق شبابها مثل ما حرقوا شبابي . أو اطلع من هالدار . »

ألم يقل أن هؤلاء الفقراء لا يمكن أن يصنفوا يوماً طبقة عاملة ؟ ذهب وألماظ ! الحب والجمال لا يحقان إلا للرأسماليين . وهذه الشمطاء تقبل بذلك كأنه قانون طبيعي .

عاد إلى غرفته دون كلام . وحتى المساء ظلت المدينة جسداً رازحاً ، وذريرات وعي ، ومدى متباعداً من الصوت والصمت والأجسام والهلام .

دخل أبو حسن بخفة وحيوية . صاح منادياً عزيزة ، وهجم نحوها .

صاح ماجد من الداخل . ونبر أبو حسن : « هاتي لي لقمة ياأختي ، هاتي . » ونادى لسعدون : « يلعن أبو الكتب . قم نلعب شوطاً بالورق . خلصنا . يا أستاذ علوان ! »

كان ضجيجه أجمل تعكير عرفته نازك وعلوان لراحتهما . وسرعان ما التأم الشمل تحت اللمبة الكبيرة . انتعش نشاط قوي . وفي دقائق كانت حتى رؤ ينا الصغيرة جالسة على الحصير تحاول شرب الشاي . وبدأ لعب الورق .

قال ماجد : « اليوم قتل ضابط ، ملازم أول، واختفت جثته . »

تذمر أبو حسن : « ما عندك سيرة غير الذبح والتهريب ! »

هتف سعـــدون : « بالعكس . العنف أزمـــة عصـرنـا الأشـد جموحـاً وتفشيـاً . وهـو عنف انحطـاطي لا عنف ثوري . خلنـا نسمع عن تفسخات المجتمع الطفيلي . »

بدأ ماجـد بوصف موجـز . كان « الشباب » كالعادة ناشرين بضائعهم على أرصفـة الكـراجـات . محارم ورقيـة . سمن . بوتوغازات ، جرابات . خبـز . مسحـوق غسالات . ساعات . مسجلات . فيديوات . بسكوت . علب . ويسكي . جن . بيرة . بيبسي كولا .

هتف سعـــدون مستحثـاً : « أيـوه ، أيـوه . كل ما يلبي الطمـوحـات الاستهلاكية لمجتمع البرجوازية الصغيرة الطفيلي . واضح . »

طبعاً كانت الزحمة على أشدها . مسافرون وقادمون ، وباصات كبيرة وصغـيرة . خلائق الله واسم الله . وكـان ماجد مندساً بين الحشد الكثيف . يهز حول راحة يده ثلاث ساعات ليلفت الانتباه اليها دون أن يجرؤ على المناداة .

فجأة ظهرت الدورية . أعجوبة . تخطت نقطة الانذار المبكر الأولى ، والثانية ، وتسللت حتى وسط المعرض ! لا أحد يعرف كيف . المهم . حوالي سبعة ظهروا بصورة باغتت أشد المتمرسين بفن إخفاء البضاعة . لم يعد ممكناً أي تراجع او انسحاب نحو الباصات الجاثمة . وكان ماجد يقبض ثمن احدى السـاعـات ، فتنـازل عن عشـر الليرات الأخـيرة ودفع زبونه بعيداً ، ثم جمد بأرضـه . « أولاد الحـرام ! تقـول كأن الأرض انشقت عنهم وطلعـوا منها مثل الجـان ! » وكـان على رأس الـدوريـة نقيب متحمس ، فنشـر عنـاصره وجمّد الناس في أرضها .

كان الاتفـاق الضمني أن من « تقصده » الدورية أولاً يناجز ويناكف ، حتى يهرب البـاقـون بمهـرباتهم ، ثم يسلم ما لديه للدورية باحتجاج صارخ محاولاً أن يمنـع « شحنـه في سيـارة الدورية . » وبعدئذ يدفع له رفاقه الخسارة « وفوقهـا حبـة مسـك . » لكن النقيب أمـر بمصـادرة كل شيء هذه المـرة .

وباعتقال فوري ، « بالكلبشات » ، لكل من يعترض .

« يا أستاذ علوان ، لو كنت وشفت . كل واحد فهم أنه ما فيها يا أمي ارحميني . تقـول كل هالأنفـار العائفين سماءهـم من الفقر والشرشحة ، طلعت لهم أنيـاب ! تقـول كأنهم استأسـدوا وبـاعـوا حيـاتهم ! بعـد خمس دقـائق ، انجـبرت الـدوريـة على اطـلاق النـار . وولّعت ! الشبـاب ردوا على النـار بالنار . قتل ملازم ثان ، واختفت جثته بدقيقة ! »

صرخت عزيزة : « وأنت كل مرة تقول ما فيها شيء ! يعني لو صابتك رصاصة ، ما قتلتك ؟ »

رد ماجد بهدوء : « اسكتي يا حرمة . عمر الشقي بقي . »

هتف سعدون : « إي ! وبعدئذ . »

زنخر ماجد : « أنت مجنون ! إي كيف بقيت حتى قتلوا الملازم ، ربك هو العليم . الهريبة ، ياعمي . ما أحلاني والله ، رايح عالمخفر لأشهد ! »

شخـر أبـو حسن : « تضرب أنت وحديثك . مثل الجبنة المعفنة . كأن بلاوينا لا تكفي . »

التفت اليـه سعدون بحدة : « صحيح أنت بروليتاريا ماركة مسجلة ، لكنك دون مستوى طبقتك بكثير . »

التفت علوان الى أم يسير ونبر متحبباً : « إي ، يا ترى هالقصة فيها عبرة والا لأ ؟ »

لكن أم يسير أجابت بانسحابية ملتبسة : « العبرة ياابني انه دود الخل منه وفيه . »

وكان الليل قد أقبل . هذه المرة مع خثرة وتثاؤ بة . لم يُتابع اللعب . ونهض كل الى مطرحه .

فوجىء علوان بالقهوة جاهزة ، وبابتسامة رحبة على شفتي نازك . « أنا آسفة » قالت وهي تناوله الفنجان فكأنها تناوله مجذافاً . قالت إن تناقضاته أجمل ما فيه ، فليس أحد منسجماً مع نفسه إلا الموتى . ليس بينهما أزمة .

والذي حدث كان انعكاساً لمؤثرات خارجية .

بالطبع هي ستستمر في تجهيز البيت عن طريق أم اللولو ، لكنها لن تنزلق في المشروع الاستهلاكي الذي يجتاح البلد . لن تزعل إذا فاتها بنطلون جميل أو كندرة فاخرة .

عندما تخاطبك المرأة ، فدائماً بلغتين . لغة الكلام ، ولغة الانفعال . وهذا هو السبب في أن الرجل لا يستطيع أن يتأكد أبداً من موطىء قدميه معها . يمكنك أن تفهم معنى عبارة مثل « أنا آسفة » ببساطة ، اذ قيلت من عقل لعقل . أما اذا قيلت مع شهقة ، إطراقة ، عينين تغمضان فتنفر منهما الدموع ، فالمعنى مختلف . عندها يصير معنى للمشهد كله ، وليس للغة وحدها . وكان ذلك المشهد يعني أن نازك آسفة ، ولكن علي أنا أن أراضيها . يعني أنها أذنبت بحقي ، ولكن أنا السبب . « ليس أحد منسجماً مع نفسه الا الموتى ! » وتبكي منسجمة تماماً مع نفسها ، ومفعمة بالحياة . ماذا تفعل ؟

تصدق اللغة ويفرح قلبك للمعنى العظيم ، أم تخاف على نازك من الموت ؟ وبالتالي تفعل لها شيئاً يرد الحياة !

طبعاً ، قد يقال إننا نحن الاثنين قمنا بعملية التفاف . قفزنا فوق الموقف الأخلاقي متذرعين بالموقف النفسي . وأن ثورة نازك كانت زوبعة في فنجان ، تم بعدها التغاضي عن انتهازية الطبقة المتوسطة العريقة فينا . ماش الحال . لكن أتحدى أن يكون إنسان سويّ شيئاً غير ما كناه نحن . أنا أعرف هذه الأقنعة . أعرف أن الأخلاق كوابح مجيرّة لمصلحة المالكين ، وليست قواعد للحياة الرفيعة . إذا انقطعت علاقة إنسانية بين اثنين ، فلا الأخلاق ولا المبادىء قادرة على استعادتها . وأظن أن من يضحي بعلاقة صحيحة وحقيقية لأجل أي موقف ، يكون قد ضحى بأعظم حقيقة في وجوده وكيانه . ان قيمة الانسان ومآله أبعد دائماً من الأخلاق .

بهذا الوعي لدينا ، حملت نازك بين يدي وجففت دموعها بشفتي . وكان قمر الأيام الأخيرة من الشهر قوساً برتقالياً نحيلاً ، يتوسط كبد السماء كسهم التوى عندما انغرز .

لكن نازك بقيت باردة ومغلقة . كنا يومها نريد ولداً . وكانت ايقاعات النفس متواترة ومنسجمة بيننا . تحيرت نازك وارتبكت ، وغضبت . ثم قبلت ان يتم الحب بما يشبه الاغتصاب . ولم تنفتح إلا في أوج المرة الثانية . وهكذا دخلنا خيمة الكيمياء . وارتعشنا لكوننا سنصير أبوين .

- ٧ -

كانت أم يسير جالسة على الكرسي الوطيء تغزل بعينها خيوط

الشمس ، عندما هوت أول حجرة على زجاج النافذة فحطمته . وتناثرت الشظايا على رأسها .

وقفت مذعورة . التقت عيناها بعيني عزيزة ، المندهشة هي الأخرى . لم يكن بوسعها رؤية الأسطحة ، لكنها رفعت رأسها : « شوفي يابنتي ، من على الأساطيح . »

هوت حجرة ثانية على زجاج الغرفة المطلة . ومع صوت التحطم علت أيضاً شهقة نازك المرتعبة . وسقطت الشظايا على رأس أم يسير فازدادت تشظياً .

ثم سمعت الأصوات : صوت هبوط نازك المرتاع على الدرج الخشبي ، وأصواتهم على الأسطحة ، وتحطم مزيد من الزجاج ، وأخيراً صرخة أم يسير التي وضعت راحتيها على عينيها وطأطأت حتى لامس مرفقاها ركبتيها .

لم تكن نازك وعزيزة مستعدتين لهذا الحجم المباغت من التشوش والذعر . لكنهما هرعتا فوراً الى العجوز التي راحت تصرخ : « دخيلكن ! عيني ! دخيلكن ! . . » دون أن ترفع يديها عن عينيها . وراح صراخها يدفق فوق الألم رعباً مرعباً . كلتا المرأتين فهمتا أن نثرات زجاج دخلت في عينيها . أمسكتا بها وجرتاها الى حصيرة عزيزة .

كان الفتيان على السطوح ، يتنادون ويتبادلون تطيير الحمام . وكلما آثرت حمامة أن تجثم بعيداً عن يد أحدهم ، رموها بحصاة أو حجر كي تطير وتأتي اليهم . اختلطت صيحاتهم بصرخات أم يسير . وغفلت النساء عنهم فلم ينتبهن الى توالي سقوط الحجارة وتناثر الزجاج . كانت نازك وعزيزة تحاولان فك راحتي أم يسير عن عينيها ، وقد تهيأتا بخرقة نظيفة وكوب ماء .

ولكن عبثاً . مرت ثوان بطول شهر عجزت خلالها المرأتان عن زحزحة اليدين الحـديـديتـين . وضاعف تشوشهما وذعرهما صراخ أم يسير المتواصل ، الشبيه بصراخ ابنها ساعة النوبة . كأن هذا الحجم الضئيل قد صار حنجرة وحسب . وإذ نجحت نازك أخيراً في رفع اليد المعروقة عن العين ، سقطت حصاة على رأسهـا . انفلتت منتصبـة وصـارخـة : « يلعن أبوكم ، كلاب أولاد كلاب ! روحوا عن الأساطيح ولاه ! » وفي وسط الباحة أطلقت سباباً فاحشاً لم تكن من قبل تستطيع سماعه .

عادت بسـرعـة الى عزيزة الممسكة بالعجوز الناعبة . بعزم غير مألوف انتـزعت يدهـا ولوتها الى الخلف . ثم أمسكت بيدها الثانية . وفتحت عزيزة جفنيها وصرخت : « اهدئي عاد ! »

هدأت أم يسـير . بالأحـرى تحجـرت . فقط لولا الدموع الحمراء التي انفرطت من عينها اليمنى .

عندما عاد الرجال بعد الظهر كانت أم اللولو قد قامت بالواجب . جاء الطبيب وفحص أم يسـير . أثنى بقـوة على عزيـزة ومهـارتها في انتزاع الزجاج المنثـور في العـين . قال ان تمزقـات خفيفـة أصـابت القرنية ، ومنعاً للالتهاب والانتانات قطر للعينين وضمد اليمنى .

وكـان علوان يتأمـل قامة أم اللولو الشبيهة بصورة للفيض ، وقد ثار فيه حنـين مستبـد لراحـة وهـدوء لم يعرفهما من قبل ، لكنه أحس بالحاجة اليهما في عقله الناشد المتمني .

قال المعلم سلطـان إنهـا حالـة غضب من الله . لوكان سبحانه وتعالى راضياً عنهم بمثقال ذرة لوهبهم شيئاً ولوبسيطاً من رزقه اللامتناهي ونعمته التي عمت العالمين . لكنهم قوم مغضوبون ، يذكرونه بعاد وثمود وزنج البصرة .

قال علوان لأبي حسن : « أنت تعرفهم . اذهب اليهم وكلمهم . قل لأم عبـودة ، هذه الأفعـال تجر دمـاء . قل لها ، ألم تتعهدي ، هؤلاء الأوباش لن يطلعـوا الى السطـح أبـداً ؟ » قال أبـو حسن : « نذهب ، أنـا وأنت . » والتفت نحـو السقيفـة : « وسعـدون . هكـذا ، ثلاثـة ، نتكلم معهم بعـزم وقـوة . » رد سعـدون بنبرة باردة : « أربعة ، أفضل ، خلونا ننتظر ماجد . » صاح علوان : « ننتظـر ليقـولـوا خائفـون ؟ لازم التحـرك فوراً . » غمغم أبو حسن : « نتحـرك ، نتحـرك . يا الله . امشوا . » هتف علوان : « أنا أروح اليهم ! » نبر أبـــو حسن : « وإذن أنـا ؟ ليأكلوني ؟ وبعـدئـذ أنـا مالي هيبـة عنـدهم . » أعلن سعـدون بنـبرة باردة : « هؤلاء لا يمكن التفاهم معهـم . نروح ، نتبهدل ، نرجع . والله يرحم يوليوس قيصر . » صاح علوان بغيظ : « هالـــوقت وقت ثقـــافتـــك ياأخي ! » رد سعـدون بلا انفعـال : « نروح ، نروح . ياالله . » وثبتت أعين الرجلين على علوان . همهم علوان بكبرياء : « أنا أروح اذا تأكدت من وجود أم عبودة . أريد رأساً فيه دماغ أتكلم معه . »

صمتوا . من يضمن وجود أم عبودة ؟

« معكم حق ، » قال المعلم سلطـان ، الـذي جاء يستفقد أم يسير ثم دعـاهم الى قصـره لشـرب القهـوة . « الـرجـل العـاقـل لا يرمي بنفســه الى التهلكـة . صحيـح ، هؤلاء يوجعـون القلب ومسـاكين باءوا بغضب الله . لكن إذا ركبهم ابليس ، من يضمن سلامتكم ؟ الخـوف نوع من الحكمـة . والحل لا يكون بأن تدخل وكر الخنازير والذئاب . الخوف لا يقارعه إلا خوف أكبر . »

كانت العبـارة الأخـيرة غامضـة . لكن المعلم سلطان أوضحها بسرعة كافيـة . مد يديه الى جعبـة جلديـة اسطـوانيـة الشكل . وأخرج منها أربعة

مسدسات ، مددها على التربيزة الوسطى : « بشرط . لا أحد يطلق النار ، طبعاً . إلا في حالة الدفاع عن النفس . »

كان واضحاً ان المسدسات هدايا . لم يمدد أحد يده اليها . سوى ماجد الذي هرب من مناوبته تلك الليلة وانضم اليهم . تفحص المسدس بغبطة وامتلاء ، ثم أعاده الى مكانه . وبعدها سمعوا صوت مكيف الهواء .

تنحنح المعلم سلطان ، ماداً قبضته أمام فمه تأدباً . التفتوا نحوه منتظرين الكلام . تناول المسدسات وأعادها الى الجعبة . قال ان جمعيتهم جمعية أخوّة وإيمان ، وان الله سبحانه وتعالى أوصى الجار بالجار ، والمؤمن ان يهب لنجدة المؤمن ، وإن غرضه ومقصده ان تظل كلمة الله هي العليا . قال إنه سيغتنم هذه الفرصة ليضع سلاح الدفاع عن النفس تحت تصرفهم ، فهذا هو واجبه ، وهذا هو ما يرضي الله . وسيغتنم الفرصة للمسارّة ببعض الأفكار . ان للطبيعة قوانينها ، وهي القوانين التي كشفها الله للبصائر كي يهتدي بها البشر . الطبيعة حكمت أن الماء ينزل من الأعلى الى الأسفل وليس العكس . وأن الشجرة تنمو من الأسفل للأعلى وليس العكس . الذي تهيئه الطبيعة لأعلى المراتب ، يجب ان يكون ويظل في أعلى المراتب ، وليس العكس . وهؤلاء الفلسطينيون ، والأرمن ، والأكراد ، والغوغاء كلهم ، الذين حرمتهم العناية الالهية نعم الطبيعة ، أعطتهم زبدة القوة البدنية ونفاية العقل . هؤلاء يجب ألا يخرجوا من المكان الذي خلقوا لأجله ، وهو دائرة العمل البدني لانتاج مواد العيش . أية محاولة لتغيير وضعهم تعني الاساءة اليهم وخلخلة عقولهم ، وخروجاً على إرادة الله وكفراً بحكمته . ويبدو أن شيئاً من الأفكار دخل دارهم في الآونة الأخيرة . لذلك تعاظمت فيهم نزعتهم التخريبية . هناك أشخاص مريبون يعتقدون فعلاً أن هؤلاء مظلومون ، ويحرضونهم ، معتقدين أنهم سيغيرون نظام الطبيعة التي خلقتنا بعضنا فوق

بعض درجـات . يدفعـونهم لاخـراج أم يسير وجيرانها من الدار ليحتلوها هم وتصير وكراً لهم . »

قال سعدون بصوت جاف : « لكن يا معلم ، التاريخ البشري سلسلة متـواصلة من التصـدي للطبيعـة ومحـاولـة قهـرها . ألا يجوز ان تكون الطبيعة جائرة ، وأن يكون الانسان أرحم بنفسه منها ؟ »

هوّمت على زاويتي فم سلطان ابتسامة ، وبقي وجهه ضبابياً . كان ما يزال يحدق في الفنجان مثل من يقرؤه . تعوذ بالله وبسمل : « هل أتى على الانسـان حين من الـدهـر ظن نفســه فيه شيئاً مذكوراً . صدق الله العظيم . الطبيعة هي الصح وعكسها هو الغلط ، يا سعدون . »

حمحم سعـدون قليـلاً ، ثم خرج صوتـه : « لو الطبيعـة هي الصح ، لكان يجب أن نستسلم لفكرة القدر ونلغي ارادتنا . »

رفع سلطان عينيه الى وجه سعدون : « وأنت ياسعدون ، تريد الزواج من زينب ؟ أو انك خذلت البنت . . لتتزوج أفكارك الطائرة هذه ؟ »

اذن كان يعرف ! لكن لهجته كانت تقطر حباً وأخوة . وبالمشاعر نفسها ودعهم حتى مدخل الدار ، مكرراً وصيته ألا يترددوا في المجيء عند حاجتهم الى المساعدة .

قبل وصول الأربعة الى بيوتهم ، التفت سعدون فجأة ونظر الى علوان بإكبـار : « فعـلاً مثلما قلت . عنـدما نحتاج للمسدس نشتريه بأنفسنا . ومن هذه الناحية ، لا يهمك . أعرف صديقاً حيث أشتغل . يزودنا بالذي نريد . »

كانت النسـاء جالسـات على حصـيرة عزيـزة . شربن شايـاً أحضرت

نازك له السكر والفناجين . وقريباً منهن جلس يسير على كرسيه الصغير ، هادئاً تماماً . وراحت أم يسير تنظر الى جيرانها بعينها المفردة . ان أحداً من الجيران الآخرين لم يأت ليقول لها كلمة طيبة . الا سلطان وأم اللولو . أين هم الذين احتشدوا قبل أسبوعين ليشاهدوا محنة الرجل الغريب ؟

سلطان وحده هو الذي قام بالواجب . جمع الوجهاء والمعلمين في منزله بشارع العروة الوثقى . ومع منسف ضخم أعده خصيصاً بعد صلاة الجمعة ، انثالت كلماته الهادئة الحزينة . وسرعان ما تحول جو الشبع والبلهنية الى شعور بالذنب والخجل في ضمائرهم . قبل قليل الصقوا جباههم بالأرض خضوعاً لخالق الخليقة ، أتراهم الآن يخضعون للمخلوق وينسون الخالق ؟

هل حاولوا تقويم المنكر ؟ وهذه المسكينة ، التي هي أم حقيقية للحارة كلها ، « أليس واجباً في أعناقنا أنه نثبت لها المرة تلو المرة ان المؤمنين أخوة ؟ ماذا جرى لهذه الحارة ، تحللت وتخلخلت ، وكانت أشبه بجنة عدن ؟ »

أنصتوا له . وفي مخيلة كل منهم صورة ما لإبليس . وفي القلب ضمور وشدة . حقاً لقد جرفتهم الحياة ونسوا أنه فيها شراً . ماذا كان سيحل بضمائرهم وعقولهم لولا وجود المعلم سلطان في الحارة ؟

[تقرير :

« الله يرضي عليك يابنتي . عملت عين العقل ، وبقيت في البيت . لو مددت رأسك قدر شبر . كانوا قالوا زينب شاورت لواحد منهم . »

« وَلَكْ غارو ، ولك حيوان . عميتم عين أم يسير ، وفوق هذا قطع أسلاك الكهربا ! »

« وحياة المسيح ، أم عبودة ، أنا ما قطع أسلاك ولا غير أسلاك . »

صعـدت نازك الـدرج الخشبي الى السطـح . أرادت فتـح البـاب ، وترددت بخوف مبهم .

أبـو حسن جالس على الكـرسي . قدمـاه مسنودتان على براد الكازوز الخشبي . أنزل يده عن ذقنه . مد أصابعه أمام شاربيه بحيرة : « كلما فاتت من هنا ، طلعت من هنا . »

« وحياة محمد ، أما ما مديت أصبعي على أسلاك ، ولا لي بها الشغلة . »

تسللت زينب بهدوء وكسـل الى باب الـدار . اطمأنت الى اطمئنـان أبيها . لطأت وراء الباب .

دخـل سلطـان بين الشجـيرات . لمست مسام جسمه رائحة الياسمين الخاثرة . غمغم : « إن الله جميل ويحب الجمال . رب اشرح لي صدري ويسر لي امري . »

« أنـا طول النهـار حامـل صنـدوق البـويـا في شارع النصر . شلون أنا قطعت الأسلاك ! »

« وأنت يا أصل البلاوي . اخرس . اخرس . من قطع الأسلاك ؟ »

« أم عبودة . لا تعذبي حالك . لو أحد فينا فعلها ، كنا قلنا لك . »

تمطى سعدون ملياً . دفع الكتاب برفق . انسل الى الباحة فالمدخل .

يا رب يابـاسـط الأرض يا رافـع السـماء أمـرتنا باتباع هديك وأنا أتبعه وأمـرتنـا أن نتمسـك بتعاليمك وأنا أتمسك بها وأنا أقف بين يديك عبداً حقيراً

أقف بأدب وخشوع ورهبة وخضوع ورغبة ورجاء وخشية وبكاء وأعرف أن ما أنعمت به علي أمارة رضى وقبول وأنا إنما أفعل هذا كله ابتغاء مرضاتك وجهاداً لاعلاء كلمتك وإنما أبتغي ربط الناس بأسلاك العروة الوثقى زلفى إليك أتمم نعمتك علي بالخلفة الصالحة يارب ولداً تقر به عيني وأشد به أزري يا أرحم الراحمين

« اللعبة هذي مش على أم عبودة . هالمسكنة وهالآدمية مش على أم عبودة . هي الأسلاك انقطعت لحالها يعني ؟ والا سلطان جاء . . ! »

« زينب ! ما أروع الحياة ! أخيراً ؟ صحيح هذه أنت ؟ »

« هشت ! اسمع . بكرة تلاقيني عند الروضة الساعة ١٢ . »

« زينب . زينب . كلمة بس . الساعة ١٢ أكون في شغلي . »

« خذ مأذونية . بخاطرك . »

« زينب . زينب . »

غرف حفنة أخرى من أزهار الياسمين . دس أنفه فيها وتنفس حتى أعماق رئتيه . مرة خرى اعتصر تلك السكينة الرطبة ، ذلك البرد والسلام ، لبتلات الياسمين الغفيرة . مرة خرى ضغط ملاستها المكدسة على وجهه الملفوح حتى أوشكت أن تنسحق . وشم بخديه وفمه وعثنونه رائحتها الكثيفة اللزجة . لكنه عندما رفع وجهه عن راحتيه ، رأى وجه زينب .]

كان الزقاق سديماً . المصباح الكهربائي المتدلي من علية أم اللولو أرسل رذاذاً من الضوء في فضاء داكن فعكر صفاء ظلمته . عندما التفت علوان يميناً ويساراً لم يتبين الكثير مما وقع على صفحة عينيه . لم يكن ثمة ضوء فيرى في الضوء ، ولا عتمة فيرى في العتمة .

بعد قليل انتبه الى مكانه . رأى انه صار وسط الفسطاط البيضوي المترامي الأطراف ، بين أرائك خشي ان هو هبط عليها جالساً أن تلتف عليه من الخلف والجانبين وتغلفه فتغيبه في قوامها الأثيري . وهذا الضوء الباهر : لن يستطيع مرور أي زمن أن يخفف وطأته على فتحتي العينين . لا ، بل هذه العشرات من الأشكال والقوامات التي لا يجد لها اسماً في لغته . الكنبات هناك ، المزدوجة الظهر . الطاولات الدائرية الصغيرة المحمولة على ساق مركزية واحدة ، والحاملة لعشرات من التحف الصغيرة الثمينة . الخزفيات العجيبة ونقوشها الحلزونية المتاهية المذهلة . بل المذهل هو هذه الزجاجيات والبلوريات وألوانها النارية والذهبية واللازوردية ، والاطارات الجليلة الجسيمة حول لوحات نفيسة ، والكراسي الانسيابية ، وأدوات الشاي الكريستال والعاجية ، والسجاجيد البيكاسوية ، والطنافس الرئوية ، والأصص المحمولة والأحواض ونباتاتها وأزهارها التي جعلت الفسطاط حديقة . مئات أشياء ، صغيرة وكبيرة ، صامتة وناطقة ، ساكنة ومثيرة . وفوق هذا كله ، الموسيقى الهادئة المنعشة التي تفيض من المكان كالعرق من البشرة .

« لماذا لا تجلس ؟ »

هو خائف من الجلوس . التفت ورآها . من أين انبثقت ؟

« أراك أعجبت بالمكتب ذاك . أحياناً ، سلطان يأتي هنا . واحد مثله تماماً ، أرشق وأقل ضخامة ، في طريقه الآن الى بيتك . »

كانت تتقدم دون ان تمشي . غيمة مكدسة حنطية اللون . بفعل هذا الرداء المليء بالذهول . الذي دخلت في صنعه عشرة آلاف شرنقة . في الفسطاط ألف شيء وشيء يطيش الصواب ، لكن هذا الرداء شيء آخر . ومحتوياته : عالم آخر جديد كأمريكا ، قديم كآسيا ، وحلم كأطلانطا .

البطن ، المساحة الآسرة . الرداء ينسدل على استواء مليء . يلامسه برفق وينضم عليه . موجة حملتني برغبة أن ألج وألغ وألغو . هناك يوسد الطفل في العادة رأسه . ويعصر خده وحاجبه . ويغمض عينيه ويظل واعياً .

بانتصابتها الآمرة مثل انتصابة روما بوجه العالم . طبعاً ، كنت مضطرباً ، كما ترى . وكيف تتماسك مع كيان يستبيحك ويجتاحك ، رغم ودادها المعلن ، والوضوح التام لكونها قد تزينت لأجل مناسبة خاصة ؟

« صرت ترى الآن ان الدهماء خطر عليك ؟ آجلاً إن لم يكن عاجلاً ؟ لا بأس . يوم تحس بالخطر ، هذا المسدس بانتظارك . أنا حريصة على أصدقائي . خاصة اذا كانوا من صنفك . تعجبك هذه الموسيقى ؟ »

قال سعدون : « ما رأيك ياأخ علوان بحادث الزجاج والأسلاك ؟ »

قال ماجد : « المسألة ما بودها شيخ يحسب لها . والا عندك كم كلمة حابب تبقّها . »

كان علوان ما يزال مأخوذاً بالمقابلة الخاطفة ، أقرب الى الحزن والشرود . لم يعرف سبباً لحزنه ، وتضايق ، معتقداً أن ضميره بات يخفي عنه شيئاً . كانت الهزة أقوى من أن يتماسك أمام الآخرين أويظهر درجة حيويته المعتادة . مع أنه لم يعط وعداً ولا وافق على وجهة نظر : فقط أكد لأم اللولو أن رجلاً مثله لا يسمح لأحد بإهانته أو الاعتداء عليه . لكنه أحس ، وسعدون يصول ويجول في عقول مستمعيه ، أنه اختُطف ، أن صوتاً ما يناديه ، ليس تماماً بلا دفاعات لأنه يمتلك أجنحة ، ويريد أن يطير ، لو فقط يعرف الى أين .

قال سعدون : « كلما رأيت أشباه البر وليتاريا هؤلاء ، تملكني الحزن

والفزع من ضياع الجهد الانساني وهدره ، امحى من ذهني كل شك بتاتاً في أن تكـون هذه المسـوخ الآدمية ثواراً . وكل مرة يثبت ان التعاليم صحيحة ، وأن الطبقـة العـاملة وحدها هي الطبقة الثورية . لا كلام . للثورة ميقات ، محدد تحديداً رياضياً ، وان كنا لا نستطيع التكهن به . »

قال أبو حسن لأم يسير : « خالة ، ما قلت لنا رأيك بحادث القزاز والأسلاك . »

قالت العجـوز ويـداهـا في حجـرها : « ما بيسلم الكرم من الناطور ، ياابني . مع ان دار أم عبودة ، دفعوا كل شي لمصلحة الكهربا . »

بعـد أن آوى أبـوحسن الى النوم وحذا الآخرون حذوه . جلست هي على الكـرسي الصغـير أمـام باب « مخدعهـا » ، من الأعالي كان ضوء القمر يهبط الى معظم الباحة . ضوء سمين ودسم . من الخلف جاء غطيط يسير . وعـرفت أنـه نائم نومـة عسرة . لن تستطيع الدخول اليه وتعديل نومته ، طالما بقي القمـر في ذلـك المكـان . حرام . سيخاطبه القمر إذا انفتح الباب ودخل الضـوء في الظـلام الكثيف . عنـدهـا سيقـوم هوويسهر حتى الصباح ، مثل ناطور الصحراء .

نظرت الى القمر . منذ قديم رتّب قومها حياتهم على دورته الشهرية . هناك من يعبدون الشمس . لكن قومها على حق . القمر يدخل في القلب . مثـل نازك . جميـل وهـادىء ، وغميق وصـاف . ويـؤثر في العقل . الشمس تكوي وتضرب .

ازداد القمـــر هبـوطـاً عن سمتـه . أمـام الشبـاك الـذي فرغ الآن من زجـاجـه ، جلس علوان ونـازك . لم يستطيعـا النوم ، ولم يتحمسا حماساً كافياً للحـب . كان الطبيب ، الـدكتـور وائــل ، قد قال ان هذا العقم نتيجــة

طبيعيـة . خمس سنـوات ، قال ، وأنتم تتحـايلون على خصـوبـة زوجتك ، تخنقون الحياة بمنع التفاعل الحيوي عنها . هذا قتل منظم ، منهجي لامكانية الحمـل ، قال . كل شيء ، من البـويضـات الى المشـاعـر ، يلاقي المصـير نفسـه . « لكن متى يصـير حمل ؟ » فقـوّس شفتيـه وهـز رأسـه : « خمس سنـوات ، مدة طويلة . » « يعني ؟ » سألتـه مدعـورا . « وكـل الله . وكـل الله . استمـر في المحـاولـة أيـام الخصـوبـة . خل الـرحم يحس أنـك تريد له الحياة ، أو تريد منه إعادة انتاج الحياة . واتكل على الحياة . »

الآن نحن جاهزون . لم يبق سوى شقتنا الاشتراكية . دفعنا التزاماتنا المالية . اشترينا أثاثاً كاملاً . صحيح لم يبق معنا مال بعد هذا الشراء ، لكن شقتنا ستكون مفروشة ومجهزة تماماً . حتى سرير الخيزران للولد ، للأولاد ، اشتريناه .

ونكن ماذا قال رئيس مجلس الادارة ؟ هنـاك شيء في اللغـة المتخصصة يجعـل فهمـك متـوقفـاً دائـماً على ثقتـك بالمتكلم وليس على اللغـة أو ذكائك الشخصي . لذلك رأيتني عاجزاً عن الاعتراض على ما بدا لي معادلة جدلية محكمة قدّمها لي على الشكل التالي : الزيادة الأخيرة في سعر المتر المربع ، لم يسددها من المشتركين حتى الآن الا نسبة ٣٦ ٪ . وريثما تجبى المبالغ المتبقية تكون نسبة التضخم المالي والاضطرار الى الشراء من السوق السوداء قد التهما ٥٠ ٪ من الـزيـادة الجديدة ، ونكون قد وقعنا في عجز جديد ، وضرورة زيادة أخـرى . المصيبة في هؤلاء المشتركين كونهم شحادين ويريدون بيوتاً . « متى إذن نستلم الشقة ؟ » فمط شفتيه ورفع كتفه الأيسر قليلاً .

هتفت زينب : « ويكون لنا بيت ، بلا عذاب ! »

تمتم سعدون : « وإذن ماذا ؟ وإذا استأجرت ، دفعت عشرة بالمئة من

دخلك الشهري بس ، أجرة بيت . »

« يا عيني ما أحلى الاشتراكية . »

« شفت ؟ لازم تعرفي التعاليم والمبادىء ، ليصير اتفاق كامل بيننا . لأنه لا يكفي لأجل مسيرة حياتنا أن تحبيني وأحبك . . »

« سعدون ! لا يكفي أن تحبني وأحبك ! لولا الحب ، كيف قوّيت قلبي وجئت لأشوفك ؟ »

« طبعاً ، بعد فترة يصير لا يكفي . أنت نشأت في بيئة مثالها وعقلها سكوني جامد . وأنا أؤمن بايديولوجيا مثالها صيروري وعقلها جدلي . وأنت لازم تطلعي من جاهلية بيئتك . »

« أطلع من الجاهلية بسبب خوفي من إله جاهلي . »

« ماذا ؟ من أسمعك هذا الكلام ؟ »

« خلدون ، صديق خالي زيد . »

« هذا واحد مدّع . كبّي كلامه في البحر . اسمعي كلامي أنا ، وافهمي أفكاري . . . »

« أنا مستعدة آمن بأي شيء كرمى لك . بس خليني اطلع من هالبيت وأتنفس . »

« لا ، لا . أي إيمان بغير الفكر المادي الجدلي أفيون . »

وأحس بدماء حارة تهدر في عروقه . تعبأت أحاسيسه ومشاعره بحضورها وبجمالها الطفولي الخلاب ، فأمسك بيديها وشد عليهما بكل قوته .

- ٨ -

عنـدمـا تسلق أولهم الحائط المنتفخ كبطن حبلى ، لم تكن الشمس هي التي دفعتـه الى مزيـد من الشمس . كانت الـدار هادئة في مثل هذا الأوج من القيـظ . لم تر عينـاه شيئـاً متحـركـاً بين تقـاطيع الرثاثة المبثوثة في الدار كأثاث كثيف . تسلق وجلس على الطـين اليـابس ، مسنـداً ظهـره الى جدار غرفـة علوان ومستظلاً به . كان ذهنه أبيض تماماً .

وصـل فاضـل . أنـزل عن كتفـه صنـدوق البـويـه وأسنده الى الحائط المنتفـخ . كان السكـون رازحاً على الباحة ، فتوجس : قبل دقائق تشاجر مع زبـون وهـرب من الشرطة . تسلق الى السطح متلكئاً مترخّيا . والتفت ليرى عادل الى جانبه .

كلما أقبل واحد عبر الفتحة بين صفائح التنك ، وتلقاه السطح المشتعل والأعين الباصقة . الذين لم يسترخوا تماماً ، بل قنطروا أيديهم فوق ركبهم ، حركـوا تلك الأيـدي لتلتقـط الحصى وتقذفها في الجو الخاثر . وكان عادل أول من رمى حصاة على طوق حمامة . انعقد الحمام في الجو .

تعـالت أصـوات من الـدار . توقف قذف الحصى . من جديد أحسوا بالشمس تمطـر شواظـاً وصمغاً . بين الثواني والثواني ، أخذت أظافرهم تنبش القش من السطح الخشن ، وأيديهم تشيله في الهواء . عاد الحمام الى أطواقه .

« ياأولاد الكلب ، كلكم جئتم الى هنا ؟ أي فيكم يكون البادىء بالـ . . ، لا يلوم غير حاله . » نهض وائل بتثاقل . اذن لن يكون أحد البادىء . مشى الى إفـريـز الخشب المطـل على الـزقـاق . هو أيضـاً كان ذهنه أبيض . تحرك نوزاد : أيـام زمـان كانوا يطبخون الرز واللحم في حلة كبيرة ثم يجلس الجميع

حول سماط أوسع من هذا السطح ويأكلون حتى يشبعوا . بعض الأصابع بدأت تحفر في السطح . كان ذهن كارو أبيض . حفر قليلاً بمطواته ، تأكد ان النفط لن ينبثق . حطت ثلاث حمامات بين سطح أم يسير وسطح أم عبودة . هذه البواريد قديمه أطل جميل من الفتحة وبيده سندويشة . التفتت اليه العيون . راح سالم يحفر بمطواته . انتبذ نوبار ركناً قصياً . بدأ الحمام يطير .

بدأوا ينهضون . قذفوا حصى . طار حمام . مشوا لاعلى التعيين . تسلقوا سطحاً أعلى . طار حمام . راحوا وجاءوا . قذفوا حصى وتراباً . تداخلوا .

بهدوء . أسنانه حفرت في السندويشة . طار حمام . مشوا . بهدوء . ببطء . فدحرج عادل نفسه . نهض . مشى . ببطء . حلق حمام . وقف عادل أمام الباب . باب علوان .

كانت ام يسير واقفة في الباحة التي غادرتها الشمس . منذ البداية راقبتهم ، وبكلتا عينيها اللتين راحتا تتقاسمان رؤ ية الوجود . فيما مضى كانت تأنس لأية حركة منهم . الآن ، لم تعد آمنة الى ذلك الحد . منذ بدأ الهدم في الطرف الغربي ، انهدم فيهم شيء ما . هي لا تفهم مثل هذه الأمور . تتحسسها فقط . إنها تعرفهم واحداً واحداً . كانوا أطفالاً أبرياء جميلين . كانت الحارة شيئاً آخر من الفرح والحياة بلعبهم وصياحهم . لكنهم منذ بدأ الهدم صاروا يتغيرون . كأن يداً راحت تسحب منهم الجوهر وتضع الصخر ، والورد وتضع الشوك . صارت الحياة تلطمهم من اليمين والشمال . وأم عبودة المسكينة تنتفخ روحها لصونهم وحمايتهم . ولكن ماذا تستطيع أم عبودة بوجه الغول والعصا . العالم كله يعلمهم الشر . الآن ، الطفولة غادرت حركاتهم ، والشقاوة والشيطنة . وجاء الأذى والشقاء والخوف . منذ ساعة وهي تراقبهم - وهي نهب التوقعات السوداء . هؤلاء لم يتعلموا الصبر مثلها ، ولا القبول

بالرزق الذي يقسمه الله . ما معنى أن يتحرك انسان بلا معنى ؟ ماذاوراءه ؟ ما معنى أن يتحرك ناس بلا معنى ؟ عشرون ، ثلاثون .

سمعت خبطات قدمي نازك المذعورة تعلو وتتسارع على الدرج . وفي الباحة : « خالة ! الباب ! الباب الذي ثبته علوان وسعدون ! يخلعونه . »

وسمعنا لأول مرة صوت ركلة . ثم تلتها ركلات ـ بطيئة ، متقطعة ، هادئة . بين الثواني والثواني ، يتقدم فتى ويهوي على الباب بخبطة يودعها كل قوته . يضرب ضربته ويعود الى آخر الصف . لقد انتظموا في دور صارم . أشرقت وجوههم بالفرح . صوت الخبطة على الباب وصداه في بيت علوان ، نشوتان متتاليتان . دوي في أعماق بحر ، هو تارة أذهانهم البيضاء ، وتارة السطح الطيني الطحيني . في الحالين ، صار المكان قرارة وأفقاً . وفيما انتشروا عليه كسمك سابح في المحيط ، تطاول الهلع في أعين نازك وعزيزة وأم يسير ، وأمسى رعباً .

خرج علوان وسعدون من غرفة الثاني ، وأبو حسن من مرقده . « خلونا تطلع لعندك ، نحكي معهم كلمتين من وراء الباب . » صاحت نازك : « أبو حسن ! وإذا خلعوا الباب ونزلوا عليكم ! » ارتفعت الأعين من جديد . تحرك علوان بغموض . المسدس . لا بد من المسدس .

توقفت الركلات : بدأ الباب يهتز ويُصدر صوت تشقق . «اتت الشجاعة علوان ، وراح يصعد الدرج ـ بهدوء لئلا تذعر نازك . وصاحت هي : « علوان ! لا تطلع ، علوان ! » وأشار بيده إشارة تطمين وتخفيف .

كانوا يتبادلون النظرات . ها هوذا الباب يتصدع . يبدو أن هذه اللعبة ستصل الى النهاية . مازالوا مصفوفين بالدور ، ولكن يهرلون . وأذهانهم بيضاء . وصل علوان الى البهو . وقف أسفل الدرج الصاعد .

أحس بهم واحداً واحداً .

طار فاضل في الهواء . وفيما يتشقلب جسمه ، خبط الباب بقدمه . نقلة نوعية . أشرقت وجوههم . وها هوذا الباب يترنح . بين الركلة الطائرة والأخرى شعور بالظفر . بقدم من سيهوي الباب ؟

صرخت نازك . ركضت الى الدرج . التقط أبو حسن يدها : « لا تطلعي أنت ! » وغمغم يسير . صرخت هي . اختفت أم يسير . « وإذا خلعوا الباب وهجموا عليه ؟ » « خله ينزل . أنت يا أختي يصير أذاك أفظع . أستاذ علوان . »

وقف علوان مسمراً بهيجان . انشبحت عيناه على الباب المتخلع . سنتمتر كل دقيقة . دون أن يعي ، أخذ يتراجع . طبعاً ، وإلا يقع عليه الباب . لقد بقي منه دقران فقط ومفصلتان .

عادت أم يسير . وجهها كامد . ومع الجيران شخصت ببصرها الى الأعلى . بسكون تام وقفوا منتظرين لحظة الانهيار . تلبسهم حضور كالموت ، وذهول كالزمهرير .

هوى الباب . وتجمهروا في مدخله . المياه العميقة الدافئة التي سبحوا فيها حتى تلك اللحظة ، استحالت الى صحراء جليدية . وعبر الفراغ المستطيل الذي كان الباب يملؤه ، التقت أعينهم بعيني علوان . لم يستطع أحد أن يرسل سوى الحيرة اشارة .

خلال ثوان هبط علوان الدرج وهرول عبر الباحة . أمسكت أم يسير بقميصه وقد حدست : « أنا رحت وشفت . أم عبودة براة الحارة . » تردد قليلاً . لكنه كان يريد الذهاب ، ان يفعل شيئاً ما . نتر قميصه من يدها ومضى .

تلكأ أبـو حسن ، ومـاجـد الـذي حضـر قبـل قليـل . أعلن سعـدون برصـانـة : « عيب لا تتركـوه وحده . » غمغم ماجد : « ألا يشاورونا الأستاذ على الأقـل ؟ » التفت سعـدون : « ما عليـه . الحقـوا ، احكـوا كلمتين مع الشبـاب وأم عبـودة . اشرحوا لها متطلبات التعايش السلمي بين الجيران . »

مشيا الى المدخل متلكئين . وفي الزقاق الخالي ، شاهدا علوان يمشي الهوينى .

كان في رحبـة نفسيـة مختلفة . لن يمكن اشعال فتيل واحد لهذا الحجم الهـائـل من الغضب ، ولا حتى أن يفتـح له قناة . إن صداماً مع هؤلاء الشوه سيعني زلزالاً أكبر . ليست مسألة كرامة شخصية . يريد أن يلمس عن كثب معـالم هذ التشـوه الفظيـع الـذي ابتليت به الطبيعـة البشـريـة . أيـة أسطورة تدفعهم الى الشر .

عنـد هذه النقطـة الغـافلة من تصـوراتـه ، أحس باطمئنـان كاف لأن يذهب اليهم . انـه لن يقبـل حتى بأن يحاورهم . وإذ وضع قدمه بأول خطوة في المـدخـل ، فوجىء بالضـوء السـاطـع في المكـان كله . لم يكن للمـدخـل سقف . لكن نفسه مالبثت أن عتمت . لماذا هو ذاهب ؟ وماذا لو بادروه بالشر ؟

انخطف فتيـان بخفـة وخـرجـا من جانبيه . ثم أطلت الباحة . الجدار المنتفـخ أولاً ، ثم الاتسـاع الى اليسار . وقفت عيناه على الأجساد المثبوتة بين الأشياء . أطفال رضع غافون وباكون ومتسخون ببرازهم . صبية يتشاجرون ويتشـاتمـون مكشـوفي العـورات . بنـات شعثاوات الشعر وسخات الوجوه ، يحدقن ببلاهة في الفراغ الأصهب. فتيان تنطق وجوههم بضجر الشر ، وشرهم بهدوء المستنقعـات ، واستنقـاعهم بزنـخ وجـوههم . أعـمار تتفـاصل بالأشهر

والأسـابيـع ، تنعقـد تحت رايـة الوسخ والقذارة ، تنفعل بصراخ الأمعاء وكيّ اللعاب . يفيض منها العنف والشجار كنسغ انجرحت مجاريه .

أنسته كثافة الأشياء والبشر أن ينتبه لكثافة الأصوات واللغة . أي الوجوه كانت على السطح ؟ عالم لاغب سديمي ، مشطوب بالرغبات الأسطورية المعقوفة ، ببدائية مجانية ، ينذر بعنف الذين لاشيء لديهم يفقدونه .

ما الذي سيفقدونه الآن ، اذا اخترقت السديم حركة غير محسوبة ؟ وماذا إذا فاجأته نفسه هو بانخلاعة مجنونة أو ردّة الى ما قبل العقل ؟

أم عبودة ، التي تقدّمت في المدخل بابتسامة عيّاء ، وفرت عليه مشقة السؤال والجواب . خيل اليه أنها عارفة بما حدث ، والا ما معنى هذه الابتسامة الأليفة الفاهمة ؟

« زعلت عالباب ، ياأستاذ ؟ طيب ، بالذمة ، واحد يقفل الباب بينه وبين جيرانه ؟ »

« يعني أنت أعجبتك هالهمجية ؟ »

وصلت اليه . وضعت صرتها على الأرض . ألقت على الدار نظرة : كانت همهمة قد بدأت تسري فانقطعت . التفتت الى علوان : « لا همجية ولا شيء . طوّل بالك . خلنا نقول لك أهلا وسهلاً ، بالأول . »

« قصدك لازم تنقلب دارنا عاليها سافلها حتى نقول همجية . »

« هالدار مش دارك ياجارنا . »

« هه . هاتي سمعيني وجهة نظرك . يعني أنا ساكن في الهواء أو بالقوة ؟ »

« لا . أنت ساكن في مطـرح كان ناس مثلنـا ساكنـين فيـه . ما لك فيه حق أكثر من حقنا . أنت جئت ، سكنت ، وحرمت هالغلبانين فرصة عمرهم . »

« فرصة عمرهم ! ياسلام ! »

« فرصة يسكنوا الدار ، واذا كان فيه حكومة ، تطلعهم من دون بيوت جديدة . »

« أنت عارفة ان الحكومة مو فاتحة مضافة بيوت . »

« هذا كان شغلنا إحنا . كانوا سكنوا سنتين بضاعة على الأقل ، لبينما تنهدم الحارة كلها . »

« سكنة موقتة . وبعدها ؟ »

« أنا من يوم ما ولدتك أمك أسكن سكنة موقتة . »

« كنتم سكنتم قبل ما أجيء . »

« سلطان وأم اللولو منعونا . »

« ماشـاء الله ! سلطـان كان عنده ومازال شغل كريم لكل واحد منكم يقدر يشتغل . »

« لينسينا أنه ما عندنا بيوت نسكنها . »

« اسمعي أم عبـودة . كلمـة ورد غطـاهـا . أنت وسلطان وأم اللولو . نحن معك ضدهم . »

« كيف تكـون معي ، وأنت ساكن بهالـدار ؟ أنت سكنت مطرح عشر عائلات . وسكنتك أعطت لهالزانية نفس استراحة . ماعادت تخاف من أم عبودة . »

« قلت كلمـة ورد غطـاهـا . أنـا غير مستعـد لأن أدفع ثمن صراعات لست داخـلاً فيهـا . أنا رجل حيادي . لكن لن أسمح بالعدوان على كرامتي وسلامتي . هذه المرة سماح . كرمى للجيرة . لكن لن أسمح بمرة ثانية أبداً . اذا شفت هالأوباش على سطح دارنا ، فلا يلوموا الا أنفسهم . »

« أنت جيت تهددنا يامعلم علوان ؟ »

« افهميها زي ما أنت عايزة . »

« لو عكا بتخاف من هدير البحر ما جاورته ، يا معلم . »

سمع كلماتها الأخيرة النافرة وهو متجه نحو الزقاق . انعطف نحو الدار ولم يتمكن من سماع أسئلة أبي حسن . انتبه الى حشد من الرؤ وس والأبدان المطلة من أبـواب دورهـا وشبـابيكهـا . حتى زينب وأمهـا كانتا تنظران إليه . مشى بهدوء . لكن عكر نفسه كفى لتعكير رؤ يته . مشى بهدوء . ولم يستطع الانتباه الى أحد .

وإذن فلا فائـدة . دود الخـل منـه وفيـه ، كما قالت هي نفسهـا المـرة الفـائتـة . واذا كان المـرء في هذا الـزمن الأعجر قد عانق قضية المضطهدين في العالم كله ، فعليه أن يدفع جزاء علاقاته معهم فرداً فرداً . إن القضية شيء ؛ وأصحـابهـا شيء آخـر . لقـد مر زمن كان الاقتنـاع فيه باتاً بأن الظلـم يصقل نفـوس المظلومـين ، يشفهـا ويطهـرهـا . ياللسخـافة . الحقيقة أنه كلما ازداد الظلم على الانسـان ازداد التشـوه في طبيعته . وكل شيء إلا أم عبودة هذه . وأنـا الـذي آمنت دائـماً أن الحيـاة تستحق ان تعـانق ، والعـالم مكـان جميـل للعيش ، وطبيعة البشر تجنح للحب والسلام .

يد صارمـة امتـدت الى شعـر زينب المرسـل . لفتـه حولهـا وسحبت الرأس . تبع الجسم الرأس . انصفق الباب . لا صوت .

« لأن يد الله مع الجماعة ، جمعتكم لنتداول في أمر إخواننا المحرومين . الحقيقـة ان وضعهم مقلق ويصعب على كل مؤمن . وبهمتكم ، عسى الله يلهمنـا حلاً لتشغيلهم في شغـل كريم ، واغاثتهم من الوضع الذي هم فيه ، حتى يأمنوا ، فتأمن الحارة معهم ، وتصير أرض سلام وأخوة . أخونا أبو محي الدين ، من طرف اخواننا ، يقدم لنا أي مقترح ، ونحن على أتم الاستعداد للتلبية . »

من الباحة صرخ « عزيزة ! ما خلصنا من هالسيرة ؟ صبي لنا لقمة لأكل . »

من بهو نازك هتفت : « ياأخي الأكل قدامك . سخن وجاهز . صب وكل . »

« انزلي شوية ، انزلي . »

« بودي اطعمك بيدي يعني ! »

« الأكل خامّ ! مأنتن ! عجبك ؟ »

كانت يده ما تزال ملفوفـة بالشعـر الأسـود وهـو يتقـدم داخـل الدار . كشرت شفتاها وانفرجتا عن أسنانها . وانساب جسمها منصاعاً لأخف حركة من يده .

« معلم علوان ! يا عيني عالـرجـال . يا عيني عالبطـل ! تعـال ، أخ سعدون ، تعال . قل لنا بس ، كيف تواجهت مع يوم الحشر . كيف حملتك رجلاك ، وفُتّ هذيك الفوتة . يا أخي صحيح الناس مخبأة بثيابها . »

« أنـا ما عنـدي هالمرة سؤالات أسألها . أنا عاجنتكم وخابزتكم . نَوَر وقطاع طرق . قولوا من خلع الباب ، حتى ما تاكلوها كلكم . » واقفة وسط

البـاحـة كلبـوة مستنفرة . كانت الدائرة مكتملة . وبالتدريج صارت فراغاتها تمتلىء . هذه المرة جاء الـرجـال والنســاء . كانوا شبه منجردين من ذواتهم ، منتظـرين الحـركـة التـاليـة في اللحظة التالية ، لكي يقبلوا. جندلتهم نظراتها الكاسرة ، وحشرتهم على قوس منكسر .

أوقفهـا تحت السقيفـة . وفهمت أنه لا يريدها ان تتحرك . لم تتحرك . عاد بالعصا . عصا خيزران لم تكن توحي بالكثير . لكن وجهه كان . وعلى زندها انشبحت العصا . ارتسم خط أبيض كعين عمياء . بعد ثوان صار أحمر .

« فيـا أخـوان ، المسألة لا تحسب بهذا الشكل . في مقديشيو عشت مرة ثلاثـة أشهـر . في شهـر كامل منها ، لا يوجد خبز ولا يوجد رز . قلت لحالي ، تجار هذيـك البـلاد لا يخافـون الله . لا يوجـد سبيل ولا طريقة لتدبير الخبز او الـرز . معنى الكـلام ، العباد كانت تأكل مرة واحدة في اليوم ، مرة واحدة في ثلاثة أيام . أحياناً تموت جوعاً . لكن ظل الناس يطيعون أولي الأمر منهم . لم يعتد أحد على أحد . لم تنتهك حرمة ولم ترتكب معصية . يموتون جوعاً ، ولا يخطر لأحدهم أن يغضب الله بإثم أو شر . مؤكد أنهم أسوأ حالاً من إخواننا هنا . وإن يكن هؤلاء بلا وطن . هم سيستردون هذا الوطن . ونحن قلوبنا وطن لهم . ونحن وطننـا وطنهم . ونحن فداء لهم . نشـد أزرهم ، ونمسـك عن رد شرهم حتى يفـرج الله كربتهم . ماذا يريـدون من عبـاد الله أكثـر من هذا ؟ لماذا الشر والبغي والعدوان على حرمات الناس ؟ »

أغلق وراءهـا البـاب ونـترهـا من ذراعهـا فانـدفعت وسقطت على الفـراش . « أنـا أقـول لك طبيخك خام ، وأنت ولا أبالي . » وناولها ركلة . « أين أخـوك عزيـز ؟ خليـه يأكل هالزبل لأشوف . » وركلة ثانية . « طيرت عقلك أم اللولو ؟ » وركلة ثالثة . « خلص ياماجد ! » هدأ قليلاً : « أنت ،

في حضرة أم اللولو ! طبعاً . العنزة الجربانة لا تشرب الا من رأس النبع . »

عندما كانت تضربهم في المرات السابقة ، كان لسانها يسوطهم أيضاً .

وقد عرفت أن مجرد رفع العصا فوق رؤوسهم كان كسقوطها على أبدانهم .

هذه المرة أوجعت فعلاً . نالت بالعصا جميع الذين خمنت بحدس نبوي أنهم يستحقونها ، والذين وقفوا الى جانبهم أيضاً . ودونما وقت يذكر ، وقعت في قبضة عنفها الداخلي المحقون ، الذي انفتحت له في أبدانهم عشرات المخارج .

« لأنك الآن في عز الصيف ، وتشكو من الحر ، لا يخطر لك الدفء .

عندما يأتي الشتاء ، تتذكر كم هو جميل أن تكون دافئاً ، كم هو جميل أن يكون في بيتك سجاد يحضن خطواتك ، وتدفئة مركزية تعطيك دفئاً داخلياً . خذ هذه الأغراض الآن ، ويوم يصير معك نصف مليون ، ادفع لي ثمنها . »

ابتسمت ، فتعرت معاني الكلمات وتغيرت . اللغة فعلاً امرأة ذات تلاوين ، وهي أم اللولو . وأم اللولولغة . الدفء . إذن . وبرقت عيناها الزرقاوان ، وانسرح شعرها القمحي .

ما الذي في هذه المرأة يثير الخيال ؟ ما الذي في أم عبودة يثير الذاكرة ؟ ما الشيء الحقيقي الذي يوجد فعلاً في هذا العالم ؟

« أم أنك تفضل الحياة الخاملة والمرتع القريب . انظر الى يسير ، أين وصلت بعمره القناعة . قاعد مثل ناطور الصحراء ، كلما انفعل مرة أصابته نوبة صرع . القناعة قلصت ردود فعله تجاه الوجود . لم يعد يتحمل غنى الوجود . وأنت . بيتك بحاجة الى أن ألف غرض وغرض . ماذا يقول

شاعـركم ؟ وإذا كانت النفـوس كبـاراً . . ها ؟ أم لعلك تؤثـر رائحة المازوت على رائحة النرجس ؟»

واكتشف في تلك اللحظـة أنه لم يلقنها الدرس الذي رفضت حتى الآن تعلمه . كان يعرف أن هذه لم تكن أصوات وجع ، وأن الضربات نزلت عليها برداً وسـلامـاً . كان يعرف أن في داخلها ناراً محقونة ، نار الرجس والضلالة ، وأن هذا الصراخ ليس غير لسان ابليس الذي ينفث النار لئلا تحرقه . إنها كلما صرخت ارتاحت . بعكسه هو : كلما ضربها تهيج . هبط الى قرارة عنف أشد وجنـون أفظـع . وصـرخت هي : « والله لأقف كل يوم . » وطـوت ذراعيهـا حول رأسهـا . خذي إذن ، قال في نفسـه ، وهـوى عليها بكرسي خيزران ، فانكسـرت على ذراعيهـا . « قلت لك زوجيهـا لسلطان وخلصينا ، » صرخ بالأم الهلعة الناحبة ، وهوى ببقية الكرسي عليها .

« شف ، أبو حسن ، كيف تغير وجه ماجد ! »

« بعد ما عرفت ماجد ، يا أستاذ سعدون . »

« تشتغلي عند أم اللولو ! كم تدفع لك يومية ؟ »

« ساعتين باليوم . عشر ليرات . »

« نعمة . فرج من الله . يا عيني عليك ياعزيزة . »

« أنا ماقبلت . لا أشتغل خدامة عند أحد . »

« لا تخليني أشتغل على رأسك بالعصا . »

« إذا غضضنـا عن إشكـاليـة الكـرامـة ، يا ماجـد ، ساعتـان بعشـر ليرات ! يعني ، استغلال رأسمالي بشع . المفروض أن تدفع أم اللولو ثلاثين . »

« سيدي . ساقية جارية ولا نهر مقطوع . شو ، ست الحسن ؟ »

« أسأل عزيز . »

« أروح أنـا وأنت يا أختي . خلي هالغـول يشبـع . بس لازم تعطينا أم اللولو ثلاثين . »

وسلطان لا يريد أن يذكر اسمه في موضوع الاعانة بتاتاً . و« أخونا في العقيدة وفعل الخير ، أبو محي الدين » يتكفل بتوزيع المبلغ على أهل الدار .

وميـزانـه في ذلك هو المبلغ الأكبر للمحتاج الأكبر . وفي الوقت نفسه ، يشوف من يحب ويـريـد منهم أن يشتغـل ، وفـوراً يوضـع في شغـل . « نحن ندرس أمورنا لبعيد . هات فواكه زيادة ، يا مسعود . أين الفواكه ياابني ؟ وهات الحلويات . »

امـرأة لا يمكنـك أن تقـول إنهـا فعلت كذا أونطقت بكـذا ، مثـل أية امـرأة . كل شيء تفعله أوتقـولـه . انها يدخل فيك ويخرج منك على بحر من المشاعر والانفعالات والصور والرغبات والأخيلة ، ويشحنك بدفقة عارمة من الامتلاك والاقتناء والاحتفاظ ، من شراء العالم . يدخل ويخرج ، بحيث تغدو أم اللولو فوق ما هي ، أضعاف ما هي ، لغة عظمى من الصور والاستعارات والمجازات ، عالما متحققاً ، وحقيقة عالمية ، لا امرأة تشتهى وتوطأ ، بل معبداً يروّي فيك رغبتك بالانتماء .

من طرف عيني نظرت خطفاً الى نازك ، إلى ظهرها المحدودب وساقيها الـرفيعتـين . سرت في بدني قشعـريـرة . وفي قلب اللحظـة كنت واعيـاً بأني تخطيت الحـدود ، ولم تعـد للقشعـريـرة فاعلية الردع على نفس راحت تراقب انشطاراتها بغبطة وثنية .

فيما مضى اعتدت ان أنبذ بوعيي تناقضات من هذا النوع . الآن ، جعلت استمتع بركوبها .

مدت يدها بالمسدس ووضعته على راحة يدي . ووضعت عينيها على عيني . أنت ونازك ، قالت ، أمامكم مستقبل عظيم . « اترك هذه الكائنات التي تتحرك حولك . لا تهجرها . ستلزمك . اتركها بتطلعاتك . باذل عمرك لأجل شقة ، وتارك كل متعة وسعادة ! ألم تسمع نيتشه يقول : لكي تجني من العالم أجمل ما فيه ، عش في خطر؟ »

بالطبع . بعد فترة ـ وأنا أراقب عيني نازك الصافيتين الواثقتين تستمدان غبطة قريرة من أثاث بيتنا الحديث المتلألىء ـ رأيت أن ترتيباً جديداً للذات يجب أن يبدأ . إن مبدأ الوحدانية والتوحد مبدأ كاريكاتوري ـ يقزّم أبعاداً ويضخم أخرى . أنا أريد أن أعيش متعدداً . فلتسرح نازك بين القطع النفيسة الجميلة ، هي وغيرها ، ولتستهلك ما تستهلك . هذا كله سيكون متوفراً لها . أما أنا فسأتبع ذلك النداء . سأعطي ما لنازك لنازك ، والباقي لعالمي الداخلي ، لتوترات التحقق والتجلي مع أم اللولو .

وبالتدريج أحاطت أصابعي بالمسدس ودخلت بين أصابعها .

خيل إلي أني سمعت صرختين ، لا صرخة واحدة . لكني كنت واعياً بصرخة يسير . ليس فقط واعياً ، بل وأحس كأنها خرجت مني . أنت لا تعرف فظاعة نوبة الصرع . سمعتها وأصابع قلبي بالكاد راحت تحيط حساً بالطمأنينة والأمل . من بين اللحظات كلها ، يختار هذا المأفون اللحظة الأبدية ويقطعها بهذه الفجاجة والفظاظة .

لم يسقط المسدس من يدي . نظرت الى نازك ، ورأيت ابتسامتها تهرب ليحل محلها الهلع . نعم .

وضعت المسدس على الطاولة بهدوء . بثلاث قفزات كنت في الباحة . كانوا متجمعين حوله . دفعتهم جانباً وأنا في قبضة عنف مفاجىء . أحسست أن شخصــاً لا يخطــر على البــال يهاجمني بشــراسـة لا تخطـر على البـال . باختصار . كنت أريد أن ألطم يسير . أن أسكته . ويا للعجب ! كانت أمه تضربه . أحسست بالراحة والتشفي . كانت تضربه بقوة ، وتصرخ باسمه ، وهـو يتخبـط ويخفق بين يديهـا ، والغـرغـرة تملأ حلقـه وفمه وتخرج من شفتيه زبداً ، والزبد يندلق على ذقنه وبيجامته .

همس سعدون : « يجب أن تضربه قبل أن يصرخ ، حتى تمنع النوبة ، لا بعدها . مسكينة ! فقدت أعصابها . »

من الخـلف غمغمت أم اللولـو : « ياحـرام ! مع أني لم أقطـع عنـه الدواء . شيء فظيع . مرعب . »

كانـت قد أرسـلت من يقـول له ان أم اللولـو تتمنى حضـوره . قال لنـازك : « ماذا تظنـين هذه الثقيلة تريـد ؟ » وردت نازك باقتضـاب : « تتمة مشـوار المسـدس طبعـاً . هل تظن أنهـا ستصـير عشيقتـك ، يعني ؟ » همهم سخـريـة . أحس بثقـة غير محدودة في حبـه لنازك . صحيح إن أم اللولو كيان خارق . لكنهـا كامـرأة تتردى في مهـاوي العمر لن يمكنها أن تحتل حتى شبراً من مساحة نازك الشاسعة كالوطن .

البـاب الـذي انفتح وانغلق ذاتياً ، كان تفصيلاً جميلاً من جدار علقت عليـه بأكمله صورة لها بالأبيض والأسـود . داهمتـه الصـورة . للمحـة خاطفة شاهـدهـا ككـل . ثم التقـط التفـاصيل : العينين الغابيتين ، فلقتي الشفتين المـترفتـين ، والشعـر الـزبدي . ثم غامت الصورة . كثرت التفاصيل فغبش الكـل . تداغمت المـلامـح ، غير خطـوط رقطـاء ونقط وتبدلات مفاجئة بين كثافة الأسود ونحولته . ولحظة ضاع الكل من عينيه أحس به ينبثق كالكحول

في واعيتـه . لكن أشبـاه الجـدران الأخرى ردته الى نوع من استقرار البصر . خمسـة جدران أوستـة . أحـدهـا ستارة فيها بابان عربيان يفضيان الى مكانين غامضين . ستارة ذات ثنايا رقيقة . ألف ثنية ، ربما . نزلت من مكان ما من السقف ، وقـد انـدرجت خيـوطها الزاهية اللوناء في صورة أخرى لأم اللولو ، تغاوي وتبهر وتعقد اللسان .

« لكن الـذي ينظـر الى الصـورة الأبيض والأسـود ، ولا تبهـره الستارة الملونة ، يكون موهبة أصيلة . ويكون أيضاً مثيراً للخوف والحذر . »

أحس علوان بحضـور غامـر يوشـك أن يغدو خانقاً . لحظة دخلت من أحـد بابي الستـارة ، وهي تنبس عبارتها الأولى تلك ، كانت لابسة لا يدري ماذا ـ ذلـك الـرداء ! مفـترة الشفتين ، بيدها مبسم يحمل سيجارة لم تشعل ، وفي فمها كلمات . عندما التفت عن الجدار ونظر إليها ، تنفس ، وعلق بالشفتين .

« لماذا هذا المكـان ؟ ومـادا تريـدين مني بالضبـط ؟ ومـاذا يعنيـك من مواهبي ؟ أليس هذا ما تسأل نفسك يا معلم علوان ؟ »

في مركز هذا الذهول بقيت له رقعة صغيرة واعية ، وقف عليها وتحصن بها . لكن السيـدة العظيمـة لم تترك مجالاً للامعـان . بين عشـرات الأشيـاء الصغيرة والكبيرة التي ارتصفت حوله ، تقدمت هي كموجة محيطية ، وراحت تغمـر المكـان دون أن تغيبـه . في البـدايـة لمعت حبيبات من الزبد على سيف المـوجـة الهـائجـة . اقـتربت فازداد الـزبـد حجـماً ولمعـاناً . وفي برهة التقوس الأعظم ، الذي بعده يهوي السيف على البحر ، تلاشت المسافة بينه وبين أم اللولو . كانت لغة ما تخرج منها . لكنه والرقعة الصغيرة تصغر ، أحس بالزبد ينتشـر في عينيـه وأذنيـه فيعطـل مراكـز الاستيعـاب . أحس فقـط أنه يتلقى : اقـترابهـا الأثيري ، علوها الشعشاع ، خضمّها الزاخر ، يديها اللتين أمسكتا بكتفيه ، وأخيراً شفتيها المرخيتين بلا ابتسام وهما تلامسان شفتيه .

مد يديه بآليّة . ألصق راحتيه بمنزلق ابطيها . الرداء الحريري أثارهما برهاوة ملمسه ، ثم أحبطهما بوجوده . انشدت شفتاها على شفتيه فخفقت أضلاعه . اندست العليا بينهما ، وأخذتا شفته السفلى رهينة . وهجمت يداها على كتفيه ويداه الى ظهرها .

كان بائع العرقسوس يعبر الزقاق وصناجتا يده تجلجلان في الأجواء والأسماع . على ظهره استقر سماور تخضخض فيه الشراب الصيفي المنعش ، ومن فمه خرجت اعلانات مموسقة تدعو السكان الى تناول العسل .

لحظة أدار ظهره لدار زينب ، انفتح الباب وأطل منه وجهها الصباحي الصافي . على خلفٍ من العتم لمع شعرها الأسود المازن . كان سعدون عند طاولته منتشياً لتأمله أبا حسن . وكان أبو حسن عند البركة مستغرقاً في حشو فمه بالبرغل والبصل وفرمة بندورة وكسرة خبز ، فيشرشر المرق من زاويتي شفتيه ، ويبدو حنكه كما لو ثلاثة أضراس ورمت فيه دفعة واحدة . أي سحر وأي جمال في الطبقة العاملة - قال سعدون لنفسه . وانتبه الى صوت الصناجتين . عز عليه أن يترك اللوحة الجمالية ، لكنه لم يأسف . لا شك أن ثمة غرابة في طلب زينب أن يتواجها لدى سماعهما صوت الصناجتين . انه تفكير عار من العلمية تماماً . مثل من يتواعدان تحت غيمة .

« آ ! يجب أن تقول الرعاع ، الغوغاء ، الدهماء - لغتكم غنية ما شاء الله » قالت. « هؤلاء لا يتميزون بأرض ، أو وطن . يتميزون بصفات . الانحطاط . التخلف . خرق القانون . الاستعصاء على الحضارة . شف المدى الذي وصلت اليه الحضارة . شيء مثل الاسطورة في روعته وجماله . اذا كانت الحضارة غريزة الحياة ، فهؤلاء غريزة الموت . »

« على أي حال ، خلينا في الأحاديث الجميلة . » كان مدركاً أن أي حديث عن سلطان سيعطي رنيناً أجوف وسخيفاً . كذلك لم يدر كيف انزلق الحديث الى الرعاع . بعد القبلة الطائشة المطيشة ، التي انجزت بلا

ضجيج ، وحتى بلا حركة ، أحس أن درباً كان مجهولاً قد انفتح بالكامل بين أم اللولو وأعماق في ذاته كانت خفية ومجهولة . أحس أنهما - اكتشف أنهما صديقان . هي أيضاً فتحت له عقلها . للتو كاشفته بآراء راوده شك كبير أن يكون سلطان مطلعاً عليها .

كان أبو حسن ما يزال يلتهم صحنه . مع كل لقمة طأطأ لكي يتلقى الصحن حبات برغل يمكن أن تهوي من الملعقة المترعة أثناء ولوجها فمه . وهتفت عزيزة : « عزيز يدفع نص المصروف وحده . ونحن النص . يطلع له أن يشبع . » وهتف ماجد : « هس ! لاتخليه يسمعك ! » لكنها أصرت على الصياح : « كلما صب لقمة ، تغرز عينك فيها . هو يأكل من كبدك ، يعني ؟ » وهتف ماجد : « قلت لك هس ! العمى ، نَورية أنت ؟ » «خلّصني من نقّك ونقيقك على كل لقمة . . » وكانت كفه أسرع من لسانها الى شفتيها . وفتحت اللطمة الأولى باباً كان مجهولاً لعنف متراكم فتدفق لطمات متتالية أطاحت بجسمها الهزيل وكومته على الأرض .

« مابها الطبقة المتوسطة ؟ صانعة الحضارة . صحيح ، الطبقة العليا تأمر بهذا الصنع ، لكن القلب والعقل واليد ، ملك من ؟ ماذا يقال عن دافنشي ، وشيكسبير ، وغوته ، وباستور ، وفرويد ، وأينستاين ؟ وعشرات آلاف الأسماء الأخرى . حاملة القيم والمثل العليا ، هي الطبقة المتوسطة . في تاريخها كله توجد غلطتان فقط . لكن غلطتان فظيعتان . الأولى عندما تحالفت مع الطبقة الدنيا في الثورة الفرنسية ، وأدى هذا التحالف الى سفك بحار من الدماء . والثانية عندما تحالفت مع الطبقة الدنيا في الثورة الروسية وأدى هذا التحالف الى سفك دم الحرية والديمقراطية . انظر كيف انتصرت الثورة السلمية الصناعية في انكلترة . وكيف انتصرت ثورة الاستقلال في أمريكا . لأنه لم يكن هذا التحالف المهلك . »

كان السحـر يصفـو بسـرعة هادئة في جبين علوان . غير أنه ظل مطمئناً وآمـلاً . لقـد اختصرت الآن مرحلة كاملة ، وابتدرت علاقة خاصة جداً ، لا بأس إن ابتردت قليلاً ، فهذا البركان صعب الاحتمال .

غمغم : « إذا نظـرت للثـورة الـروسيـة نظـرة إيجـابيـة ، يكون تحالف الطبقتين فعلاً تاريخياً . »

ابتسمت ، ولأول مرة بشغف : « هذا ما يعجبني فيك . حيوية العقل . »

وإذا بالسحر يعود . تلحلح علوان في أرجوحته بفرح مضطرب .

« وهل أنت تنظر للثورة الروسية نظرة إيجابية ؟ »

« وهل أنت يازينب تحبينني فعلاً ؟ حب امرأة لرجل ؟ »

« أخس عليك ! تسأل ؟ السكين على رقبتي وأجيء لأشوفك . »

« قصـدي ، يمكن حبـك سببـه أني سأحـررك من عبـودية البرجوازية الرجعية التي يمثلها أبوك ، وليس لي شخصياً . »

« معلوم . حررني أو أموت أنا وحبي لك . أنا مخنوقة يا سعدون . دبّر لي شغلة ، وبمعاشي ومعاشك نعيش ولو في خم دجاج . المهم الاستقلال الاقتصادي . »

« الاستقلال الاقتصادي ! من أين لك هذه التعابير الكبيرة ؟ »

« من خلدون رفيق خالي ، ألم أقل لك ؟ »

- ٩ -

وأنـا الـذي أمضيت عمـراً أبحث عن لحظـة سعـادة واعيـة بذاتها . لم يصـادفني من هذا الـزمن المـديـد الا نيـازك تومض وهي تنتظر لحظة الانهيار . على كل انسـان أن يعـترف ، أمـام نفسه على الأقل ، أن ثمة أوقاتاً تكوبس على القلب بأثقال غامضة تصير معها الأشياء كلها وهماً وخيالاً . وكما تقول أم اللولـو ، فإن أفـدح ما في حيـاة المـرء الوعي بالخسران ، وأعظم ما فيها الوعي بقيمتـه الـذاتيـة . وإذا ما سقـط في الأول وغـاب عنـه الثاني ، سقطت الحياة وغابت . ست سنوات وراء هذا الحلم ، نجعله أرجوحة ونعبر به الى الجانب السعيد الأخر ، مشجّباً نعلق عليه جميع آمالنا ، لنكتشف في لحظة وعي مباغتة أنـه حلم خلبي ، أننـا يمكن أن نعيش سعـداء في شقق مفروشة ونوجه حياتنا وانتاجنا بديناميكية خلاقة ، بدل أن نثلجها في شقة ونقول اشتراكية . وشتان ما بين الشقتـين . واحـدة قامت بلمسـات ذوق وفن وصـارت صرح حضـارة صغيراً ؛ وأخرى أقرب الى الجحور ، وقد اختصرت الى الحد الأدنى شكلاً سـاحـات . واجدة تفتح المواهب ؛ وأخرى تمحقها . ولطالما تساءلت كيف خمت هذه العـدوانيـة الشيطـانيـة في نفوس الرعاع ، فباتوا مفتقرين حتى الى الحـد الأدنى من الحس الجـمالي والحضـاري . ليس صحيحـاً ما تقـوله أم اللولـو عن عقمهم . لو أتيـح لهم سكن نظيف مريـح لنظفت نفـوسهم . وارتاحت وأراحت .

لقـد اختلفنا في عدة نقاط جوهرية ، كالاشتراكية والرأسمالية والثورة . لكننـا تلاقينـا في تصـور ابتدرته هي عن سعي ناجح أقوم به للاستمتاع بالحياة وامتـلاكهـا . « أنت من النـوع الفـاوستي » قالت . « أنت قادر على اقتحـام الحيـاة والتجـربـة . في داخلك نزوعـات لا تأبه لغير سلطة الحياة والتجربة .

وأنت من النوع المخلوق لكي تأمر وتتصرف . ويمكنك أن تفعل أي شيء ، من تجارة أفلام الفيديو الى التسيد الاجتماعي . وأظن أنك تمتلك تلك القسوة اللازمة لتنفيذ المشاريع العظيمة ، أو أنك تستطيع التمرس بها . »

طبعاً بقي هناك الشيء الذي لم نختلف عليه ولم نتفق . لقد تحدثت طويلاً . ظلت تتحدث ساعة كاملة . لكن دقيقة واحدة كانت أطول من الساعة وأيضاً أقصر من ثانية . هي الوقت الذي تبادلنا فيه القبلة . كانت اتساعاً مذهولاً ودائريا بابه الوحيد ينفتح على المستقبل والحلم والعالم . لقد اخرجت الطين من جسمي ووضعت بدلاً منه النار والشرار . ذلك العناق الذي طفا فوق أي حس بالمكان أو الزمان . الذي يجعلك ترفض أمام مرآة وجودك أن يكون لأحد حق عليك . يجعلك تتساءل بحيرة لماذا لم تكتب أجمل القصائد عن الخيانة الزوجية . كيف خلت هذه السعادة العميقة الراضية من عالم الشعر والموسيقا والفن .

لم يكن أي خيال قادراً على تصور المكان الذي يلي جدران غرفة أم اللولو السبعة . غرفة ؟ لنقل : مخدع ، على طريقة أم يسير ، وإن كنت لا أعرف من أي أصل اشتقت هذه الكلمة . إنك تظن أطراف العالم هي هذه الجدران الخلبية الفلينية التي لا تحس بها . لكنني عندما غادرتها استرديت وعيي بالمكان . صرت الآن في ساحة وسيعة ، تضم قصرين آخرين أحدهما لسلطان ، وتطوقها الغرف العربية والأقبية الغامضة ، وتلونها أشجار النخيل والنارنج والياسمين والكرمة . السر الذي تضوع في داخلي صار الآن عبثاً وخوفاً . أين هو سلطان ؟ انه رمز لبيئة يمكن أن تتساهل في مسائل الاحتلال والجريمة والمبادىء ، ثم لا ترضى بغير القتل في مسألة الشرف الجنسي . كان يجب أن أخترق الساحة بسرعة قياسية . لكن الخوف كان يتضاعف مع كل خطوة . لماذا تركتني أعبر هذه المساحة الواقعة تحت باصرته ؟ وقد عبرت

مساحة بالفعل ، ربما أطول مساحة عبرتها في حياتي . وفقط في العتم النسبي الذي ملأ المدخل ـ هو أيضاً عاتم ـ استطعت لأول مرة أن أنظر الى وجه سلطان . لكني لم أر وجهه . حدقت ، ولم أر . وإذ صرت في الزقاق ، ورأيت خطه الحجري الأفعوي المتطاول ، رأيت وجهاً آخر ، وعلمت أنني استبدلت خوفاً بخوف .

كيف أواجه نازك ؟ عندما حل وجهها محل وجه سلطان ، رأيت العبوس والاشمئزاز والادانة . انكمشت . ورأيتني أزداد انكماشاً إذ لطمت عيناي بالأشكال الرعاعية السائبة في الزقاق . وهذه الرائحة الغريبة القوية ، كيف أتخلص منها ومسام وجهي تطلبها وتتلبسها . ماذا إذا اقتربت نازك وشمتها ؛ أو التقطت عيناها هذا اللمعان الخاثر الذي تركه وجه أم اللولو على وجهي ؟ ماذا إذا تفرست بي عيناها وعرّت تستّراتي بلمحة ؟ ماذا اذا تكلمتُ دون أن أتكلم ؟

في بهو البيت تلفتُ ولم أجدها . وبرزت هي من المطبخ مسرعة باتجاه غرفة الضيوف . « تعرف أين باكيت الدخان ؟ » ولم تنتظر جواباً ، فالمفروض أني لا أعرف . وغابت في الغرفة قبل أن أتمكن من تقديم سيجارة . ثم عادت فوراً . لم تنتبه لسيجارتي الممدودة . ولا لي . خبّت نحو الطاولة ، وتناولت عنها جزدانها . فتحته ومدته نحوي : « آخر مكان أتوقعه . » وأخرجت السجائر .

جلسنا الى الطاولة . « مالك متضايق ؟ » هززت رأسي بصبر وحصر . « سعدون أفندي . » « ماله ؟ » « هو وتعابيره المغيظة . بالنسبة له ، هذه الحارة صورة مصغرة للبلد ، والبلد صورة مصغرة للعالم ـ بكل معسكراته وحقائقه ! تصوري ! وكل موقف أو حادث في الحارة ـ في الحارة ! انما يعبر عن حقيقة عالمية ! وأنا لا أفهم ، كيف أن هذه الحارة الواحدة هي

العالم ! أهلكني . لا قيته في المدخل . قال أنا طبقة متوسطة . بالنسبة لمن أنا كذلك ؟ أنا طبقة متوسطة في بلاد تعتبر طبقة متوسطة بالنسبة لبلاد مثل البرازيل ، تعتبر بدورها طبقة متوسطة بالنسبة لايطاليا ، التي تعتبر طبقة وسطى بالنسبة للولايات المتحدة . على أي درجة من السلم البشري أقف ؟ أنا وبلادي ؟ »

« باين عليك ، مقابلتك مع أم اللولو كانت أخف ثقلاً من المرحبا التي قالها سعدون . » كانت مغتبطة . وقلت إني أفكر جدياً بمبادرة لسعي ناجح أقوم به للاستمتاع بالحياة وامتلاكها . قلت إني في قرارة نفسي أحس بقوى خاصة ومقدرات ، لاتجد طريقاً للتعبير عن نفسها أو لانجاز أكثر من الحد الأدنى للحياة . « ما هي الشقة في عالم واسع زاخر بالفرص والامكانات ؟

شقفة معلم مدرسة ، وتصحيح أوراق ، وبلادة ذهنية بائسة اثنا عشر شهراً في السنة . »

« أنت سلّمني مفتاح الشقة ، وتصطفل أنت ومبادراتك وبؤسك . »

كان الخوف والقلق يتلاشيان خارج ذهني ، وصورة جديدة لنازك تتأطر في خاطري . صورة الصفاء والثقة بي . نازك حمامة بيضاء . تطير وترف على السطح الأموج لحياتي الشاعبة . هل هذه الكلمات سليمة ؟ هناك لحظات نادرة تنتبه فيها بغتة الى القيمة التي لا تقدر بثمن للذين اعتدتهم زمناً حتى نسيت قيمتهم . هناك فعلا حب بين المتزوجين . وأم اللولو لا يمكن ان تنتزعني من نازك . هذا الصفاء ، الثقة ، الطمأنينة ـ لا يمكن أن تجازى بالخيانة . وتدفق في جوانحي الحب الذي عصف بي ثم بها قبل سبع سنوات . نازك هي الفرح الوثيق ، والارتباط الأجمل . هي المياه الجوفية للأرض الخصيبة . والجذور الحية للتلال الخضراء . أصلاً ، أم اللولو هي

التي قبلتني . منـذ أول يوم حطّت بعينهـا علي . بهرتني بحضـورهـا الـلامبـالي المباشر ؛ وبهذه الحاجيات المترفة التي غمرتنا بها ـ كأن ما تستهلكه اليد يمكن أن ينافس ما تخفق به الأفئدة . ان بوسع مواهبي ان تتحرك خارج مدارها .

انحسر الخوف . نظرة واحدة الى وجه نازك القرير الودود جمّلت روحي بالثقـة . صرت قويـاً حتى أني استعـدت صورة أم اللولـوبلا وجـل . ذلـك المخـدع الشبيـه بغـديـر في أعماق المحيط . الحركة ـ نوع من الطيران السارح البطيء . والقبلة أيضـاً . ولقـد طرت . من كان يتصـور ! أنـا طفـل الحـارة الأخـرى المنهـور . اختفت الحارة وبقيت أنا . وأم اللولويين يدي . العالم بين يدي . مغفل كل رجل يرفض امرأة جميلة تقدم له شفتيها . ونازك لم تخسر شيئاً من مغامرة صغيرة لا تدري بها .

وقفنـا تحت نظـرة هفهـافـة ، وتعانقنا . حملتها على ذراعي الى سريرنا العظيم . هبطنـا عليـه معـاً دون ان ننفصل . وكان كل شيء طبيعياً . ونحن الاثنان نريد ولداً .

ـ ١٠ ـ

هنـا وهنـاك توزعـوا بشكـل يومي وكأنهم يملأون الزقاق . مثل حرس للحـدود ، انتشـروا في نقطـة العبـور الوحيدة . منظر غير مقبول لأي عقل . صحيـح أني كنت وقتهـا أعـاني حسـاً بلا حقيقية الأشياء ، لكن المنظر جعلني أتسـاءل إذا كان وجـودي نفسـه هنـاك حقيقيـاً . هذه الـرخـويـات اللاصقة بالـزقـاق ، المتحـركـة كغـرائـز عميـاء . هذه الأعـين الناضحة شراً ، المثيرة لتوقعات الرعب . انها إذلال وهستيريا . وجود يتلاغى تماماً من وجودي .

بعـد خطـوتين أو ثلاث ـ طبعاً مشيت ببطء واسترخاء ـ سمعت العبارة الأولى : « قلت لك يا حيـوان ، شف لك غير هذا البيـت ، ما سمـعت كلامي . » وعنـدهـا صرت بين اثنـين منهم . ثم بين الثاني واثنـين آخرين . « لأنـك بغـل . ما فهـمان سلطان رح يكشّك من الحارة كلها . » « ما عليه . أشتغـل بالمجمـع السيـاحي . » ولعلعت قهقهـة . ثم تابعني الاثنـان واثنـان غيرهما . « إذا ما لك علاقــة ماكنــة بأم اللولـو . سلطـان يبـول عليـك . » وصاروا يتبادلون المواقع . لكن الشكل الرباعي حولي بقي . وكلما تمت مبادلة عبر الفتى المفــارق من أمـامي متقصـداً أن نصطـدم ، وهـو لا يراني البتـة . وعندها أبطىء حركتي أو أغير اتجاهي . « ماله حيل يبول . » « أم اللولو تشد له حيله . » « ما فاضية . » « بس سلطان أثخن . » وكانت حركتي توشك أن تتـوقف . كنت معنيـاً بالحـديث ، دون أي التبـاس . لكن حركتهم بددت انتباهي لحديثهم القذر الرجيم .

توقفت في المدخـل العـاتم ورحتُ ألتقـط أنفـاسي . لم يكن مهـماً أني نفذت منهم . هذا الحس بالنجاة لا يعادل خمس ثوان من الحس الفظ بانفجار يوشـك أن يقـع . انفجـار للغرائز الوحشية التي لم تفلح الحضارة في تدجينها . الآن وقـد بت على مسـافـة آمنـة ، تدفق بي كإعصار سيلي غضب كان ملجماً وضاغطاً على حس الاهانة والعجز .

كالبرق السـاطـع ومضت الفكـرة . هذا الطفـل بحـاجـة الى ذلـك الصدر . خرجت من المدخل . لقد اختفوا . وبسرعة سرت الى حيث خمنت مكان فسطاطها . كان خدم هنا وهناك ، ونساء يعتنين بالحديقة أو يخرجن من الأقبيـة . احـداهن ابتسمت لي : « الست بانتظارك . » لم يتح لي الوقت كي أفكـر في الجـواب . فجأة ـ وجـدت نفسي في المخـدع . كأن الأرض انشقت عنـه . وهنـاك ، حيث وقفت أنـا البـارحـة ، كانت هي واقفـة : مبتسمـة .

هادئة . رحبة . مجتاحة . تماماً مثلم بدت من الشباك أول مرة . احتويت وجهها بين يدي وقبلتها . بسرعة . ونهم . قبلتها ، وأردت أن أحس أني أقبلها . أنها ليست سراباً وأني لست أحلم . شددت صدرها . شددته لئلا يفلت مني . وهي ظلت واقفة . هادئة . رحبة . طيعة . وجود خارق ، وحضور طاغ . قبلتها كلها . وتهدجت أنفاسي فتوقفت . يداي على زنديها ، وعيناي على وجهها . كانت مراعة . كانت حقيقية ويداي وزنداها حقيقيات . وطعم القبل .

« كيف عرفت بالذي جرى ؟ »

مبتسمة وهادئة : « دائماً أم اللولو تعرف بالذي جرى . تدربت على الرماية ؟ »

« سأتدرب . من فترة قريبة أنهيت خدمة العلم . لكن لا أعرف أين أتدرب . »

« الأساطيح . »

بالطبع ! كيف لم يخطر لي ؟ الأساطيح ، بالضبط . وهبطت على قلبي قطرات منعشة من طمأنينة نهائية .

« وقت تصيد الحمامة الطائرة ، تكون صرت رامياً ماهراً . »

كانت الطاولة قد نصبت في مطبخ عزيزة ، وحولها كراسي مختلفة الحجوم والارتفاعات . ومنذ ساعة على الأقل هيئت طنجرتا الطعام والصحون الفارغة . تفقدت أم يسير الطنجرتين للمرة العاشرة . ثم ردت عليهما غطاءيهما ، وشبكت ذراعيها على صدرها . كان يسير قد أنهى صلاة العصر ، وبدأ الرجال يتوافدون : ماجد ، فعلوان ، فأبو حسن ، فسعدون .

كلهم فارغو الأيدي . وانزوى سعدون غاضباً ، ربما للمرة الأولى منذ شهور : عشرة أفران على الأقل ، ولا خبز ، هذا مستحيل . ماذا يحدث في العالم ؟

قال أبو حسن : « وقفنا بالدور ، ماطلعنا بشيء . دائماً . الذين لا يقفون بالدور ، يطلع لهم شيء . حتى لو طحشنا مثل أولاد أم عبودة ، كنا أخذنا خبزاتنا . والله العنف أحياناً عبادة . »

هتف سعدون : « هذه بلطجة . كل الشعوب المتحضرة تصف بالدور . »

قال ماجد زاجراً نفسه : « أنا حمار . لو البارحة جلبت معي خمس ، ست ربطات من خبز التهريب ، ما كانت صارت مشكلة . »

وهكذا أقدم الجميع على مغامرة ما كانت لتخطر ببالهم في الحال العادية . تناولوا الأرزّ والبامياء دون خبز . كان يسير آخر من جلس للطعام وأول من نهض . ضرب بيده على بطنه وتجشأ إظهاراً للشبع : « الحمد لله رب العالمين . أكلنا بزيادة . » لم تجد إلحاحات نازك وعزيزة وأبي حسن أن يأكل حتى يشبع . « كل أكل الرجال ، وفزّ فزّات الجمال . » وحسناً فعل . كانت الطنجرتان فارغتين تماماً . ثم فرغت الصحون . وساء أم يسير أن تؤول الجلسة الطيبة السعيدة الى كآبة سببها أنهم لم يشبعوا . وان يكن ؟ الحمد لله ، ألف الحمد لله أنهم أكلوا . أحسن من أن لا يأكلوا أبداً . لا يوجد خبز ؛ يوجد رز . وما به الرز ؟ له نكهة تشق القلب . ورائحة مليئة ودسمة وليست رائحة نحيفة وفارغة مثل رائحة الورد . يدخل الفم كتلة ، ينغمش باللسان والأسنان واللثة وسقف الحنك والحنك . هذه وحدها تكفي . بدل أن نحمد الله لأجل الرز ؛ نزعل لأجل الخبز ! كفاهم أن الرز

متوفر . والملح متوفر . والميّة متوفرة . والكهرباء والسكر . والكاز والغاز . وكل واحد عنده مخدع ينام فيه . وعنده فراش ، أو حتى سرير . الحارة كلها لا ينقصها شيء .

كان حادث عنف جديد ينفجر في فرن شارع العروة الوثقى . بالطريقة نفسها ، تسرب الخبز خارج الدور وانتهى ، وبقي العشرات فاتحي الأفواه . لم يجرؤ أحد على الاحتجاج . كذلك لم يتقبلوا ان يذهب سدى كل هذا الانتظار . اقتربوا ليتأكدوا . وبحس من لم يعد يرى الدور ضرورياً ، ازدادوا التصاقاً بواجهة الفرن . وعندها تحول المقت الى غضب .

تحطمت الواجهة . وجرح الزجاج وجوهاً وأيادي . ودون أن يدري أحد ، تحطم فك بائع الخبز ، ونقل خارج الفرن . حل بالجميع صمت مذعور . خلال ثوان خلا المكان . وبعد دقائق وصلت الشرطة . وفي حوالي ربع ساعة صارت الحارة تغلي .

قالوا ان يوماً سيأتي ويهجمون فيه على الدكاكين فينهبونها ، وربما على البيوت ويغتصبون نساءها . وماذا يعني أنهم فقراء ؟ هذا لا يعطيهم الحق في خرق العرف والقانون .

« ماذا تريدون ؟ » نبر المعلم سلطان بأعضاء الوفد الذي جاءه من سكان الحارة . قالوا إن عليه ان يرفع حمايته عنهم وإلا عاثوا فساداً في الحارة كلها ، وهددوا الأمن والملكية فيها . « أنتم عارفون أن هذا مستحيل . تريدون أن أخاف منكم ، أم من الله سبحانه وتعالى ؟ »

وعندها صمتوا . صار ممكناً أن ينظر اليهم واحداً بعد الآخر ، ويخاطبهم واحداً بعد الآخر ، دون أن يقصد أحداً بالذات . بيّن لهم مدى الخطر اللامتناهي في التصدي لقوم حباهم الله نعمة العافية وحرمهم نعمة

العقل ، وشاء أن تكون أرزاقهم شحيحة . ثم نظر في وجه أبي محي الدين وسأل : « أم عساكم تريدون أن تضغطوا عليهم وتضغطوا ، حتى تقوم بينهم ثورة ؟ »

- قال سعدون ان الساعة آتية لا ريب فيها . مع لفيف من رفاق جاءوا يزورونه في غرفته . تكلم عن « أزمتهم هم » . عن القبور التي تحفرها سيرورة حياتهم وقد ظنوا أنهم يحفرون القبور لأعدائهم . كان يرتعش حماسا . ونادى بضرورة « الاعتصام بقوة الصيرورة التاريخية ، وبنواميس الكون والتاريخ المنسجمة مع طبيعة نسق الأشياء والأفعال الانسانية ، والبحث عن فعالية التحرر القيمية المعيارية في إطار القاعدة الكوكبية لحركة الثورة العالمية ، والرفض المطلق لكل نظرية محلية بالمعنى القومي او الوطني لا تعتصم بالعروة الوثقى للطبقة العاملة . » قال إن الانفجارات الصغيرة التي تشهدها الحارة طلق كاذب . المخاض الحقيقي سيأتي في المستقبل ، عندما تتصدر الطبقة العاملة لوحة الصراع . لكن « البعد المضموني لمسار حياة الانسان ككل ، يتمحور على مواقفه المبدئية والثابتة في حوارية السلب والايجاب عبر تناقض الأضداد وتسامقها . »

وكان شيء مثل هذا ما قاله أيضاً لعلوان ساعة تحاورا في أمر أم اللولو . قال إن علاقة من نوع ما ستنشأ بالضرورة بين أم اللولو والقوى الحية في الحارة . وان واجبه يحتم عليه الوقوف مع هذه القوى ليمنع سقوطها وليشدها باتجاه الموقف التاريخي . وهذه العلقة الرأسمالية الماصة لدماء فقراء الحي هي الوحيدة ، مع الغيظ والأسف ، التي تستطيع برأسمالها ان تحطم بنى قديمة وتقيم بنى جديدة ، فتخلق بذلك مناخاً للثورة . « هذه الحارة مثل فقط عما يحدث في العالم كله . عن نموذج يصار الى تعميمه في كل بقعة . لا تهزأ بما يحدث للحارة وفيها . هذه حتمية تاريخية ، ولا يمكن أن يقاومها هذا النمط

الاستنقاعي من أنماط الحياة ، ويستمر في سيرورته الهدرية التراجعية . لابد من صيرورة تعصف بهذه الحارة ، تلغي حضارة الطين والعيدان والفوانيس والنرجيلة ، وتقيم حضارة الاسمنت والبلاستيك والليزر والكهرباء . وعندها تتصادم الأضداد . »

قال إنه سيقف الى جانب علوان في أي مشروع يبتدره وتساهم هي فيه . وتناول من تحت الطاولة علبة صغيرة قدمها له : « وعدتك به منذ فترة . ستحتاج له ذات يوم لتقنع الآخرين بوجهة نظرك . »

كان في العلبة مسدس ومشتا طلقة .

« والآن اعذرني ، موعدي مع زينب صار قريباً . »

قالت زينب انها ستترك العصمة بيده ، ستترك كل شيء بيده . « بس خلنا نتزوج وأطلع من هذا القبر . أنا حياتي مرهونة بكلمة من فم أبي . مرهونة بسكين المطبخ . »

ابتسم سعدون بصبر فيما يغرقها بنظرة عاشقة : « هالوجه الحلو لا يليق به الغضب والعصبية . هالوجه لازم له صورة تخلده ، قصيدة تحكي عن معانيه وتعابيره . »

صمتت زينب . تلفتت حولها بذعر مستتر . نظرت في الوجوه أيها يمكن أن يعرف ويخبر أباها .

« زينب . خليك هادئة ، أرجوك . الزواج مؤسسة عريقة ، وظيفتها حفظ النوع وتكريس المصالح الاقتصادية . أنا ليس عندي حتى الآن قاعدة اقتصادية . يمكن في أي لحظة أن أفقد وظيفتي . ماذا يحل بك عندها إذا كنا متزوجين ؟ »

«ولا شيء ، ولا شيء . طالما أنا حرة ، لا يقهرني شيء . لا أحد يموت من الجوع هذه الأيام . »

« زينب . لماذا لا ننتظر حتى نؤسس أنفسنا . »

« يا ريت لو خالي معنا ، كان أقنعك . إذا أنت في قرنة وأنا في قرنة ، كيف نؤسس حالنا ؟ وإذا أبي قرأ فاتحتي على واحد مليونير ؟ »

« لازم تقاومي . لازم تصمدي . ارفضي رفضاً قاطعاً كل عرض زواج حتى تأخذي الثانوية . »

« أنت لا تحبني . » وبكت . « الحق علي أنا . » وأشاحت بوجهها نحو الحائط وبكت . صمت سعدون مرتبكاً . وغمغمت هي كلاماً غير مفهوم . راح نهداها الفتيان يعلوان ويهبطان . ظل هو صامتاً مرتبكاً ، وعيناه حائرتين على شعرها الذي غطى وجهها . كيف يقنعها أن أفكارها مدمرة ؟

هدأت . مسحت أنفها بمنديل ورقي . « لا تؤاخذني . » نشمت والتفتت بجلسة عادية . نظرت الى كأس العصير أمامه ورأته فارغاً . نهضت . تناولت جزدانها الصغير : « أنا راجعة للبيت . » انتصب واقفاً . أمسك يديها وشدهما . تهدج صوته بالكلام : « زينب ! تعرفين . . أنا أحبك . » وحاول أن يقول مشاعر أخرى . لكن الأفكار تقاطرت بسرعة فائقة وتلاطمت ، فلم يدر عند أي منها يوقف ذهنه ليرسلها كلاماً . وندّت عنها صرخة صغيرة سرعان ماكتمتها ، وسحبت يديها . « آسف . شددت على يدك بزيادة ؟ » ثم غمغم : « لن أتركك ترجعين زعلانة . أنا يمكن تفاجأت . المسألة بحاجة لدراسة . خليني أفكر كيف بودي أتصرف . سأتناقش مع علوان . لكن . . زينب ! لا تشكي أبداً في حبي لك . . »

واستمر يحدثها حتى بعد أن ودعته عند منعطف الشارع . قال لها ان

تحمل العيش في حارة الجرب هذه سنتين كاملتين فقط ليتمكن من أن يقول لها ذات يوم مرحبا . وها هوذا يتأكد ان جذوة الانسان ومشاعره الايجابية لا يمكن أن تخمدها قوى القهر والسلب والنفي .

كذلك تحدث الى علوان ، الذي خذله بتفكير طفولي أهوج : يهربان معـاً ! يقضيـان على كل أمـل لهما بالعيش معـاً ، في تصـرف تخبطي غير مدروس ، وخيم العواقب . هذا شبيه بما يقوله خلدون ـ مدعي تحرر ومزاود ، ضرب صحبة مع خال زينب ، وسمم أفكارها حتى لم تعد تقتنع بأفكاره هو .

« ماذا تريد اذن ؟ مني أنا بشكل خاص . »

« اطلبها لي من أبيها . أنت لك مركز في الحارة واعتبار . »

« على رأسي . »

كانت زينب موضـوع حديث مفـاجىء وهـادىء أيضـاً بين سلطـان وعلوان . هذا الجمـال يجب ألا يذهب هدراً . إنـه ثروة عظيمـة منزلة . وهذه القـاصـر يمكن أن تعلق علقـة وسخة مع واحد من هؤلاء المنحطين وتضيع . وأبو زينب لا سند له ولا معيل إلا الله . وقد أنعم عليه بهذه الثروة ستراً لشيخوخته .

كان علوان منـدهشـاً ولكن بلا إفصـاح . أنصت كي يعرف أين موقعه الموائم عن المـوضـوع برمته . « فما رأيك لو تكون واسطة خير من عبد الرحمن أفندي عند أبو زينب ؟ »

أجـاب علوان بابتسـامـة . وإذ ذاك تشجـع سلطان : « ولكن انتبه . واسطة خير لا لتقنعه فعلاً بالزواج ، بل لتعلم علم اليقين ، بإذن الله ، لمن يريد أبو زينب ان يزوج ابنته . »

لقــد جاء في غبشــة المســاء ودون إخطــار مسبق ، مثــل مســدس كاتم للصــوت . « نحن لاحــاجة بيننا للرسميات بإذن الله . » وكان عابقاً عاتباً . ألم يسمع الأخ علوان بالحوادث المؤلمة التي زلزلت زلزالها في الحارة ؟ الحق يقال إن ظروف الحياة بدأت تصير صروفاً . وسلطان العاجز دائماً ، إلا بمشيئة من الله ، بات يحس بحــاجتــه الى أخ وخـــدين ، متخفف من تقـاليـد الحـارة وتضييقاتها ، يفتح له قلبه ويناجيه . ورمى نازك بنظرة خاطفة ، فقال بنبرة : « اعمــلي لنــا قهــوة مرة ثانيــة ، يا أخت نازك . » وإذا انصــرفت ـ متضايقة ، ولكن لم يبال ـ اقترب من علوان بكبر طيع ومودة صافية . هو يعرف ويؤمن ان الكــون يتحــرك بحسب نواميس وقــوانين ، وأن الحياة والأشياء والأفعال تنبثق على أساس كوني يصير ويسير بقدرة الله . وفي الوقت نفسه لا يريد إغضاب إخــوانــه البشر . لقد تفكر ملياً في أمور الناس ، وعرف لماذا كان ضرورياً دائماً أن يبعث لهم الأنبيــاء والــرســل . إنــه يعــرف النفس البشرية الأمّارة بالسوء . تقلب في حالاتهــا وأحــوالهــا حتى الأعماق . من قاطع الطريق الذي أوشك ان يكــونــه يومــاً الى السيف المسلول الــذي يحاول أن يكونه في سبيل الله . ولقد عرف ان بوســع أم اللولــو أن تقيم عالمــاً وان بوسع زينب أن تدمره . وأنه إذا لم تكن أم اللولو فلا يمكن ان تكون زينب . ان أم اللولو وزينب هما اكتمال الحياة .

حدث كل شيء بصــورة عفــويــة تثــير الــريبــة . كيف أفهم زيارة بهذا الصــدق من رجــل عانقت زوجتــه خلال ثلاثــة أيــام متتالية . بعد هذه الفترة الوجيزة التي أمضيتها في حارة تعطشت روحي للاقامة فيها ، رأيتني خائفاً من كل شيء تقــريبــاً . حتــى من نازك . ومــن سؤال بزغ في ذهــني كشحنــة كهربائية : هل ما زلت أجيد الرماية كما كنت أيام الجيش ؟

« أنــا خائفــة عليك » قالت نازك . كان وجهها هادئاً تماماً . « ثلاث

زيـارات لأم اللولـو في ثلاثـة أيـام . وبعـدهـا زيـارة سلطـان الوقحة وانفراده بك . » كانت قد تعمـدت تأخـير إحضـار القهوة حتى تأكدت ان سلطان لن يتراجع عن وداعه ويجلس ثانية ليشربها . « هؤلاء أقوياء ، وأنت لا تجيد ألعابهم . »

« من أي شيء أنت خائفة علي ؟ »

ابتسمت بكآبة مفاجئة وجعلت تحرك الفنجان في الصحفة : « أم اللولو امـرأة جميلة وغنيـة . والأغنيـاء لا يؤمن جانبهم . هكذا كان موقفك مع أهلي وهم مجرد مستورين . »

« لكن أنت علاقتك حيمة بأم اللولو . »

« جيدة . مفيدة . حيمة ، لا . هي شيء وأنا شيء ، ولا يمكن أن نلتقي . »

« وأنا أيضاً علاقتي بها نفس الشيء . أساساً أنا على الحياد . »

« أنا خائفة أن حياتنا يمكن مشت مشية غلط . الولد يرفض أن يجيء . »

« دورة شهرية ثالثة ! مستحيل ! »

« أنا دورتي تجيء أبكر من المعتاد . أحس بها واصلة بعد يومين . لكننا في آخـر حب لنـا ، كنت أنت غير مرتـاح . بدل ما تطفىء أنفـاسـك على كتفي ، كنت تتقـوس كأنـك تتشبث بشيء هربـان منـك ، وتخـور على صدري ، وتجعر . »

صمت علوان أمـام المفـاجأة . ها هو شيء جوهري آخر يفوت وعيه . وإذن فقـد خلخلت أم اللولـو فيـه شيئـاً . راحت نازك تعبره بنصف إغماض

وربع اكتراث . إن سفينة حياتهما لم تعبر من قبل بين صخور تقاربت الى هذا الحد .

« من الآن فصاعداً ، موضوع شقتنا مسؤوليتي أنا . »

أحس علوان بارتياح . لقد باتت فكرة ذلك البيت تثير فيه مزيجاً من السخرية والندم . وها هي نازك تريحه منها . وعندها صار بوسعه أن يسأل نفسه : ما الذي تخسره المرأة فعلاً بخيانة زوجها له ؟ ما دامت كل أمورها على أفضل ما يرام ، أليست ثورتها على خيانته توكيداً على حس الملكية البغيض الذي ترفضه الاشتراكية ؟

على عكس ما توقعت نازك ، وجد علوان راحته في الدار من جديد . لم يعد مكترثاً بسقوط الباب . بل ولقد بدا لعينيها أنه مبتهج به . لسبب أو بلا سبب ، كان يتجه الى موضع المسدس فيلمسه أو ينظر اليه . كأن المكان عش والمسدس عصفور . وكأن انسحاراً جديداً بكل ما صار يعمر بيتهما الآن من أثاث اختير لهما بعناية ، قد انبعث فيهما فراحا طوراً يمسحان على المسدس بأعينهما وطوراً على الأثاث بأيديهما : يجب أن يحمى هذا الشيء الجميل ، هذا الشيء الثمين الجميل . ولقد أخطأ يوم فكر أن يتجنبهم ، بدلاً من الخروج اليهم ؛ قال لها . وقالت : « مهما يكن ، لابد من حل عملي للأزمة معهم . »

فاجأته كلماتها : يجد حلاً عملياً ! وهل هناك أزمة ؟ كان مشغولاً بفهم ظاهرة ، وليس بعلاقة فردية : لماذا رغم تقدم الحضارة العظيم ، يظل هناك رعاع دائماً ؟ الحضارة هي المصنع الأكبر للطبيعة البشرية .. هي التي تتناول هذا الفلذ الخام ، الفاقد للشكل والادراك والنمو ، فتبلوره وتنقيه ، تصنع منه مادة متفاعلة وتعطيها اتجاهاً .

ولكن لماذا لا تصل الحضارة الى الرعاع ؟ هم يعرفون أن خلع الباب

عمل همجي بدائي ، ليس عنفاً محسوباً من النوع الذي تضطر اليه الحضارة في مسيرة صراعاتها . والحارة على كل حال ، يعرف بعضها بعضاً . لقد أحبها ومازال ، لأن فيها سير ورة مستمرة لتذويب الفوارق بين الطبقات . لأن الغني والفقير فيها يتخاطبان كإنسانين متساويين ، لا حواجز بينهما .

هذا شعور قومجي هوماني تلفيقي توفيقي ، قال سعدون . وقبل أن يتابع ، جمع أبوحسن أوراقه ورماها بهدوء على الطاولة فانفلشت وانكشفت . كانت عيناه تنظران الى مكان آخر . ولم تفلح رجاءات علوان وماجد . نهض هذا البر وليتاري ماركة مسجلة ونادى عزيزة . وعادت لسعدون حيرته : كيف لخامة ثورية تنتمي الى طبقة ثورية أن ترفض التسلح بنظرية ثورية . وهتف ماجد : « تشارطون أنه سيطلب عشاء ثانياً من عزيزة ؟ »

نادى أبوحسن مرة أخرى . وردت عزيزة . « هاتي صحن مجدّرة وكأس ماء . »

تساءل ماجد إن كان أبوحسن سيتناول طعامه واقفاً . « على علمي - ظللت تبلع وتكرع حتى انحشت مصارينك . يعني لو تأكل المجدرة وأنت قاعد ، سأقول قامت القيامة . »

من مجلسها على عتبة « المخدع » راقبتهم بنصف ابتسامة ونصف انشغال . المكان مازال يتسع لأربع عائلات أخرى . لو تجيء ، لامتلأت الدار بالحياة والحركة والضجيج ، مثلما كانت قبل ستين عاماً .

« ولكن ، لماذا أخذت المسدس ، إذن ! » سألت نازك .

« المسدس ! أنا طبعاً أخذ المسدس . وسآخذ واحداً ثانياً من سعدون . »

رأى وجهها ينضح تساؤلاً وانعدام فهم . ولمعت الفكرة في ذهنه كالبرق : أعظم نكتة في حياته ولا شك ، رغم أن الموضوع أخطر موضوع في حياته : « تنويع مصادر السلاح ، ياعزيزتي . » وضحك ضحكة مجلجلة صادحة . « من ناحية أضمن دعم أم اللولو ، ولكن لا أضرب بمسدسها . استعمل مسدس سعدون ؛ من ناحية ثانية . »

لم يختلج وجه نازك . فقط بدت عليه الحيرة : « ضد من ، السلاح ؟ »

لمع في خاطره وجه أم اللولو الوضاء محاطاً بثمانية وعشرين مسدساً قمرياً ـ وغاب . « ألم تقولي يجب أن أجد حلاً لأزمتي معهم ؟ أنا على الحياد . مادامـوا هم ضد أم اللولو وسلطان . أنا لا أزمة عندي . بعد فترة أستلم بيتي الاشتراكي ، والسلام عليكم . لكن إذا تعرضوا لي ، هددوني ، أو حاولوا تطفيشي من هنا ، فلن أسكت . فعلاً لن أسكت . »

كانت الحارة قد استردت ايقاعات حياتها اليومية . مادام أي شيء يمكن أن يحدث ، فكل شيء يمكن أن يصير معتاداً . وهكذا بدأت أغاني الديسكو تصدح في ساحة العروة الوثقى . وأخذ الفتيان ينتشرون هنا وهناك بلا شكل ولا هدف . يلتقون بلا نوايا مع الفتيان القادمين من الدار الثانية في طرف سارع العروة الوثقى . وفي مكان آخر ، يلتقي بعض ببعض وبعض ببعض .

قالت أم اللولو : « أنـا أردت أن أجتمع معك من قبل . قدامنا مشوار جميل سنعيشه معاً . » وكان ما يزال مأخوذاً بدوائر الترف والألوان والأشكال التي وجد نفسه فيها مرة أخرى . رأى عالماً آخر غير المضافة التي يتصدرها سلطان .

« في الطبقة المتوسطة عيب واحد ، هو أنك لا تعرف من الموهوب حقاً

فيها ، ومن الذي موهبته كاذبة . » رغم وجهها الأليف وفمها المبتسم الودود ، ظل محاصراً باهليلج من الانبهار .

في تلك اللحظات السعيدة الغامرة ، ضاء في وعيي يقين ساطع أن بوسعي فعلاً أن أكون شيئاً له تاريخه الخاص .

قلت لنازك فيما بعد ان حياتنا تفتقر الى أساس مادي تستند عليه ، إلى تطلعات كبرى تمنح الرضى والعزم وحب الاستمرار . « كل يوم أفيق . أنا لست منتظراً شيئاً . ليس في حياتي هم كبير ، مغامرة كبرى ، شيء يملؤني بالقوة والفعل . »

« يعني ، ليس في حياتك أسطورة . »

« لا ، لا . سأقول لك . أنا الآن في العقد الرابع من عمري . ليس في حياتي أي إنجاز . حياة بلهاء رتيبة . القناعة فيها اسم ثان للعجز . أريد أن أشعر أن لي تاريخي الخاص . »

« أنت تعرف أني أحبك حتى ولو كنت عكراً وملوثاً . لكن أريد أن أفهم ماذا تريد . أنا خائفة وقلقة . ولا تنس ، عزيزة لم تقبل ان تشتغل عند أم اللولو . »

« أنا سأجعل أم اللولو تشتغل عندي . »

[بطاقة : الحارة القديمة الجديدة :

لعين ترى هذه المساحة من مسافة سمتية ، تتلامح الأسطح داخل خطوط من الظلال مستقيمة ومنكسرة . تحت الشمس الساطعة تبدو بحراً علا في مكان وهبط في آخر ، ثم جمد على هذه الحالة الى الأبد . إنها تذر في العيون لوناً لا يسمى . كان ذات يوم قوياً معافى كالذرة التي تباع في أسواقها .

ثم نحـل ونصـل . كأن ألـوانـاً أدخلت عليـه وتغلغلت فيـه ، أو كثافة أصلية خرجت منه . وها هو الآن ، أغبر باهت ، لا هو بالأبيض ، ولا بالرمادي ، وليس واحداً من تلك الألوان التي تفرح طفلاً أو تجتذبه .

خطـوط تشبـه الأخاديد أو الشروخ ، هي منعرجات الأسواق والأزقة . تتسـع هنـا وهنـاك لتصـير فجـوات . تنكسـر بمسـاحـات صغيرة دكناء هي الصفـائـح المعدنية الفاصلة بين الدور. مساحات تتلاصق بمساحات ، طين وخشب وصفائح .

مع تطوحات الشمس في النهار ، يخيل للعين الناظرة أن شيئاً ما يتغير في هذا المحيـط المـترامي من البهوت والتشابه . زوايا تتدرج بين الظل والضوء ، وجوانب ترفرف أجفانها في الألق الأصم للفضاء . ثم يأتي الليل .

بحـر من غيـاب اللون ، قماشـة واسعـة ، شاء رسـام مجهول أن يرسم عليهـا شيئـاً ، فتسـاقطت من فرشـاتـه قطـرات خضـراء وتفشت في الـزوايـا والجـوانب . لكـانت الحيـاة لحظـة مؤ بـدة الانطفـاء لولا هذه الأوراق الخضر ترفعها في الجو شجرة نارنج ، ياسمينة ، دالية ، وحينا نخلة . لكن الرسام لا يبـدو عابئـاً بالقطـرات ، خضـراء ، صفـراء ، أو بلا لون . إنـه يرسم مركزاً ويعليـه في الجـو كقضيب من الحـور ، ثم يلبسـه قبعـة . وفي الليـل تنبثق منه الأضواء والابتهالات . لكأن كل بيت يزحف باتجاهه . آلاف البيوت . كتل لا شكل ولا مكان لها الا بوجودها في بقعة منسوبة اليه .

هذا الرحم الزاخر بعشرات آلاف الأجنّة ، يتساقط نتفة نتفة وهو ثابت في المكان دائر في الزمان . ان بشرته تتقشر . وكلما سقطت من جدرانه الطينية مساحة لطم الأذنين هدير تلك الأعماق الهادرة .]

عنـد الفسقيـة وسـط باحـة الـدار ، جلس الرجال الثلاثة . ونادى أبو زينب أناساً غير منظورين أن يحضروا كرسياً ثالثاً ، وكاسة شاي ثالثة ، وجمرة جديدة للنرجيلة .

كانت الـدار رحبة . ولعلها ظهـرت أرحب بفعـل خوائهـا . وبفضل نظافة البلاط البازلتي ، بدا المكان كله أشبه بمزار ضخم لا يخطر على بال أحد . هنا وهناك نمت طحالب وأعشاب برية وشوك . وكلما ابتعدت العين عن الفسقية انكمشت أمامها خفقات الحياة واتسعت رقعة الكآبة . من الجدران المخضوضرة والشبابيك الراعفة ، سح صوت مزمن . ومن السقوف والأشجار صدرت أصوات عصافير ناشزة .

مع الشاي الثقيلة الحلوة بدأ الحديث . بالأحرى استؤنف ؛ واختير علوان حكماً :

فليسمع الى كلمات الدكتور زيد خال زينب ، وليحكم ما إذا كانت تتضمن ذرة واحدة من عقل أو ذرة واحدة من خشية الله .

بدت على زيد غبطة سريعة لقرار الاحتكام الى رجل مجايل له . وبلا مقدمات توجه بالخطاب الى علوان : « كنت أقول لأبو زينب ، الايمان الديني في عصرنا شيء آخر غير الدين ، لا يستمد قيمته من التصاقه بالحقيقة أو من فاعليته في التقدم . هو حشوة في الدماغ ، أو وشم . تقرأ فيه أطقماً جاهزة من الأفكار واليقينات والتصورات والمفردات اللغوية . وكلها تريح من عناء السؤال . لأن كل اشكاليات الحياة محلولة أو لا جود لها ، بواسطة هذه الأطقم . وهي أيضاً أساس متين للتواصل مع الآخرين الموشومين بالطريقة نفسها ، وتبرير قوي لعدم التواصل مع الناس المختلفين . هذا النوع من المؤمنين يحس في عصرنا أن كل شيء على ما يرام . وأن العالم قائم بالضبط بحسب الصورة التي يتصورها . فإذا تكلمت كلمة واحدة ضد تلك اليقينات والأفكار ، أحس المؤمن هذا انه مهاجم ، وعالمه مهاجم ، وكرامته مهاجمة ، وسلام عقله مهاجم . لذلك يعلن عليك حرباً مقدسة ، ويحلل تصفيتك جسدياً . بينما الحقيقة هي أن انتقادك يزعزع ضلالة عقله ، ويهز صورة العالم

في وعيه ، فيحس بخطر وجودي يتهدده هو شخصياً ، ويهدد تفكيره المستنقع . »

التفت أبو زينب بسماحة رضية وخاطب علوان : « سألتك بالله ، فهمت كلمة واحدة ؟ »

تابع زيد بحماس : « وأين ، أين إيمانكم ؟ خلوني أشوفه . كل إيمان حقيقي ترافقه عصبية حقيقية . كلام ابن خلدون ، ما كلام زيدون . أما ، إيمان بلا عصبية ، إيمان بلا تحرير القدس والبترول . . مجرد حشوة في الدماغ وبضاعة في السوق العقائدي .

كان أبو زينب خائفاً من شيء واحد : « هالكون له رب ، وهو يحاسب عباده . لكن كرمى للنبي ، يا زيدون ، لا توصل كلامك هذا لأذن زينب ، مهما كلف الأمر . زينب بنت ، وقاصر . بنصف عقل . وهي بلاء حتى تنستر . أنت من جنب وخلدون ذاك من جنب ! وأنا أعلنها أمام الأستاذ : اذا صار شيء ، ذبحت هذه البنت لأغسل عارها ، يكون دمها في رقبتك أنت . »

وهكذا جاءت الفرصة . بلباقة واحترام ، ورغبة في تقديم خدمة ، ابتسم علوان وتساءل بسذاجة : « عدم المؤاخذة ، طالما العم أبو زينب خائف عالبنت كل هذا الخوف ، ما المانع من تزويجها ؟ »

أجاب زيد : « من هذه الناحية ، لا يكن لك فكر . العروض كثيرة ، نشكر الله . ومتى رسا المزاد على واحد ، خلص ، نكتب كتاب البنت . »

ظل علوان مبتسماً : « يعني اذا شاب ابن حلال ، عصامي مكافح ، لا يكون له نصيب ؟ »

جلجلت في الدار ضحكة زيد فأعادت لها حياة غائبة : « يا رجل ! أين أنت ؟ عصامي قال . طلع على لساني شعر وأنا ألعي وأحذر .

والنتيجة ؟ لقد أسمعت لو ناديت حياً . إنها لا يهمك . .زينب لن تستسلم . . »

كان أبوزينب يشرب الشاي شبه شارد عن شروحها . زاوية شفتيه اليسرى انفرجت عن خرطوم النرجيلة ، ومن فمه خرج دخان أبيض . نادى أناساً غير منظورين أن يهيئوا مزيداً من الشاي ، واستعاد جلسته القريرة . ولحظة صمت جليساه ، التفت الى نسيبه وغمغم : « أنا أراعي حرمة الله في أنسبائي . لكن اذا صار شيء بسببه أفكارك المستوردة أنت وخلدون ، فدم هذه القاصر في رقبتك . ابعد عنها خلدون ، قبل كل شيء . . »

بلباقة واحترام ، ورغبة في تقديم خدمة ، تمتم علوان نصف مرتبك ومبتسم : « ولا يهمك عمي أبوزينب . البنت بإذن الله لن يصير لها شيء . وفي الآخر لا يصح الا الصحيح . قصدي شغلة الحب والأفكار هذه مجرد عمى ، عن رؤية الواقع ، ورؤية الموقع الطبقي المعيشي . الغريب ياأخ زيدون أن أكثر الناس تطبيقاً لمبادىء الاقتصاد السياسي الماركسي هم الناس الذين قامت ضدهم هذه المبادىء . الرأسماليون والمحافظون . يعني سألتك بالله ، اذا كان الاقتصاد أساس الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية ، ألا يكون أيضاً أساس الجمال والسعادة والحب ؟ أهي خيانة للتقدمية أن تتزوج الآنسة زينب رجلاً يؤمن لها هذا الأساس ؟ لا ، لا . خلنا واقعيين ، وبلا تيه خاسر في الشعارات . وأنا أنوي التكلم بصراحة . وناقل الكفر ليس بكافر . أنا جئت من قناعة تامة ، لأزكي عبد الرحمن أفندي زوجاً لزينب . رجل فاضل ومقتدر . ناضج . عنده ثلاثة دكاكين ، وبيته صار بعد الهدم بأربعة ملايين . . »

انفرجت الزاوية اليسرى من فم أبي زينب ، وخرج تيار دخان . أعاد ترتيب الجمرات على التنباك : « المشكلة في عبد الجليل ، ابن عبد

الرحمن . » شَرَق نفساً وقرقرت النرجيلة . « هو الثاني يريد زينب . وهو شاب . اذا تزوجت أباه ، من يعرف المستقبل ؟ اذا تزوجته ، حرمه أبوه من الميراث . »

بدت على وجه علوان حيرة هادئة ولكن حقيقية . وفجأة سمع جليسيه يرددان كلاماً واحداً ، كأنهما قد درسا من قبل كل شيء : « أنا برأيي ، نزوجها لعبد الحليم أفندي ، أو مصطفى أفندي ، بس المعلم سلطان ما يزعل . »

أدرك علوان أن زينب ليست مجرد فتاة ينبغي تزويجها ، كما يتصور . إنها بالنسبة لهم قضية . ربما توقف عليها سلام الحارة كلها واستمرار علاقاتها الخفية . وإذ هتف أبوها إنه لا يريد لابنته مصير أم يسير ، الناجم عن غلط أولي في الحسابات ، أدرك حكمة الصمت والانسحاب . لقد قام بواجبه تجاه صديقين ، سعدون وسلطان ، وانتهى الأمر .

« غرضه الأساسي ياأستاذ ، هوتزويج زينب لسلطان ، » قال زيد بالأسلوب نفسه المتقوس بين اللامبالاة والسخرية المرة . لقد أجلسه علوان في بهو البيت ، بعد أن خرجا من دار أبي زينب . قدم له الكرسي الهزاز بفخر من يمتلك في بيته أثاثاً ثميناً رفيع الذوق ، وجلس الى جانبه . كل شيء فيه كان باهراً ومهيمناً ، رغم استمراره القوي المتعب في التحدث والتحليل . قال إن شخصية علوان قد أثارته مذ عرف أن أم اللولو اتصلت به مباشرة ، على غير العادة . طبعاً ، السبب الآن واضح . العزم ، الصدامية ، الرجولة . وفوق هذا رجرجة جميلة ومحسوبة ، أساسها نشدانات عميقة خفية تمتنع على السيطرة . هذا هو سحر الطبقة الوسطى في الحالات الفردية الخاصة . لقد لاحظ انذهاله بدار أبي زينب . رآها مثالاً فانفعل بما رأى . وكرمى لهذا المثال راح يكيل الاحترام لأبي زينب بصورة مضحكة ؛ كأن ذلك الرجل الخسيس صار بفضل داره مثالاً للملجأ الأبوي . صورة ذهنية عن الحياة معاكسة مئة

وثمانين درجة للواقع . أفكار سكرية لتحلية مياه البحر الذي هو الواقع المر . « عالم المثل هو عالم الكذب والاختلاقات والتضليل ، وليس عالم الحقائق الأزلية ، كما زعم أفلاطون . » وأبو زينب رجل لا يمت الى ذاته ونفسه بصلة . ليس أي شيء بنفسه وذاته . وليس هناك ما يميز أبا زينب كشخص اسمه عبد الله . ليس فرداً . هو نموذج فذ من تكونات اللاشعور الجمعي . لو جاء فرويد لما وجد فيه شيئاً يذكر ، الا اختلالات سوية في نسب العقد النفسية التي يشترك في ملكيتها جميع الناس . لو جاء يونغ لوجد فيه كنزاً .

سيراه التجسيد والبرهان لنظرياته . « هذا الذي لا يكره أحداً أو شيئاً ، ولا يغضب من أحد أو من شيء . إنه يقترب ويبتعد ، فقط ـ من الناس والأشياء ، واقترابه وابتعاده مرهونان بمقدار الفائدة المترتبة عليهما . حتى كونه أنانياً ليس خاصة فردية ، ولا يعني أبداً أي مستوى من الوعي الذاتي . ان أنانيته نمط جماعي صنعته دهور من الملكية الفردية . وكل فردية تظهر عليه ليست سوى محاولة مستبسلة لاظهار اندماجه التام في نسقه الثقافي . »

هذا النوع من الناس ، قال ، يجد في سلطان الملجأ الآمن الذي يقيه خوفه من الوجود والكون ، ويحمي ملكيته الفردية . يجد فيه البديل الضروري للملك الاله الذي كان الأسلاف البدائيون يقدسون قدرته على حمايتهم وحماية ممتلكاتهم ، فيقبلون الأرض بين قدميه . وزينب هي العذراء الفاتنة التي يفخرون بتقديمها ضجيعة للملك الاله في معبده المقدس ـ وهو هنا قصر سلطان ذو الأربعين حجرة ، باستثناء الأقبية . وهي وسيلته لضمان الحماية والنجاة من الصواعق والحرائق ، الطوفان والفيضان والمذابح والغزاة ـ وهي هنا الاشتراكية وثورة المسحوقين والكادحين التي صاروا يحسبون حسابها كما يحسب حساب ابليس ، أو كأنها كارثة محتملة من كوارث الطبيعة .

كان علوان مندهشاً من طقم كامل من الأمور . منذ البداية وهو منصت لهذا الرجل الغريب الذي طلب « خمس دقائق من وقتك الثمين » وأول ما مشيا معاً قال : « طبعاً ، أنت كنت تسخر من أبو زينب عندما زاودت عليه في موضوع التكسب بزينب . هو لم يفهم . لكن أنت كنت تقصد العكس ، طبعاً ، إنما ، عقلية من هذا النوع ، اسمنت مسلح بتقوى الله ، لا سبيل معه الا السخرية . لأن الهدف النهائي هو سلطان . »

ولم يدر علوان هل استغرب الفكرة أم استفظع أن يتزوج سلطان زينب . قال :

« بس سلطان متزوج أم اللولو ! كيف يتزوج زينب ؟ »

تكلم زيد وهو يضحك أو يبتسم : « وما له ؟ لن يكون أول إله ينعم بحظيرة من الحريم . المشكلة غير هذا تماماً . أظن أن سلطان لن يتزوج زينب أبداً . بالضبط ، هو يريد تزويجها لعبد الرحمن ، لأن هذا لا يطلق أكثر من خرطوشة كل سنة . فيكون سلطان نعم الصديق عند الضيق . وهذا ما يخافه عبد الله . أما سلطان ، وكل المعلمين الذين على شاكلته ، فيجد في أم اللولو طمأنينته الكونية . المعبد المقدس . الرحم الآمن الفسيح . الملكة الإلاهة . إيزيس أو عشتار . تحتويه ، هو . وينتعظ ، جودياً . »

طيلة الوقت وأنا منذعر من الضوء الذي ألقاه داخل حجرات عقلي السرية ، وأجبر في أن أرى ـ ولأول مرة ـ ما لا تريحني رؤيته . وعندما خرج ترك معي قلقاً فظاً . الدوائر الاهليلجية المتعاظمة التي رسمها ، التفّت على حساً بالضآلة . إذا كان المركز نقطة ، والنقطة صفراً ـ عبد الله أبو زينب مثلاً ـ فكم هو صغير ولا شيء هذا الإنسان الذي يحيك كل يوم أساطيره الزاهية عن هيمنته على العالم .

هذه الصـــورة جعلتني أجفـل من زيـدون المـوشـوري باعتبـاره فوضى وأنسجة لغوية . لكنه قبل أن يغادرني ، أدنى وجهه من أذني ، وعيناه تتلفتان يمـين يسـار ـ كانت نازك جالسة في طرف البهو تتفرج على التلفزيون ـ وهمس محاذراً أن يتجـاوز الصـوت الأذن : « وأنت ـ حتى تنجـو من هيمنـة أم اللولـو الطوطمية ـ يجب أن تنام معها . »

الرّعاع

- ١ -

كان القيظ خيوطاً تتناسج وتتداخل كبيت العنكبوت ، داخلَها هلام على عتبة الكثافة . وهناك في الأعالي تحركوا كالأشباح . كأن بينهم وبين العيون المتمددة غشاوة . وفيما الشمس تزحف نحو اليمين ، انتشروا وأذهانهم بيضاء ، والفضاء أبيض . ولم يكن ليعكر انعدام اللون في ذلك السديم غير أطواق داكنة هجعت فيها الحمائم .

ثلة منهم ، عشرون تقريباً ، وربما ثلاثون ، تجمعت أمام عيني علوان . وسرعان ما أدرك انهم ليسوا نسخاً متكررة لصورة تتناوب على شاشة خياله . لقد راحوا يقذفون الحجارة . حجارة سمراء من صخر وطين . وكان واضحاً أنهم عازفون عن إقلاق راحة الحمام .

لكنهم أقلقوا علوان . عندما أدركهم جيداً تدفق الدم في صدغيه كتيار كهربائي . كانت نازك مسترخية بقميص نومها على الكرسي الهزاز ، تنفض السيجارة في منفضة كريستال على تربيزة آبنوسسة . نظر إلى زنديها العاريين وصدرها نصف المغطى ، والى انحسار الثوب عن فخذيها . أحس أنها مهددة ، وحتى توشك أن تُغْتَصب . كان ستة أو سبعة منهم قد اتكأوا على إفريز السطح الداخلي ، مثل متفرجين على مباراة بكرة السلة . ووراءهم راح الآخرون يلعبون الملاكمة والمصارعة الحرة وضرب السكاكين . انتبه الى أن الحجارة كانت تتساقط منذ فترة . وأيقن بما لا يقبل الشك أن تجمهرهم على السطح سيدفعهم الى فعل جنوني آخر شبيه بخلع الباب في المرة السابقة .

تأملته نازك وهي تنهض الى غرفة النوم . ونزل هو على الدرج الخشبي . في الباحة كان السكان مسندي الظهور على حائط غرفة أم يسير ، ورؤوسهم مرفوعة باتجاه السطح . عليهم سقطت أصوات الفتيان الناعبة

الناعرة فهيمنت بلغة إشاراتها العنيفة على وعيهم وتلقياتهم .

رأيت الريح اللافحة تهب ، ولمستها تتفشى في صدري . عاينتها كسرطان ناري . هؤلاء يجب أن يخضعوا أولاً . ونفثت مسام جسدي شراراً قادحاً كلسان التنين . سمعت أصواتاً من الزقاق . شيء ما كان يقال ضد هؤلاء الشذاذ . وإذن فهم يحتلون أسطحة أخرى . وكان عليّ أن أنازل هذا الخوف . إذا استبدت الغوغاء مرة استبدت الى الأبد . رصاصة واحدة على الأقل . يجب ان يخضعوا .

عند أول الدرج اصطدمت بيسير . قصدي ، رأيته متخثراً على كرسيه . في اللحظات الأخيرة لوعيه ، كان يجنح الى اليمين ، باتجاه السقوط على الدرج الخشبي . لمحته لمحاً . جاثم على الكرسي كشبح مشلول . يداه متصلبتان الى جانبيه كجناحي وطواط . عيناه على عيني ، بلا خلجة ولا خطاب .

لم يداخلني شك في جيشان أعماقه الشريرة بنوبة جديدة . في لا وعيه حقد علي وبغضاء ، وهو يريد ترويعي وإحباطي . صعدت الدرج . وفي منتصف ذلك البرميل الملولب الذي لا غطاء له ، أدركتني صرخته . أنا أعرف هذا الصوت . مألوف بالنسبة لي . لكنه لطمني وأفزعني ، كأنه انفجر في رئتي . صوت وحشي يضعك في أعنف ما في الذاكرة من ذبذبات همجية . ساحة كهرطيسية ، تفتت الارادة الحديدية الى ذرات وتتلقفها حولها .

عندها لم أعد أعرف متى سأتناول المسدس . كأن صرخته استلّت غضبي وفجرته في الرمل . صعدت الدرج جسداً بلا عظام . كل شيء حولي رأيته غريباً وموحشاً .

من نهاية الدرج الى الشباك رأيتهم . لقد احتلوا السطوح تماماً .

وجعلوا من يسير المتخبط بأعصابه على الأرض دريئة أو طوق حمام لقذف الحجارة . كأنه في اللحظة التالية سينطلق خارج تخبطه ويطير الى يد أحدهم فيحط عليها .

رأيتني أخرج من وعيي وأدخل في محاليل أخرى . الغوغاء . صورة أم اللولو المؤطرة . الذي نسميه وعياً هو برمجة ذكية للجبن والخداع الذاتي ، أساليب للالتفاف على الحقائق الكريهة في ذواتنا .

كانت نازك تهتف : « علوان ! أنت ترعبني ! »

خارج وعيي استطعت أن أدرك . عندما صرت أنا لست أنا ، ويسير الذي أحبطني يتخبط تحت حجارتهم ، استطعت أن أدرك أنني جبان . لم أكن من أدعياء الشجاعة ، ولا أنا اضطررت لها أو طلبتها . لكن الوكر الجهنمي من الأبالسة الذين فقدوا كل شيء ، كان يتحدى كل شجاعة واعية . وأنا صرت خارج وعيي . وأمام الهمج ، وجانب أم اللولو ، وداخل الرعب ، وفوق الهواء ، وتحت القمر .

كانت نازك تهتف : « علوان ! ماذا جرى لك ؟ أحد ما ينادي الشرطة . »

لست أدري كيف ومتى تناولت المسدس . فجأة وجدته بين أصابعي وداخل راحة يدي ؛ وأنا أتعارك مع نازك ، وهي تصرخ : « رصاصة واحدة تجرّ مئة ، » وتمسك بيدي وصدري وتحاول جري الى الخلف . بلطمة جبارة واحدة طرحتها أرضاً . « انزلوا ولاه ! » صرخت في أعينهم .

ثم أطلقت أصابعي رصاصة . اخترقت الرصاصة الزجاج المتبقي فكسرته ومضت اليهم . انطلقت وراءها الى السطح . ربما كنت بطيء

الحركة . لا أعرف . لكني أحسست بعزم هائل . كان الباب مفتوحاً ، بالطبع . أليسوا هم الذين خلعوه ؟ أطلقت رصاصتين . رأيت أشباحهم تتحرك كبرق أسود . وكنت مازال بطيء الحركة . على السطح ، أطلقت رصاصتين الى اليسار ، حيث توقعتهم . ثم انتبهت . التفت الى اليمين . وعلى فلولهم أطلقت أيضاً مرتين . وكنت متأكداً أني أصبت آخرهم .

بين اختفائهم وانتباهي سقط من عيني زمن وجاء زمن . وقفت هناك ، منتصباً ، مسدسي بيدي ، والأسطح كلها أمامي وحولي ، وكنت وحدي على ذلك العلو الخافق . وبلا أي سبب أو دافع ، أطلقت رصاصة ثامنة في الهواء .

عدت . وأنا أنزل الدرجة الأخيرة الى البهو توقفت ، لأول مرة خالجني أمل حانق . تذكرت أنني في هذا المكان الصغير لطمت نازك مباشرة قبل صعودي الى الرعاع .

كان سعدون جالساً على الكرسي الهزاز . نهض . مشى الى علوان وصافحه وعانقه : « فعلت فعلاً يدخل في إطار الضرورة التاريخية . هذا الصدام القذر انجاز نظيف . من الآن فصاعداً ، تتسارع وتيرة صيرورة الرعاع طبقة عاملة . »

عاد الصديقان وجلسا على الكرسيين الهزازين . وأمسك سعدون عن كلام هام أراد قوله ، اذ شاهد وجه علوان المنشغل المهموم .

دخل أبو حسن باحة الدار وتشمم وعيه أمراً غير طبيعي . لم يدر ما الذي أثار فيه ارتياباً مقلقاً وانقباضاً . لكن كوكبة من الأطفال تدفقت خلفه فاستعادته من كلا القلق والكآبة . ووراءهم تدحرجت سيدة تتسع لأربعة أثواب وقد أنار وجهها الجهال .

فتحت الصـــرة الأولى التي جاء بها العتـال . ولم يستغـرق وقتـاً طويـلاً تحويـل غرفـة أبي حسن الى بيت عائـلي . ثلاث حصـائـر في أقصى الغرفة ، مدت عليها فرشات من نوع ماء وأغطية ومخدات . وعند النافذة المخلعة وضع وابـور الكـاز ، وحفنـة من أدوات الطبـخ والأكل . حركة إثر حركة تابعتها أم يســير في أرجـاء « المخـدع » ، واستطـاعت أن تروي للزوجـين المنشغلين ما حدث ، وتجلو لهما سر الصمت والوحشة اللذين فاجآ أبا حسن لحظة دخوله . « يعني ارتحنا من هالأوباش . » هتف أبو حسن . والتفت الى زوجه : « فأل خير يا أم حســن . على مجيئـك ، الاستـاذ علوان حشـر الفلسطينيــين في أوكارهم . » وابتسم بحبور ، لاستعماله تعابير المثقفين . غير أنه ظل متحيراً في أمر الصمت والوحشة .

« والست نازك ، أين خرجت وتركت الاستاذ علوان في هكذا وقت ؟ »

« ياابني كان وجهها أصفر مثل الشمع . كأنك سحبت دمها بمحقنة . »

« وعزيزة ؟ وسعدون ؟ »

« كل واحـد لاطيء في مخدعــه ، وقــافـل على حالـه خيفـان من الفلسطينيين . بس سعدون ، قاعد عند الاستاذ علوان ، وحكيهم سكيتة . »

« بس أنا ما سامع لهم أي صوت . »

« يمكن لأنه سمعك ثقيل . »

كان سعدون متحيراً من وجوم علوان . معقول أن تكون المسألة تأنيب ضمــير ؟ هل ينمــط فعـل تاريخي ويسقـط في مستنقـع الـلاتـاريخيـة بسبب الضمير ؟ وأطلق زفيراً طويلاً . تلك هي أزمة هؤلاء البرجوازيين الصغار . موسـومون بالقلق والتردد والتذبذب . يتشدقون بأفكار الاشتراكية العلمية ، ويهـدهـدون المثالية والقيم الخرافية والغيبية . ولكن يجب أن يخرج عقل علوان من حصـاره الى أفق أوسـع . تنحنـح وتمتم : « الفعل الثوري يا أخ علوان ، فعـل تجاوزي ، يحمـل تبريـره الخـاص في ذاتـه الخاصة . لا يحتاج الى تبرير أخلاقي من الخارج ، لأنه ينطلق باسم عالم جديد وقيم جديدة ، ثورية . »

استغـرب علوان نبرة المنـاشـدة في عبـارات جليسـه : « ما الحكـاية ؟ تتكلم كأنـك تراني نادمـاً على ما فعلت ؟ » وابتسم بمـودة غافرة . ثم شردت عيناه قليلاً نحو كنبات غرفة الضيوف : « في هذا اليوم اخترقت حاجزاً ، كان يجب أن اخـترقـه منـذ زمن . لكني لم أكن واعياً ولا شجاعاً . اليوم اخترقته . وبطـريقـة ما ، أحس أنه عاد والتحم ورائي ، فلا رجعة . اليوم أحسست أن بوسعي أن أمتلك العالم . وسأمتلكه . أنا خرجت الى ما بعد الخوف والندم . وسأصير سيد الحارة . »

« فكّ العقدة ، إذن . لماذا أنت عابس ؟ »

تنهـد علوان : « خروج نازك من البيت يقلقني . هذه الصـدفـة ، لا أفهمها ـ كيف ضربتها تلك الضربة ، وأنا طالع الى الفلسطينيين ! »

تنهد سعدون بارتياح . وتابع علوان : « إذا لم تكن نازك الى جانبي ، قد أشعر أني مخطىء . »

نبر سعدون باستخفاف : « شوية تأنيب ضمير . بعد فترة يفيق عقلها . »

قال أبـو حسن وهـو يرشف الشـاي : « بس ، واحـد يطلق سبـع رصاصات على هالمساكين ! بالله صعبة . اسكتوا يا خنازير ! »

كان أولاده في البـاحـة يلعبـون بضجيـج وصخب غطيـا تماماً على الأصـوات الجـريحـة الـواصلة من دار أم عبـودة . وقد هبطت صرخاتهم بفعل الصيحـة الأبـويـة ، وأمكن لرؤ ينا أن تُسمع أمها صوت بكائها . وغمغم أبو حسن لزوجته : « انبسطي يا أم حسن . بإذن الله ما عاد أحد يزعجنا بهالدار . »

قالت أم يسير : « الله ينجينا من ساعة الغضب . »

تلاشت فجأة أصـوات الأطفـال . وبحـركـة عفوية ابتعدوا يمين يسار ليفسحوا الطريق أمام سيدة باردة الخطى لافحة الوجه في عينيها أنين أحمر مكظوم .

انتصب شاربـو الشـاي واقفـين . تلكأت أم حسن وخـرج الآخران .

هتفت أم يسـير : « أم عبـودة ! » ثم لم تستطـع لفـرط اضطـرابهـا أن تقول : خطوة عزيزة .

هومت على وجـه أم عبـودة ابتسـامة سوداء . ولمعت على كفها الأيمن خرقـة بليلة حمراء . مضت الى الـدرج الخشبي . صعـدت . تبعها أبو حسن وأم يسير حتى أول الدرج . وهناك وقفا ليسمعا .

« شايـف هالخـرقـة ياسيـد علوان ؟ بزمـاني حملتها مرة ، وها مرة ثانية . أول مرة ، من دم أبـوي وأخـوي . وهـالمرة من دم ابني يوسـف . يمكن إحنا مكتوب علينا يجري دمنا . لكن لابد ما نجري دم عدوّينا . خذ بالك . مش كل مرة نقبل نصير لاجئين . هالوكيت ، يا الموت ياالدار . وأوتيلات وسياحة

على جثتنـا مافيش . قل لهم ما فيش فايـدة . قل لهم انهم بيرشـوا عالموت سكر . بس أنا أسفانة عليك . سموك مسحراتي بعد ما خلص رمضان . راح الأعور وتبعور ياعلوان ؟ عامل قبضاي على شوية عجيان ؟ »

كان صوتها قد جنح من الغضب الى السخـرية . التقط علوان فرصة سؤاليها الأخيرين فصاح : « أنا مالي علاقة إلا بحالي . أنا على الحياد . لو ما أولادك عملوا عليّ قبضايات ما صار هالشيء ! »

« تعـال اسكن سكنتهم وعش عيشتهم خمسـة أيـام ، وبعدها قل لي .

اذا ما صرت قاطـع طريق وألعن ، ابق فرّغ مئـة مسـدس فيهم . الـلي بياكل العصي مش زي الـلي بيعـدّهـا ، ياسيـد علوان . قبضـايـات ، قال . تعال شفهم وشف حنيّتهم ، وتضحيتهم ، ومعـروفهم ، كل واحـد مع الثـاني .

كيف رغيف الخبز بتروح لقمة لقمة لعشرين فم . لكن لما تهددهم مشاريع أم اللولو أن يصيروا لاجئين . . »

« أنا معهم في جميع مطالبهم وآمالهم ومواقفهم . أنا مع كل المضطهدين والمظلومـين والمستلبـين . لكن خليهم يروحـوا يتعدوا على أم اللولو ، عدوتهم الحقيقية ، ويتركوني بسلام ، لأني أنا حليفهم الطبيعي . »

« لا ! ألعب غيرهـا يا أستـاذ ! مش على هالصفدية العارفة كيف الميّة جاريـة تحت التبن . أنت المعلم الجـديـد ، ما شاء الله . سلطـان ماكـدرش لينا . جاءت بك أنت . يكثر ألف خيره . عالأقلّ هو مارمانا بالرصاص . أما أنت . . من عارف ؟ يمكن فتحت لك رجليهـا زي عوايـدهـا ، وطيرت مخك . وما شاء الله ، بيتك ملان من فضلها وخيرها . »

« اذا صعب عليك تحكي من غير أدب ، تفضلي من غير مطرود . »

« أنا ما أخذتش أذنك لأجي . وطظ فيك وفي أدبك . أنا قليلة أدب ، لكن أنت مجرم . خذ . »

دون أن ينتبـه ، انـدفعت يدها وخبطت على وجه علوان بالخرقة المبللة بالدم . وفيما انتفض بكرسيه الهزاز الى الخلف ، مذعوراً ومشمئزاً ، موقناً انها فقـدت عقلهـا ، صرخت هي : « الصهـاينة لطخوا أيديهم بدمنا . خذ أنت لطخ وجهك . »

« تعـالـوا اركبـوا علينا لأنكم لاجئون . صارت فلسطين قميص عثمان وهات ياتجارة . عندكم أصحاب ملايين أكثر من أي بلد في العالم . »

« نحن سامحناك فيهم . بس انزلوا عن اكتافنا أنت وهمّه ! »

« خلي هالأولاد يشتغلوا فدائية بدل هالانحطاط والحيونة ، وتهديد أمن الناس . »

« نحن مش مستعـدين ننـذبـح كرمى لســواد عيـونكم . أنتم البـارمـة رؤ وسهم في الغيم لأنه عندكم بلاد وحكومة . »

« كرمى لســواد عيـونًا ! هي بلادنا المسلوبة والا بلادكم ! يمكن الخانم بودها العالم يحرر لها بلدها ، ويقول تفضلي استلمي . »

« الخانم بودها العالم يحررها منكم . »
« أنتم كفوّا بلاكم عني وأنا بألف خير . »
« وهو أنت على بال من ؟ »
« من أول يوم وأولادك قمة الشر والأذى ضدي . »
« جيت وحشرت حالك في هالدار مثل قرص الفلافل في سندويشة . »
« واذا ما ارتد شركم عني ، أنا عارف كيف أتعامل معكم . »

« واللي بيحط حاله في هيك مطرح ، راح ينمعس مثل قرص الفلافل . »

« قال ضربني وبكى ، وسبقني وراح اشتكى . »

« كنت فاكرة أن أم اللولو اشترت البيوت بس في الزقاق . أتاريها مشترية البني آدمين معها . »

« أنت شقفة امرأة .لو فيكم خير كان طلع منكم رجل وتكلم معي . »

صمت علوان بعد الجملة الأخيرة . وتوكيدا لمعانيها استرخى على كرسيه بلا اكتراث ورفع رجليه على الطاولة . وأسرعت أم عبودة تهبط الدرج . هي وعلوان لفظا في وقت واحد كلا مهما الأخير . وفي وقت واحد ظن كل منهما أنه قال الكلمة الفاصلة .

على مسافة متر من الدرج ، تلقت أم يسير جارتها السافعة بنظرة حملت كل ما يمكن لعينيها الآفلتين أن تبثّاه من عجز وخوف ودمع . وغمغم أبو حسن بكلمات مضطربة بين سكون الأطفال التام .

تقدمت المرأة النافرة كقطار من اللغة والمشاعر والثقل ، باكية لأن التحدي كان رصاصاً لا تملكه ، ومقهورة لأن الاستجابة كانت دموعاً لا تملك غيرها . ومن يدري أية تيارات محيطية كاسحة انشقت داخلها ، عندما شارفت على اجتياز الباحة وأوشكت ان تصطدم بأم اللولو . كانت المرأة البيضاء سحراً حراماً يخلب النظر . وكانت المرأة السمراء ماء مالحاً يجرح الحلق . كانت المرأة البيضاء جلالاً وجمالاً ووليمة وسطوة وعينين ساطعتين وقامة قطبية مستوية . وكانت المرأة السمراء النافرة زرافة ولبوة وحشيشاً وسخاماً وجبيناً مخطوطاً وعينين عفرهما الحزن والذل والظلال .

بانكماش تضاؤل لي راقب أبو حسن الانتصابتين المتلاغيتين ، الساكنتين سكون الغيوم الغربية السوداء . لقد تلبدتا في الباحة . كل واحدة كتلة رملية تصاعدت حتى سقف السماء وعجفت بوجه الأخرى . ورأى وجه أم اللولو الأبيض يزداد بياضاً حتى يشابه الكلس ، ووجه أم عبودة البلحي يكفهر حتى يشابه القطران .

عشر ثوان من السكون ، تداهرت وتأبدت ، وجثمت على توقعات أبي حسن وأم يسير الجامحة . وبعدها افترقت المرأتان . تقدمت أم عبودة فاختفت : قنبلة ابتعدت عن مرماها . وللتو مسح تقدم أم اللولو حجمها وحضورها . كأن الوجودين أثقل معاً من أن تحتويهما العيون . ثم مشت نحو الدرج الخشبي وصعدت .

في هذا اليوم استؤصلت زائدة دودية كان انفجارها المحتمل يهدد جسداً معافى بالتسمم الموتي . لقد استباحوا الدار . استباحوا الزقاق . استباحوا زينب . استباحوا الأسطحة المتداعية . والنفوس ، والنهار والليل ، واليوم والغد . كيف يمكن لحياة أن تستمر على ايقاعات الرعب وجنازة السلام ؟

كانت حارة اللغة ، باردة الصوت ، هادئة الوجه ، حافلة العينين ، عكراء الدم ، صافية الشعور . « أما غليت قهوة للمعلم علوان ، بعد ؟ »

وابتسم سعدون لاستنكارها المحب فنهض . بلا إبطاء ، شبكت يدها بيد علوان ، ومشيا فتلامس الساعدان . « تعال أرني ميدان المعركة . اليوم أعدتني الى عصر روما . »

على الدرج الصاعد ، مع نبض علوان الصاعد ، انشدت اليه فشدته . رسا مرفقاها تحت إبطيه وأصابعها على كتفيه . ثبتته على جسدها الصلب اللدن الراشح المعفر بالشهوة . واندفع اليها . شدته وتمسحت به ،

كقطة تغتسل بالندى والغبار والشعاع والنسيم ، حتى جاءتها تلك اللحظة الهاشمة .

أحس علوان انه سيد تلك المساحات الشاسعة من الخصب والدم المتدفق والبكاء والألق . ان أخيولة مثل هذه ما كانت حتى لتعبر ذهن فتى الحارة المملق الذي كانه والذي حسب ان قوادمه قد تخلعت بموت أبيه . ولكن ها هي ذي امرأة كان يراها في السينما ، ويحلم بامتلاكها ممتثلاً لاستحالة الحلم ، تستمد منه هو ، ذلك الفتى القاصر المغلوب المزنر بالرجرجة ، نشوتها الواجدة . ورأى نفسه على أرجوحة عنكبوتية ، والذراعين الحسيرين النضيرين يشقان فيه طريقاً تلجه أم اللولو وتتوغل . إنها تستدرجه بالعطاء ، لتنشب في جسده إشارات استفهامها . وإن النفس والجسد والنشوة متوقفة كلها على نتائج صراع شبقي مع من يحب . أحس أنه لكي يصل إليها ، وهي بهذا العنفوان ، عليه أن يقاتلها . وقد أفعمه أن يصاول بالشبق والعنفوان هذه الأخيولة القادمة من الغرب .

صاح سعدون سائلاً أين هما . وتساءل علوان ، ماذا بشأن سلطان . وابتسمت أم اللولو . كانت سعيدة . وأوحى شرود عينيها الهانىء بشرود أذنيها أيضاً . « أحب هذه البدائية . وأجرؤ فأقول الهمجية . يجب أن ينظم العنف في العالم تنظيماً صارماً ، لكي يغدو ممتعاً ومفيداً . » وناولت صديقها دفتراً بحجم الكف : « اسكت الآن . هذا دفتر شيكات بالدولار لحسابك في البنك . » وسحبته الى السطح . « وبكرة ، يكون عندك تلفون جاهز . وبعد يومين ثلاثة ، نذبح لك خروفاً على باب الدار ، فدوإقامتك . هذه هي تقاليدكم . الآن صار حقاً لك أن تسكن هذه الدار . » مدت الدفتر ثانية ، لكنه لم يتناوله . « لا أريد مالاً . » « أعرف . لكن هذا ليس مالاً . سلاح . » « أنا مشمئز من اطلاق النار . »

« إحساس غبي . هل كان قيصر ليشمئز من دم يسفكه لينتشل أوروبا من البربرية ؟ أنت الآن بدأت تنظم العنف . بدأت تجسد الحضارة . تذكر أن اكتشاف العالم الجديد جعل البحارة السعداء يطلقون النار احتفالاً . »

وإذن فليس ثمناً ما تريده منه أم اللولو . انه نشر للحضارة ، وسيطرة على الهيجان البدائي لغرائز الرعاع .

وضعت الدفتر على صدره ، وانغرزت أظافرها هناك .

ورفضت أن تشرب القهوة . « وقت المضافة بعد صلاة العشاء انتهى . » لقد حدث كل شيء كومض التّماس الذي يسبق انقطاع الكهرباء : ثوان وإذا أم اللولو غائبة .

- ٢ -

كل هذا الوقت وأنا محتم بسعدون وأم اللولو من صورتها . وها هي ذي تعتلي عيني وأفقي . في بدني زوبع خوف شقي ودوّم . وانهمر ظلام كثيف ولظى من التوقعات . فجأة وعيت نفسي فإذا أنا في الشارع ، وإذا أبو زينب يحييني معلناً أنه جاء يقدم الولاء والتبريك : « نحن بيننا بطل ، ولسنا دريانين . إي الدكتور زيدون طار العقل شيته . ولذلك ، وتمسك مني بواجب الجيرة ، حملت حالي لأهنئوك ، أستاذ علوان . فضلك على رأسي كل العمر ، أنا وبنتي . والحارة كلها بأمرك . خلص . أنت صرت منا وفينا . ولا تحسّب إني وحدي ممنون فضلك وشهامتك . الحارة كلها الأبهّات والأمهات ، والصغير والكبير ، وأنا جيت لأنطق بأسماؤهم . »

كانت محاولته الفظة للتحدث بالفصحى مسلية بادىء الأمر وطريفة . لكن انزلاقه الى العامية أثار غثياني . بسرعة قلت له : « عمي أبو زينب ،

بين الذي يضرب بالرصاص ، والذي لا يضرب ، فرق كبير . »

كان كله استعداداً للتلبية : « لايكن لك فكرة ، معلم علوان . أنت بس أأمر . »

« نكتب كتاب زينب على الاستاذ سعدون . »
لم يفاجأ : « الشغلة والله أحلى على قلبي من العسل . شف أنت والمعلم سلطان ، ماذا تقرران وتحكمان ، وأنا خدام ، ومن كل قلبي . »

كان في قلبي خواء ، وفي عقلي . ومرة ثانية أحسست أني برّأت ذمتي تجاه سعدون ، فاعتذرت من الماموث الرخوي ومضيت . مضيت بلا توان . بين لطمتي لنازك وتذكري لغيابها عبر ني نهر عكر . وهأنذا أقف بين البشر ، ألاحق تحركاتهم لأستتر بحضوري على غربتي ، وأبقي وحيداً لأستتر بغربتي على هوان نفسي . كيف حدث هذا الانفجار كله فجأة ؟ أكان ضرورياً ان تبر ز بوجهي فألطمها وبذلك العنف قبل أن أطرد الفلسطينين عن سطح داري .؟

هناك أنواع من الرعب ، فائر ، وصقيعي ، وأحمر ، وداو ، وثعباني . وقد كوبس علي ثلاثة منها أو أربعة . حاولت التخلص منها بالصور . رأيت جبالاً ، ورأيت بينها سهولاً صغيرة ، وجداول يلمع ماؤ ها في ضوء القمر ، ومصبات بعيدة يهجع فوقها الضباب . وأنا هناك ، عابر بين القصب والنسيم والتراب . أتساءل ما معنى كل أنا ، أناي . وما معنى هذا العيش . وما الذي حقاً أسعى إليه . وبأي فعل أو علاقة يمكن لهذا الرعب الفارع ان يتطامن ويسحب أنيابه من قلبي . لماذا كان إطلاق النار سهلاً وآلياً ، وصار الآن حقيقة مفزعة وحملاً مستحيلاً .

قلت لنازك أرجوك . الآن لن نتناقش . سأفترض ، سأقبل كل ما

تقـولين . فقط لي رجاء واحد . انسي كل فكرة عن الثواب والعقاب . حاولي أن تمسكي بمجرد وجودنا معاً . حقيقة الوجود هذه التي لاشيء غيرها .

وكنت أسائل نفسي لماذا فعلت ذلك . هل أخطأت لأني فعلت ذلك . أهذا هو أنا .

في صميم الشـارع ، وكـانت السـاعـة العـاشـرة من ليـل يعبق برائحة النشادر ، وعيت أنها في بيت أبيها . اتجهت الى هناك . للمرة الأولى منذ زمن طويـل تزورهم وحـدهـا . كيف ستكـون الآن ؟ لا شك ان ذلك البرجوازي الصفيق قد أهال عليها تلالاً من التيئيس والتبخيس . وتلك التي يناطح رأسها سحب الأمجـاد العـائليـة قد أمسكت بالدليل القاطع على مآسي الديمقراطية والاختيـار الحـرفي الحب والـزواج . لأن نازك صريحـة ، ولن يمكنها أن تتستر بنجاح على ما حدث . ومن هي بعد كل شيء لتخدع قوماً بلغوا من الخداع عتياً .

كانت مزدهـرة ومشـرقة . وجهها تألق بالبشر وطفح . أسرعت تلطمني بقـدمهـا على ساقي لطـمات مؤنبـة زاجرة . « قلنا تجيء بعد ساعتين ، صرنا بأربع ساعات . اعترف . مع من كنت ؟ » وعقابا لي على تأخري رفضت أن تسمح لأمها بتقديم طعام أوقهوة لي . قالت الأم : « بعد ثلاثة أشهر غياب ، اقعـد خمس دقـائق ! » وأصـرت هي على الخـروج الفـوري : « تريـدين أن يسـرق الحـراميـة جواهـري ورأسـمالي ؟ » ونقشت على انهدام وجنة الأم قبلة وداع متينة واشجة ، ثم التفتت فقبلت يد أبيها ربع الممدودة لهذا الغرض .

عشـر درجـات حجـرية . عندما وصلنا الى باب العمارة كانت نازك قد صارت هي نفسهـا حجـراً . إعجـابي المندهش بموقفها أمام أهلها ، وفرحي المكبر لتجاوزها الأزمة ، تلاشيا كحرارة الصحراء بعد المغيب . كان كل شيء

محسوباً لدرء اشتباه الأبوين . قلت لها ان هذا وحده يكفي . انه يعني حرصاً علينا وإيهاناً بارتباطنا . اننا يجب ان نتمسك بمجرد وجودنا معاً ، مهما يكن .

صامتة . طول الطريق وهي صامتة . شبكت ذراعيها تحت صدرها وسارت ، منصتة ، نعم ، ولكن كأن الحديث يدور حول شحن النفط من فنزويلا الى اليابان .

أمام الدار استبدلنا رحابة الشوارع برهبة الزقاق . كالعادة كانت لمبة أم اللولو هي المصدر الوحيد للضوء في ذلك الهزيع . وكالعادة بدا كل شيء ضبابياً وغير مؤكد للعين . كان الضوء أشبه بذرات الغبار .

في المدخل العاتم سمعت تلك النغمات . طول النصف الثاني من طريق عودتنا لم نتبادل الكلام . والتفتنا الآن بعفوية الى مصدر أنغام تتكلم . كانت مثيرة حقاً . انغام خافتة عذبة من العود ، ازدادت رهافة مع صمت الليل .

تحت السقيفة ، مقابل غرفة أبو حسن ، كانت غرفة غير مسكونة ، وغير ملفتة للانتباه . منها خرجت تلك الأنغام البسيطة الأصيلة . اشرأب بي فضول عات ، فتركت نازك واقفة ومشيت متأرجح الخطى . وصلت الى الباب المفتوح ، وجذعي متقدم على ساقي .

رأيت زيداً واقفاً ، مستند الظهر الى نافذة مسدودة . ورأيت رجلاً أطول منه ، جالساً على طاولة ، محتضناً عوده ويعزف . وفي الغرفة أشياء وحاجيات غاية في البساطة .

وإذن فقد جاءنا ساكن جديد . شعور خاطف بالثقة ، وآخر بالبهجة أكثر رسوخاً . لقد جعلت هذه الدار مكاناً متميزاً في الحارة . وهتف زيد :

« أهلاً أخي علوان . تعال أعرفك بصديقي اللدود خلدون . ما لك ؟ أؤكد لك أنك تنظر الى ابن آدم لا الى بعبع . »

واذن ، هذا هو خلدون . وفاجأني بأن أوقف العود الى جانبه وابتسم . « تفضل ، » ولم يزد . لكن النبرة حملت صدقاً وحيادية . بسرعة حييت ، وقلت إني آت بعد قليل . لحقت بنازك . تبدلت حالتي . انشرح صدري ونفثت احتقاناتي . قلت لنازك ان بوسعي الآن أن أحب كل إنسان ، أحب كل شيء ، أحب حتى هذا الفدم سعدون . « هؤلاء الأوباش كفانا الله شرهم ، والدار يزداد ساكنوها . »

كنا نصعد الدرج . ولعلها انتظرت حتى وصلنا الى البهو كي يصير صوتها الخافت مسموعاً . قريباً جداً من البقعة التي سقطت عليها ، نبرت : « لا تنس أن ضميرك ملطخ بدمهم . »

اجتاحني انفعال هائج . لكن الذهول لجمه . كان الضوء مطفأ . تلاشى كل فرح من قلبي وحب وسلام . قلت بنبرة معاكسة لما في داخلي : « ياعزيزتي ، أنت لا تعرفين ما يقوله هيغل ، لا عليه . أنت امرأة جريحة ، وأنا الذي جرحتك . أنا لا أنكر وحشيتي . لكن أرجوك ، خلينا نتبادل كلمتين . »

كانت قد أشعلت النار تحت المغلاة . طالما أن في الأمر قهوة ، قلت لنفسي ، فغضبها ليس متغلغلاً . تابعت : « هيغل يقول انه ما كان للاسكندر وقيصر ونابليون ان ينشروا الحضارة لو لم تطأ أقدام جيوشهم على الأزهار والأغراس والسنابل . »

دونما حراك ، يدها ممسكة بالمغلاة وعيناها أيضاً ، أجابت ببرود ونبرة خفيضة : « أولئك كانوا قيصر والاسكندر ونابليون . »

هتفت ملذوعاً مثل من سلب حقاً طبيعياً : « لماذا ؟ هؤلاء صحت لهم الفرص فاستجابوا لها . أنا أمضيت عمراً أفحص الطبيعة البشرية وأدرسها .

ليس هناك اناس يولدون قادة ، وناس يولدون مقودين . هذا هو التصور الديمقراطي . ضعيهم في مجرى الحياة الصحيح ، وخذي معجزات . أنا متأكد ان سبب الحيرة والرخاوة في حياتي أنها لم تجر بعد في مجراها الطبيعي . »

« من قبل كنت تتحدث عن لينين وابن خلدون » وتتواضع . الآن تتحدث عن الأباطرة وتلعب معهم كونكان . »

« أنا كان عندي وعي زائف . . »

« وصحوت وقت أطلقت النار على اللاجئين والمعدمين . »

« أنا أطلقت النار على وعيي الزايف . وأنا أعرف ما أقول . طردت الضباب والأوهام والمثاليات . أنا من يوم سكنت الحارة بدأت فيّ صدمة وعي . »

« خلاصة الكلام . رح الآن الى أم عبودة ، اعتذر لها ، وادفع التعويضات اللازمة . أظن انك حققت غرضك ، ومنعتهم من الطلعة للسطح . لكن طريق العداوة والدم ، أنا لا أمشي عليه . »

أوشكت أن أقول إن أم عبودة جاءت وإني طردتها . لكني قلت بدلاً من ذلك : « أنا كنت أدافع عن وجودي وكياني . وكنت أدافع عنهم هم . أحميهم من شرهم . إذا تركوا لأهوائهم خربوا كل شيء وصاروا مجرد حيوانات . هؤلاء بحاجة الى يد قوية فوق رؤوسهم . إذا لم يتحرشوا بي من الآن فصاعداً ، فأنا لن أمسهم بسوء . أنا أخذت المسدس بحضورك . ويومها لم تقولي شيئاً . . »

« أنـا أخطأت ، الحمى التي وضعتهـا أم اللولو في رأسي وهي تجلب لنا الغـرض بعـد الغرض ، خلتني أقول ، وما له ، مسدس لا يضر . كل الناس تحمـل مسـدسـات . لكن ما كان في بالي أنـك تعمـل به قبضـاي في الحارة .

علوان ، أنـا أحببتـك وتزوجتك ، على أساس أنك واحد عادي . قيمتك في كونـك هذا الـواحـد العـادي الـذي يقـدر أن ينـدمـج مع أكبر عدد ممكن من النـاس . ويجـد إنسـانيته معهم . لا في الدوس على لحمهم وعلى النباتات .

وبتـوجيـه سافـر ، أومستـتر ، من أم اللولو . علوان ، أنا أدافع عن حياتنا .

عنـك أنت ، قبـل كل شيء . أنت ضربتني بعمـرك مرتـين . أول مرة كانت لأسباب معاكسة تماماً للمرة الثانية . ماذا كان يتغير فيك طول هذه المدة وأنا لا أعـرفـه ؟ شيء فظيـع حتماً ، ما دام وصل الأمر حد إطلاق النار . ماذا فعلت فيك هذه الشقراء الغريبة ؟ »

كانت قد وضعت فنجـاني القهـوة على الطـاولـة بيـدين مضطـربتين . جلست على الكرسي الهزاز ، وتناولت فنجاناً فرشفت منه .

« نازك . لا تحاولي أن تكـوني ضمـيراً فوق ضميري . وأرجوك افهمي ظروفنا الجديدة . أصلاً هذا الذي ترينه خطأ الآن ، أنت سببه . أنت فتحت عيني على جمال الأشيـاء والمقتنيـات . خليتني أرى سعـادة امتـلاك المـال من الـدكتـور حمد ، وبعـدها رحت تقبلين كل ما تجيء به أم اللولو ، حتى فتحت عيني على العـالم الجميـل الممتـع الذي نبذناه ، وأقول : لماذا لا يكون لي مثل هذا ، ومثل هذا ، ومثل هذا . . . »

« أنا ، قبلت بأشياء من أم اللولو ؛ لكن أنت قبلت بأم اللولو نفسها . »

« لا فرق . ومسيرة الألف ميل تبدأ بخطوة . وأنت أول من مشى هذه الخطوة . »

« أنا ما مشيت في ركاب أم اللولو ، ولا صرت عصا غليظة بيدها . »

قلت : « نازك ، المستقبل جاءنا الآن . الفرص والانجازات . صدقيني ، المواقف السلبية المتشنجة ، بعمرها ما أنجزت غير الخسارة والتحجر . لا تنعبطي بشعارات التجارة السياسية في المآسي وأصحاب المآسي ، واللاجئين الذين صاروا أغنى من أصحاب الوطن . هذه الخواطر الفقروية يانازك ، لا تخرج الزير من البير . رومنتيكية النشادر وثاني أوكسيد الكربون هذه ، فقط تقتل أصحابها . أن يكون الانسان شيئاً ، ويحس بحياته فعلاً ، هذا موجود في مكان آخر . »

هوّمت على وجهها اضطرابة ، مثل من أوشكت على البكاء . صمتت قليلاً ، وأنا أتمعنها طلباً للرأي أو للموافقة على كلامي . وإذ تماسكت خرج صوتها خفيضاً راعشاً : « علوان ، أرجوك لا تزدني يأساً . هذا الطريق طريق المغامرة والعنف . لا يخطر لك أني سأمشي عليه بأي حال من الأحوال . »

« تتكلمين بلغة الإشارات العنيفة . »

« أحاول التخفيف من أثار الصدمة . »

« الى هذا الحد نحن مختلفان ؟ هؤلاء المراهقون كانوا سيخربون كل شيء . تسمين حركتي الدفاعية صدمة ؟ »

« هذه نعم . لكن أنا أتكلم عن صدمة بيتنا الاشتراكي . الآن كل شيء انهار . الأبنية التي رفعوها كلها مغشوشة . غش في الاسمنت . غش في الحديد . غش في البورسلان . حتى في مساحات البيوت . »

« لا أفهم ! اسمنت وحديد وبورسلان ! »

« يعني بدل أن يكـون في صبـة الاسمنت عشـرة أكيـاس ، يضعـون ثمانية . وبدل ان يكون ثخن قضيب الحديد ١٦ مم يكون ثخنه ١٢ . وبدل البـورسـلان الجيـد يلصقـون الـرديء . وبعدها يقولون لك : خذ ، هذا هو بيتك الاشتراكي . »

« كل هذا الغش ، ولا أحد يشوف ! »

« ومتى شفت أنت ؟ متى شفت ؟ »

قلت ضابطاً أعصابي : « مهما يكن ، أنا سعيد لأنك هادئة . . »

« الحقيقة أنا لا أعرف ، هو صبر وقوة نفس أو يأس فظيع . »

كان واضحاً أن الكلام بات عبئاً عليها . لذلك اقتربت منها واستندت بمـرفقي على إطـار الشبـاك : « لاشيء يستدعي القلق يانازك . سيكون لنا بيت مثـل القصـر . الآن بعـد أن انقشع وعيي الزائف بهذه الحارة وسكانها . سترين ماذا سيفعـل علوان . لكن أنـا أريـد أولاً أن تسـامحيني . ولنبـدأ من جديد . الحقيقة أنا كنت في حالة شبيهة بحالة الولادة . تتراكم في نفسي منذ حللنـا في هذه الحـارة . كانت الـولادة صعبـة حتى أني كنت في شبه غيبوبة . وجئت انت ، الله يسامحك واعترضت طريقي . كنت في لحظة صراع لا تقبل وجود أحد ، خلّيك من تدخله . على كل حال ـ سامحيني . »

لم تلتفت إلي . من تحت نظـرتي عبرت نظـرتها نحو الباحة : « إذا كان جرحك لواحد منهم أعطاك كل هالقوة والثقة ، ويمكن شعور البطولة ؛ كيف إذا قتلت . . اثنين ، أو عشرة . »

كانت قفلة صاعقـة . سال طعم المـرارة في حلقي . أنـا الـذي أقبلت

على الحيـاة كرمى لوجـود نازك . ونـاضلت الجـرذان والجـراد والنمل لأوفر لها الراحة . صرت أنا المدان وهم المظلومين .

ومـع ذلـك لم تبـال : « لأجـل أن تردم هذه الهـوة التي عملتَهـا اليوم ، اذهب واعتـذر وصـالحهم . أنا شفت أم عبودة . والا ستبقى هذه الهوة بيننا .
الذي فعلته أنت لا يمحوه سحري أنا عنه . وإذا لم تتراجع عنه أوصلك الى الهاوية . ودمّر كل علاقاتنا . »

ذلك الليل ودندنات العود تتسلل في أعرافه الرطبة ، وشخير أبي حسن بعد ممارسة الحب يوشك أن يوقظ سعدونَ من نومه ، اتكأ علوان على الضلع الخشبي للجـدار الـزجـاجي ، وتـرك عينيـه تستقـران على مسـافـة مبهمة في الفضـاء . مع آخـر الكلمات نهضت نازك ، بخفـة ولكن بلا عجـل . وبعـد حوالي دقيقة كانت تتلفع ملحفة وتسلم عينيها للنوم . ولبث هو في مكانه مفرغ النفس بسبب انسحابها . أحس بثخونة مزعجة في جيب بنطاله الخلفي . مد يده وتلمس . إنه دفتر الشيكات .

أراد أن يهبط الى غرفة خلدون ليجتمع بهذين الكائنين المتميزين أولا ، اللذين أخافا أبا زينب بتأثيرهما على أجمل فتاة تشاهدها العين ؛ ولتفهم نازك أن صدودها لن يركعه ، ثانياً . لم يتحرك . أوقفه شعور بالذنب لم يستطع أن يعيـه لأنـه لم يرد الاعـتراف به ، ولم يستطع تغييبه خشية أن تألف قدماه الوطء على هذا النوع من الأزهار .

سوى أنه وهو الأضيق من أن يستع لفضاء مشاعره المتناقضة ، ما لبث أن حسم الموقف بأن لطم قسماً منها واحتضن آخر . وهكذا ، وفيما عين عميقة فيـه تغمض عن نازك لهذا السبب المـدعى أوذاك ، انفتحت عين أخرى على الرجلين اللذين وعدهما بالمجيء .

أراد أن يكون مجاملاً ولطيفاً ، فلا تنكشف سخريته بهما وتحرجه . أعد ملء مغلاة من القهوة ، وهبط . تقدم بثقة فرحة ، ضاعفها أن ترحيبهما به سيزداد حتماً لمجرد رؤيتهما للمغلاة ، التي حرص على أن تتقدمه . إنه عبر هذه الأريحية سيؤكد احترامه وعلوه .

ابتسم الرجلان للقهوة . لكن ترحيبهما بها جاء أقل من المطلوب . وفي نفس علوان صعد حجم من الغيظ ليحل محل الفرح المفقود . ثم انتفض مغزى المغلاة وتلاشى عندما سأله خلدون عقب تجديد التعارف : « أنت الذي أطلقت النار ؟ »

خرج السؤال بتركيز شديد وبلا فرح . وكان يوحي بأسئلة لاحقة . لم يجب علوان . ابتسم ابتسامة ساخرة . ياله من سؤال ذكي . ومن غير علوان يمكن أن يطلق النار . ورغم أنه أحس لأول مرة بعياء هذا اليوم الطويل ، فقد حرص في تعمده الجلوس على البساط الخشن أن يظهر جذره الشعبي البسيط ، وينفي جذره المتعب المنكمش .

« أرى أن الجواب صعب عليك ياأخ علوان . » نبر خلدون مبتسماً .

« الأجوبة المعروفة ، دائماً صعبة ياعزيزي . »

« أفهم من هذا أن غوايات أم اللولو قوية قوة غير عادية . »

« لا ، لا تفهم ياعزيزي . المسألة بسيطة جداً . بدلاً من أن يتشرد هؤلاء تماماً بسبب روحهم التدميرية ، أنا حميتهم من ذاتهم . أنا نشأت في حارة مثل حارتهم ، وأفهمهم تماماً . هؤلاء لا بد من لجمهم لكي لا يدمروا أنفسهم . وغيرهم . »

« أفهم من ضرورة لجمهم هذه ، أنك لا يمكن ان تنظر اليهم

ككائنات بشرية . »

من جديد ابتسم علوان ابتسامة ساخرة . أحس انه افحم خلدون ، وبالتالي فلا داعي لمزيد من الحوار . وسرعان ماابتدر حديثاً مع زيد ، متسائلاً بمرح لم يرفض أن ينادى « دكتور » مع أنها رفعة نالها بجدارة .

« لأن غيري نالها بلا جدارة ، » قال زيد بابتهاج أراده أن يكسر جفاء اللقاء بين جليسيه . « لأن زملائي وأحباب قلبي أساتذة الجامعة ، في الأعم الأغلب ، أكثر فئات المجتمع رجعية وتخلفاً وانتهازية ورخصاً ، وانهياراً أخلاقياً ، واستمناء فكرياً . »

« يا أخي طوّل بالك ! هذه جرعة ضخمة ! اشرب القهوة أولاً . »

« ضخمة ؟ ماذا تقول فيهم ، الذين يلبسون أفخم البدلات وأحذيتهم مرايا ، بينما سراويلهم خمّاء نتنة من احتلاماتهم الليلية ؟ وماذا تقول فيهم ، الذين يسمسرون لسياسيي البلد وضباط مخابراتها ليحصلوا على شقة من شقق الدولة بصورة استثنائية ، أوتفرز لهم ٥٠٤ أو ١٣١ مع بطاقات بنزينها ؟ وماذا تقول فيهم ، الذين يسرقون مؤلفات غيرهم ومترجماتهم ، ويضعون أسماءهم عليها ؟ لكن يجب أن تجلس معهم في مجالسهم الخاصة . هل سمعت أحاديثهم ؟ هي يا عزيزي إما ترميزات جنسية سفيهة يضحكون لها بنشوة وتكشف عن انحطاط عاطفي وكبت عصابي مديد ، وإما شكاوى ممغوصة من عدم تطويبهم زعماء فكريين حضاريين ، وإما آخر الأخبار عن أرباح رأس المال الطفيلي في العقارات والأراضي ، وإما شجارات تافهة لأسباب أتفه . »

كان خلدون منصتاً ، ولكن بهدوء وانصراف ، شأن من لم تفاجئه هذه البيانات الراعدة . واسترد علوان مزيداً من القوة . بل إنه انتعش الآن لأنه لم

يحفل بالرد على سؤال خلدون . ومضى يسأل : «الذي أسمعه عن الأخ خلدون ، يجعلني أستغرب كيف يلتقي ماركسي مثله بفرويدي مثلك يادكتور . »

تلقف خلدون الرد : « استغرابك يثير استغرابي ، ياعزيزي . لأنه لو أمسك الماركسيون بفرويد وقالوا للرأسماليين ، انظروا في هذه المرآة الى ما صنعته الملكية الفردية بالطبيعة الانسانية ، لاختصروا المسافة الى الثورة اختصاراً كبيراً . »

هتف زيد بوجه رصين : « وفوق هذا ، وجودي مع خلدون ضروري ليمسك نفسه في الوقت المناسب ويعرف ما إذا كان سلوكه منبثقاً عن إيمانه بالثورة والصراع الاجتماعي أم عن عقد نفسية فرويدية ونزعات يونغية . »

أحس علوان بمزيد من القوة ، وقد رأى في كلام جليسيه تعتعة فكرية وتمرناً على الجمل المفيدة . وضع ساقاً على ساق ، وأثبت نظرته على بقعة في الغرفة شأن من يمهد للتفوه بأفكار دقيقة هامة : « الآن ، لا يوجد أي أفق لثورة منتصرة على الامبريالية . المسألة مسألة تراكمات يجب أولاً أن يتراكم في النفوس وعي مضاد كالمصل لعصر الملكية الفردية . يتراكم ويتراكم حتى يصير مستحيلاً على البشر أن يمشوا خطوة واحدة على طريق إنسانيتهم إذا لم يضعوا نهاية فورية لعصر الملكية الفردية . الامبريالية ، وهي أعظم تعبير عن الملكية الفردية ، تنتصر علينا لأن نفوسنا ملك لها ـ مازالت مجبولة بحس الملكية هذا . تتسلل إلينا وتصوغنا على نمطها الاستهلاكي التنافسي ، لذلك تتساقط أجيالنا واحداً بعد الآخر . ولا بد أن تتساقط ، لأننا لم نيأس من الملكية الفردية ، لم نؤمن أن بقاء إنسانيتنا مرهون بخلع هذا الحس . »

كانت لفظتا « كلام فارغ ! » اللتان هتف بهما خلدون أقوى مما توقعه

علوان . بل كانتا عكس ما توقعه ، بعد العبارات البليغة والرؤ ية المستقبلية التي فاجأ بها حتى نفسه . إن تعليقاً من هذا النوع هو بكل بساطة أخرق ومدع .

لم يمهله خلدون : « هذا هو كلام الكنيسة الشيوعية . ماركس تكلم عن الحتمية التاريخية ؛ لم يتكلم عن القدرية التاريخية . لكن لأن يسارية هذه المنطقة من العالم بنت حرام ولدت من تلاقح الماركسية بالعقل الديني ، تحولت الرؤ ية الجدلية الى رؤ ية سكونية ودين . الناس هم الذين يقومون بالثورة ؛ وليس أن الثورة تقوم بهم . طبعاً هناك لحظة ثورية . لكن انتظارها هو انتظار غودو . يجب أن تحترق أنت ، ولو بغير جدوى مباشرة ، لكي يتعلم الآخرون كيف يضرمون النار . خلع حس الملكية الفردية ؟ يكون بالممارسة لا بالخطابات والانتظار . من المسؤ ول عن تثوير التراكم ؟ القهر الرأسمالي فقط ، أو الفاعلية الثورية ؟ ألف سنة والتراكم يتراكم في بيزنطة . ألف سنة . ولم تقم ثورة . قامت الامبراطورية العربية وانهارت والتراكم يتراكم في بيزنطة ، ولم تقم ثورة . جاء محمد الفاتح ، وأنهى عصر غودو البيزنطي ، بجيش آسيوي ، ثوريته بمفهومنا تساوي فلسين . والآن ، أنت تريد من الامبريالية ان تقضي على نفسها بنفسها ؟ تريدها ان تتخلى عن وعيها الذاتي ، وديناميكية تصحيحها لمساراتها ، وصهرها لطبقاتها العاملة في بنيتها الرأسمالية ؛ مقابل انتظارك ، وبحثك عن القبر الذي تحفره لنفسها ، وترقبك لنزولها في هذا القبر بمحض اختيارها ؟ هذه الماركسية ياعزيزي ، تَدَرْوُش وصوفية . الماركسية ديناميكية وتفاعل ، لا مقولات مؤبدة ومنظورات مثلجة صالحة لكل زمان ومكان ، وتفاؤ ليات تخديرية . وإذا لم تفهم وتعش هكذا ، ستنتكب البشرية بمأساة سيطرة دين جديد قام على معاداة الدين ، وسيأخذ من عمرها ألف ، ألفين سنة قبل أن تخلع أرديته . »

انطلقت من أعين زيد وخلدون نظرتان والتفتا . ابتسم خلدون : « ها ! بدأت عقدي النفسية تتكلم ؟ »

هز زيد رأسه بضيق : « لا ، لا ، » وصمت . ابتسم بسخرية وإشفاق . ومثل من يضيق بعبء اللغة ، لطم بسبابته أنفه وقال : « ياجماعة ، لا تؤاخذوني ، لكن تتكلمون وكأن العالم ملككم . كأن مجالكم هو العالم وليس الحارة ، الزمن كله وليس هذا اليوم . الفرد البشري محدود ، وإمكاناته محدودة . محدود بشرطيه الاجتماعي والاقتصادي ، وبحواسه ودماغه . معرفته بالعالم وبنفسه تأتيه عبر هذه الحواس التي لا يركن الى تلقياتها ، وعبر هذا الدماغ الذي يعمل كوكيل للدوافع الغريزية الأعمق ولاعادة انتاج الأنماط الثقافية لجماعته . وأنتم خربتم الدنيا بالايديولوجيا والأفكار . جميل أن يعانق الانسان قضية كبرى ، ولكن ليس لأجل انتفاخات نرجسية أو مواقف كيشوتية . أنتم تزيدون من محدودية الفرد باعتناقكم للايديولوجيات والنظريات . أين الرؤى في حياتكم ؟ أين العوالم الأخرى ، الأوسع والأمدى والأعمق ؟ هل صعدتمُ يوماً خارج حواسكم واكتشفتم مساحة أخرى غير هذا المنزل التافه الذي جرك الى اطلاق النار ، وهذا الزقاق الأتفه الذي يجرك الى الضيق والعزلة ، وغير هذه المدينة القحبة التي تجرك الى الغربة والضياع ؟ حاولوا تفكيك الحدود الآمنة لعقولكم . أزيحوا الأسيجة من حولها لتتسع لنوع من الكشف ، لرؤ يا مختلفة ، لأحاسيس لا يمكن ان تظفر بها حواسكم المستهلكة . أم أن أهم شيء الآن هو تزويج زينب لخلدون ، أو الإعجاب بأم اللولو ، أو دراسة شخصية سلطان وأم عبودة ؟ »

أحس علوان بمزيد من التعب . لم يعط خطاب زيد الماسّ خلدون أفضلية خاصة ، لكنه بث حساً مبهماً بالخطر . وخشية أن يبدو قليلاً أو صغيراً ، فقد تلحلح في جلسته والتفت الى زيد كمن لم يعد شيء آخر يهمه :

« هل قلت : تزويج زينب لخلدون ؟ لم يبق أحد إلا ويريد أن يتزوج زينب ! »

قال زيد متخففاً : « زينب تعيش الآن إحباطاً نموذجياً . المناضل سعدون لقنها كل الأفكار ، ورفض أن يمشي خطوة واحدة ، ليخلصها من موت بيئتها . وأخونا خلدون يكوبس عليها بمشاريعه وحيرته في مسائل الغرام . مشكلته أنه جاء بعد غيره . وهي تخاف من الغرام الثوري وتعشقه . تخاف اذا قالت لسعدون : كش مات ، ان تكون قليلة الوفاء وغير جديرة بالحب . شغلة فائتة ببعضها . »

« والأخ خلدون جاء يسكن هنا ، ليكون قريباً من زينب ؟ »

لقد تعمد ذكر هذه الكلمة الازدرائية ، « الأخ » ، لكي يفهم خلدون أن هجومه اللغوي زيد يذهب جفاء . وأجاب خلدون بابتسامة حقيقية مرحة : « الأخ خلدون جاء يسكن هنا ليكون قريباً من أم عبودة . مادام الأمر وصل حد إطلاق الرصاص . »

قال علوان بسخرية ودودة : « يعني أنت ستناضل جنباً إلى جنب مع الفقرويين . »

أجاب خلدون بمرح الظافر الواثق من تفوقه العقلي : « نعم . وسأريك كيف أن هؤلاء الفقرويين يستطيعون أن يوقفوا أم اللولو عند حدها ، بدلاً من أن يصيروا خدماً لها ، أو سكان جحور كالفئران . »

تساءل علوان بجدية متهكمة : « يوقفوها عند حدها ، يعني يحتلوا القصر مثلاً ، ويطردوها من الحارة ؟ »

أجاب خلدون بغموض من أحس أنه تكلم أكثر مما ينبغي : « كل

شيء جائـز . المهم ، نحن أبنـاء هذه الحـارة ، ولن يخرجنا منها أحد . ونحن سنحبط المشروع السياحي . »

تمتم علوان بسخرية باسمة : « أنا شايف ، كلنا أبناء هذه الحارة . »

« هنـاك أبنـاء وأبنـاء . لكن يجب أن تعـرف أنـه إذا نجـح مشـروع أم اللولـو ، تشـرد ثلاثـة أرباع عائلات هذه الحارة . ويجب أن تعرف أنه لولا مني لكنت حضـــرتـك في السجن الآن . لأني أقنعت أم عبـودة وأبـو يوسف أن لا يشتكـوا عليـك الى الشـرطة . اطلاق النار ، ومن مسدس غير مرخص . زنها بعقلك . هؤلاء ، برغم تجريـح الفقـر والظلم لانسـانيتهم ، مازالـوا قادرين على الخير . »

« وأي دافع انساني نبيل دفعك الى هذا الاقناع ؟ »

« سيأتيك الجواب من تلقاء نفسه . لكن ليس الآن ؛ يوم تعي موقعك ومعناك ، ويوم تفارقك هذه السخرية المتعالية . »

وفجأة انتقل الى موضوع غير منتظر : « كلكم ضد هؤلاء . العالم كله ضدهم . ترفضونهم لأنهم شريرون ، مفسدون ، يتسببون في الخوف والأذى والكراهية . لا أحد منكم يراهم ضحايا . مكسيم غوركي يقول عنهم : كانوا بشـراً . وأنـتـم ترفضـــون أن تروا السبب . لكن من كان منكم بلا خطيئـة فليرمهم بحجر . لا أحد يفكر أن الجوع ليس فقط خواء المعدة ، وإنما تخريب العقـل والـوجـدان أيضـاً . تريدونهم أن يكونوا أسوياء ، مهذبين ، وعندهم حس بالنكتة أيضاً ، لكي تتعاطفوا مع عذابهم وجوعهم وذلهم ، وإنسانيتهم المهـدورة . ولكن ، قل لي ، إذا كانـوا أسوياء كما تريدونهم ، فكيف ينهضون للدفاع عن حقوقهم الطبيعية ضد هذه الرأسمالية الجشعة أم اللولو ؟ »

« غريب . ما يدهشني حقاً أنك وسعدون تعتقدان ان هذا الزقاق الواحد هو العالم . »

« طبعاً . كل فهم غير هذا الفهم لحياة الناس اليومية في أبعد نقطة من العالم ، قاصر ، وحتى غبي . يجب ان نسأل : ما هو هذا العالم ؟ ما حجم انسانيته ؟ ما معنى وجدوى جهده البشري ؟ لكن الفرق أن سعدون يمالىء أم اللولو . أنا أريد تحطيمها . »

« من يسمع كلامك يظن أنك ستصنع جيشاً من أولاد أم عبودة وتهجم بهم على أم اللولو . »

فاتت السخرية خلدون ، ربما لأن الكلام كان قراءة صحيحة لخلجات وعيه . هتف : « المصيبة أنهم لا يعرفون كيف يحاربونها . لاشيء غير التشهير بها ، وإدانتها ، أخلاقياً وضميرياً ، وإثبات جرائمها . كأنهم بهذا سيستردون حقوقهم . »

ثم غيّر تدخل زيد كل شيء : خلدون باحث عن بطولة ، ويظن أنه سيحرزها عبر تدخله في مصائر الناس ؛ وعلوان باحث عن معنى لنفسه وحياته ، ويظن أنه واجدهما في المغامرة والامتلاك .

قال علوان بجلال وعمق : « أنا معك . أنا شخصياً منشغل بتساؤلات كبرى حول المعاني ، وخاصة حول الطبيعة البشرية . أي سر مستغلق هذه الطبيعة ! أظن ، أعمق شيء ملموس فيها هو حس الملكية الفردية . »

لم يرد زيد أن يمنع نفسه عن الكلام . قال : « لا ياعزيزي . ليس في الطبيعة البشرية سر مستغلق . هذا تفكير طوطمي . بالاضافة الى ماأثبته

فرويـد حول البنيـة الجـدليـة للطبيعـة البشـريـة ، ناسفـاً بذلـك كل سريتها الصـوفيـة ، هنـاك أربعـة أقـانيم كبرى تتحـرك فيها هذه الطبيعة . النصف الآخـر ، الـذي هو المصالحة والتعايش مع الآخر . هذه تجسدت في قصة عنتر وعبلة ، وقيس وليلى وغـيرهـا . ثم الرحم البديل ، محاولة العودة الى سعادة التكوين الأولى ، ليس فقط في رحم الأم وإنما في رحم العالم . وهذا ما تلمسه في الأوديسـة ، وبـالنسبـة لحياتنا هنا ، في سلطان وأم اللولو . أم اللولوليست زوجة لسلطان ، بل رحم كوني له ـ وقد تكون لغيره . وهناك ملك القبيلة ، الأب ، الإلـه ، الشمس ، الـذي يضبـط الكـون والحياة ويجمّلها . وهذا هو أساس الديانات كلها تقريباً . وهناك حلم الثورة الشيوعية ، حلم العودة الى الفطرة الأولى السابقة للاستبدادين الآسيوي والاقتصادي . »

كان خلدون ينتظـر لحظـة وقـوف ، وللتـو انطلق عندها : « لاتنس ان تضيف ياعـزيـزي ، ان هذه الانـماط الكـبرى نتاج صراعات كبرى في الحياة البشرية . الصراعات الكبرى التي نجمت وتنجم عن عصر الملكية الفردية . »

ثم بدأت المصطلحـات ، مشـوبة بسخرية زيدونية وتصلب خلدوني . أحس علوان بكـل شيء يبـوخ ، ونهض باشمئـزاز مترفع ، فودع وخرج تاركاً جليسيه لنقاشاتهما العقيمة . لم تأته الأفكار حتى وصل البهو . كان التعب قد فارقـه قليـلاً ، وجسـده قد تصلب وحـرن . وبسهولة تامة تناوبت ذهنه صور مثيرة لنازك وأم اللولو . وكان في ذلك الليل غير عابىء بالتمييز الشبقي بينهما .

انتبه الى النسيج المتنافر ألواناً هامدة والمتقاطع ضوءاً وظلمة ، والذي هو الليـــل . كان جسم نازك يلمـــع تحت الضـــوء المجهـول ، واضحـاً تمامـاً ، وضبابياً ، ومثنى ومثلثاً ، منحسر الثوب عن التكوينات الأساسية التي لا تفقد سحرها ، ينضح حياة ونوماً وعافية وطفولة .

أصحيح أن رغبة التملك قد تملكته ؟

إن له حقاً في هذا الجسد ، يتلمسه فيسقي بحقائقه العضوية مزارع النشوة والخيال .

هناك إلى اليمين ، على الدرج الطالع نحو السطح ، كانت أم اللولو تنتظر خياله . إذا كان حس الملكية هذا الشركله ، فكيف يفسر حبه لنازك ، علاقته بها ؟ وجفلت عيناه عن نازك فامتشقتا جسد أم اللولو الساحق في تلك الزنقة الصاعدة . لقد كان ينضح حمى وزمناً وخميرة ، وينفر التفافاً . فجأة وإذا ذلك الهدوء صخب وهدير ، وذلك الجلال انفتاحة واستباحات .

حاول أن يتذكر ما قالته له عن فاوست ، واللحظة الحضارية التي جعلته يكتب « في البدء كان الفعل . » وعبر رأسه وعي خافت أن هذه المستويات الآفقة ليست له . سوى أن ابتسامة بطيئة وراسخة انتشرت في فمه وعينيه ، وهو يدرك بوضوح متزايد أن النار التي اشتعلت داخل جسدها في تلك الزنقة الصاعدة ، كانت هي النار التي انطلقت من مسدسه . لقد بدأ فعل شجاع عمراً جديداً قبيل ذلك الغروب .

ترك جو غرفة النوم المخلخل بالضوء والظلام . عاد الى البهو المتناسق العتم . صحيح أن بيته الاشتراكي صار الآن في مهب الريح . لكن هذه الريح لن تستطيع أن تعصف به هو : فاوست القادم من غياهب العالم الثالث .

ارتخى على الكرسي الهزاز ، ثم سرعان ما نهض . عاد الى عتبة الغرفة يتأمل خد نازك المتلملم على الوسادة ، وانفراج شفتيها المدور ـ كأن ينبوعاً كان هنا لكن مياهه انقطعت . بل : نضبت . أوكان أعمى فلم ينتبه الى هاتين الساقين النحيلتين ؟

إن جسـد أم اللولـو يحبـه . متعطش إليه ، هو القوة الأرضية الدافقة . ذلك الجسد الناري ، المكتمل ، المصاغ كما لو كان بحاسب الكتر وني . لقد انفرك هذا المساء على جسده ، بحوض هو الأمازون ، وسحر هو إعادة الخلق .

تمطى في علوان حس منتش بالقوة . هو قوي . قوي حتى ليجهر أمام نفسـه بأن مكـابـح قديمـة قد أفلتت من عقـال وجـدانـه ، وأن نفسه صارت مساقط لشلالات هادرة ، وأن ما بينه وأم اللولو صفقة وجود سعيدة .

لكن جسـده صلب ومشحـون . ونازك التي انقلبت على ظهرها وانفرد ذراعـاهـا ، لطمت عينيـه بانحسار الثوب عن تلك الرامة الناضجة الناضرة . وهو أيضاً لم يلمس جسد أم اللولو بعد . ولا يعرف كيف يشعر تجاه بيته الموشك على الضيـاع . ولا يطيق هذا التـداخل الباهظ للضوء والعتمة . ولا يستطيع تنفيث هذا الاحتقان ، ونازك ترفضه . وجسده يرفض أن ينام .

لكنـه أحس أنـه قوي ، أنـه سيستعيد نازك مهما كلف الأمر ، ويمتلك هذا الجسد .

جرفه سيل لم يستطع أن يعيه لأنه لم يشأ الاعتراف به : في ثوان كان قد دخل الحمام : أقفل بابه : وفي ذلك المكان المطلق الظلام راح يجلد عميرة .

- ٣ -

[تقرير :

قالت زينب إن الكـارثـة على وشـك أن تقـع ، وإنـه لم يعـد ثمة وقت للانتظـار . وقـال سعـدون إن شيئـاً لم يتغير ، وإن الظروف الموضوعية لم تتهيأ

بعـد في سيـاقهـا الكـلي . وفوق هذا فإن الظروف الموضوعية بينهما ، كإنسانين متحابين مصممين على الإخلاص والتضحية لم تنضج بعد . إن بيئتها ما تزال راسخـة فيهـا ، بكل معطياتها الرجعية والتخلفية ومعياريتها التجارية . وذلك هو التهـديـد الأكبر لأية حياة زوجية . قاطعته زينب ولكن دون كلام . بجرأة تركت فمـه فاغـراً ، امتـدت يدهـا الى كتفهـا فأزاحت الفستـان كاشفـة عن الخطوط الزرقاء التي تركتها على أديمه البض عصا أبي زينب . وكان بوسعها أن تريـه في أمـاكن أخـرى قنوات وليس مجرد خطوط ، لولا الأعين المنتشرة هنا وهنـاك . أيـة ظروف موضـوعيـة ينتظـر ، وأي نضـج يريـد ، والعصا تنضج اللحم ؟ وسكنت على المقعد بلا حراك ، سوى عينيها اللتين أرسلتا موجات كثيفة متصلة ، لتغمر وجه سعدون المطرق المتفكر الحزين .

تحرك أبـو خليـل وفـرد إليـة شروالـه التي تكـومت تحتـه فجعلت الكنبة الجلدية مجلساً مزعجاً لإليته هو : « الله ، الله ، يا علوان ! والله طلع منك .

إي ، سيدي ، » قال لسلطان المنكب فوق أوراقه ، « محسوبك زبون قديم ، وخـادم على طول . الشـروة صارت تستاهل . بعد ما هالبناديق انضبّوا . أنا اشتر يت من قبل ترابية دار أم يسير . وهالوقت بودي الأرض نفسها ، اعمل فوقها كم طابق ، مقابل قصر السياحة . »

وضـع سلطـان القلم في غمده على الطاولة ، وكذلك الحاسبة الآلية .

كان منظـره غريبـاً . شيء من الجهامة . نظارة بصرية . بدلة فاخرة ، وربطة عنق باهرة . « دار أم يسير لا تقرب لها . هذه قلب المخطط في رأي أم اللولو .

بقيـة الـدور ، لا نعـرف كيف ستستقر الأسعار . والبركة بهمة أخينا علوان . الآن الأسعار طالعة مثل النار . »

وكـانت الصـور تقرع جبينها . متقطعة وأنصاف صور . أصوات وهرير وصرخة . ثم يوسف يسقط في صحن الدار ، أصابعه تكمم الجرح في كتفه ، وعينـاه تسقطـان في غيـابـة محجـريهما . والآن ، هذا الهدوء المكفهر . الجميع صامتـون . الجميـع موجودون غائبون . إنها تتحرك في الدار ، وكل شيء كما هو معتـاد . ولكن ماذا بشأن هذا الخـوف ؟ إذا فقـد الأولاد سيطـرتهم على أنفسهم ، فقدت سيطرتها عليهم .

همت بصب المـاء من الجـردل على شجرة الياسمين ، فلمحت أبا محي الـدين . كان يمشي بطيئـا كعادته ، منحنياً قليلاً مطأطىء الرأس ، كأنما من خشية الله ، وبيده مسبحة . « أبو محي الدين ! » هتفت والجردل بين يديها . وقف الـرجـل . ابتسم ونظـر اليهـا : « أمـر ، ياأم عبـودة . » لم تغب عنهـا السخرية المهذبة . بسخرية مماثلة أجابت : « قل للمعلم سلطان ، ما شجرة وصلت لعند خالقها ، وقل له يحط هالكلام في مكان مليح من أذنيه . »

كان بائـع المفـرّق قد تطـاول بعينيـه على أم اللولو . عندما أقبلت الى باب شعـوب ، كان السـوق حاشدا . كالعادة حدثت بلبلة شعورية ولغوية . كانت هي ترتـدي جلبـاباً بلدياً سمح لأعضائها بحرية حركة طبيعية . وأحس بائـع المفـرق بالعـدوى تسري في بدنه بحرية مماثلة . لكن عينيه قالتا كلاماً لا تسمح به الحرية .

وهكـذا أطعم لطمتـين وثـلاث من زمـلائـه ، وانهيـاراً في سمعتـه التجـاريـة . وعنـدما وصلت أم اللولو الى دكاكين باعة الجملة ، كان قرار قد اتخذ بمقاطعته . هذه الخيانة المتمثلة في انتهاك مبادىء الشرف والعرض وحرية المـرأة يجب ألا تتكـرر . ويجب أن يفهم كل من تسـول له نفسـه العبث مع أم اللولو ، مستغلاً ديمقراطيتها ، أنه سيضرب بيد من اقتصاد حديدي .

ومـاذا تآمر ست الكـل ؟ خروفـين فقـط ؟ فلتطلب حظـيرة . امش ياولـد . رح لأبي فيض الله ، قل له خمسـة خرفـان لمعلمي . تكـون جاهـزة السـاعـة السـادسة بعد الظهر أمام دار أم يسير ، ومعها السكاكين . الله يحيي القبضايات . سبع رصاصات ضربة واحدة !

هتف موفق بعبارة متذمرة . لكن أبا حسن أصر أن الأمر مفرح ومحزن في وقت واحـد . وفـوق هذا ، يمشي المرء في الزقاق ، في الحارة ، في السوق ، وكأن شيئـاً لم يحدث . ما الـذي أصـاب هؤلاء النـاس ؟ وهتف موفق بعبـارة متذمرة . أليس مفروضاً أن يكون أبوحسن في الشركة ؟ صحيح ، لكن تشاء الصـدف أن يكـون اليـوم عطلة لمناسبـة لا يعرف ما هي . هوفرح لأنه وجد لأولاده مأوى مطمئنـاً ، ويلعبـون في الحـارة ، ولن يهبـط سقف غرفتهم على رؤ وسهم . ولكن ، الرصاص ! ألا يرى موفق أن الأمر خطير ومخيف ؟ أول مرة يصـير في الحـارة إطـلاق نار ، بدل إطـلاق شتائم . وقال موفق : « بابا ! اللي بيتجوز أمي ، بقول له يا عمي ! »

تم تركيب الهاتف وتشغيله في منزل علوان خلال نصف ساعة ، بعد أن اكتشف العاملان أن هناك خطوطاً قديمة في حالة ممتازة .

قال أبو محي الدين إن كل شيء على ما يرام في الدار . الأمن مستتب بفضل الخوف . والنظام كساعة بغ بن بفضل رائحة البارود . كل شيء على ما يرام . وهذه الحمقاء أم عبودة تقول من خبل عقلها ، ما شجرة وصلت لعند خالقها ، وتريد إبلاغ الكلام للمعلم سلطان .

قالت إن أبـاهـا سيـزوجهـا حتـماً . البـارحـة كانا معاً بعد مقابلة أبيها لعلوان. كانت مضطـربـة متلعثمـة ، مطمئنـة وآمنـة . إنهـا تريـد إنقـاذاً ، وخلدون مجبر بها . أين مبـادئـه ؟ ألا يقف مع الضعفـاء والمسلوبـين ؟ إنهـا

زينب ! التي يدللهـا ويضحـك معهـا . ويملؤها بالأمل . وانفجرت باكية . لأول مرة تبكي وهي معه . تقوس جذعها واختفى وجهها بين راحتيها . كانت قريبـة منـه حتى أن شعـرهـا انسدل على راحتيه وركبتيه . انتبه الى غفلته .

نهض نصف نهوض . شد على كتفيهـا . أوحقـاً ، هذا الجـمال كله ، الدمع الحبيب ، بين يديه ؟ نهضت هي . استقاما معاً . غافلته هي أيضاً فاندفعت إليـه وحشـرت رأسهـا في صدره . لم يدر ماذا يفعـل . سوى أنه احتضنها بكل قامتـه الطـويلة ، وتلقى بصدره الكثيف الشعر زفراتها ودمعها . ولحظة رفعت رأسهـا لتتأمـل وجهـه ، وتصـدق ما يحدث ، انشبكت شفتاها وشفتاه في قبلة عمّدت بالحس خلجات النفس .

« إن كنت . . إن كنت ترغبـين . . يعني . . تأكـدي من شعـورك أولاً . إن كنت ترغبـين . . أنـا أمي شركسيـة . . يمكنني أن أخطفـك الى بيت زيـد . . و . . ونضـع أهلك أمـام الأمـر الـواقـع . يمكن . . هذا جنون . لكن الشلال الذي في داخلي . . مستحيل إيقافه . . »

أبـو زينب ليس خائفـاً من سعـدون . لو كان يطلع من هذا خير لأنهى دراستـه . « الخـوف يا معلم ، من رفيق زيـد ، خلدون» لم يبد على سلطان اكـتراث بهذا الخـوف . « أبـو خليـل ، قلت لي ! » أجل ، أبوخليل . تذكر البنت ، وجـاء وراءهـا . مليـون معجـل لأبي زينب ، ومليـونـان مؤجـل ، والاتكـال على الله . لحد الآن ، هذا أعلى مهـر جاءه بالبنت . « يريـد أن يستـدرجني ويـرثني وأنـا على قيـد الحياة . طمعان بالدار . » وقال سلطان :

« هيا معي الى الزقاق . » « وخلدون ؟ » « لا يهمـك مثلما ظهر يختفي . » و « أبـو خليـل ؟ » « لا يهمـك . متى لمح له شخص بنـواياي أنا ، يرينا عرض أكتافه . تعال معي نزور أم عبودة . »

وهذه الحارة مادهاها ، وهذه الوجوه ماأشقاها . فكأنها تتأهب للدخول الأعمى ، في دوامة الحياة الأحمى ، وتنسى راحتها ورضاها . وربك الذي رفعها وسواها ، ما كان لامرىء أن يملك فيها أبدا ، أويكون بعد حين من الدهر أحدا . إنها لغرورولا متاع ، ومهزلة ولا قناع . وفرحة بخسة للجياع . « قطعة الغريبة بليرة يا ابني . ما معك ؟ هات نص ، والرزق على الله . ما معك شيء ! ياولدي ! وجئت تسأل عن الثمن ! تطلب شيئاً مقابل لا شيء ! »

بين يدي أم يسير راحت ترتجف . وكان بوسع العجوز ، التي جربت وشاهدت وعرفت ، التي رأت نفسها في الصبيّة النافرة ، أن تطمئن الى أن خفقات الجسد هذه عرض يحول ويزول . لكن الزرقة العاتمة جعلت تتسلل الى البشرة الشبيهة بالينابيع . لم يبق شك في أن فساداً ما قد دخل في دم الصبية العاثرة . وقبل أن يتسلل الرعب الى قلب أم يسير ، تساءلت أي حب هو الحب في هذا الزمان . لقد تزوجت ست مرات ولم يزرق جلدها إلا من الضرب .

صاحت بعزيزة . وهرعت هذه مأخوذة بذعر الصياح . ثم جاءت نازك لاهثة ومتسائلة . وكانت راحة زينب المتشنجة تمتد الى عنقها كأنها تحاول إزاحة ثقل يخنقها . هتفت نازك : « الدكتور ! الدكتور ! أوخلونا نحملها لبيت أهلها ! » غمغمت أم يسير : « نجيء بآخرتها يابنتي . يذبحها ابوها ويسلم حاله للشرطة . لا سمح الله . » وبدا على زينب كما لو أن رئتيها تحاولان إخراج جسم أجنبي وهو يأبى الخروج . امتدت يدها الى ثوبها فشدت بياقته الى الأمام . انغرزت دائرة الثوب في لحم عنقها الناصع وانفتح فمها على مداه مرسلاً صرخة هائلة ولكن بلا صوت . أعأعة متحشرجة . وإذ جحظت العينان ، وانشق الثوب عند الكتف ، جاءت صرخة من أم يسير : « أم عبودة ! أم عبودة ! »

أصـرت نازك أن تذهب بنفسهـا . حاولت المـرأتـان تهدئـة الجسـد المتضارب ، فدفعهما عنه بقوة لا تصدق . انتفضت زينب . تحررت فحاولت الخـروج . كانت يداهـا ماتـزالان تمزقان ثوبها . التقطتها عزيزة . بين المرأتين نشب عراك مرير . راحت أم يسير تدعو وتبتهل ، وتبسمل وتتعوذ لتطرد الشيطان .

. دخلت أم عبودة لاهثة . وبلا توان صفعت وجه زينب صفعة انفجرت في آذان النسـاء الثـلاث . ومع الصفعة الثانية ، التي أوشك هولها أن يرمي أم يسير نفسها ، هوت زينب على الأرض .

هنـاك وقفت النسـاء الأربـع : سلسلة متصلة الحلقـات منفصلتهـا :

جامـدات بعـد جمود زينب : اعينهن ثابتـات على الفتاة المتكومة : كل واحدة منهن ترى نفسها فيها بطريقة ما ، في مكان ما وتاريخ ما .

دخل ماجد أحد الأزقة المفضية الى الحارة ، قبل ثوان من وصول سيارة المطـاردة . بعـد دكـانـين أو ثلاثـة ، مشى باطمئنـان . وداخـل دكـان بائـع الالكـتر ونيـات أخـرج من داخـل قميصـه ثقلاً هو راديو وعشر ساعات وأربع حاسبـات . وخـلال ثوان وضع في جيبه ثمانمئة ليرة ، وهو يثمن الفرق الكبير بين الثقل والامتلاء .

رغم الهـدوء المستتب في الـدار ، رغم الخلو الثقيـل من أيـة حركـة ، أحـدثت جلبـة سلطـان وامتـلاؤ ه الأريحي هدوءاً أرسـخ وخلواً أكثـف . وكان خليـط من الخفقـان الأصم المتـوقـع شراً مستطـيراً ، والاستنفـار المطلق لكل الخـلايـا والمشـاعر والأفكار . عشرات العيون أرسلت نظراتها نحو بؤ رة واحدة هي سلطـان وأبـوزينب . وكـانـا ما يزالان يصيحـان : « الله ! الله ! » تنبيهاً للنسـاء الغـافـلات . وإذ التقت عينـاه بوجه أم عبودة المدور المغلق ، توقفت

مشيتـه وصيـاحـه . بينهـما بقيت مسـافـة ؛ لكن مزيـداً من الاقـتراب كان مستحيـلاً . وعنـدهـا بدأ سلطـان كلاماً متسلسلاً متزناً كحبات المسبحة التي عبثت يده بها : « نحن من أيـام طويلة جيران . هل في حيـاتي أطلقت على أحـد رصـاصـة ؟ أولادك من يوم يومهم على الأسـاطيـح ، يكشون الحمام ، ويقلقـون راحـة عبـاد الله . هل في حياتي وجهت لهم كلمة واحدة ؟ المشكلة بينـك وبـين الأخ علوان . نحن بريئـون من دم يوسف . والله على ما أقـول شهيد . ونحن ما لنا علاقة بأي شيء يجري في المستقبل . »

لم تتكلم أم عبودة . وكرر أبو زينب المعاني نفسها ، مشدداً على التبرؤ وحسن الجوار . لكنها ظلت صامتة .]

عند الأصيل جاءت الأكباش . وبدا أن منظرها ، وهي تتذافر وتتذاعر هو الـذي جلب هذا الحشـد المتـزايـد من النـاس . لكن ظهـور الطبـل والزمر والمـزاهـر ، أكـد أن فرحـة عامة قد أصابت سكان الحارة ، وأنهم قد استعدوا لها . في آخـر الـزقاق وقف قبضاي عاري الجذع متهيء العضلات . وباتجاهه أطلق أضخم الأكباش وأطولها قرنين . وكأنما في سيرك ، أذهل الكبش الناس بمشية عجيبة . راحت أماميتاه تمشيان خطوة خطوة ، وإذ تحطان على الأرض تثب خلفيتـاه في الجـو وتكمـلان الخطـوة ثم تبـدأ الأمـاميتـان . وبـين الهلع والفضـول الشجـاع راقب النـاس حركتـه المـوسيقيـة الراقصة ، وقد أيقنوا أن عفريتاً واحداً على الأقل يسكنه .

في آخر الزقاق تلقاه القبضاي من قرنيه فأخمد حركته . ويعرض للقوة لا مثيل له ، جره وتجرجر معه الى مدخل دار أم يسير . هناك كان قبضاي آخر ، أكثـر سترة ، يرقص رقصـة الخنجـر ، ويـزيـد ذهـول النـاس بأفانينها . ومذ اصطف الخروف الفنان مع الأربعة الأخرى ، انفرد الراقص بأعين المشاهدين

وجـوارحهم . وكلما ازداد انغـماراً في الـرقص على شفـار الجـرح والدم وتفادياً لهما ، وازداد فحيحـاً وصليـلاً ، أخـذت الخنـاجـر تفلت مزيداً من الشهقات المـروّعـة . ومـرت برهـة من الـدهر استطاع خنجره فيها أن يستل من أعماقهم نزوعـاتهـا البـدائيـة الأضرى ، ويرسمها على الوجوه والأحداق صمماً وتصلباً وازوراراً وتشفياً ووحشية .

عنـدمـا بطحت الخرفـان على الأرض وأخمـدت حركتهـا، كان حشد المتفـرجين يفـوق من تفـرجـوا ذات يوم على أم عبـودة وأولادها . بعد الفحّة الأخـيرة من راقص الخنجـر ، امتـدت السكـاكين الـلافحـة الى الأعنـاق الخرساء . ومع منظر الدم المنبجس كنافورة ، ثم كينبوع ، هبط عن الصدور غم ثقيل . كأن شهوة الدم قد لبيت ، والآلهة المتكرمة قد باركت كلا الرقص والأضاحي .

كان الطبـل والمـزمـار والـدفـوف والمزاهر خيمة أصوات ضربت أوتـادهـا في النفـوس فنشـرتهـا واحتـوتهـا . ثم انطلقت الخيـالات والـرؤ ى والأحـاسيس والصبـوات والجـوع العـريق في فضـاء من الـرضى والهنـاء والسيحان ؛ إذ واكبت بهجة الآذان والقلب بهجة الأعين والأيدي لملامسة كتل اللحم المقتطعة من الذبائح والموزعة على المواطنين .

كلمـة « المـواطنـين » رنت رنينـاً خاصـاً . وكـان موفق هو الـذي كُلف باستعـمالهـا . وقـد كلف أيضـاً بالإشراف على توزيع اللحم . وشاهد تدفق الجمـوع على الأكبـاش المسلوخـة . وانصت للرغبـات المتضـاربـة من ذوي التفضيـل . لم يعـرف من أين جاءتـه القـوة فجأة ، هو المعتـاد على المـراعـاة والمـداراة . صرخ : « يامـواطنـين ! » وذكـرهم بأن المـواطنـة الصـالحـة تعني الانصفـاف بالـدور والالتـزام بالقـانـون . وهكـذا لجم المـواطنـون فوضـاهم وانـدفـاعهم . وبدأ التوزيع فأدركوا قيمة الانضباط والنظام . صحيح أن من

كان حظـه نصف فخـذ ليس كمن كان حظه رقبة . لكن الجميع أخذ . وهذه هي قسمة الرب . وكانوا جوعاً . أخذوا ولم تفتهم فائتة .

إلا يسـير ، الـذي عاد حامـلاً دكـانه الصغير على يده وكتفيه . وعند المـدخـل رجـا البـاقـين ، وعلى رأسهم أبـوزينب ، إزالـة الـدم من المـدخل والزقاق ، بعد أن حقق « الفدو » أغراضه . كان هادئاً تماماً . لذلك خافوا . صرخة واحدة من حلقه وينهار كل شيء .

مع المـاء الـذي سال في الـزقاق جارفاً الدم الى المجاري ، تلاشى آخر الحركت والأصوات واللقاءات .

قال سلطـان إن هنـاك سحراً عظيماً في السلام والاحساس به . أنت لا تستطيع أن ترى نفسك في العالم ، أن تراها وحولك النجوم والقمر ، الا حينما يرتبط سلام هذا العالم بسلامك الداخلي الذي تأسست عليه روحك . ان الله الذي يحرك كل شيء في هذا العالم ، بما فيه المشاعر والأفكار والأحاسيس ، قد خلق نامـوسـاً خاصـاً للعـلاقات بين البشر . انه هو الذي يسبب راحة القلب والعقـل عنـد بعض النـاس وعـذابها عند بعض الناس ، ويوكل مهمة صعبة لأحدهم فيريح بتنفيذها خلائق كثيرة . إن هذا الظهور الكريم الأخ كريم ، وقت طغى وبغى هؤلاء الـرعـاع ، لدليـل على أن العنـايـة الالهية تنظر بعين الرضى والتبريك الى ما يفعله سلطان للحارة . قال إن هناك طمأنينة خاصة في كل هذا ، يراها الذين يرون أنفسهم في عباد الله ، طمأنينة الوجدان الذي لا يخشى في اللهلومة لائم .

وقـال زيـد إن أم اللولـو امبراطورة . أم اللولوغواية للنفس التي تعشق الـريـح والمطر والقمر والزمان . كيان عظيم ، ساتر كقبة السماء . وليست مجرد سطوة للقوة أو صولة للمال ، كما يحاجج خلدون بقصر نظر محزن .

ولست أدري ماذا قال زيد أيضاً . ربما قال كلاماً عن اندهاشه من أن زواج سلطان وأم اللولو لم يتوج بالأولاد . لكني لم أعد أسمعه بتسلسل . وان ظل هويتكلم كأني أتابعه . فقد شب في جسدي حريق . عاد جسدها يضطرم على جسدي ونحن في ذلك البرزخ الموصل الى السماء . رصاصة أطلقتها من مسدسي ، أطلقت أم اللولو من عقالها . الشيء الذي فات زيداً ، هو أن الامبراطورة بحاجة الى فاوست وليس الى الملك الأب الإله . أناس مثلي أنا ، ربما رأوا في سلطان هذا النمط . نحن آسيويون ، ونحب دائماً أن نتقمص الكون . وعندما نعجز عن تقمصه ، نتعبد للذي يستطيع . لكن ، أم اللولو؟ مستحيل . هي تريد فاوست . الفاعل ، المنتقل بلا توقف من شرط الى شرط ، ولحظة الى لحظة ، يسابق كينونته وزمنه . أم اللولو يمكن أن تنجب ولداً مني أنا ، وليس من سلطان . مني أنا ـ ولا خوف على مستقبل طفلنا . ابن الامبراطورة أمبراطور بالضرورة .

قلت لها أي مشروع أبتدر وأنا لا أعرف بوضوح ماذا أفعل . قالت اشتر أرضاً وانتظر الوقت المناسب . المهم أن تعرف متى تشتري ومتى تبيع . والرصيد موجود عندك لكي تبدأ .

قلت لكني أريد أن أفعل . ألا يكفيك أن تكون عشيقي ؛ سألت هي : قلت لأني عشيقك أريد أن أفعل . هل نسيت حديثك عن نيتشه وفاوست ؟ طبعاً لم تنس . وكان صدرها غيمة صلبة فوق صدري وشفتها مندلقة في عيني وفوق فمي . اعتدلت في استلقائها . يمكنك بالتأكيد أن تفعل شيئاً . ابق رؤوس هؤلاء الرعاع تحت حذائك ، وسيكون لنا مشروع حياة ضخم . سندخل في هذا المشروع معاً ، من منطلق المغامرة . الانسان يتكون بالمغامرة . ويصير غنياً إذا لم يتوقف عند الغنى . حلم فاوست ورهانه مع الشيطان يقومان على أساس ان فاوست سيستسلم ويعطي روحه إذا

استسلم وأعطى روحه للحظة زمنية مهما تكن خارقة السعادة قائلاً لها توقفي كم أنت جميلة . لن نتوقف . وأنت تستطيع أن تفرغ من صدور الناس شحنات الغضب والعنف التي تحقنهم بها الحياة المعاصرة . أنا سأزودك بما لا يحصى من أفلام الفيديو التي تتناول الجنس والجريمة والسياسة . ستتولى ادارة هذا النشاط الحضاري في مالا يقل عن خمس دول ، وتقدم للمعذبين المحبطين مخارج لانسداداتهم . وستذهل عندما تعرف كم سيركض الناس اليك للحصول عليها . قالت ان الانسان المعاصر مقهور ومحبط ومهزوم . ولابد للحضارة من أن تفعل شيئاً لأجله . وهذه الأفلام تمنحهم بدائل فعالة لحياة لم تعد قادرة على الاستمرار الا بالحلم والتقمصات . لأن الفرد ، إن لم يكن ملكاً مالياً أو سياسياً ، ضئيل في مسيرة الحضارة ، رغم التركيز المفرط في الأدب على فرديته . ولا بد من تقوية وهم الديمقراطية في نفسه ووهم الأهمية والاستقلال . هذه الأفلام ستكون حتماً أفضل من ممارسة العادة السرية ، أو التورط في تنظيمات سرية ، أو ارتكاب جرائم سرية وعلنية . « ولاتنس : إن حماراً قد قُدم الى فاوست باعتباره شاعراً . »

كم كنت غبياً . ثلاثة وثلاثون عاماً ، ضاعت . كانت كافية لأن يقوم المسيح بجميع معجزاته . وأنا قابع في قبو ، أووراء طاولة نرد ، ممسكاً قلبي بيدي : متى يكتمل بيتي الاشتراكي لانتقل إليه ؟ ثلاث غرف حقيرة وبهو .

وأم اللولو تزداد بالغنى غنى ، وبالقوة قوة . تنصقل طبيعتها وتشف وتأتلق . تصير هي نفسها أسطورة ، فلا تدعي الأساطير ولا تنتحلها كي تستتر على بلقع العمر .

هؤلاء الذين اجتمعوا معي تحت اللمبة الضخمة التي علقناها فوق رؤوسنا منذ البداية ، وأصروا على لعبة ورق . لقد شع علينا الضوء . بالتساوي . إلا نازك التي أصرت على الانعزال . كنا أحباباً وأصحاباً . وهذه

المــرة تحسست حلاوة صحبتهم وصفــوت بصفـائهـا . كان خلدون غائبـاً . أحاطوني بالحب والفهم والتكريس من كل جانب . أسبوعاً كاملاً ونحن نأكل من لحم الفـدو . كان لنا كل يوم حفـل . الحـارة كلهـا اشتعلت . والـزوار لم ينقطعـوا . الهـواتف لم تنقطـع . وصارت الحياة بشرى وتحققاً . وقد اشتريت أرضاً في منطقة (البدوي) لم يعرف أحد أن الحجر سيرفع عنها ويسمح بالبناء السكني فيهـا . لكن الجـمال الأعظم ، الغبطـة الـدرّية ، جاءت من صناديق الأفــلام . شراء الأرض وبيعهـا فرح كلاسيكي تقليـدي . لكن هذه العلب الصغيرة المهندمة ، فيها نكهة السر . والمشترون يتدفقون من بلدان كثيرة أو يتصلون بالهاتف . أليست هي التي تعالج أعظم ثلاثة من آفاق حياة الانسان ؟

عجباً! أين كان هذا الوعي كله متوارياً فيما مضى ؟

- ٤ -

سألني أبـو حسن : « علوان بك ، بالـذمـة بالـدين ، أنت تـام مع أم اللولو أم لا ؟ » وكان تحليله أن اعتبار أم اللولو لي معلماً مثل سلطان وأزود ، لا يكتمل إلا بممارسة الحب مع هذه الجنية . « لازم أن تكون ضممتها . مددت يديـك ولففت بهما جسمهـا الشبيه بالصفصافة . على الأقل بوّستها . لازم أن تكون بوّستها . ضممتها . وضعت يدك على لحمها . أما احترقت أصابعك ؟ »

وكان ماجد يسمع الكلام ويقضم تفاحة مهربة من الولايات المتحدة : « طول عمرك ياعزيز تتطلع الى فوق لترى الناس . من هي أم اللولو بالنسبة للمعلم علوان ؟ لازم تبوس يديه ورجليه لينام معها . هو في عز شبابه ، وهي

امرأة بنصف عمر ، مثل شريط كاسيت مستعمل ألف مرة . »

قال أبو حسن : « وأنت مثل العنزة الجربانة ، لا تشرب إلا من رأس النبع . »

توقدت بي لهفة فجائية . أسرعت الى أم اللولو ، ودارتها الكونية التي لا أبعاد لها والتي هي تخدعها . قلت لها ليس معقولاً بعد كل ما جرى أن لا ألامس جسدها ولو ملامسة . وكان كلي محمولاً لا ومدفوعاً بجزئي « الذي اندلع واشتد باقترابي منها وإحساسي بقامتها الأفعوية شكلاً وملمساً . وكنت بعمليتين سحريتين قد رددت لها المال الذي أقرضتني واشتريت من جديد . قلت لها ، غير معقول وبيننا هذا الحب والارتباط المصيري أن يبقى جسدها بعيداً عن جسدي . ثم صمتنا . وكبر الجو فجأة وفاض على الساحة الكلامية . صار جسدانا يتخاطبان . تحركت هي عن كنتبها الشبيهة بصدفة بحرية هائلة ، فانطفأت الكهرباء . ولأن المكان معزول تماماً عن العالم الخارجي ، غرقنا في ظلام بهيم . الظلام هو المحرر الأكبر للمشاعر والرغبات والحقائق الباطنية الأعمق . وأول ما فعلت أني مددت يدي ورفعت رداءها الفظيع . هو رداء جميل وباهر ، ولكن ليس في هذه الحالة . صارت ذراعاي سيولاً وأصابعي مخالب . شيء عجيب فعلاً . أنا أعرف أن استجابة النساء لممارسة الحب أبطأ . لكن استجابة أم اللولو كمبيوترية . قصدي عليك أنت أن تغذيها وتلقمها وتكبس على أزرارها قبل أن يلمع فيها أي ضوء . وإذا لمع فهو ضوء رقمي . كأنها بحاجة الى حريرات جنسية وهي الآن تتناولها . فاوست يقدمها لها . حقاً إن كلام ماجد صحيح .

فليكن ، قلت لنفسي . هذا الجسد ملك ذراعي . هذا العالم . وفي ثوان طارت عني ثيابي ، وصار جسدها ضمن الحقل المغنطيسي لجسمي ، ضمن الدارة الكهربائية ، فاعلية الكيمياء . أنا سأنطلق ، ولتتحمل هي

مسؤولية جسدها الممكنن . والحقيقة أنها كانت متعاونة تماماً ، مستجيبة . تحركت ، وهدأت ، وتموضعت ، كما أريد . كأن غاية سعادتها بلوغي النشوة . سوى أنها لم تنفعل . هبطت عليها ، وأحسست أني أغرق في بحر لزج من اللحم والوصول والامتلاك . لكنها لم تنفعل . وانقذفت أنا في الخارج .

.فليكن ، قلت لنفسي . أم اللولو شريكتي ، لا حبيبتي . والشركاء نادراً مايتناصفون . حبيبتي هي نازك ؛ غير أنها الآن ليست شريكتي . تمضي وقتها مع أم يسير وعزيزة ، كأية امرأة تقليدية . غرامها الجديد ان تنظف رؤينا بالماء أو تغسل ثابها . كأنها عاقر فعلاً . وحتى عندما نجلس في الباحة كلنا ، ويأتي خلدون فيراقب لعبتنا ، تقبع هي منزوية ، صامتة ، تتأمل عيني يسير الساهيتين عن شرهما ، أو تبتسم كالشبح لتعليق خلدون الحامض على لعب سعدون . وكنت أتساءل ـ باستغراب حيناً وحنق حينا ـ ألا تلاحظ نازك أنني أنا مركز الدائرة . وأن الجميع يدورون حولي ! وهذه اللغة التي يخاطبونني بها ! واللهجة ! والسعادة التي تغمرنا جميعاً ! والنشاط ! وسعدون أكثرهم حماساً وفهماً . بوثوقيته المعهودة ، المغيظة ، يقول : « أنت الآن على الطريق الصحيح . وأنا معك . لكن يجب أن تهتم أكثر ببيتك الاشتراكي . »

ورأيت الحارة تكتسي حلة قشيبة من الصفاء الهاجع والرونق البهي . عندما خرجت من « المخدع » رأيت الحارة تعاين ما يشبه ولادة ، أو انبثاقاً جديداً الى سطح العالم . وكان الرعاع غائبين ـ غائبين تماماً . والسلام مستتب .

كنت واثقاً أن نازك سترضى . طبعاً يدخل في الحساب أنها امرأة . ويدخل أيضاً أننا في الآونة الأخيرة صرنا أشبه بنزلاء فندق تجاوروا عرضاً وبالصدفة . بسطت أمامها الفواتير ، قرأت الأرقام ، وأشرت بأصابعي الى

ما يقـابلهـا من أسـماء . وأخـذتني نشـوة الظفـر فرحت أشرح وأشرح . وهي تسمـع ولا تسمـع . تتـابع ولا تتابع . لكني كنت مصمماً على إثارتها وبالتالي الحاقها بي : « يوم بدأت أم اللولو تملأ هذا البيت قطعة وراء قطعة : كم مرة كدنـا نرقص طربـاً لأننـا امتلكنـا هذه الأشيـاء الجميلة . الآن نقدر أن نملك أضعـافـاً مضـاعفـة . نقـدر أن نبني قصراً اشتراكياً ، لا مجرد شقة . يجب أن يسعدك وجود عشرات المواد والقطع الجميلة في حياتك اليومية . »

لم يكن بادياً أنها تود الكلام ، ومثل من اضطرت الى الحركة في كرسيها الهـزاز بسـبـب طول الجلوس ، قالت : « وأنت غائب عن هذه القطـع . » أعادتني الى شرك اللغة : هل هي آسفة لغيابي ، أم تعتبرني واحدة من تلك القطـع ؟ وفيـها أحـاول فهم هذا المنعطف الجـديـد من حسـاسيتها وذكائها ، أضافت : « يتكلم الجيران عن علاقة . . غير مالية مع أم اللولو . لا تظن أني غيرانة . ان شاء الله وتنام معها كل يوم . لكن الآن ، الحارة كلها تعتبرك ، والـوفـود تزورك ، والجيران يكيلون لك المدح والاحترام ، وأنت منطلق على طريق المجد والعظمة : مثل هذه العلاقة . . »

قاطعتهـا بسخـرية عصبية : « أنت تخرفين ! الى هنا وصلنا ؟ كل هذا الشيء ، لا يطلع منه إلا أني أنام مع أم اللولو ! »

« أنا قلت لك : المسألة لا تهمني ، لكن الحكي ينتشر . أنا امرأة عادية مثلي مثل بقية الناس . »

« وكيف أصـل ـ على فرض ، يعني ـ كيف أصـل اليهـا وهي داخـل بروج مشيدة ؟ ها ؟ »

أشارت باستخفاف : « أم يسير تعرف ثلاثة مداخل سرية لقصرها . »

قلت ببرود ملذوع ووداعـة : « أنــا سعيـد لأنـك لاتبـالـين بهذه

التخـرصـات . أنـا يهمني أنت ، وبس . لأنـك أنت حبيبتي . أم اللولـو شريكتي ، بس . »

نبسـت هي بخفـوت وشبـه شرود مغيظـين : « كنت حسبت حالي شريكتك . قصدي أيام كنا نكدح لأجل شقتنا . »

وبعـدهـا لم نتعمق . صمتنـا لنتـلافى اتسـاعاً آخر للمسافة المفزعة التي فصلتنا . صار واضحاً بالنسبة لي أن نازك غير قادرة على الصعود والارتقاء . وهي لا تريـدهما . إنها تود البقـاء عنـد الحـدود الـدنيـا للحياة ، مع التقطع اللامتناهي ، وترضى بأن تزحف عليها النمطية واللاتمايز . تماماً مثل مرغريتا حبيبة فاوست الأولى . وكان موعد الذهاب الى المقهى العقاري قد اقترب .

في ذلـك الـزحـام الناغل الحيوي ، والمفعم سلاماً واطراداً ، انبثق خبر صغـير غامض . كان جوابـاً على سؤال سألتـه أم يسـير : أين زينب . منـذ ذلـك اليـوم لم ترهـا . وكـان لابـد من الحصول على جواب ، مع أن زينب لم تقدمه . وهكذا ظهر الخبر : زينب وخلدون مختفيان .

لم يكن اقتران الاسمين في فعل واحد أمراً ذا بال . واستبعدت أم يسير أية عاقبة . وها هوذا أسبوع يمضي على أول انتباه لها ، والقلق يساورها دون اليقين . وبحسب الظواهر ، لم ينشغل أحد غيرها [illegible] أن زينب جمعت في قامتها ما يمكن للنساء أن يتوزعنه من [illegible] : ولكن ، ماذا يعني ؟ وتسـاءلت نازك : « يعني ، الحـاضـرون حاضـرون فعـلاً ؟ » ونبرت عزيزة : « ويلي عليها ! هالمرة الذبح . »

كان سعـدون مبتهجـاً نوعـاً ما لغياب خلدون . هذا المتنطع المنفوخ . وعـاد يرى الـدار حاضنـة رؤ ومـاً لتفاعلات صحية قادمة . وفي غمرة انشغال علوان بالاستقبـالات والولائم ، واصراره أن يحضر سعدون كل احتفال ، نما

داخـل سعـدون حس صغـير بالانكفـاء . إنـه لم يسـاوم ولم يتنازل ، لم يبارك ملعوناً ولا لعن مباركاً . لكنه انتبه الى الزمن . رأى أن حصة العمر منه ليست مطلقة كالايمان به ، أن انطلاق الأيام السريع نحو الثورة يعني انطلاقاً سريعاً نحـو نهايـة العمـر . ثمانيـة وعشـرون عامـاً ، ومـا زال عليـه أن يجلس لثلاثة امتحانات وينجح لينال إجازة في التاريخ .

قال لعلوان إنـه بعـد لقـائـه الأخـير بزينب انفتحت عيناه على حقائق هائلة . مزعجة لكنها حقائق . وهو لن يضيره أن يعترف بها ويمشي خطوتين الى الخلف . لقـد علمـه أبـو الثـوار هذه الضـرورة الثـورية . قبل كل شيء سيعتكف تمامـاً وينقطـع الى دراسته . ليس فقط لأجل الدراسة ، بل ليسيطر على رخاوة عاطفية محتملة إزاء قرار اتخذه ولا رجعة فيه : سيترك زينب . إنه لن يسمـح لنفسـه بالتهـور في مغـامـرة تشير كل الدلائل الموضوعية الى مصير فاجـع ينتظـرها . « زينب تريدني أن أنجرف الى العنف والفوضى وأتخلى عن السـلام البنـاء . » هو لا يفكـر فقط بموقف أبي زينب وسلطان اللذين ينويان تسليع زينب ، وليس يمكنه أن يكون نداً لهما ، بل بتلك الحياة القلقة المقلقة التي لا تملك عنصـراً واحـداً من عنـاصـر الاستمـرار الصحي . إن زينب ابنة طبقتهـا وبيئتهـا . وكـما لا يستطيـع الـبرجوازي الصغير أن يكون ثورياً ، لا تستطيـع ابنـة الـبر جـوازية التدينية ان تواكب عقلاً ثورياً وتنهض الى مستوى العيش مه . وإنها ليست المرة الأولى التي يدفع فيها ثوري سبق عصره ضريبة شخصية فادحة . إن زينب مجرد مرغريتا بائسة .

وقـد نزلت من عينيـه دمعتان . وجاشت نفس نازك التي شاهدته يمسح عينيه ، فقدمت له مزيداً من القهوة وسيجارة . أوجعها وجعه ، ورفضه المكابر لأن يعلم باختفاء زينب .

وكان في الحارة عينان جميلتان تراقبان بقلق معقود الحاجبين هذا الغياب المزدوج الرمادي . ابتسمتا لعلوان ، لكن الكدر بقي في الوجه . « كنا نراقب سعدون . وجاء هذا المجرم الحاقد . أكيد أنه خطفها . » وشدت راحتاها على ذراعي الأريكة .

« وماذا يعني ؟ زينب ليست عقاراً ولا رأس مال . »

« أي كلام ! وسلطان ؟ »

« لا أفهم . ما علاقة سلطان بزينب ؟ »

« سلطان بلا ذرية . تلزم له زوجة تنجب أولاداً . »

كان الخطاب الأخير سهلاً ممتنعاً ، تلقائياً ومريباً . مثل قصة لا تقنع قارئها أن أحداثها تعني فقط ما تعنيه . وقد دخل المعنيان في واعية علوان . أحس بهما يشقان طريقهما كشرارة تنتشر في سلك صاعق مندفعة نحو بؤرة الوعي . وفي لحظة تطايرت من رأسه بقية باقية من هموم وتردد كان يصنعهما حس جبان بالدونية : إن أم اللولو تخطط للالتحام به هو .

نهض مستطير الجنان . أراد أن يناديها . توقف ثانية واحدة : كيف يناديها بهذا الاسم الهلامي ؟ ومرت ثوان . كان فمه مفتوحاً للكلمة متدوزناً بها ، والكلمة لا تخرج .

هتفت بابتسامة مستغربة : « ماذا جرى لك ؟ »

« أنت ما اسمك ؟ »

ضحكت بدعة وخفوت . أشارت له أن يجلس . وفعل . انتقلت اليه العدوى فابتسم : « أحسست بلحظة صدق خارقة ، وأردت أن أناديك ،

وأدهشني أني لا أعرف لك أي اسم ! »

قالت ببساطة : « اسمي هيلانة . »

« قال بانشراح وغبطة : « اسم اجنبي في الأصل . لكن له صيغة محلية . »

« لكن أساساً له صيغة عالمية . أتعتقد يا عزيزي أن هيلين طروادة كانت أجمل مني ؟ »

« فشرت . »

« ولا تنس . هي نفسها هيلين التي زوجها غوته لفاوست ، وفاوست هو الحضارة الحديثة . »

انتفضت واقفاً : « الله ، الله ! الله ! العالم ينفتح ، ويتجوهر ، يتلألأ ، يصنع عناصر جديدة . إذن ، هيلانة ! لنتابع حديثنا . عن زينب وسلطان وخلدون ، وهذه النيازك المتلاشية في مدارنا المؤبد . منذ صغري وأنا أسمع كلاماً في الثورة وثورة في الكلام . حتى اكتشفت مؤخراً أن الثورة هي مؤنث الثور ولا شيء آخر . الآن ، نحن ، أنت وأنا سنصنع ثورة . فاوست الطالع من أعماق آسيا وافريقيا كعنصر فيزيائي جديد ، يدخل في عملية الكيمياء مع هيلين التي هي الحضارة الحديثة . أنت التي ألهمتني فكرة فاوست . هيا ، إذن . اخلعي سلطان من يدك ، وأخلع نازك من يدي ، ولنعلن حبنا وزواجنا . »

لم يبد لعلوان أن مفاجأة قد وقعت . لم يختلج وجه الامبراطورة بغير الابتسام : « وأنت تفكر في الزواج ! » قالتها بضيق خفيف ، مثل من سئمت تكراراً يومياً لأمر ما .

« طبعاً . وسننجب أطفالاً . آن لهذا العقم أن ينتهي . القوى الخاصة

الفريدة التي عندك . القوى التي اكتشفتها في نفسي ، وأنت أزحت عنها ستار الغفلة والاستكانة . أي شيء عظيم وخارق سيكون زواجنا . »

« كل قناة تقليدية تشويه لكل إبداع وأصالة . »

كان رفضها للزواج سريعاً نزيزَ الكلمات . كذلك كان إقبالها عليه . في ثوان جعلته يمخر على عباب من القبل والعناق . نفرت إليه . لطمته بصدرها وفخذيها . طار ذراعها عليه . وبين الصوت والضوء والمسافة والانتشار ، نثت حنجرتها رذاذ لغة خاصة : « تريد زواجاً يهلك عناقنا ؟ هذه لحظات ربما تمنى فاوست نفسه الاحتفاظ بها . مخيف هذا الصفاء ؛ موجعة هذه السعادة . »

وتوجت لحظتها الهانئة بتحذيره من جيرانه : « منذ ذلك اليوم وهم هادئون . هدوءهم يقلقني . »

ابتسم بثقة ولم يرد . وفي الزقاق كان كل شيء على ما يرام . السلام والهدوء والأمان . والشمس المرسلة شواظاً ، فقط لتذكر الحواس بالبرودة المنعشة التي ترسلها الجدران السميكة .

كانت المفاجأة مهيأة في البيت لا في الزقاق ، من سلطان وليس من الرعاع . كان الضوء قوياً في البهو . وهناك شاهده جالساً وعليه سيماء قلق منتظر وانتظار صبور . لمح باب الغرفة الداخلية موصداً ، وعرف أن نازك قابعة هناك . أدرك بارتياح أنها رفضت أن توجد وسلطان في مكان واحد .

قبل أن يبدأ كلام ، كان ثمة توتر . الزيارة مفاجئة ، والانتظار غريب . ثلاث مرات أكد سلطان أن ليس للزيارة غرض مباشر . تطامن وجه علوان ، وتضاءل توتره . وأسرع سلطان فعاتب أخاه لانقطاعه عن صلاة

الجماعة في مسجده . طبعاً تأنس النفس لخالقها ، أولاً وقبل كل شيء . لكنها تأنس أيضاً للصافية نفوسهم والحافظين الود . وعلوان خير من تفيض نفسه بهذا الأنس . في صلاة الجماعة لا يمكن التمييز بين المصلي والمنافق . ولا يمكن أن تأخذ أحداً بجهالة . ولقد طعن عمر وعثمان وعلي وهم في حضرة الخالق . اذا كان هذا حدث في العصر العظيم ، فما الذي يتوقعه المرء في هذا العصر المارق ؟

هذه اللغة المخاتلة مرة أخرى . ماذا يريد سلطان بالضبط ؟ إذا كان يشك فهذه ليست زيارة رجال . أيتوسل ذو قرون لعشيق زوجته أن لا ينام معها ؟ طبعاً ، رجّتني زيارته رجة عنيفة . أبأس ما في هذا العالم روابط سعيت إليها ثم صارت قيوداً . لماذا عليك أن تتوقف ، ومسيرتك تأتلق بالنشوة والعلو والظفر ، لمجرد أنك التزمت ذات يوم غرير بصحبة أمست الآن ثقلاً ونضوباً . إن الدول تنحلّ وتتفكك ، والمدائن العظمى تمسي أثراً بعد عين ، لكن هذه الروابط تظل رابضة في الوجدان والقلب .

بعد ذهابه إنفجر الخوف بين أضلاعي كلغم موقوت . ليس لأني مسيء أكاد أقول خذوني . لقد تشرنقت أمداً في تصورات صغيرة ويقينات أصغر . وهانذا لحظة استحالت أنسجتي الرخوة الهامدة أجنحة وألواناً ، تجابهني قوى الوقوف والتناهي لتمنع خروجي من الشرنقة . كان لابد من مواجهة مع النفس . سلطان متوجس ، ليس متيقنا . وهولا يريد أن يأخذني بجهالة . لكنه يخشى طعنة الغدر . وهذا المتأنق في أرديته البلدية ، الناعم بلغته المغلفة ، المعطاء الكريم السمح الرائع ، كان قبضاي سابقاً أخضع الحارة لقوته البدنية قبل أن يخضعها مع أم اللولو لقوته المالية .

وأنا ضعيف . كقوى مادية ، طبعاً . أما الامكانات فيجب أن أخرج من عنق الزجاجة لأحققها ، وساعتها يكون لي جيش من القوة أضرب به .

فتحت نازك البـاب وخـرجت . اعطتني ابتسـامـة هي حاجـز سلام وحسب ، لتبقى الأبـواب الأخـرى موصـدة فلا يفتـح فتحها إيلاماً جديداً . « اليـوم اجتـماع هام جداً للمشتركين في الجمعية . الساعة السادسة . أظنك لن تحضـر . أنـا سأزور أهـلي ، والسـاعة السادسة أحضر الاجتماع . » كانت متهيئة تماماً للخروج . وإذ انتهت كلماتها وطئت قدمها أولى الدرجات الخشبية نزولاً .

« ولماذا تحضرين أنت ؟ »

« يعني . يمكن لتشييع الجنازة . » وغابت .

حوالي السـادسـة استيقظت على جعـير رؤ ينـا الجـائعـة . أذكـر هذا التفصيـل لأنـه جر وراءه عدداً من تفـاصيـل أعـادتني الى متعـة الحياة اليومية المتسلسلة . مع فارق أسـاسي بالطبـع ، هو أن الجميـع باتـوا يحسون بقيمتي ويفـرحـون أكثر لجلوسي معهم ، ولكل ما يصدر عني : الطعام الذي أنزلته ، الجلسـة الضـاحكـة ، الـوعـد بذبائح فدو أخر ى ، وفي النهاية لـ بة الورق . جررنا سعدون من معتكفه ، وأضأنا اللمبة الكبيرة ، وهات ياشاي ومزاح مع يسـير ، وصيـاح أولاد أبو حسن ، وتشنيع على ماجد الذي انقطعت مهرباته الغذائية بعد المطاردة الأخيرة .

وماذا تظن ؟ في التاسعة عادت نازك . كان الفرح والهناء قد سرقاني من وعيي فلم أقـرأ وجههـا جيـداً . كانت لحظـات جميلة وسعيدة أحببت ، لا أن أستبقيها ، ولكن أن أعيشها كاملة .

لكن كان لابـد من مواجهـة الحقيقـة الجـديدة . نازك عادت بنبأ إشهار الجمعيـة السكنيـة إفـلاسهـا ، بعد أن هرب الى الخارج رئيس مجلس الادارة والمحـاسب وأمـين السـر ومعهم المتبقى من أموالها . لم يهمني مصير الجمعية .

بل إنني أحسست بالتشفي والراحة لانهيار لعبة حمقاء أخذت من عمري ووعيي سبع سنوات ثمينة . لقد جعلني انهيارها ازداد ثقة بأني على حق . وكرّ أمام عيني شريط ذكريات الغفلة والتفلسف الفقروي ، وكيف أن أم اللولو كانت في الشارع التالي وأنا لا أراها .

همّني فقط نازك . ليس لمجرد أني أحبها . وإنما لكي لا يكون « دود الخل منه وفيه » كما تقول أم يسير : دودة نكد ومصدر دائم للشجار والشقاء . وبسرعة فظيعة ثبت أن تخوفي صحيح . كان وجهها ملبداً بالحزن ، وجسمها متكوماً ومحقوناً مثل سماء اكتظت فيها السحب السود . شعرت فعلاً بالأسف لاصرارها المجاني على التعاسة ، وبالضيق لأنها لا ترى الآفاق الرحيبة التي فتحتها مبادرتي أمامها . وما إن لامست حزنها ببعض الكلمات حتى انفجرت باكية كما تنفجر تلك السحب بالمطر بعد طول احتقان . لكنه كان مطراً عكراً كدراً . نصفه غبار ونصفه وحل .

بكت نازك لأن تلك الآفاق الرحيبة حاصرت وعيها ومنطقها ، ولم تستطع هي أن تدفعها بعيداً . بهدوء ونحيب ورأس منكس ، قالت إنها لا تستطيع أن تصدق . « سمعت الأخبار ، وأحسست أني تعريت . أحسست أني غبية وعلى الأرض ولا أمل لي . بيت اشتراكي . . في دنيا رأسمالية ! حتى أطفالي صاروا مستحيلين . حتى علاقتي بك صارت مطعونة . » بعد هذا العمر كله ، تكتشف أن الملكية الفردية هي الضمانة الأعمق لاستمرار الحياة . وكيف تتقبل توجهاً للعيش والعقل أمضت حياتها الواعية وهي تناضل ضده ؟ « إذا مشيت في هذا الطريق ، معناه أني انتحرت . . »

لم يكن تفكيرها هو المؤثر . كان حماقة كله . إنما شعورها . وجهها ، الذي نطق قبل لسانها بالفاجعة . ورأيتني أتحلل في هذِه الأحماض . لمستني معاناتها وتعاطفت معها . لم أحاول أن أقول أفكاراً . ذهبت الى الشعور .

قلت لها إننا ما نزال معاً ، وصحبة الانسان للإنسان تظل ثمينة ، اشتراكية أو رأسمالية . المهم صفاء القلب للقلب . « ولو ! كأنك نسيت أننا نحب بعضنا . » وابتسمت بشوق هدر في أعماقي بالحب القديم ، وأطل على مستقبل بدأت تقتنع به وترضى المشاركة فيه .

لكنها انفجرت باكية مرة أخرى . كأن عاصفة الشعور أعادت تجميع فلولها بعد الانهيار الأول ، وأخذت تضرب الفضاء من جديد . جعلت تهز رأسها ، وعيناها مغمضتان . وعندما تمكنت من الكلام قالت : « نحب بعضنا ، كيف ؟ أنت تمشي في طريق يملؤك فخراً وسعادة . وأنا مضطرة للمشي فيه ، وكندرتي كرامتي واحترامي لنفسي . » ثم : « من كان يصدق . . الوعي بالتقدم يصير انتحاراً في عكسه . . »

لم يجدنا شيء ذلك المساء . لم نلتق . وكان لابد من الصمت . تذكرت كيلو التين الذي ابتاعه لي أبو حسن من باب شعوب . وهذا فشل أيضاً . كان مكلفاً بإيقاظ ذكرى كيلو الخيار القديم . لعله فعل . لكن نازك أبعدت الصحن بيدها وعادت فعقدت ذراعيها .

إذن لابد من حل عملي . مبلغ من المال يمكن نازك من الدخول في المزاد العلني ، والاستمرار فيه حتى تشتري فردوسها المفقود ذاك . مع أنها لن تسكنه ، إلا إذا جنت ورفضت القصر . كان الوقت متأخراً . ورغم أن اليوم التالي كان جمعة ، فقد خرجت مبكراً نسبياً الى المقهى العقاري . أحسست بعيني يسير تراقباني مذ هبطت الى الباحة . كان جالساً على كرسيه الصغير في عطالة تامة . لكن عينيه أوحتا بشر قريب . لم أصل الى المدخل العاتم إلا وأصابني انقباض غريب ومزعج . وفي الزقاق عرفت السبب .

كان الرعاع والفلسطينيون هناك . منتشرين بكثافة . إنها بلا أدنى

حركة أو صوت . الشر الذي رأيته في عيني يسير احتل الآن الآن مساحة هائلة أمـام عيني . بهدوء تلمست جيب القميص ، وعدت أدراجي الى البيت . واجهتني عينـا ذلـك الأبله ثانية . بلا حياة ، سوى أنهما تتابعانني وقد تصمغتا علي .

وضعت المسـدس على خاصـرتي ، ولبست فوقـه قميصـاً فضفاضاً . خرجت . كانـوا هنـاك . مشيت كأنهم غير موجـودين . كنت واثقـاً أنهم لن ينبسـوا ببنت شفـة . لم أخشهم ، مجتمعين وفـرادى . وهم فعلاً لم يتحركوا . رويداً رويداً ازدادت خطواتي عزماً وقوة .

لكنهم علقـوا بوعيي . كان يمكن أن أكسب خمسـة آلاف زيـادة ، في صفقـة سهلة ومفـاجئـة مع رجل جاء من بلد مجاور يشتري أربعة صناديق من أشـرطـة الفيـديـو . لكن وضع الحارة أقلقني . ليس عينا يسير فقط . عينا أم اللولو أيضاً . هؤلاء يجب أن يرجعوا الى الغيتو .

صعدت الدرجات الحجرية ويداي وراء ظهري . وإذ أطل الزقاق علي رأيت الصورة متغيرة .

كانـوا قد قلصـوا انتشـارهم السابق وتكاثفوا بين مدخل دارهم والجدار المقـابـل . عشـرون متراً مربعاً تقريباً . داخلها ، اكتظاظ لم يسبق له مثيل . حتى الهواء لم يكن يستطيع المرور .

إذن المصـاولـة لن تنتهي بجـولـة واحـدة ، قلت لنفسي . ولم أكن أبداً مستعـداً للسـماح بجـولات جديـدة . ليس فقط لأن قليلاً من الرخاوة سيعني فرصـة لتمـرد جديد ، فأنا لن أضيع وقتي وأشغل نفسي بالعراك معهم ، وإنما لأن كل شيء يعتمد على سكوتهم المطلق وانعدام حركتهم : علاقتي الجديدة بأم اللولـو ، ورضـا أم اللولـو ، المستقبـل ، المجد والسيطرة والغنى ، القصر

الذي سيكون بديلاً حاسماً لبيت الفقر والشرشحة المسمى اشتراكياً . هذا كله سيرمى في مهب الريح ، إذا سمحت لهم برفع رؤ وسهم مرة أخرى .

أخرجت المسدس . بأعلى الأصوات ، وأطول الحركات ، هيأته للإطلاق ، ووجهت فوهته إلى أعينهم . طبعاً ، كنت واقفاً . بالكاد . خائفاً . قلبي يهدر في صدري كثور هائج . وحلقي يغص بنبضاته . إنك لا تعرف ما الذي بالضبط يخيف وييبس اللسان ، لكنك تخاف وييبس لسانك . كتلة دهماء تنث تهديداً وعنفاً ، مثلما تنث كمية نشادر بخاراً . وفي هذه اللحظة تحلل جسمي ودماغي من الحضارة ووقفت أمام مشهد الموت المتشرنق . وفيما بعد تذكرت أن هذا الخوف جعلني أمد يدي بالمسدس ، على مهل ، ليغيب اهتزازها في امتدادها . وهكذا أرعبتهم . كانوا قد بدأوا ينهضون عن الأرض أو يتركون الجدار . لكني أطلقت . وأصابت الرصاصة هدفيها ، خوفي والجدار وراء رأس أحدهم . إذا كنت خائفاً فاهجم . الخوف أكبر مولّد للشجاعة . لأنهم بعد ثوان لا أكثر ، كانوا منحشرين في جحورهم داخل الغيتو .

وانجلى الزقاق لعيني حتى نهايته المتصلة بساحة العروة الوثقى . كانت مداخل البيوت ونوافذها مكللة بالأزهار البشرية ، بالعيون المحبة والوجوه الباسمة ، والأيدي التي تلوح أو الافواه التي تلقي السلام . وسكان الدار . والجميع . طبعاً ، ذلك الحجم الخانق من الخوف تلاشى واقتلعت جذوره . حل محله نبع من الفرح والسلام والقوة . قلت لنفسي هذه المرة خفت ، المرة القادمة يجب ألا تخاف . أي سخف ، فعلاً ، كمية من الجراد ، وأنا أملك المبيدات . وها هم كلهم يهللون لي ، بالصمت او بالكلام .

إلا هذا الأبله يسير الذي وجدته نائماً على صدر أمه .

ونـازك . لم تخرج الى الشبـاك ولا صعدت الى السطح . كانت تتفرج على التلفزيون . تصور ! لم يكن أي حوار ممكناً . كانت روحي تدندن بنشيد ظافر ، وكانت روحها تئن بنشيد الخراب والثكل . رميت على المنضدة خمسين ألفاً . « هذا المبلغ ، والمبلغ الذي دفعناه للجمعية حتى الآن ، يزيدان على أي مبلغ في المزاد العلني . وعلى أي حال ، إذا لزم مبلغ ثان ، أنا مستعد ؛ أي مبلغ . »

لم تتحـرك . لا مدت يدهـا ولا التفتت . نظـرت معها الى توم وجيري المتعـاركـين ، الكـائن الصغـير الضعيف المتصـر بإذلال على الكـائن الكبير المدجج بالقوة .

قلت : « نازك . أما سمعتني ؟ »

قالت : « البيوت مغشوشة . لا أريد بيتا يهبط سقفه على رأسي . »

« يومها عرفت أن سقف الشقة يمكن أن يهبط على رأسـك ، ولم تبكي . »

« كنـت بلهـاء . توهمت . سعي جديـد ، وبيـوت جديـدة ، غير مغشوشة . الآن الإفلاس معلن . »

لقـد عنتني بعبـارتها الأخيرة . وبطبيعة الحال كانت عاجزة عن أن ترى إفـلاسها هي ، وافلاس نهجها الفقري . كانت ضئيلة ومتقلصة ، وبالقياس لأم اللولو تافهة . ورأيت أن أكرم ما تعامل به هو الاهمال التام .

[بطاقة : زينب :

منـذ شهـور حيـاتهـا الأولى وجمـالهـا حديث الناس . كان تكويناً بديعاً تنكفىء العين عن التحديق اليه . كأن أجمل ما في مليون فتاة قد جُمع وجُبل في

خرافة لا تُكَذَّب . وببصيرة نافذة أدرك أبو زينب أن ابنته الوحيدة ، التي شاء الله ألا يبعث له بكنز آخر غيرها ، يجب ألا تتعرض لجرثومة الحب الفاتكة وإلا ضاعت الحكمة الحقيقية لمجيئها الى هذا العالم . ليس فقط أنه والجميع قد اعتقد ، وجعلوها تعتقد ، أنها خلقت لأي شيء سوى الحب ، بل وأزاحوا من حياتها كل ممارسة يمكن أن تقربها من ذلك الهدر والألم : التعلم ، الصداقة ، الحرية ، العمل ، الحلم . وظلت زمناً ، رأته فيها بعد دهراً ، وهي تتلمس رؤ ية بعينين لا تريان ، وحقيقة بيدين لا تحسان . في أعماقها كان يهدر نهر شبيه بالبركان الذي هدر في أعماق أم عبودة ، والحلم الذي زها في رأس أم يسير ، والأفق الذي ارتسم هالة حول قلب نازك . وفي عقلها انبجست شرارة ، صارت لهباً ، يوم ذاقت عبر خالها زيد وصديقه خلدون طعم الحرية .]

في الحارة كان لابد من الكلام . الوسطاء الذين أرسلهم خلدون الى أبي زينب ، وعلى رأسهم الدكتور زيد ، لم يتركوا فرصة للسكوت . إن زينب الآن في بيت خالها ، وهو لن يسلمها ما لم يوافق أبوها على زواجها من خلدون . هكذا ، بكلمات صغيرة حملت عزماً كبيراً ، وضعت الحارة كلها أمام أمر واقع خيل للعقلاء فيها أنه انصرم منذ عهد بعيد .

لقد أحبت هذه البنت بعد كل الذي فعلوه لأجلها . خذلت والدين ، وهزمت حارة ، وأحبطت حسابات ، وشجعت رعاعاً ، ووضعت مستقبلاً على حافة الفضيحة . ومؤكد أنها ستتردى في السمعة السيئة الى أبعد من أم يسير .

كان ذهن أبي زينب مسرحاً لعنف لم يعرفه من قبل ، فيها المعاني تنجلي له بوضوح لم يعرفه أيضاً من قبل . هذه الصور والخلاصات ، وسلسلة لا

نهائية من أنصاف أفكار ومشاعر هائجة مختلطة ، سرعان ما أتت على ماأبقته الصدمة فيه من تماسك .

بالطبع جاء الأطباء . وحاولوا إعادة أبي زينب إلى وعيه . لكنهم بدلاً من النجاح في المحاولة أوشكوا ان يسجلوا ظاهرة جديدة في علم الأبدان . لقد رفض جسده الوعي . فشلت معه جميع المنبهات والمنعشات والأكف والصراخ . وقد وصلت الرسالة الى الحارة : حتى هذا الرجل القوي الأعصاب الثابت الجنان لم يستطع تحمل طعنة الغدر الموجهة الى شرفه .

أخيراً أفاق وهو يهتف : « لتكن مشيئة الله . » وقبل بالذهاب الى حيث انتظر العريس ليتفقا على المعجل والمؤجل ريثما يجيء المأذون .

كان خلدون قد ظهر فجأة في الدار . شاهده أولاد أبي حسن يدخل غرفته ويغلق الباب . توقفوا عن اللعب متهيبين فضوليين . ورجع علوان من دار أبي زينب فأخبره . احتقر إغلاق الباب ، لكنه فهم . همّ بالتحدث الى سعدون ، وتذكر أن باب غرفته مقفل من الداخل . تذكر أيضاً كلماته المنذرة الباردة عن فاجعة تنتظر العروسين .

برز خلدون من الباب واصبعا يديه في جيبي بنطاله . منظره المستفز الوقح عصف في رأس علوان بزوبعة من غضب . تمعن الرجلان أحدهما الآخر ملياً ، غير أن القشرة الصلبة ظلت راسية فوق البركان .

« مثل أسلوبك يا أخ خلدون لم أجد عند أحد . »

« لكن أنا وجدت مثل أسلوبك عند كثيرين . في كل حارة تقريباً . »

« لكن أسلوبك لن يستمر طويلاً بإذن الله . »

« بعكس أسلوبك . أظن أنه سيستمر طويلاً . والبركة في مسدسك وأم اللولو . »

« أظن قد يكون لمسدسي مهمة جديدة في المستقبل . »

« محتمل جداً . ومؤكد . يقينا ، نحن سنلتقي ذات يوم . فإما قاتل أو مقتول . لأني لا أخاف من مسدسك . »

« لم يخلق بعد الذي لا يخاف المسدس . »

دخل أبو زينب وذراعا أبي خليل وزيد توكئانه . وراءهم خب المأذون . تنحى خلدون الى الخلف ليدخلوا .

أمران فقط ، لا شرطان ، أرادهما الأب المنكوب العاجز : أن يسمع كلمة الموافقة من فم زينب ليبرىء ذمته أمام الله ، وأن تزور العروس بيت أبيها بعد الأسبوع الأول فلا تنقطع صلة القربى .

الرغبتان مستجابتان ، قال خلدون . يمكن للعم أبي زينب أن يذهب معه الآن ليسمع تلك الكلمة ، لأن زينب لن تجيء الى الحارة حتماً - إلا بعد أسبوع من هذا اليوم لتلبي الرغبة الثانية .

تنازل أبو زينب عن رغبته الأولى . وكذلك عن المعجل والمؤجل ، إلا ليرة لكل منهما . همس علوان في أذنه مستنكراً . غمغم الوالد : « هي ارتضت أن تمشي إليه بيديها ورجليها . وأظن بهذا الشكل ستجيء وتزورنا . وإلا ما قولك يا أبو خليل ؟ »

« عين العقل يا عبد الله بك ، عين العقل ، » قال الآخر ، وعيناه اللتان ضاعفت النظارات حجمهما تنظران الى الفراغ .

وكـان وجـوم مماثل يلف الشوارع والبيوت والدكاكين . كأن تمثالاً لمعنى من المعاني قد تحطم ، أو فجوة في ظهر الحارة قد فغرت وكشفت عورة . حتى خطيب جامـع العـروة الـوثقى شجب هذه « القـرصنـة الاجتماعية والاستهتار المـرتـد بنـامـوس الطبيعـة . » وفيـما طار خلدون خارج الحارة ، محمولاً بورقة المأذون وفرح لم يستطع هذه المرة أن يرجعه الى جذوره النفسانية ، تهدلت يدا سلطان وراء ظهره الحادب وقد شاخت فجأة عيناه المحدقتان عبر فراغ النافذة .

لم يعـرف أحـد أين سكنت زينب . كان زيـد يحمـل وجبـات الطعـام المسـرفـة التي أعدتها أمها كل يوم . وكان سلطان حزيناً . حملة التشويش التي شنها على البنت بالاتفاق مع أبيها ، كي تقبل به في المآل ، آتت أكلها لغيره . وفي الصبـاح التـالي كان ثمـة توتـر محمـوم في الحـارة كلهـا ، وتوقع أربد لفعل انتقامي ما لم يدر أحد كيف سيتم .

[تقرير :

تناقلت الأفواه حديثاً سُمع من تحت ومن فوق . سمعه الخدم والحشم السـاكنـون في أقبيـة قصـر سلطـان ، وثلاثة رعاع سروا عبر الأسطح ليلاً الى شرفـة نائيـة ضمت الـزوجـين العاقرين . لم يستطع أحد إعادة ترتيب المقاطع التي تناثرت من فميهما ، ولا استكمال المقاطع الضائعة . لكن المؤكد فيها نبرة غضب كظيم وشيء من السخـريـة ، سمحـا بسماع واضح متقطع . أكثر من مرة قالت له أم اللولو بانفعال : « لا تنفعل ! جئنا هنا لنحكي بلا انفعال . » و« لعلك حننت الى أصلك البلطجي . » لدى سيـادة الهـدوء كان الصـوت يضعف . وعنـد الغضب كان هو يصـرخ : « قلت لك خلينـا نترك الـدار خاليـة ، ورفضت أنت بحجـة أنهم سيحتلونها . » و« الذين مثل علوان معنا

وضدنا ؛ كيف نأمن لهم ؟ » ثم صوتها القوى المرنان : « علوان ضروري جداً . علوان لابد منه . خلدون يعمل الآن مع الدهماء . وعادل وشباب غيره يجتمعون به يومياً . . » وضاع الصوت . ثم مرت وهلة من الهدوء . حتى الأصوات المسموعة لم تكن واضحة ، سوى اسمي علوان وخلدون ، أوحى الخفوت والبطء الطارئان على الحديث بتوتر متحكم ، وحذر ضابط . ثم انبعث صوت سلطان فجأة مثقلاً باللوعة أكثر مما هو بالغضب : « إلى أين وصلت معه ؟ » وبعد وهلة خفوت أخرى ، علا صوت أم اللولو زاجراً ولكن دون غضب : « اتفقنا أن هذه أسئلة لا يحق لك طرحها . » ثم نبرة متوسلة محتدمة من سلطان ، وصمت منها . وكلمات لا دلالة لها : قتل ؛ أنتحر ؛ الثمن ؛ على حسابي . . ثم سكون مطبق . ثم صوت سلطان غير اللغوي . ثم صمت غير صامت . هدوء . كأنها قالت له كلاماً طمأنه . وبخفة النسيم وهدوئه نهض عن كرسيه واقترب منها . ركع أمامها . وبدا قوياً فتياً ، عاشقاً راح يتلمس براحة يده وجها رائع الطلاسم ، كأنه استعاد « افتح ياسمسم » التي ظن أنه فقدها وأوشك أن يفقد عقله . وهلة أخرى من الهدوء . أصوات جديدة بلا نبرة . « الفلسطينيون ، » مرتين أو ثلاث و « الدهماء » . « المهم ألا يفاجئونا . وستكون آخر خلجة لهم ، » قالت هي . « البركة في المعلم الجديد . » « وفيك أنت قبله . إذا لم تتصارعوا . »

كانت العبارات الأخيرة مسموعة لأن الرعاع الثلاثة شحذوا جوارح إنصاتهم ، وغامروا بتدلية رؤوسهم فوق الشرفة . وقد انتقلت مع المقاطع الطائشة ، من الثلاثة إلى أم عبودة ، إلى أم يسير ، فإلى الملأ .]

هذه الخرفاء أم يسير . كيف تنقل حديثاً بحد أدنى من السلامة بعد سلسلة طويلة من الرواة . « والحديث نفسه كان غير مسموع . » ابتسمت نازك بزفرة قصيرة : « مشكوك فيه فعلاً . » كان هدوءها مزعجاً . وكذلك

موافقتهـا على رأيي . لكنهـا وقـد اضمحلت الى حدود السخرية والعجز ، لم تثر بي رغبة في المناقشة ، على نحو ما تفعله أم اللولو .

تمشيت في البهـو وأنـا أصغر لحناً رعوياً يتميز بحيوية فرحة . كنت أنتظر قدوم صديق لنمضي معاً الى حفل غداء يقام على شرفي في أحد البساتين . وتـذكـرت مع اللحن صوراً غابـرة لمناسبات طفولية في البساتين . عجبت بيني وبـين نفسي من أن تراني عين في موقـع العـداء لجيراني . متى كان الدفاع عن النفس اعتـــداء ؟ كنت مستمتعـاً باللحن ، وفـاض علي عذوبـة فائقـة وفيئـاً وبرداً . لابد أنه سألها إن كانت حاملاً مني . ابتسمت . ستكون ، قبل وقت طويـل . « اجلس . لأي شيء أنت متـوتـر هكـذا ؟ » متـوتـر ! تقول هي . لاشـك أن روحهـا تفـرز الآن غلاً ومرارة . بوسع العقل أحياناً أن يصير طفلاً صغيراً يعبث بأزرار كهربائية ، وينتقل بك من ضوء إلى ضوء ، أو يشعل عدة أضواء في وقت واحد . وأنا لست من النوع الذي يتضايق من تناقضاته . إن التنـاقضـات دليـل الغنى . طالمـا أن الذهن قادر على أن يطفو فوق حالاته ، فلم لا ؟ فلأتنـاقض ! فلأسـرح من قطب الى مدار الى مجرّة . لحظـة نطقت نازك عبـارتهـا ، كنت أحـاول إعـادة بنـاء الحـديث بين أم اللولـو وسلطـان ، واستكـمال نواقصـه . هذه شهـادة على أنني صرت بهذه الأهميـة . إنني راسخ ومستمـــر . متعـــة عظيمـــة إكـــمال تلك الشـذرات في صورة تملؤهـا الأزرار الكهربائية لسلطان ، وقد اتضح أن ترتيبه جاء ثانياً في سباق الماراثون . سوى أنني لست عدواً لهم . وإذا كنت ما يسمـونـه « معلماً » فلأني بالفطرة كذلك . جاءت ظروف فكشفت عن هذه الفطرة . وإذن فقد سألها إن كانت حاملاً مني .

كانت عبارة نازك ما تزال تتردد في أذنيه عندما اختلط فيها وقع خطوات أبي حسن على الـدرج الخشبي . « معلم علوان ! » انطلق الصـوت القـوي

من الجسم الضعيف . « معلم علوان » قال بوداعة ومحبة وهو يقف أمام علوان ويبتسم لنازك . « جئتك في طلب ، خفيف حتماً على همتك . »

بإلفة ينبوعية ، وببهجة المعتاد على النوائب وعلى التماس العون لأجل تفاديها ، هنّأ الزوجين لأنهما لم ينجبا أولاداً ، وشتم أم حسن وغدر الزوجة التي اغتنمت الفرصة وحملت فور وصولها الى الدار . ثم تلكأ ، وتلجلج ، واندفع ، ونهنه ، فرفع يده في الهواء محتاراً : « المختصر المفيد يا معلم ، بودنا تشوف لنا دكتور يخلصنا من هالمصيبة الجديدة . دكتور يعني ، يراعينا شوية ، أبو خمسمئة ، سبعمئة ليرة ، أنت سيد العارفين . »

« خذها عند أحسن طبيب ، وكل زيادة عن سبعمئة أنا أدفعها . تريدها أن تنزف وتموت ياأبو حسن ؟ »

شهق أبو حسن شهقة باغتته ، وعاد يتلجلج بكلمات الاعتذار ، ثم الشكر والامتنان . وهرع هابطاً الدرج ورجلاه تتكلمان في سرعتهما اللغة التي تكلمها لسانه قبل لحظات .

كان علوان يبتسم بمحبة وأبوّة . التفت الى نازك . عيناها أيضاً كانتا مبتسمتين ، ووجهها وشفتاها . قبل أن يحول عينيه ، مغتبطاً لمشاركتها الشعورية ، ضبط في عينيها معنى مختلفاً . « ماذا بك ؟ ما هذه النظرة ؟ » رفعت يدها بإشارة لا شيء . « بالله ما هذه النظرة ؟ »

« والله لاشيء . فكرة سخيفة . قلت لحالي ، بدل معروف واحد يا معلم ، هو قتل هذه البويضة المسكينة ، كنت تقدر أن تعمل معروفين ، تخليها على قيد الحياة ، وتخلينا نتبناها بعد الولادة . أنت عارف حالتنا . »

وأنا الذي ناضلت دائماً لأن أعلق وشائجي بعرى العالم الوثقى .

حرّمت على فمي قول مرحبا ، إلا إذا كان قلبي يقولها . جلدت نفسي بحثاً عن حقيقتها الأعمق ، والعالم حولي بحثاً عن حقيقته الأصدق . حتى أخي وأختي لا أقبل أن أزورهما لمجرد أنه واجب علي . وهأنذا أخلع قميص الغربة واكتشف مبادهتي ومشاعري وأماني وأفكاري ومرفاي ، فأجد غيري يرتدي جلبابها ، ويضرب في قدميه مسمارين لتلزما موقعهما القديم العديم . أفحتم إذ تبدد وعيي الكاذب أن يتردى الآخرون في غشاوات أبصارهم ؟ لماذا تقاوم هذه الحدباء امتلاكاً للضرورات الأولية . إذا كان أول وعي للانسان بذاته قد انبلج مع أول امتلاك لشيء ثمين ؟ لقد نسيت تماماً بهجتها يوم قارعت أبو خليل وغلبته بلعبته ؛ ونسيت بهجتها يوم صنعت غمامة ومظلة من أموال الفروغية ؛ ونسيت بهجتها أيام كانت أم اللولو تفاجئها بقطعة بعد قطعة مما يتزين به بيتنا الآن . ان فرح حصولك على شيء تحتاجه أو تحبه ، فرح طبيعي ومشروع . أليس الحب حصولاً ؟ والولد والصداقة والأزهار واللوحة والمعزوفة والجمال والنصل ؟ كل ما في الحياة حصول وامتلاك .

كان يقترب من الشارع الأيمن ، هادئاً مثلي مستغرقاً . ومثلي تقوده قدماه الى الخلاء الواسع الذي يتصف به سوق باب شعوب في الليل . ترددت ، هل أعلن رؤيتي له فأسلم عليه ، أم أستمر فأنعطف إلى مكان آخر . من قبل جئت هذه الأمكنة مع نازك في رابعة النهار . وكان لتلك المناسبة فرحتها . لكني مضطر الآن إلى المجيء ليلاً ، لأن أحداً لن يتركني في النهار استمتع بكوني مجهولاً . ولعل هذا هو ما دفع سلطان إلى مشواره الليلي .

استقرت عيناه علي . تابعنا مشينا البطيء والتقينا . تبادلنا السلام . بالفة أساسية ، لكن بلا حرارة . أحسست بنعمة الليل والهدوء وبرودة اللقاء . وإلا لا نكشف بي اضطراب ما كنت لأقبل أن يعرفه سلطان . شيء في هذا الرجل ، وفي لغته الالتفافية ، أثار بي خوفاً مضمراً . ولم أتبين تماماً أهو

خوف من القبضاي القديم أم الملك الحديث . ليس ضرورياً أن تكون على حق لكي ينصفك الآخرون . ومن أين لسلطان أن يفهم أن فاوست وهيلانة على حق ؟ من قاطع طريق بالعنف العضلي الى قاطع أرزاق بالعنف المالي . عنف بعنف .

كان يقول : « كثيراً ما أرى فيك رجل فكر وعلم وحكمة . وأتحسر على قلة تعلمي . بالله أن تقولي لي بماذا كنت تفكر . »

قلت بانشراح : « الحقيقة كنت أفكر في الملكية الفردية . »

« التي هي ، كما فهمت من أفكارك ذات يوم ، سبب العنف والصراعات . ولذلك لابد من الاشتراكية.» قلت بثقة : « نعم ، بالضبط . لأنه لا يمكن الوقوف عند حد . تحصل على حاجة أساسية فتطمع في التي بعدها . وكل حاجة تصير في وقت قصير أساسية . الامتلاك صار طبيعة ثانية في الإنسان . مشرش مثل الآفة . وكل علاقة بين الناس مطبوعة بطابعه . والحياة فقدت كل حس بالمشاركة الجماعية . »

« لكن هناك نواحي ، لا يمكن أن يتشارك فيها الناس . ما الحل برأيك ؟ »

« أي حل ؟ كل شيء يمكن إخضاعه للمبدأ أو للتنظيم . والاشتراكية هي الدرع الواقي لانسانية الانسان . »

« أنا قصدي ، الاشتراكية في الزوجات مثلاً . »

كنا واقفين تقريباً وسط ساحة باب شعوب . المصابيح الكهربائية تشع في كل مكان والشوارع العريضة هادئة ومتألقة بنفايات تركتها شاحنات الجملة . وغير بعيد ، سمقت المئذنة في السماء الدكناء .

قلت وأنا أصطنع جدية حَرفية مباشرة : « هذه مسألة خاضعة في رأيي للوعي وليس للملكيـة الفـرديـة . » وأحسست بقـوة الفكـرة إحساساً طرد قوة الـواقـع من تفكـيري ـ الـواقـع الذي حاول سلطان تذكيري به . واندفعت أقـول : « الحيـاة قائمة على التعدد ، لا على التفرد . لا يمكن لفرد أن يلبي جميـع الحـاجـات الأعمق لفـرد آخـر . لهذا تنتشـر اشـتراكية غير مشروعة . ويمكن لفـرديـة الفرد أن تتحقق ألف تحقق في ألف شخص . العقل البشري يجب أن يكون موضوعياً في مسألة العلاقات الفردية . الحق هنا ليس مبنياً على الملكيـة ، رغم كل شيء ، بل على التفـاعـل السعيد بين الشخصين ، على التناغم والاستمرار بين ايقاعات النفسين وبينهما وبين ايقاعات الحياة . »

امتـدت يده وأطبقت على زنـدي ، ودفعتني بقـوة هادئـة في السـاحة . قال : « يا سلام ! فكـرة الإيقـاعـات هذه فكـرة ساميـة . الحقيقة أنك مفكر كبـير . لذلـك عسى ألا تزعجـك استفسـاراتي . أنا عارف أنها استفسارات جاهلة . ولكن ، أسألـك بالله يامعلم علوان ، هل يعني كلامـك أنـك تجيـز الخيانة الزوجية ؟ »

أحسست بوطأة أصـابعـه على زنـدي . واتصـل ضيقي البـدني بضيق عقلي مفاجىء : « أنا لا أتكلم عن مواضيع خصوصية . أنا أتكلم في المبادىء العامة . من أنا حتى أجيز أو لا أجيز الخيانة الزوجية ؟ »

« ازدادت أصـــابعـــه الأخـــويـة ضغطـاً على زنـدي ، ودفعـاً لي عبر السـاحـة : « عليـك نور . الحقيقة أنك رمز للتواضع . ورحم الله امرءاً عرف حده فوقف عنـده . لأنـك تعرف ، وأنت المفكر الأريب ، أن المبادىء العامة مستخلصـة من الحيـاة ، من العيش . يعيش النـاس أولاً ، وبعـدها يعملون المبادىء . أم أنا غلطان ؟ وعندما يحس واحدهم أن إيقاعات النفس ـ والله إنه

تعبير حلو وفنان ـ تتطلب خرق المبادىء ، يخرقها والعوض على الله . وعندها يحس الشخص المعني بالتهديد الواقع عليه . وعندها يبدأ العنف والصراعات . ويحدث مالا تحمد عقباه ومالا يرضي الله . ولا تعود الاشتراكية تحل المشكلة . أم أنا غلطان ؟ عجيب ! كيف تترك البلدية هذه القمامة فلا تزيلها ! »

كنا الآن عند أول الدكاكين . وكان ذهني برزخاً تتلاطم فيه تيارات عنيفة . رجّته الجملة الأخيرة ببساطتها اللغمية وإيحائها القوي أن ذهن سلطان فجأة لم يعد مهتماً بغير نظافة المدينة . « لابد أن أكلم عبد اللطيف بك ليزيلها . هل تعرفه ؟ »

« عبد اللطيف ، رئيس البلدية ؟ أنا الذي أعرفه . صديق طفولتي . »

« مدينتنا يمكن أن تصير أجمل وأنظف مدينة في العالم . المهم أن نبدأ بإزالة القمامة » .

صار كلامه واضحاً . هو يهدد . لكن بأسلوبه الالتوائي المعتمد بالتأكيد على الغدر والمخاتلة ، لا على المجابهة . على أية حال ، إذا أصر على أن يصنع من نفسه عقبة ، فالمسدس يمكن أن يستعمل في أكثر من اتجاه واحد . ستكون الرصاصة سعيدة لاختراقها ذلك الرأس الفظ الشبيه بالسلحفاة ، من صدغه المصبوغ بالأسود ، أو سقف عينه ، أو رقبته ، أو ترقوته . يهددني ، قال ! لقد انطلقت الآن على طريق الوجود ، والحياة . صار علوان يليق بالأعالي . وأم اللولو ليست مجرد امرأة . ما الذي لا يوجد في أم اللولو ؟ هذا المسكين سلطان معه حق . فعلاً معه حق في غيرته . لكن مسدسي جاهز . مثل هذا التحقق والقوة لا يأتيان الإنسان في العمر مرتين . حتى نازك ، يجب أن تلتزم حدودها ، وتبقى داخل حجمها الصغير .

- ٥ -

رشت أم يسير الدار بسطل من الماء . ولحظة فاحت رائحة الأرض المثيرة النفاذة ، دخل يسير حاملاً عدته ، نفخ صدره بشهيق متمهل ، وصلى على النبي . وعادت الأم تدلق سطلاً وراء آخر ، وتكنس الدار ، حتى لمعت الحجارة السود برونقها القديم . كان الجميع حاضراً . ماجد وعزيزة وقفا تحت الدرج الخشبي ، وبينهما رؤ ينا مثل صورة تذكارية . سعدون على عتبة غرفته . ووراء أبي حسن ، المسترخي بزنده على إطار الباب ، وقف فصيل الأولاد وأمهم . وعلى الكرسيين الصغيرين جلس يسير ونازك يراقبان باستغراق عملية تنظيف وترطيب وترفيه .

طرحت أم يسير السطل والمكنسة ، وفي ثوان أطاحت حركتها بفرح الجميع . تابعوها وهي تندفع نحو يسير ، وسمعوا نصف شهقة من فمها ، ثم رأوا أصابعها تكم ذلك الفم .

انتبهوا الى يسير . كان يوشك أن يقع . لم تعد نقطة توازنه وسط الكرسي الذي جلس عليه ، وإنما أخذت تتحرك باتجاه نازك . وهوى جسمه نحو المرأة التي انتشلتها حركته من استغراق رحيم . هي أيضاً اوشكت أن تصرخ ، لكنها وقد لاحظت أم يسير ، كمّت فمها بفمها ، ودفعت ظهر يسير بيديها ، وانتصبت واقفة .

تركته الأم ينهار على الأرض . وانهالت على وجهيه صفعاً . صفعته بتلاحق ضيّق أعين الآخرين ، وبقوة سمرت حركتهم . وكانت نازك الأشد انذهالاً واصفراراً ، فالذراع الهزيلة الضامرة التي تحركت وضربت بهذه القوة الفظيعة ، كانت على بعد سنتمترات فقط من جسمها المخدر بالذعر .

أخـيراً مد يسير يده . توقفت الأم . وأرسلت عيناه الزائغتان لمعة الرؤ ية وأنس الادراك والمشاركة . ابتسم . نظر حوله بوجه جاهل . وأرسلت ابتسامته الحليمة للمشاهدين تعابير بدت أقوى لأنها لم تنطق . وشيئاً فشيئا تبدد التوتر والتصلب . أسرعوا إليه ، وتحلقوا حول الكرسي ، وقد جعل وعي قوي بجنسهم البشري فرحَهم جارفاً طاغياً .

ظلت أم يسير قلقة . وقد استغربوا ، ثم فهموا . لكن نظراتها الى المدخل كانت غامضة ومزعجة . وخيل لنازك ان هذه المرأة القديمة تتوقع عودة الشيطان عبر المدخل ليحل من جديد في عقل ابنها . اغتنمت انشغال الجميع بيسير وصياحهم حولة ، وهمست : « خالة أم يسير ؟ »

ثم سألت عيناها السؤال . همست الأم بتوتر : « إذا دخل شيطان أرض الديار . . رجعت النوبة . . ابني حكى لي . . عدم المؤاخذة . . يارب ! يارب ارحمه واحمه . . »

كان علوان في أول الزقاق ، عائداً بعد صفقة عظيمة أخرى في المقهى العقاري . هناك وجدهم تماماً كالمرة السابقة . حيوانات استوائية مسترخية . غير أنهم هذه المرة تحركوا . تحرك الذين رأوه أولاً ، ثم انتقلت العدوى . وكانوا مازالوا يسدون الطريق . تسارعت نبضات ذهنه . رأى أن ما يبدو احتمالاً بالهجوم عليه ، رغم اتجاههم الظاهري نحو مدخل دارهم ، قد يصير حقيقة في غمضة عين . لذلك استل مسدسه ، وفي غمضة عين كان قدَ أطلق أربع رصاصات حفرت الأرض أمام أعينهم ، والآذان في بيوت الزقاق . لم يشأ أن يبطيء ، وقد جاء حيوياً منشرحاً بفضل الصفقة ، وإلا ظنوه خائفاً . لكنه رأى السرعة نفسها خطراً . من يضمن ألا يلجأ الحيوان الى هجوم شرس إذا أخفقت لديه كل وسائل الدفاع ؟

هذه المرة أطلت الرؤوس من الأبواب والشبابيك ، وبقيت الأبدان داخلها . وكان سؤال ناري يخترق رأس علوان : أوتصل الأمور في المستقبل الى حد أن يلعلع الرصاص كلما أراد الخروج من بيته أو الدخول إليه ؟

ثم بدأوا ينحشرون في مدخل دارهم ويغيبون ـ ببطء ولكن بلا تهديد . أيقن علوان أن تباطؤه حكمة . تباطأ . غير أن السؤال ازداد إلحاحاً . إذا لم يحل السلام حل الخراب . المغامرة ، أجل . والخطر أيضاً . ولكن ليس الرعب . يجب أن يحل السلام بأي ثمن . بأية طريقة . مرتين التفت خلفه متوجساً أن يرميه أحد بمطواة أورصاصة ، رغم انشغاله الكثيف برد التحيات . وفي المدخل العاتم فقط أيقن أنه آمن ، وبدأ انفلاش الرعب في أعصابه وأنسجته . ولحظة وصل الى الباحة ، كانت عيناه غائمتين بالدمع ، وفمه متهيئاً لإخراج رعبه شهيقاً ناحباً .

انفجار آخر بالرعب سبقه بثانية أواثنتين . كان صوت الرصاص قد اختطف يسير من أمه وألقاه في كهرباء دماغه العاصفة . وكالعادة تمت النقلة دون أن يلحظها أحد . كان الجميع مغتبطين في البداية ، متصايحين . وسمعوا الرصاص فهرعوا الى المدخل . إلا نازك التي بقيت على كرسيها . ثم تراجعوا دونما سبب ظاهر ، أو امتنعوا عن الخروج . وقفوا في الباحة حائرين مضطربين ، وأعينهم باتجاه المدخل تتسقط صوتاً .

لم يجد ركض الأم الثاني الى ابنها . ولا الصفعات المحمومة المتعبة . كانت عيناه الآن تتغارزان وعينا علوان . عبر أمشاج من الدمع ، شاهد علوان وجهه : شبحاً أشد هولاً من الرعاع ، فامتنع منه الصوت . وشاهد هو وجه علوان فصرخ صرخته التي أيبست عروق الآخرين .

كان المسدس ما يزال بيد علوان ، وكان الحقيقة الوحيدة التي قبل عقله

بها . الباقي تراءى كابوساً أو أخيولة رديئة . لم يصدق شيئاً مما حوله . وللتو امتلكته تلك الأنشوطة العصبية اللاشعورية التي قذفته عبر سبطانة المسدس

أول مرة منشطراً الى سبع رصاصات تشظت بين الرعاع . ضغطت اصبعه على الزناد . وظل يطلق الرصاص حتى بعد أن فرغ المسدس . ظلت اصبعه تلطم الزناد الميت ، وقد مد ذراعه في الهواء كأنه يوشك أن يطير .

انتبه الى الأيدي الممسكة به . كانت نازك وأم يسير تحضنان الرجل المزبد الشدقين . ثم انضمت نازك الى الرجال المطوقين علوان بأذرعتهم وأجسادهم . تصفحهم بعينين هدأتا فجأة . أنزل ذراعه . انفردوا عنه . وفيما صاح أبو حسن : « كاسة شاي للمعلم يا أم حسن ! » وضعت نازك ذراعه على كتفيها ، وطوقت ظهره بذراعها . « تعال الى بيتنا.» ومشيا الى الدرج الخشبي .

أجلسته على الكرسي الهزاز . كان جبينه يتحجب عرقاً . أخرج المخزن الفارغ من المسدس . وضع آخر محشواً . أنزل المسدس بين جسمه والبنطال . أنزل المخن الفارغ في جزدانه .

كانت نازك قد صنعت له القهوة . لم يتكلم . شرب الفنجان ونهض . قالت نازك بخفوت : « تحب أن نخرج سوية . . إلى شيء مكان ؟ » رفع راحة يده بالنفي . « شكراً . عندي شغل بسيط . »

قالت أم اللولو إن ما حدث كان فعلاً رائعاً . فاوست لم يكن يخاف من التجربة . كان يمضي فيها بشجاعة أخلاقية نادرة ، مستمدة من إيمانه المطلق بحقه في الفعل . على أية حال ، لن يضير علوان أنه خاف . الخوف تجربة . واقع طبيعي مع أنه ليس واقعاً شعرياً . مرة تلو المرة ، وسيجد أن بذرة الصلابة والرجولة والعظمة والمجد قد امتدت الى الأنسجة فنشت فيها ذلك

الاسمنت الـذي يرفـع ناطحـات السحاب ، وجعلتها تنتصب كأبي الهول أو أسد بابل .

كانت تضـع رأسه في حجرها ، ويدها الخضيلة بالجمال تمسد خصلات شعره الشعثاء . في ذلك المخدع البيضوي أحس باكتمال الأشياء واستقرارها . هي بشكـل خاص : كانت جاريـة وأمـا وغـانية وسيدة ورفيقة عُلى . وتناوب حديثها أذنيه مع صور الذاكرة الغابرة . حدثته عن فاوست الذي لم يبال بقتل أخي حبيبته ؛ فيما انفتحت أعماقه الجوانية على طفل مهيض الجناح ، يعدو ، يتكىء على جدار ، تدخـل في كعبـه شظيـة ، يسـرق رغيف خبـز ، يبكي احتجاجاً على الشغل في دكان أبيه ، ويرى أن العالم هو هذه الحارة الأبدية .

« زينب في بيت أبيها اليوم . ردة العرس . »

فتح عينيه . اعتدل جالساً . عاين الشدة والشرود في وجهها ونظرتها . وتوقع كلمات سيفية .

« لا يجـوز أن تفلت زينب من سلطـان .ولحسـاب من ؟ لحسـاب هذا المجرم خلدون . »

في البداية جاءوا فرادى . ثم أقبلوا بغزارة من طرفي الزقاق ، من بيوت ليست على البـال ، من أزقـة أخـرى ، وربـما من حواري أخـرى . ولحظـة تنـاهت الصـرخـة الى الأسماع ، وتبعتها ولولة وصرخات ، كانوا واقفين على كل مواطىء قدم تقـريبـاً من أول الـزقـاق الى آخـره . شيء واحـد أعطى احتشـادهم شكـلاً ووجهـة ، هو بوابة حديدية موصدة التقوا عندها كما يلتقي شطـرا الأرض عنـد خط الأستواء . قيل إن صوت أبي زينب ، الذي اخترق البـوابـة ، هو الـذي جذبهم اليهـا . وقيل إن نبأ رجوع العروس ، والتوقعات المشبـوبـة هو السبب . وقيـل إن أم زينب صرخت في البداية صرخة مروعة ،

فجعلت صدورهم تتجه نحو الدار . وقيل إن سبب الصرخة هو الهدوء المفتوح للاحتمالات المخيفة ، الذي وسم حركات أبي زينب وهو يجلب سكين المطبخ ويعود الى حيث أمر ابنته بالانتظار .

كانت زينب قد استقبلت بحفـاوة بالغـة في النهـار الفـائت . وجـاءت الجـارات بلا استثناء فسلمن عليها . اندلعت الزلاغيط والبخور والدعوات . بدأ الشواء عند الظهر ، ولم يتوقف حتى المساء . وكان هم الأم الأول أن يرى أكبر عدد من النساء الخرقة التي كانت بيضاء قبل أن يبللها دم العذراء ليلة زفافها .

وبلغ الاحتفـالِ ذروة لم يسـع زينب معهـا إلا المبيت تلك الليلة في دار أبيهـا . وهكـذا غادر خلدون وزيـد الـزقاق ، واحتضنت الأم ابنتها كما كانت تفعل في الأيام الخوالي . ونامت المرأتان نوماً عميقاً .

فيـما بعـد عرف النـاس تفـاصيـل قليلة من محضر الشرطة . لكنهم بعد طول انتظار ، وبعد تجدد الصراخ هستيرياً ومتوحشاً ، رأوا البوابة تنفتح ، وأبا زينب ينبثق منهـا . كانت يداه تقطـران دمـاً . ووجهه وقميصه مبللين بالدم ، وبنطـاله وحذاؤه . وقد شجّ أعينهم المنظر ، فانحسروا الى الخلف ، وبحركة عفوية مذهولة فتحوا له طريقاً . كان وجهه قريراً ومشيته عادية تماماً . لم يسلم على أحد . مشى كأنه ذاهب لشراء حاجة من السوق ، ومضى الى مخفر الشرطة .

لم تكن ثمـة تفـاصيـل حقـاً . بضـع كلمات أعلن فيهـا الأب الهـادىء المعترف أنه ذبح ابنته من الوريد الى الوريد لأنها دنست شرفه .

بعـد صرخـات تحطمت لغتهـا من الأم ، تلاطمت أمـواج النـاس وهي تندفع داخل الدار . كانت الأم شبه عارية ، محلولة الشعر ، حيوانية المحيا ،

خرساء ذاهلة ، كأن الذين حولها مجرد حركات مشوشة وأشكال لا كينونة لها . على السجادة العجمية لم يعرف أحد كيف يرى ما يرى . جثة مغمسة بدمائها . رأس عالق بالجلد الخلفي . وجه مكفن بسنابل خرنوبية من شعر أسود اصطبغ بالدم . عين تلامحت عبر شق في الشعر ، محتفظة بجسد الرعب الذي اجتاحها قبل أن تموت .

لم يقترب أحد من الجثة . كانت العيون ترى ، فتشيح الأجساد وتبتعد . ولم يصدق أحد أن السيارات الصافرة ستخفف شيئاً من اندفاع الفيض البشري أو غزارته . ثم جاءت الشرطة فأقفلت الباب وختمته بالشمع الأحمر .

كانت أم عبودة قد التقطت أم زينب من ظهرها وجرجرتها الى الدار المقابلة . هناك كانت أم يسير تشهق وتنتحب على صدر ابنها . دخلت ام عبودة وحملها المفجوع . أجلست النساء الأم الثكلى على حصير مدتها عزيزة . واجتمع الأطفال وراء نازك وأم حسن وراقبوا بأفواه مسترخية .

على عتبة غرفته وقف سعدون بين علوان وأبي حسن . ولولا قليل من العزم لتهاوى . بين مخاطب لنفسه وزميليه ، غمغم : « أنا قلت ؛ أنا قلت . الشجاعة في غير أوانها انتحار . لم يسمعني أحد . والقاتل سيطلق سراحه قريباً بحجة فقدان الاعصاب دفاعاً عن العرض والشرف . »

كان مأتم زينب أهم حدث شهدته الحارة منذ زواج سلطان وأم اللولو . صحيح أن فتاة اغتصبت منذ فترة في باب شعوب وأن مغتصبها قتل . لكن مصرع زينب كان حزناً وفاجعة من نوع مختلف . حتى يسير صاح عندما علم بالتفاصيل : « اقتربت الساعة وانشق القمر . » كان هناك من رأى في ذبحها عقوبة مستحقة . فأن تجرجر ابنة الى الذل والهوان أباً تميز بالفضل والمكرمة

يعني أن موتها خير من حياتها ، إن العار لابد أن يغسل لأن أحداً لا يستطيع تحمله . لكن الـذي برر حماسهم الأخـلاقي تحويـل القـول الى فعـل ، لم يستطيعـوا محو صورة الـرأس المقطـوع من أذهانهم . الآخرون ارتدوا الى ذعر اخترق حاجـز العقـل وألقـاهم في غيبـوبـة مكـذبة . أم اللولو أصابها غثيان الاشمئزاز . وخلال تكفل شخصي بكل ما يتعلق بالجنازة والدفن ، ظل وجه سلطان ممتقعاً وعيناه ترابيتين .

قال المعزون لسلطان ان ما حدث يجب ألا يهز إيمانه بالله وثقته بالناس . قالوا إنه مثلما يولد أحياناً قرد ، أو قزم ، أو شيء عجيب آخر ، من رحم امرأة آدميـة ، يمكن أن يضـرب شيطان الثأر عقل ابن آدم فيعميه . هذه شذوذات وليست أصولاً . لقد بات واضحاً أن أبا زينب كان يبيت الأمر مذ وافق على الزواج ، انه كان يطعم روحه سماً قاتلاً ويحقنها بشهوة الثأر والدم ، ليقف وقفة الرجل المنافح عن شرفه المهان . لكن ، رب ضارة نافعة . المعلم يرى الحارة الآن . لا أحد ينبس بصوت أو حركة . كل واحد يمضي الى حال سبيله . في الصبـاح يخرج النـاس الى أعـمالهم . وعنـد الظهر يأكلون ويقيلون . الرعاع أنفسهم اختفـوا . وفي المسـاء يسهر الناس في بيوتهم . وأفلام الفيديو كثيرة . لقـد مضى أسبـوع على الـدفن ، وروح زينب ترفـرف على الحـارة بالأمن والسلام والهدوء . حتى يسير ، الذي تضاعف شروده وتشتته ، لم يعد يتلقى تعـذيبـاتـه اليومية من الأطفال . إنه يمشي كمن يستدل على الطريق بذاكرته القوية لا بعينيه الخاثرتين .

في اليـوم الثـامن لم يخرج يسير الى عمله . تابـع نومـه ، وفـاتته صلاة الصبـح . أفـاقت أمـه وفـوجئت . لطمتـه وهـزته . زجرته ، وهددته بغضب معلمه . غمغم وهو ينقلب من جنب الى جنب : « اقتربت الساعة وانشق القمر . »

انكفأت عنه وجعلت تبكي . منذ موت زينب دخل مرضه في عقله . الآن هي وإيمانه عاجزان عن المرض . وهذا الجني الذي يطارده منذ أربعين عاماً ، قدر أخيراً على الدخول في عقله . لو بقي في رئتيه ، أو أمعائه ، لانتهى الأمر بنوبة . لكنه الآن دخل الدماغ ، وغير قدرة الله لن تخرجه .

تحاملت على نفسها ونهضت الى الباب . أوشكت وهي خارجة أن تصطدم بعلوان . شهقت وارتدت ، وقد رأت صدره خلال قميصه غير المزرر . ومضى هو مسرعاً دون أن يلتفت إليها ، متابعاً تزرير قميصه . جلست على الكرسي الصغير ، وقد ضاقت الدنيا في صدرها .

سعدون أيضاً فاجأها بخروجه . هذا المعتصم بغرفته انبثق منها بصحبة شاب في مثل عمره . هو الآخر كان يزرر قميصه ، ويغمغم : « إذا صح الخبر ، معناه أن سفك الدماء ما انتهى . »

ونازك أيضاً ! هبطت الدرج ، وبسرعة غير مضطربة عبرت الباحة متلفعة بوشاح أسود . « صباح الخير ، خالة أم يسير . » « صباح النور ، يابنتي . إن شاء الله خير . » وراقبتها باندهاش : لم تتوقف لتقول كلمتين حلوتين ! ما هذه الحركات الغريبة منهم كلهم ؟

وقفت على عتبة الدار بجوار نازك . أدركت أن هناك سبباً ، دون أن تعرفه . كان مدخل دار أم اللولو مثل جرة النحل : أناس يصطدم أحدهم بالآخر وهم داخلون خارجون . وكانت أرض الزقاق وجدرانه مرشوشة بالفتيان الواقفين وأعينهم مثبتة على المدخل . سألت عيناها نازك ، فردت هذه باقتضاب : « جاءوا وقالوا له أم اللولو تريدك . »

فجأة وصل إليها فتى ووقف بجوارها . تأملته . قال : « الشباب فاتوا

في القصــر . » التفتت نازك بسـرعـة . أضـاف هو بأهميـة : « كانـوا فوق . انكشفوا . طلع لهم الحرس . نزلوا هم وفاتوا في الأقبية . »

تراجــع الفتى ، وعــدا إلى آخـر الـزقـاق . تحرك الفتيـان الآخـرون وابتعـدوا . توقفت الحـركـة في بوابـة أم اللولـو . ودفع الفضول المرأتين فمشتا حتى البـوابـة . أوقفتهـا لعلعـة الرصاص . انطرحت كل منهما على الجدار. شهقت أم يسير ذعراً : قد تكون الرصاصة أشطر من عزرائيل وتأخذ روحها .

توقف صوت النـار . دخلت المـرأتـان . في ساحـة القصـر ـ أم إحدى ساحـاته ؟ ـ انبهرت نازك بالسعة والخضرة والتلاوين والأشكال . لكن عينيها اتجهتـا الى الأقبيـة الجـاثمة داخل الأرض وفوقها بقليل . تذكرت قبوها الذي غادرته قبل شهور . وعادت فانبهرت بالقصور وجمالها وكمالها .

قطـع اهتـمام المـرأتـين صوت يصيـح من بعيـد : « اعطونا ضمانات ، نخـرج . » التقت أعينهما بتسـاؤ ل ومحـاولة لتذكر الصوت . خيل إليهما أنهما تعـرفـانـه . وصاح بوق مكبّر : « اطلعوا بلا شروط ، تضمنوا سلامتكم . » وزخة قصيرة من رشاشات . تساءلت نازك : « أين علوان ياترى ؟» وردت أم يسير : « هالصبي يمكن يجري له شيء . » وعاد الصوت يجهر : « أسلحتنا تبقى معنا للدفاع الضروري عن النفس . » إنه صوته ! ثم داخلهما الشك . صاح البـوق : « ارمـوا اسلحتكم الى السـاحـة . اطلعـوا بلا شروط . » لا رصاص هذه المرة . صمت مديد . من الزاوية اليمنى برزت أم اللولو ، امرأة عظمى زادهـا الغضب جلالاً وجـالاً . ثم ظهـر الى جانبيهـا سلطان وعلوان وآخرون . أحست نازك بانكماش . وارتخى فك أم يسير .

غمـز علوان لنـازك غمـزة انتهت بسيـماء غضب . تراجعت المـرأتان . كانت الفسقيـة الخـماسيـة ترسـل في الفضاء أربعة أعمدة مائية يتوسطها ويعلو

عليهـا خامس صنـع في ذروتـه قبة من رذاذ . حول الفسقية انتصب مثلث من النخيل متساوي الساقين . هناك وقف الثلاثة في الرطوبة المنعشة والظل الكثيف .

قالت أم اللولو : « أجبرناهم على دخول الأقبية ، والآن يرفضون الخروج . »

قال علوان : « جبناء . انتظريهم بس حتى يجوعوا . »

قال سلطـان : « أظن الأمـر غير هذا . لن يخرجـوا حتى يفضحـونا ، يبلبلوا عقـول النـاس ويشـوهـوا صورتنـا أمامهم . برأيي ، معاملتهم بالصبر والمكر ، وتركهم حتى ييأسوا ويستغيثوا . . »

نبرت أم اللولـو : « صبر ومكر وكلام فاض . أسلوبك الممطوط الرخو هو الـذي أوصلنـا الى هذه الفضيحـة . هذا تحد وتمـرد . هذه ثورة . وأنت يا علوان . لو قتلت اثنـين ، ثلاثـة ، منهم يوم حاصـروك في الـزقـاق ، كانـوا انحشروا في غيتواتهم . لأنه لا يوجد طريق ثالث ، أو طريق وسط . »

أشارت بيدها الى الأعلى . بعد قليل هبط الحرس برشاشاتهم فأشارت لهم بإصبعهـا . اتخـذوا مواقـع لهم حول الأقبية في قصر سلطان . « لا تطلقوا النار . راقبوهم جيداً . » وتركت الرجلين بسيماء من لا تريد أحداً أن يتبعها .

لم يجد الـرجـلان ما يقـولـه أحـدهما للآخـر . ورفـع كل منهما يداً ثقيلة مودعة ، ثم افترقا : سلطان الى مكتبه ، وعلوان الى المقهى .

بعض الفتيـان الـواقفـين هنـا وهنـاك راقبوا علوان وهو يغادر الزقاق من طرفه المتصل بساحة العروة الوثقى . كانت يداه معقودتين وراء ظهره ، ورأسه مطرقاً . ثم انعطف الى اليسار واختفى . على غير العادة تحرك نسيم منعش

قوي في ذلك الفراغ الضيق المتطاول . وكانت النوافذ والأبواب مغلقة . تحرك الفتيـان بثبـات وانتظـام واتجهـوا الى دار أم عبـودة . وإذ غابوا في ذلك الجوف الحوتي ، هيمن على الحارة صمت خامد ، سوى ذلك النسيم الشبيه بعصب مفلت من أعصاب الطبيعة .

دار واحـدة لم يوصـد بابهـا هي دار أم يسير . أساساً لم يكن ثمة باب . على المدخل وقفت النساء الأربع ، ووراءهن تذمرت كوكبة أطفال لم يفهموا لم أجبرهم الكبار على ملازمة الدار . التقت عينا نازك الكتيمتان بعيني أم يسير العكـرتـين . حتى الأعين لم يكن لديها ما تجرؤ على قوله . وفجأة امسكت أم يسير بيد نازك وجرتها الى الزقاق : « تعالي نشوف أم عبودة . »

سارت المرأتان بهدوء . قبل وصولها انفتح باب الدار الأخرى وانبثق منه عدد من الفتيـان . وفي المـدخـل فوجئتا بأم عبودة جاثية على الأرض . كانت يدهـا التي أوكأت ذقنهـا تتلقى الـدمـع المنحـدر على وجنيتهـا . وكـان دمعـاً أخرس . لمحتها فالتفتت ، وعلى وجهها هوّمت ابتسامة . نشمت . مسحت وجهها وعينيها بطرف ردائها الأخضر . كان واضحاً أن جثوّها مرتبط على نحو ما بخروج الفتيان .

جئت المرأتان مقابلها . لم تدعهما الى الداخل . فتحت يديها في الهواء وهـزت رأسهـا . « ما فيش فايـدة . » وغصت بالبكاء . نشمت وتماسكت . « ما فيش فايـدة . قلت له ياابني أنت مش شايف ورا المنخـل ؟ » صمتت . نبست نازك بثقة : « احكي لنا يا أم عبودة . »

« احكي لك إيش يابنتي . أربعـة أشهـر وهو يلعب بعقلهم . وأنا مش قادرة أحط في راسهم شوية عقل . »

« من هو ؟ »

« خلدون ، يابنتي ، خلدون . »

كان الاعلان مفاجأة شديدة . وإذن فالصوت الذي سمعتاه من الأقبية هو صوته .

« يعني خلدون وراء هالشغلة كلها ؟ »

« لأ . ليش الكذب ؟ لكن هو كان يفكر لهم . »

« ومن غيره ؟ »

« اطلعي شوفيهم فوق . عادل ونوزاد . وهالمجنون كريكور . »

« طيب . . . هالحركة كلها لأيش ؟ »

« أنا عارفة ؟ بقول لهم خلّوا الشرطة تيجي توخذهم ، وهم بقولوا جبر ونا ننزل جواة القصر . ماقبلوا . الشرطة كل عمرها رافعة العصا عليهم . بيطلعوا على نقالات ، بس مع الشرطة ، لأ . »

أوقف الحديث صوت خطوات ثقيلة سريعة . التفتت النساء ورأين أحذية الشرطة وسيقانهم . لمست أم يسير ذراع أم عبودة : « تعالي عندنا . أنا خايفة الشرطة تاخذك أنت . » هزت أم عبودة رأسها بالرفض : « كيف أتركهم ؟ » قالت نازك : « تعالي اشربي فنجان قهوة ، بس . » ونهضتا إليها .

خرجت النساء الثلاثة الى الدار التالية . في الباحة انضم بعض السكان إليهن . وصعدت نازك لتصنع القهوة . كانت مبلبلة الخاطر ولكن بلا هياج . خفقت في مخيلتها تصورات لهؤلاء الذين ذهبوا لينتحروا في أقبية سلطان وأم اللولو . كانت واثقة أنهم سيموتون ـ سيقتلون .

حركـة خفيفـة جعلتهـا تكتشف علوان جالسـاً في الغـرفـة الداخلية . « تريـد فنجـان قهـوة ؟ » ودون أن تنتظـر الجـواب أضـافت فنجـانـاً آخر الى الصينيـة . « نعم من فضلك . » كانت الكلمات باردة . وكـان هو جالسـاً في قيظ الغرفة الثلجي ، مجللاً بالخمود .

« ماذا ستفعل الآن ؟ »

« أفعل بخصوص ماذا ؟ »

صمتت برهة . « قصدي هالوضع الخطر . »

وقف على عتبة الباب . ازدادت هي انشغالاً بصنع القهوة . هو يريد أن يتكلم ، وهي تريد أن تسمع ، والصمت سيد الوقفتين .

قال : « أنـا لا أتحمـل أيـة مسـؤوليـة . لست ضدهم ، ولست معهم طبعـاً . أنـا مهتم بالحصـول على حقـوقي الطبيعيـة ، ولا شيء غيرهـا . بالعكس ، أنا كل عمري منحاز الى قضيتهم . »

صمـت . وصـمـتت هي كمن تريـد الكـلام ولا تجد العبـارة . ثم تلعثمت : « يمكن عملتهم هذه جنـونيـة . . أو انتحارية . لكن على الأقل لو أنك تنقذ حياتهم . »

بلا حماس غمغم : « هم علقوا بأم اللولو . وأنا لا أقدر على شيء . لا سلطة لي عليها . وإذا حاولت شيئاً ، خسرت كل شيء . بينما كل أصدقائي صاروا في العالي . »

مضت بالقهـوة الى الباحة . تساءلت كيف سيخرج وأم عبودة هناك . وبسرعة عادت .أرادت أن تقف الى جانبه . تذكرت حديثاً قديماً له ، ربما يوم أزمة الفروغية ، عن حالة انعدام الوزن . أحست أنه ربما كان الآن يعاني من

تجددها . وأرادت أن تكون الى جانبه ، لعله يسترد وزناً أحبته دائماً فيه .

« لماذا أم عبودة هنا ؟ جلستها طويلة ياترى ؟ »

كانت راحة يده تدق على الكرسي الهزاز ، واليد الأخرى ممسكة بفنجان القهوة . قالت : « نحن جئنا بها لنؤنسها . هل هناك شيء ؟ »

« لا ، لا . أنا ما لي ومالها ؟ على أي حال ، إذا كان هناك إحراج لها ، أطلع الى السطح . ومن هناك أنزل الى القصر . »

« الأحسن ، لا تطلع . السطوح كلها ملآنة بهم . »

بحركة شبه غريزية أخرج مسدسه ونظر الى السطح . لم يرَ أحداً .

أمسك نفسه وراح يدير المسدس حول إصبعه . « ماذا يفعلون على السطح ؟ »

« الظاهر ، يكشون الحمام . »

« لا فائدة . صحيح دود الخل منه وفيه . كأن وقعتهم السوداء في الأقبية لا تكفيهم . »

نهض . اتجه الى درج السطح .

« هم يكشون الحمام صحيح . لكنهم هذه المرة مسلحون . »

التفت . تلاقت أعينهما . نظرتها القصيرة المستبطنة سألت سؤالاً متبادلاً : « وماذا بعد ؟ »

بحكمة وهدوء فاجأها ، عاد الى المطبخ . « معناها الشغلة محتاجة للجيش . الشرطة لا تكفي . » أسرع الى الدرج الخشبي . لكنه وقف

وعــاد . عرفت نازك أنــه تذكــر أم عبـودة . واستعـادت بذلــك ثقتهــا في أنــه سيتدخل لانقاذ فتيان الأقبية . كان هو ينظر الى الباحة عبر الشباك المكسور. أصـر أن تراه أم عبـودة . وإذا التقت اعينهما أخيراً أحس بثقل هائل ينزاح عن بدنه . التفت .

قالت نازك : « انزل ، لماذا لا تنزل ؟ أم عبودة تعرف أننا معها . »

« طبعاً ، طبعاً . شوفيها أنت . طيبي خاطرها . »

مع وقـع أقـدامهـا العـادي على الـدرج تصاعد فيه ضيق وحصر . في البراري ، تتناثر بضع نبتات خضراء هنا وهناك فتعطي للأرض المجدبة رونقاً وأنسـاً . أيكـون أن حيـاتنا باتت تفتقر حتى الى هذه النبتات الضائعة ؟ بيني وبينها لم يحدث شيء يبر ر هذا اليباس ! ان ريح انسحابها الثلجية تضرب عين الشمس . إن صمتهـا جليـد يتفشى في شرايـين الصيف . والحزن الكبير هو أنهـا لا تعـرف أن هؤلاء المتـدافعـين أمام عيني تيوس وفقمات مهمتها توطئة الطريق . إن الإنسان فراشة تقضي عمرها في صنع شرنقة قد تموت داخلها . وشرنقة نازك أنها سمحت لإيقاعات الحياة أن تسيطر على إيقاعات النفس .

كان قد جلس في الغرفة المطلة على الباحة . ثم نهض بضيق وعصبية . حدد حركته في الغرفة بحيث يرى أم عبودة ولا تراه . حوله حوّم حس باقتراب السماء أو السقف - اقتراباً يمكن أن يطبق على رأسه . بعد كل شيء « هم » ما زالوا فوق . هاجمه شعور مثنى من الغل تجاههم والبغض تجاه نازك . إنهم أعـداؤه قطعـاً . وهم لم يحسبـوا أي حساب له في تحركهم الجنوني هذا ، ألغوه تمامـاً . أظهـروه قزمـاً أمام أم اللولو . ونازك جالسة مع أم أعدائه . وأم اللولو هي التي تمتشق سيفها بوجه الفوضى والجنون .

ومـاذا ستقـول أم اللولـو ؟ عدة مرات انخطف في ذهنـه شريـط ضوئي

يقـول : أنـا لا علاقـة لي . ثم امتدت من الذهن يد غير مرئية ومسحت ذلك الشـريـط . ثم لمعت عليـه نازك ، ويقـين حجـري أنهـا همه الـوحيـد ، رغم تضـاؤلهـا ، بل بسبب تضـاؤلهـا . إن تضـامنـه مع أم اللولو وسلطان لأجلها هي ، وكل ما يفعله . لأجل بيت وطفل . أفلا يحق له بيت وطفل ؟

على مقـربـة منه لمعت دائرة اخترق قوسها السقف وباحة الدار وضغط عليـه شدة عصبيـة وضيقـاً عقليـاً . كان محاصـراً بالفتيان والمرأة . وإن يسمع صوت نازك الداخلي ، يصعد إلى السطح ، ويقد هؤلاء الرعاع ضد سلطان وأم اللولـو . وينتهي الحصـار . هو واقعي وسيعترف أنه محاصر . غير أن هذه ليست الجـولـة الأخـيرة . وأم عبـودة لن تبقى في الباحة الى الأبد . سيخرج أخيرا إلى القصر . سيراعي شعور تلك المرأة ، فيمكث في البيت كي لا يثير أشجـانهـا . وقـد حفـظ له ذلـك الاقنـاع حساً بالنبل والفروسية . إنه يخوض معـارك نظيفـة . ولمـع الشريط من جديد كسيل من البرق والرعد منطلق عبر رشاشات ماكرة متحكمة .

هذه المـرة أحس هو بحـالـة انعـدام الـوزن . على نحـو ما ، ودون أن يعي ، هجـع في عتمـة نفسـه خوف متأبٍّ من نظـرة إدانة بلهاء تخترقه بها أم عبـودة ـ التي لا تراعي شعـوراً ـ فيصل إلى أم اللولو وقد تغير موقفه المسالم من الرعاع وينخرط في تلقينهم درساً دموياً . إنه لا يريدها أن تدفعه الى ما يكره . بالطبـع هو يستطيـع النـزول فوراً والـذهاب الى هناك . وهؤلاء الذين تحلقوا حول أم عبودة ، سيتركونها فوراً ويهرعون إليه .

أخيراً حطت أم عبودة في بؤرتي عينيه . عيناها السوداوان تلتقطان كل كلمـة تقـال حولهـا . وخـداهـا المليئـان المـدوران يلتفتـان ذات اليمين وذات اليسـار ، ليشـتركا مع شفتين مكتنزتين في تلقي الكلام والرد عليه . وكل هذه المدة وهي جالسة جلسة واحدة ! لقد تحركت نازك خمس مرات على الأقل .

أو لم يتزوجها أحد بعد مقتل زوجها ؟ أولم تعشق أحداً ؟ لقد خلقت هاتان الشفتان ليقبلهما عاشق . وهاتان الاستدارتان العبلتان . إنهما حقاً ما يقوله زيد . وحاول أن يخمن عمرها فلم يستطع . بالطبع هي أعمر من نازك . لكنها معفرة بالشهوة والشبق والصلابة والشروش . هذه القامة : إن أجمل وأفعم عناق لها يتم فوق التراب .

أحس بحنين غائر بعيد ينهض في وجدانه . وفيما عيناه تشربان الكتفين والزندين ، أحس بيدين حانيتين قويتين ترفعانه من إبطيه في الهواء . نسي تماماً حالة الحصار التي اهلولجت حوله ، وأثبت عينيه على أم عبودة . كانت المرأة تضحك ، تدفع أم حسن بأصابعها ، وتتكلم مع نازك ، وتهز رأسها بوجه أم يسير . وعندما نهضت هاجته انتصابتها السريعة ، وجسمها القوي ، ويداها اللتان أمسكتا أيادي الأخريات . رآها ملمومة ، وكان ظنها فضفاضة ؛ ورشيقة وكان ظنها مثقلة .

هبط عليها عبر الشباك . اقترب وتطايرت النساء اللواتي حولها واختفين . تراجعت الى الخلف فلم يمهلها . أمسك بفتحة فستانها عند الصدر وشقه . كان خصرها خضيلاً وجسمها ممسداًوممرعاً . ومن فتحة صغيرة تحت السقف مباشرة نفذ إليهما ضوء كاف . ولم يكن بوسعها سوى أن تئن ، مستسلمة تماماً ، عاجزة تماماً ، مسلوبة .

حركتها الخفيفة المتقطعة وهي تغادر والنساء يودعنها ، قوطعت بحركة راكضة على السطح .كان بعض الفتيان يتسلقون الى سطح أعلى ، وآخرون يثبون الى سطح أدنى . تلاشى غياب علوان المحموم ، وحضر إليه السطح والباحة والدائرة المحوّمة . أحس بشيء من الخوف ، ثم جرفه تقزز سيلي . وقف مطلقاً زفيراً مديداً ، وكانت يده على المسدس ، ومشاعره على بؤ رة من

الغـل والـرغبـة في التـدمـير . تذكـر أم اللولو وسلطان ، وهرع نازلاً وخطواته تسابق قلقاً وعدم اطمئنان . وطار خياله الى هيلانة العالم الجديد ، وموسيقا دفورجاك والجسد الطوطمي المزنر بعقل سقراط والمتعرق حضارة .

في الباحة سأل نازك كيف هي أم عبودة . غاضت الابتسامة من وجهها كأنها تذكـرت حقيقـة كريهـة : « شقيـة جداً . تقول الأولاد حتماً سيقتلون . تلتزم الهدوء والصبر . لكنها قلبها ينفطر . »

قال بأنس وديع : « خليك معها . قولي الأولاد لن يصيبهم مكروه . »

كان وجهاً مسربلاً بجدية حائرة . « لأول مرة في حياتي أشعر أني أصغر مما يجري لي . وأني لازم أن أكون نازك ثانية غير التي أنا . أكان قدراً ياترى أن نأتي الى هذه الحارة ؟ »

كان الأطفال جامدين في أماكنهم . وكلهم أبقى بينه وبين علوان مسافة أملتها الرهبة .

« المهم الآن ، أم عبــودة . إذا أقنعت الأولاد الـذين على السطـح أن ينسحبوا بسلام ، أنا أضمن لها الذين في الأقبية . »

هتفت أم يسـير : « دخيلة عليـك يابني . يكثر ألف خيرك . والله أنا عارفة أنك طيب وابن حلال . لا تترك سلطان يقتلهم ، أو هالساحرة . »

في لحظـة جارفـة رأى أمامه عدوة وضيعة . أم يسير المشعوذة الموطوءة . إن عداوتهـا هي التي تفجـر صرخـات يسير ، كلما فعلت قوى الجنون فعلها في ذلك العقل المفكك الخرب . التفت إليها وسأل : « كيف أنك يا أم يسير مع أم عبودة ، وتزغردين لما تشوفين أم اللولو ؟ »

وضعت أصـابعهـا على ذراعـه بفـرح وشطارة وهتفت : « يابني ، إذا

احتجت للكلب قل له ياحاج كلب . »

« ما شاء الله . لمثلك يحق إلقاء محضارات في الأخلاق . معناها أنت مع أم عبودة . »

« والله ياابني هالحوادث خلتنا نلمّس على راسنا . وعلى قول المثل : لو اسوارتي اوقية ، ما لي عن جارتي غنية . »

كانت أم اللولو في نافذة وعيه . قادم حساب الجميع ، وهذه العيون حوله التي احتقنت بالمكر والدهاء والضحك والاتضاع والحب والولاء والتقدير ، التي تحاول النيل منه عبر خضوعها التام .

ردت نازك بخفوت أبح : « لا أظن أم عبودة بيدها شيء الآن . بصراحة ، لا شيء غير الرعب واليأس . »

« إذا كانت أم عبودة تقول هذا الكلام ، فهي كذابة . أم عبودة تقدر أن تسحبهم عن السطح بإشارة من يدها . نسيت يوم هجمت في الزقاق ووراءها مئة مجنون وأمامها ذاك الغريب المسكين ؟ »

قبل أن يصل الى القصر تلقاه قطار من أصوات الرصاص . لم يستطع أن يحدد المكان . ربما من السطوح . ربما من الساحة . لكن الزقاق كان مدروزاً برجال الشرطة . مشى بأمن وطمأنينة . وكان الجيران قد التزموا بيوتهم بإيثار عريق للسلامة والسلام .

كان الخوف في الداخل . وهو الآن يقترب منه . ليس خوفاً بدنياً ، فالرصاص يقارعه الرصاص . تقدم في المدخل المضاء وموج الانفجارات يتلاطم على أذنيه . رأى شرطة آخرين في الساحة وممرات الطوابق ، وعلى الدرج والأسطحة . خمن أن مسرح النار الأعنف هو السطح . ومع أول خطوة

في الساحة هدر الخوف من جديد . دائماً ذلك الخوف ! لعله اتساع المكان . وعلى نحو ضبابي أحس أنه منخرط فيما يجري ، وإن في ذلك مسؤولية مضنية غامقة .

كأفعى رفعت رأسها فجأة ، ضرب الخوف صدره . رأى أم اللولو جالسة عند الفسقية . ثم هجعت الأفعى إذ رأى عدداً من رجال الحارة جالسين أمامها . نهضوا لتحيته وسلّموا ، إلا هي : أحدهم أعطاه كرسيه ومضى ليأتي بآخر .

هذا كله لم يبق في واعية علوان إلا ثواني . علقت عيناه بوجه أم اللولو ثم لم تستطيعا مفارقته . رآه وجهاً مثنى ، فيه ما يبتسم وينصت ويجيب ، وفيه ما يستحم في بحر من النشوة وفيض من الظفر .

سألت هي : « المهم المناطق الأخرى . انتم متأكدون ؟ » تماماً ـ أجابها الجميع بصوت واحد . ولقد حضروا ليطمئنوها . وظل وجهها ملغزاً في وضوحه ، مطمئناً في انشغاله ، منفصلاً في اتصاله ، جميلاً في همه . تذكر إقبالها الجنسي العاصف عليه كل مرة اصطدم رصاصه بوجود الرعاع . وأحس بالثقة أنها ستفعل الشيء نفسه الآن .

« أين المعلم سلطان ؟ » سأل بحميمية طبيعية . اعتكر وجهها قليلاً : « أظن لو تنضم إليه ، فربما ترفده بمعلوماتك العسكرية . هو هناك .. » وأشارت الى قصر صغير متصل بسطوح الحارة .

التفت الجالسون إليه . واصطفق فيه حس بالأهمية . لم تكن كلمات أم اللولو مجرد أصوات اتفق الناس على معانيها . كانت نداء . النداء نفسه الذي سمعه يوم أهدته البدلة وقرر أن يعيد ترتيب العالم في ذهنه . وفيما يقترب من القصر . انبلج في سريرته حس عضوي بأن لحظته التاريخية قد أزفت .

تقدم عبر المدخل ونحو الدرج الصخري الزيان ، وهو واع بأن ظروفاً لا تحصى وعوامل موغلة في الزمن قد تضافرت الآن في ذلك النداء لتقود خطاه نحو فعل فاوستي عظيم .

حوله تعالت وانجدلت أصوات الأزيز والهزيم . تغلغلت فيه فتحفز وتنفس بعمق . لقد اخترق حتى الآن حواجز كثيرة ، قطع رؤوس الأفاعي التي كانت تشده الى الخلف . لكنه منذ هذه اللحظة سيشرع في إشادة تاريخ خاص به ، يدل عليه ، وينبىء بمكامن شخصيته الماردة . وفي غرفة عليا من القصر ، مطلة على الأسطح المجاورة ، وقف مع سلطان وراح يعاين الموقف . كانت المعركة تملأ العين والأذن . رشاشات تواجه مسدسات . وشياطين يقفزون على الأسطح حول كتلة مركزية من النار الكثيفة . « كيف هذا ؟ هم يتحركون من ثلاث جهات ! » وهز سلطان رأسه وصمت منتظراً . نظر علوان عبر شباك آخر في جدار آخر ، وثالث في ثالث . تذكر الحمامتين اللتين رماهما سلطان ذات يوم . ابتسم . « عندنا مواقع يجب استغلالها . رشاش عند تلك الدالية ، وآخر عند أنتين التلفزيون . » أوما سلطان بالموافقة .

خرجا من الغرفة الى بهو ، فإلى سرداب خفي معتم . هناك أعطى سلطان توجيهات هامسة ، لرجال بملابس الخاكي . ثم تقدما . ازداد الضوء . وخلال ثوان كانا يقفان وراء الدالية .

كنت الآن سيد ذلك المكان كله : القصر وميدان المعركة ، وسلطان نفسه والرجال . وعندما أقبل اثنان يحملان رشاشاً وصندوقاً ، وقفا أمامي وقفة عسكرية وانتظرا . تناولت الرشاش . اثبته بين أغصان الدالية . « أين الأمشاط ؟ صفوها هنا . » كان هذا الجزء من الدار متصلاً بالأسطح الأخرى . وهناك رأيتهم . كانوا مستغرقين في دوامة القفز وإطلاق النار ، أكثر

مما استغرقوا في أية طلعة من طلعات كش الحمام . كانوا على كل سطح ، وفي كل زاويـة . قردةٌ وعفـاريت . غريـزة محضـة وهمجيـة . انبطحت وراء الرشاش . « انتهبوا جيداً . »

اندلع الرصاص . هذا التهديد يجب أن ينتهي . مرحلة ما بعد الحواجز والأفـاعي يجب أن تستمـر . وكـانـوا مثل طيور القطا : أغبياء وكثيفين وسهلاً صيـدهم . هنـاك حس رائـع ، يفعمـك وأنت تطلق النـار . نشـوة عليـا وشفـافيـة . إن إطـلاق النـار متعـة الرجولة ، اختبار عظيم للدقة والأعصاب وفاعلية الوعي بالتاريخ . لقد أرسلت كل رصاصة لتصنع دليلاً وشاهداً على سيطـرتي وسيـادتي . وصـدقني إن أعظم لغة ابتكرها البشرهي هذه الكبسولة الصغيرة الحارقة .

وجهت النـار الى أرجلهـم ، لأني لم أرد قتلهم . كانـوا نوعـاً من الدمى العنيفـة المسليـة . وبـالطبـع رد عليّ بعضهم . مسـدس هزيـل لا يسمن ولا يشبع . لكن هؤلاء اضطروني الى تأديبهم .

ولقد أدركت ساعتها أنني كنت كل الوقت إنسانياً معهم بلا لزوم . أي تهاون مع مرض صغـير يجعله سرطـانـاً . وجهت الـرصـاص من مكمني واصطـدتهم . قبـل قليـل كانـوا مثل البواشق . الآن تطايروا كالزرازير . من سطح الى سطح . ومكانان آخران يطاردانهم برشاشين مماثلين . حملوا رعبهم ونـزيفهم وتطـايـروا . وعدت أرمي على أرجلهم . فحتى في تلك اللحظات اللافحة لم تفاقني إنسانيتي .

قال سلطان : « اتبعوهم على الأسطح ، واسحبوا الجرحى معكم . »

عادا الى غرفـة القصـر العالية . من هناك شاهدا النتائج الطيبة . كان الرعاع يتساقطون ، وفي تراجعهم يتعثرون ويتبعثرون . « أظن أننا بينما ننضم

الى المعلمين الآخرين ينقطع صوت النار . »

وهكـذا كان . عندما جلسا على كرسيهما ، كانت طلقات متناثرة فقط تسمـع بين الفنيـة والفنية . صمت علوان بتواضع واعتزاز . كان محيا أم اللولو المثنى يضـاجعـه . وعليه أثبت عينيه كلما استطاع . وفيما سلطان يروي بأخوة ومـوضـوعيـة ، كان هويلتقـط التلألؤ المتنوع في عينيها كالبيارق ، ويتأكد أنه امتلكها الى الأبد .

اختتم سلطان حديثه : « الذين تحت انعزلوا تماماً بإذن الله . ورأيي أن المسألة مسألة وقت . »

قالت أم اللولو : « ليس أي وقت . اعطوهم انذاراً نهائياً الأن . »

قال سلطان : « نهايتهم آتية لا ريب فيها . لا يضيرنا تطويل أجلهم .

بالعكس ، نكسب سمعة طيبة كمريدين للسلام ومتسامحين مع المسيء ، إذا أعطيناهم مزيداً من الفرص المستحيلة . »

سألت أم اللولو بنبرة : « وإذا قبلوا ؟ »

غمغم سلطـان بظفـر الواثق من مناورته : « وان جنحوا للسلام فاجنح لها وتوكل على الله . »

قال أحـدهـم : « لن يقبلوا . لا الفـرص ولا الانـذارات ، ولا قنـابـل الدخان . رمينا عليهم قنبلتين . والله قلنا بعد دقيقة يخرجون رافعين أيديهم . »

قال آخر : « أظن مات قسم منهم . »

تابع السابق : « لكن لا والله . هذا خلدون يرفض كل إنذار بعد ثانية من تلاوته . قسماً بالله أنا لا أفهم هؤلاء الناس . يعني ما الذي بودهم ؟ ما الذي يحبب لهم الموت ؟ »

هذه الفرصة الطويلة للكلام أعطاها انشغال أم اللولو بالاسم الذي ورد في الحديث . حتى وجهها بدا وكأنه توحد بتعبير مفرد وأوشك أن يهتفه . غير أنها التفتت الى علوان فجأة واستفسرت بصوت هادىء الارتياب : « والأخ علوان ! افتقدنا وجودك معنا . »

قال علوان بأهمية : « كنت مع أم عبودة . »

نظروا إليه جميعاً . زنخرت أم اللولو : « لم تخطر لي هذه الطريقة في تضييع الوقت . ما الجواهر التي لمتها من فمها المبارك ؟ »

تغاضى علوان عن الكلمات والنظرة الراعفة : « كل هذا الوقت وهي مصرة أن الأمر خرج من يدها . قدمت لها عرضاً لا يرفضه غير المجانين ، أن تسحب الأولاد عن السطح مقابل تسليم الذين في القبو للشرطة سالمين .

أصرت أن الأمر خرج من يدها . »

نبرت أم اللولو : « هذا أفضل . نشكر الله أنها مجنونة . وبالمناسبة ، هؤلاء الذين في القبو لن يستلمهم أحد سالمين ، فلا أحد يقدم عروضاً .

عجيب ! ألا ترون أنهم دخلوا الأقبية وفي نيتهم أن يموتوا داخلها ؟ معهم هذا العصابي الذهاني . تسبب في قتل زينب . والآن يتسبب في قتل أغرار مراهقين لعب بعقولهم . هذا واحد مجنون . إذا خرج من هنا حياً سيكون خطراً على المجتمع . »

قال سلطـان بهدوء : « إن الله يهدي من يشـاء ويضـل من يشاء . هم اختاروا هذه الميتة الابليسية لغاية في نفوسهم . الله أعلم ، هم يريدون إذلالي وتشـويـه سمعتي ولو كانت حياتهم الثمن . مع أنني لم أنقطع عن مد يد العون إليهم . ولو لم يكن هذا المسمى خلدونا معهم ، لاعتبرنا الأمر طيش شباب .

أو فورة قلوب ملأهـا الحسـد والبغضـاء . هذه أول مرة يخرجـون فيهـا عن طورهم . والسبب خلدون . والله إن قلبي يتفطـر حزنـاً عليهم . أنـا أكره أن يموتوا معه . لكن ما العمل ؟ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . »

أحـدهم اقـترح إعطـاءهم فرصـة أخـيرة . ووافق سلطـان : « بأمـر شواربك يا معلم حسن . »

كانت أصوات الرصاص قد انقطعت منذ حين . وعلى الأسطح تحرك أفراد الدوريات برشاشاتهم .

قالت أم اللولـو بصـوت هادىء : « أنا أرشح الأخ علوان لهذه المهمة . هو يعرف لغة خلدون هذا . »

نبر علوان بلا توان : « أنا ؟ أنا أعرف لغة واحدة فقد للحديث معه . المسدس . »

قالت أم اللولو : « أنا ثقتي بالأخ علوان غير محدودة . لا أحد غيرك أبوها . »

وأفلتت من عينهـا نظـرة مكبلة بالشغف والأمـل ، وتغلغلت في عينيـه العاشقتين المترصدتين . وكان لابد من لمحة باتجاه سلطان . قوة داخلية راغمة حولت رأسـه خطفـاً ليرى عيني المعلم الأول الأكثـر ترصداً . نهض . لم يكن ينـوي المـوافقـة على الاقـتراح بهذه السـرعـة . لكن لحظة كهذه لا يمكن أن

تهدر . لقد جاءته بفوز مستتر أكيد على دعيّ كل ما لديه ورقة زواج بلا عصمة .

مشى نحو قصر سلطان . بالتدريج راحت رائحة الدخان العالقة بالجو تزكم أنفه . شاهد الشبابيك المقضبة للأقبية ، ومناخلها السوداء المثقبة .

وشاهد التماثيل والمزروعات النادرة والأزهار الجميلة التي زينت المفارق والمساحات بين الأجنحة . وحسب أن بوسعه المشي عشر خطوات أخرى ليصير مسموعاً خطابه الذي سيوجهه إليهم . لكن الصوت فاجأه وأربكه : « قف يا علوان ! قف لأجل سلامتك . لو اقترب غيرك لأجريت دمه . أنت خدعت نفسك أنك رسول سلام . نحن غير مخدوعين . »

وقف علوان وابتسم : « ياأخ خلدون . مأساة زينب فهمناها . قلنا الحب أعمى . إما ، ما الذي أعماك حتى وصلت لهنا ؟ »

« عقل من النوع الذي عندك عاجز عن فهم السبب . »

« عقلي يقول لي ، أنتم تموتون مجاناً . »

« لأنك تسمي شروط عيشنا حياة . »

«سأقبل أي هدف تحاولون تحقيقه. »

« عندما تدركون أنتم الثلاثة أن الحل الوحيد هو التفاوض معنا نتكلم . »

« التفاوض معكم حول أي شيء ؟ »

« الغاء المشروع التنظيمي للحارة ، وتعمير بيوت للمستأجرين وغير المستأجرين فيها . »

« يعني صرخة احتجاج ضائعة ، عاقبتها الموت . أليس أفضل . . . »

« صرخـة احتجـاج ستكـون وشـماً ، وعـاقبتهـا الأولى رعبكم من المستقبـل . وأنـا أنـذركم الآن . لا ترموا علينا قنابل دخانية . معنا متفجرات تكفي لتدمير مدينة . إذا أحسسنا أننا سنموت ، نسفنا القصر برمته . وهذا لا يناسبكم . الآن ، سيعد رفيقي حتى الستين . أرنا عرض اكتافك وإلا انهيناك . »

« وماذا بعد الرعب ؟ »

« غيرنا سيجيبك . نحن قلنا ، هذا المجمع السياحي لن يقوم إلا فوق جثثنا . انتهى . »

تطـايـر الأزيـز حول علوان . انفجـر الهدوء وطوّقه بإهليلج من الموت . ثانيتين وهو يفكر هل يتابع الحديث . ثم دار على عقبيه وعاد .

سألتـه أم اللولـو : « ما لك ؟ » فوجىء بالسـؤال وقد توقع أن يكون : ماذا وراءك . وخشي أن يكـون شعـور عكـر لا يعيـه قد تسلل الى وجهـه . قال : « هؤلاء جماعة تملكتهم رغبة الموت . أو الانتحار . برأيي حان وقتهم . بقـاؤهم بهذا الشكـل يجعلهم أبطـالاً في أعـين الحـارة ، والمـدينة . حتى إذا ماتوا ، ولو بلا رصاص ، صاروا شهداء وأولياء . »

قال سلطـان : « نحن أبـرنـا ذمتنا تجاه الله وتجاه الحارة . ونحن سنترك المكان ، ريثما ينهي الحرس المرحلة التالية . »

لم يكن كلامـه إيـذانـاً فقـط بانتهـاء الجلسة ، بل وبافتتاح جولة الموت الأخـيرة . التي بدأت فور وصـول علوان الى الـزقـاق . كان نفـر من الشرطة يحاصرون دار أم عبودة وآخرون يدخلون من حيث خرج . وفيما بعد عرف أن

مجموعة أخرى عبرت المداخل الباقية وشكلت دوائر على الأسطح . ها هي الآية تنعكس ، قال لنفسه . أمست دار أم عبودة داخل الدائرة . وكل شيء بات معروفاً ومتوقعاً .

بالطبع آثر الجميع السلامة والسلام . لكن ماجداً ـ ماجداً الفظ ، المهرب ، البخيل ، الشرس ، الأناني ـ حشر رأس ابنته بين وجهه وكتفه وطفق يبكي . كرر أبو حسن استغرابه الهامس أن تندفع مغامرة صبيانية الى هذا المصير الفاجع . رأى الأمر كله أقرب الى اللامعقول ، لكنه خشي الكلام خوفاً من محاضرة يلقيها سعدون ، ولا يفهم هو منها سوى الزجر والتوبيخ .

وراحت زاويتا فم يسير تسلان خطين من اللعاب ، ينقطعان ويتمددان وينقطعان . كان أبو حسن نصف مذهول ، وكان يسير خاثراً وغائبا . كأنما انفرد القيظ الشائظ بكل حركة في الدار والزقاق والحارة ، فأحال الى سديم المادة البشرية نفسها والجدران والشجر .

لكن شبحاً في تلك الهاجرة الغائقة انبثق في الزقاق بلا صوت ولا نعلة .

مشى كمن يوشك أن يلتطم بعمود من نار ويريد في الوقت نفسه أن يدلج فيه . كانت أم عبودة مكشوفة الصدر محلولة الذوائب . لأول مرة منذ عهد طويل ينثال ذلك السفح الأسود على ظهرها وكتفيها . لم تجرؤ أم يسير على أن تتبعها ، ولا نازك . وقفتا في المدخل ولا شيء يتحرك فيهما إلا الدمع . كان الرعب قد تلينّ في عينيها وشفتيها المشدوهتين . هو نفسه الرعب الذي شق لها في أعين الحرس وفي الزقاق طريقاً لم تكن تعي أنها تسير فيه . لقد تأملوها بشيء من التشوش المتخوف ، وكثير من الانعصار ، ولم يجدوا شيئاً سوى أن يفسحوا لها الطريق . كأنها وضعت أمام أعينهم إنذاراً لم يقرأوه لكنهم صدعوا بما فيه .

- ٦ -

غريب أمر هؤلاء البرجوازيين الصغار . كلما حاول سعدون أن يجد فيهم بارقة أمل ، خذلوه . أولم يقل له إن هذه الحارة شيء تافه في مدار سيرورة العالم ؟ ماذا كان علوان سيشعر لو أنه وقع في بؤر الصراعات الكبرى ؟ أولا يسمع الأخبار يومياً عن أنهار الدم في هذه البقعة أو تلك من العالم المنكوب بالامبريالية ؟ من هو خلدون ومن هم هؤلاء المراهقون ؟ إنهم نمط ذو سيرورة هدرية نكبوية . إن خلدون سمسار ثورة . محصلة نخاسته ملء الناس قرفاً من الثورة ويأساً بسبب النتائج الدمارية التي يصل إليها ، فيعطي مزيداً من القوة لسلطان وأم اللولو ، ومزيداً من الإنهاك لشرائح البرجوازية الوطنية الواعية ، ومزيداً من التفسخ في خمائر الطبقة العاملة .

لماذا هذا السقم والانقباض إذن ؟

عادت نازك وهي تشهق شهقات متراصة مضغوطة . في منتصف الباحة ، ارتفعت راحتاها الى وجهها ، ومن بينهما خرج عويل . راقبها وهي تهرول صاعدة الدرج الخشبي حتى اختفت في جوفه ، فكأنه يراقب معتوهاً . ولأنه لم يتحرك ، همدت حركات الآخرين ، وجاشت نفوسهم لها بمزيد من الحزن .

كانت أم عبودة تقترب من الأشياء والأجسام وهي بعيدة عنها . تحملق الى لابس البدلة الملونة حتى يظن أنها ستخاطبه أو تلطمه ، ثم يكتشف أنها لا تراه . مرتين رفعت قبضتيها ببطء ، لا لتضرب ، بل لتشد على شيء داخلهما لم يوجد . وطيلة الوقت بدت كأنها تقول شيئاً لم تع البدلات الملونة حولها محتواه ، لكنه أصابها بالخوف والاشفاق . وعند المدخل امتدت يد أم يسير الصامتة تناشدها وتبكي معها .

لماذا هذا السقم والانقباض إذن ؟ كنت أرمقه بين حين وحين وهو هامد على كرسيه . في البداية توقعت صرخته الوحشية الرصاصية . لم يصرخ . وكنت سعيداً . إذا كان صرخ في مناسبات ماضية بحيث أشعرني أنه يصرخ في وجهي أو بسببي ، فإن صمته الآن ، لعابه الزارب ، كتلته الرخوة الفائضة على كرسيه الصغير - جعلني أستحم في حس بالبراءة : كل شيء كان ضرورياً ، وأنا لم أفعل فعلاً خارج الضرورة ؛ ولقد تقصفت بضعة أشواك فقط . أنا لا علاقة لي . مع أني لن أتردد لحظة في قتل مجرم . لو أنهم منذ البداية استمعوا إلي ، وتركوا خبطاتهم العشوائية المدمرة ، لكانوا أحسن حالاً بكثير . وأكثر أمنا وسلاماً . هناك ملايين الفرص تتيحها المشاريع الجديدة ، رفضوها كلها . استعاضوا عنها بمفاهيم بالية عن الأخلاق والكرامة . كان عليهم أن يعرفوا ان الخبز يأتي قبل كل شيء ، والمعدة الجائعة لاتهمها صفة الخبز ، حراماً كان أو حلالاً ، ذليلاً أو كريماً .

كان سعدون يقول ، وكنت أتابع صورة نازك في مخيلتي . وماذا بعد البكاء ؟ ماجد أيضاً دخل غرفته وأوصد الباب . الصمت . السكون .

الانتظار المرمض الرازح . الانتظار المقنبل . أيكون هذا المعتوه يتسلى بلعابه منتظراً لحظة موتهم ليفجر بوجهي صرخته ؟ أنا لن أسمح لأحد بالظن أن لي علاقة .

قال أبو حسن إن الحارة صمت مطبق . أم عبودة كتلة متكومة بين الأرض والجدار . النوافذ والأبواب موصدة . وسوى البدلات ، لا حركة ولا صوت . كأن الحر زمهرير زامت وليس حراً .

لا صوت ! متى سيموتون ؟ انتبهت الى أني لا أسمع كلمة واحدة من كلام سعدون ، لا أحس بموطىء قدمي ، لا أتخيل نازك أو أم اللولو ، لا

أرى واحداً من سكان الدار الذين لزموا أماكنهم بتوقع كتيم لنبأ الموت . قلبت الـوجـوه أمـامي كما تقلب الـريـح صفحـات دفتر عتيق . وكنت أتوقع وصول صوت واحــد ، صوت خانـق ممدود أو قصـيـر ، خشـن أو ثاقـب ، يفثأ هذا الانتظار الشانق ويعلن النهاية .

لأول مرة يجيئني وعي غامض بالانقطـاع . سألت نفسي لو أستطيـع أن أكتب كل ما جرى فكيف سأضعـه . ورأيتني مفصـولاً عنـه كله ، عاجزاً عن تذكـره . رأيتني بلا ذكـريـات إطلاقاً . رأيتني لا أتذكر وجهاً ، ولا أسماً ، ولا شيئاً ، ولا حادثاً ، ولا مكاناً . كأن هذه الحارة قد سلبتني ماضيّ . إن لي أخاً وأختاً في هذه المدينة . منذ حوالي ثلاثة أشهر لم أجلس معهما . ولي أصدقاء . وهنـاك أمـاكن كثيرة أرتادها وأحبها . وحوادث كثيرة فرحت بها وطربت لها . لقـد نشأت في حارة كهـذه الحـارة . وكنت سعيـداً بأهلهـا وأزقتهـا وحمّامها ، وشيخها ، وقبضايها . وكل شيء .

ثم رأيت موجـة هذا الـوعي تمتطيني لتغـرقني وتهلكني . وقلت لنفسي قف . كلا . هنـاك وعي وهنـاك وعي آخـر مضـاد . أنا لست باحثاً عن عصر ذهـبي قديم ، اتعلق باستعـادتـه المستحيلة تعلقـاً يقطعني عن الحـاضـر والمستقبل . الذي يصنع حاضراً ويضمن مستقبلاً يدير ظهره للعصور الذهبية الخلبيـة . أنـا أعـرف تمامـاً أنه لم يكن هناك عصر ذهبي قط . والأمر كله مجرد حنـين الى حلم ذهبي ، وهـذا الحلم لم يتحقق . إن هذه المعـرفة ، الوعي ، قوتي . يجب أن أقهـر هذا الضعف . يجب أن التقطـه بكـلابـات حديـديـة وأصرمه من نفسي . هذه الإنسانية المتطرفة فيّ ستدمرني . لا يمكن لتقدم أن يتم إذا ظل يتعثر بمفـارق رخـوة كهـذه المشـاعـر الإنسانية ، التي باتت عدواً يصـاولني من الـداخـل . كلما فتحت عيني على ارتبـاطـاتي بأنـاس اختـاروا الاستنقاع والتشرنق ، تسلل من عيني ذلك الضعف وكبلني . وهذه الإنسانية

العارمة تصير عنصر تخاذل وتقهقر . هناك طريق مجيد ، ويجب أن يسيروا فيه معي وورائي ، ويجب ألا أفتح عيني عليهم إلا وهم في هذه المسيرة . إذا فتحت عينيك على الضعف صرت ضعيفاً . والضعف والعظمة لا يجتمعان .

قلت لنفسي إن الحاضر ملكي . وهناك أيضاً ضوء ساطع من المستقبل . بالتأكيد . هو ضوء يسقط على حافة سكين . لكنه ضوء مؤكد . وقبل أن تنفجر لحظة الموت ، وتنفجر صرخة هذا المعتوه ، تركت الوجوه البسيطة المحبة في الدار ، وصعدت الى نازك .

في البهو رأيت امرأة تجلس الى الطاولة ، وجهها وجبينها مسفوحان على راحتيها . زنداها جيلان ، وقطرات من الدمع تلمع عليهما . رفعت رأسها إذ وصلت أنا ، وانسندت إلى كرسيها العادي . بدت كأنها لم يعد بوسعها البكاء . نظرت عبر شباك زجاجه مكسور . ورأيت أني لا أستطيع التحدث معها ، حتى كغريب لغريبة . عدلت عن حديث الحاضر والمستقبل ، وقلت ان لهذا الأمل العظيم المتحقق فرصة لاحقة .

حاولت أن أقول شيئاً ، لكني لم أعرف أية لغة أستعمل : لغة تخاطب نازك أم هذه المرأة الجالسة أمامي . وخرجت من فمي عبارة تخاطب الاثنتين . هتفت بها هوناً : « نازك ! ما الذي فعلته بنفسك ؟ » تراجع جذعها نحو ظهر الكرسي . مدت زنديها على الطاولة مشبوكي الأصابع ، وابتسمت وهي تطرق . هي أيضاً أحست أن أحداً رآها في لحظة ضعف وأعطى لنفسه حرية سؤالها سؤالاً غريباً .

كانت جميلة . جميلة : في حياتي لم أر أجمل منها . ليس بالشكل . إنما بهذه الابتسامة ، بخديها اللذين امتصا نداوة الدمع ، وعري بشرتها الشاحبة الطوطمية .

لكن أسفـاً ـ قلت لنفسي ، لولم تفتـح فمهـا وتتكلم . فبعـد تلك الابتسـامـة غمغمت بصوت مسموع : « ماذا فعلت أنا بنفسي ، أم ماذا فعل مسدسك بنا كلنا ؟ سبعة قتلى يا معلم علوان . »

قبـل أن تتجمـع جملة مفيـدة في ذهني ، الذي التهب بالبارود ، تابعت هي دون أن ترفـع رأسهـا : « خلدون هو الـرجل الذي أحبته زينب . ورفاقه هم الـذين حشـرهم مسـدسـك في خانـة الرعب والموت . إذا لم تَقتل اليوم ، ستقتـل غداً ، علوان ، خلنـا نخـرج الى مكـان آخر . قبو ، حتى نسكن في المقـبرة ، نذهب الى أي جحيم غير هذا الجحيم . لأن مسـدسـك سيقلتنـا كلنـا . أول مرة جرَّدتـه ، رميتني على الأرض . ومن يومهـا انقلب كل شيء فوق تحت ، فيـك أنـت وبـيننـا نحن . شف ما يجري لحارتـك الأصيلة ، العفـويـة ، الرومنتيكية . هل بعد هذا مازلت تحلم بقصر ! أي قصر ستسكن ولن يكون تحته جمجمة ؟ علوان ، هذا هوأنت ، هذا هو وجهك ؟ أنت الذي رفض قبل شهور أن يشتري كيلو خيار حتى لا يستسلم للحياة البرجوازية ؟ »

إذا كنت يومهـا سخيفـاً وفعلت ذلـك ، فهـو لا يعني أن أقضي عمري محروماً من الخيار . هناك عالم كامل كنا نحن الاثنان محرومين منه . عالم الذوق والجمال والفن والترف والتحقق والقوة والاهمية . طبعاً أستطيع هذه الساعة أن أترك الحارة ، قلت لها . لكن كل شيء آخر سيظل مرتبطاً بها . ما الفائدة من الخـروج ؟ سينهـار كل شيء . لأن هذه الـدار قوّتي وسطـوتي . أتـركها اترك العـالم الـذي خلقتـه . أنـا مؤمن بهذه الصدارة التي احتللتها ، بأن في داخلي قوى تصنـع المجـد والعظمـة وتخترق الحـدود والآفـاق . أين منه عالم الخنوع والحاجة والتفاهة والبشاعة والقلة ، القبو الكابوس ، وكل واحد ينظر إلينا برثاء واشفـاق كأننـا كائنـات دنيـا . أنـا منـذ سحبت مسدسي صرت كياناً يحسب

حسابـه في الحارة ، شددت براغي التناقضات فيها وأوصلت أزمة رخوة متعثرة الى نقطة صدام تاريخية .

رغم اطمئناني الى عدم ارتيابها فيّ حير ني منطقها . كلامها الإنشائي الاستهلاكي الذي لا معنى له . كأنها تقول إن مع هؤلاء الرعاع حقاً ، ويجب أن أعترف لهم بذلك . اعترف ـ وأترك ما صنعته وأوجدته ينهار ويمسي أثراً بعد عين . قلت : « هؤلاء يوجعك قلبك عليهم لأن حسك الرومنتيكي بالناس لا يسمح لك أن تميزي بين الفقراء والسفلة . هؤلاء جماعة حاقدة لا تحب أحداً . من أول يوم هنا هددوا وجودي نفسه . نحن طبعاً نذرنا أنفسنا للقضايا الكبرى ، ولن نساوم . لن نتخلى أبداً عن المثل العليا للحياة الإنسانية . لكن هل تقبلين أنت أن نرمى في الشارع كرمى لهم ؟ »

« أنا مرمية في الشارع وخالصة . إذا لم يكن لك من بلدك كله بيت تسكنه ، فأي شيء أنت غير لاجىء ؟ بعمرها تذكرة الهوية ما عملت الناس مواطنين . »

« وأنا كيف امتلك بيتاً إذا بقيت خاملاً واتكالياً ؟ شوفي الفرق . شوية حركة ، وإذا نحن معنا مبالغ . أنا لا أستغل أحداً ، ولا آكل لقمة أحد . بيع وشراء ، والذي لا يريد لا يبيع أولا يشتري . لا قوة ولا عنف . إلا هؤلاء الذين يهددون حياتي ووجودي . »

ولم يكن صوت الموت قد وصل إلينا حتى ذلك الأوان . عاد إلي القلق .

ان حمامات الشعور أشد مضاضة من حمامات الدم . وشكرت الله ان نازك لم تعرف بمشاركتي في معركة السطوح .

« طيب ، وماذا سيكون مصير خلدون ورفاقه ؟ »

« تم الاتفاق على تركهم حتى ييأسوا ويستسلموا . »

وانتهى الحوار . صمتت نازك كأبي الهول . تركتها مكتفياً بهذا القدر من السلام . ولاقتني الابتسامات . أفرحت قلبي . للمرة الألف رأيت أني على حق . مشيت الهوينى . وصلت الى الزقاق . لم يكن أحد سوى البدلات الملونة .

هذا السقم والانقباض . قلت لنفسي ، وليكن أن هناك شيئاً غلطاً . ان الذي أراه أراه صحيحاً . وهذا يكفي . ولن أمارس على نفسي لعبة الدكتور زيدون في اللاوعي واللاوعي الجمعي وهذه الخزعبلات . شيء واحد لابد من الاعتراف به ، وقد اعترفت ، وهو أني لست الفيصل الوحيد في هذه الحارة بعد . هناك مجريات أمور قد لا أستطيع صنعها أو التحكم بها ، لكن دوري فيها محفوظ ، ومشاركتي مركزية . ليكن هناك ألف شيء غلط . ليكن هناك ألف تناقض . أليست الحياة مسيرة تناقضات ؟ سأترك هذه التناقضات تعوم على مجرى الأحداث ، والأحداث تثبت ما تثبت ، وتزيل ما تزيل ، وأنا باق على لجة المحيط .

عند هذه الطمأنينة ، والاستلقاء الآمن المريح على يمّ تناقضات تتشابك تحتي ، هجمت علي الخبايا التي حاولت كمّها في جراب نفسي : التعب الذي جعلني أجلس على عتبة الدار ؛ الضعف الذي جعلني أحمد الله أن أحداً لا يراني بهذا الشكل مسترخياً بين الأرض والجدار ؛ الرعب الحاضر بين لحظات التناسي من موت مجهول النوع سيحل بهم ؛ الالتماس المتوسل المتشنج للحظة قوة بلا مسدس . عندها ، أرجعت رأسي وسندته على الجدار ، وتركت كل شيء يعوم .

في الضحى التالي قيل للأهلين إن خلدون ومراهقيه قد استسلموا ،

وإن أحـداً لم يقتـل ، لا فوق ولا تحت . كانت جميـع الدوريات قد اختفت ، واسترد الزقاق عافيته وحركته .

وكأنـما الـزمن الـوجود قد مُنع من الحركة أربعاً وعشرين ساعة ، اندفع النـاس بظفـر وطفـرة وعنفـوان ، ووجدوا في تلك الأمكنة . كان الدخول الى القصـور والتجـول في جنـائنها فرحاً ودهشة أكبر من كل حزن مضى . النظافة والنضارة والروائح وعشرات النباتات المزهرة والأشجار الباسقة ، جعلت منظر الجنة يطغى على خواطر الجحيم . وفي الحارة كان كل شيء أكثر : الكلام ، والـقهقهـات ، والشـراء ، واللقـاء ، واللعب ، والهـواتف ، والأكـل ، والشرب ، والتزين ، والأفكار .

في ذلك الضحى خرج علوان الى الزقاق مرتدياً بدلة صيفية بيضاء هي آخر ما أهـدتـه له أم اللولـو . على ياقتهـا المـدروزة درزاً عريضـاً تمددت ياقة القميص السماوية ، وكشفت عن شعر الصدر الكثيف الأسود . مشت قدماه بجـلال داخـل حذاء مدبب الـرأس أنسيـابي الشكـل . وكـان وجهـه طلق المحيـا . في ساحـة العـروة الـوثقى سلم عليـه كثيـرون ، ونهض احترامـاً له أصحـاب الـدكـاكـين . استمـر يرفـع يده الى صدغـه وينزلها ، عبر شوارع الحارة ، حتى غاب باتجاه المقهى العقاري .

وحـدهـا دار عبـودة كانت غارقة . لا صوت منها ولا حركة . كأن جميع سكـانهـا قد استسلمـوا أيضـاً . حتى الـذين عبروا أمام مدخلها ، وتقصدوا النظر الى الداخل ، لم يلمسوا أثراً للحياة .

لكنها عند الغروب كسرت صمتها الجنائزي . كان أبو حسن عائداً من دكـانـه وقد كره البيع ، فرأى أم عبودة تخرج الى الزقاق المقفر وتمشي الى آخره مشيتهـا المألـوفـة . من رأسهـا حتى قدميها : نقاب أسود وثياب سود . توقف

بمهابة وقلب وجيع . تأملها حتى هبطت الدرجات الحجرية .

دخـل الـدار باحثـاً عن صحبة وفرح . ودمدمت أم حسن مؤنبة : هل أحـد يلبـط نعمة تأتيه في الدكان ويأتي للتسكع في الدار . خمخم هو بسخرية يائسـة : « وفي الـدنيا نعمة تعادل نقمة وجودك ياامرأة ؟ بعدما رتب لنا المعلم علوان عملية بربع أجرة ؛ حضرتك بودك ولد سابع . »

اقتحم البـاحـة ماجـد . اشـرأبت نحوه الاعناق وهويتطوح تحت حمل مضحـك . أربعـة أكيـاس ، ربـط كل اثنين منها على كتف ، راحت تلطمه أمام وراء كلما تحرك ، وتؤ رجح حركته . هجم الأولاد عليه ، وقد تخيلوا فوراً ما تحتـويـه أكيـاسـه السماوية . لكن نظرة أبوية خاصة من أبي حسن أخمدت اندفاعتهم . وصاح حسن : « ياالله يانَوَر ! فوتوا في البيت . » وعادوا أدراجهم .

كان يسـير يتـوضأ . نشف وجهـه ويـديه ، ثم حمله الفضول الى غرفة ماجد . حمحم كي ينبه « الأخت » عزيزة الى وجود ذكر عند الباب . وعندها خرج ماجـد حامـلاً تنكتين ، في الأولى شرائح الخرشوف وفي الثانية فاصولياء بربب البنـدورة . « هذه من الأنـدلس يا يسـير ، وهذه من انجلترة . خذ . » برقت عينـا يسـير برغبـة نيزكية ، وسرعان ما تراجع مذعوراً : « أعوذ بالله ! » وأشار بيده كأن وضوءه سينقض . اندهش ماجد : « هولو ! أهي أول مرة ؟ » وحمـد الله أن يسـير لم يفهم . قال يسـير : « أستغفـر الله ! هذا حرام . لا تؤاخذني . قلت عسى تعطي أولاد ابن حميك شوية علب . »

خرج الأولاد ثانيـة وعلى رأسهم حسن . تراجعـوا الى الخلف بفعـل نظـرة أبـوية ثانية . هناك ، ومع سعدون الذي خرج لسبب غامض ، انصفوا كأنهم يتهيأون لصورة تذكارية .

قال سعـدون لأبي حسن ، وهـو يشمل الصغار بابتسامة كبيرة : « يوم يصير هؤلاء رجالاً ، يكون عصر الطبقة العاملة في العالم الثالث قد بزغ . »

كان أبو حسن يتوقع عودة ماجد بسرعة الى غرفته . وعاد ماجد . كأن انصفاف الأطفال المنتظر ليس متعلقاً به . وهتف أبو حسن لسعدون : « آه ؟ أنا مستعد . لكن المعلم علوان ياترى يمكن يلعب معنا ؟ »

في الحـارة كان علوان يمشي الهـوينى عائـداً الى البيت . حيّـا كل من يعـرف على جانبيـه ، وحتى الـذين لم يعرفهم . وهبوا جميعاً لرد تحيته بأحسن منها . رغم العرق الغزير ، ظلت ياقة القميص نظيفة لامعة في انفراشها على ياقة البدلة النسيمية . مشى مشية عظيمة متواضعة . وبدا أقرب الى الفرسان العشـاق الأفـذاذ ، منـه الى حملة المسـدسـات الطـائحـين ضد الأشـرار والمفسدين . وفي ساحة العروة الوثقى ، انضم الى جمهرة أهلين جاءت بأوعية لتملأهـا من ماء السبيـل . أفسحـوا له مكاناً بفرح وإعجاب ، وتركوه يشرب حتى أحاح ارتواء . هؤلاء لا خوف منهم . هم الذين جاء الى الحارة ليعيش بينهم ، ويشـرب معهم من ماء السبيـل . وحيـاهم بكلتـا يديـه . إنهم يحبونه ويحتـاجـون إليـه . إذا كان سلطان يفتح لهم باباً أو آخر للرزق ؛ فهو يمنحهم الحماية والأمن والفرص . عندما يمتزج الحب بالحاجة يكون الشعور نبعاً لا ينضب .

لكن لعبة الورق التي وافق عليها علوان بترحاب سخي ، توقفت رغم استعداد لها دام ساعة كاملة . لقد أطل من مدخل الدار ارتفاع بشري عريض نحيـل ، وأربـك العيـون بوجهـه الشمعي وابتسـامته الحزينة . لم ينهض أحد بسـرعـة . بل إن سعـدون ويسـير توقفـا ولمـا تستقم سيقـانهما بعد . وبالكاد انتصب علوان : « دكتور زيدون ! »

حلف زيد عليهم ألا يقوموا . لم يلبوا طلبه . أين هو ؟ من أين جاء ؟

كيف أحواله ؟ ما أخبار أم زينب ؟ ورمى يسير بدنه الضخم عليه وعانقه وبكى . وجاءت الأم بكرسيها الصغير لتجلسه عليه . لم يعد بالنسبة لها شكلاً ضريحياً ، رغم العتم الذي كلّت عنه اللمبة الكبيرة .

دمعت عيناه لكثرة أسئلتهم وتكررها . إنه في الحارة منذ وفاة زينب . .

مع أم زينب . لا ، لم يخرج . لأنه لم يكن لتلك الفاجعة عزاء إلا إذا تواطأ المرء على حزنه مع العالم الخارجي .الآن ؟ صار بوسعه أن يتواطأ . وابتسم .

إنه عاتب . لم يتذكر أحد أم زينب . زينب نفسها لم تخطر ببال أحد . زينب بنت الحارة ، شجرتها الأجمل ، روحها ومستقبلها وضوء وجدانها . ودمعت عيناه من جديد : ليس لأن زينب ابنة أخته ، بل لأنها هي نفسه ، هي هم ، هي كل خلجة حية في الحارة .

كانت نازك تقف منتظرة الى يساره . واغتنمت لحظة صمت فسلّمت وقبلت خده : « القهوة مني أنا ، وأنت اختر أين تشربها . » أحس الجميع أنهم لم يسلموا عليه جيداً . وعادوا يمطرونه بالأسئلة . جلس على الكرسي الصغير ، رافضاً الكبير : « كرمى لخالة أم يسير . » اليوم لم يستطع البقاء في الدار بعد أن عرف بحادث الموت الأفظع . موت خلدون والشباب ! ألم يعرفوا ؟ بعينيه رأى جثثهم تحمل على النقالات والأكتاف الى سيارات خاصة . قبل أذان الفجر بساعة تقريباً . نعم ، يبدو أنهم قتلوا بطريقة سلمية . إنه شديد الأسف . كان يعتقد أنهم يعرفون . لقد أفسد عليهم فرحهم والتئام شملهم . هو دائماً هكذا : مزيج من غراب ووطواط . الألم الأكبر في الحقيقة هو هذه الحارة الغريبة . مؤكد أن حوالي عشرين ، وربما أربعين قد قتلوا . لا أحد يجرؤ على أن يفكر في الموضوع .

صمتوا . إهليليج من الحزن والعار التف عليهم . أبدى زيدون أسفه

لأنـه أثـار فيهم عقـدة الـذنب هذه . وغمغم أبـوحسن شارداً . « وأم عبـودة تعرف . الآن فهمت . »

نهض زيد : « ياجماعة عدم المؤاخذة . أنا بحاجة الى مشوار . أتمشى شوية وأرجع . »

نظـر الى علوان طالبـاً صحبتـه . وبعـد دقيقتين خرجا الى المدينة . لم تكن لهما من قبل هذه الألفة والتواشج . والآن أحسا بأن مسافة طويلة بينهما قد اختصـرت وأن بوسـع كل منهـما الثقـة بالآخـر ، لأن موت زينب وخلدون قد ربطهما برباط حي .

لم يكـونا صامتين تماماً ، فنجوى النفس للنفس حديث . ولأن رباطهما الجـديـد كان حياً حقاً ، اعتقد كل منهما بلا صعوبة أن الآخر معه من الداخل وعلى مدى خياله الطليق .

كان بود علوان أن يسأله عن دوافع التبست وراء إشارات ونبرات من أم اللولو وسلطان ، أثناء أزمة الأقبية . ليس لأنه قلق أوخائف ، لكنه الآن يجب أن يحسب لكـل شيء حسـابـاً . إن له مركـزاً ومصالح وتحالفات . والغفلة لا تناسبه . ورب تحليل من زيد أنار له زوايا مظلمة أو غائبة . هل هوغافل مع أم اللولـو ؟ ابتسم . هولا يكـون غافـلاً معهـا إلا عندما يقبلها . والصحوفي هذه الحال موات . لكن سلطان مريب . انذاراته المبطنة ، وغدره المحتمل ، وحتى المـرتقب . بالطبـع هولن يتحمـل صعـود نجم ساطـع يحمله . هذا محسوب . ولكن هيلانة ستتابع رحلة الوجود مع فاوست . رحلة التفاعلات الكبر ى .

عنـدهـا صار تفكـير زيـد مسموعاً : « مستحيل . هذا ظلام لا يمكن اختراقه . » وبعد قليل أضاف : « مؤكد أن عمر الإنسان موغل في القدم .

وإلا كيف ترسبت في طبيعته شهوة القتل ليحتفظ بما يملك ؟ عندما خسر أبو زينب ابنته ـ خسرها بمعنى تملكي صرف ـ كموضوع جنسي وموضوع تجاري ـ لم يبق من البنت شيء . انصرمت كل الروابط . انعدمت كل القيم . لو كان خلدون حياً ، لقال إن الايديولوجيات والمال والآلهة هي الستار الحديدي الفاصل بين الإنسان والإنسان ، السكين الحقيقية وراء السكين .

مع السلامة يا خلدون . لكن .!. اذا كانت همجية أبوزينب ـ تصور ، سلّم جسمه للشرطة كمن أنجز عملاً جليلاً ، وتقبل العاقبة مثل من قرر الاستشهاد ـ إذا كانت همجيته سببها طوطمية تفكيره ، فكيف نفهم تحول السكين الى مسدس يقتل خلدون ورفاقه ؟ ألم تفعل الحضارة شيئاً سوى صقل أداة الجريمة ؟ لا شك أن سلطان يعاني من حس بالخصاء ، ومن عقدة الاضطهاد . لهذا يستعمل المسدس كوسيلة للتفاهم مع أضداده . يداوي نفسه به . لكن المسدس رمز للسقوط من برج القوة ـ قوة النفس والروح ، وقوة الضعف ، قوة الحب والمراعاة والتحمل والتفاعل والتباري ـ إلى وادي العنف . هذا العنف الذي يخترم العالم يسقم قلبي . لأنه ليس بشيراً ببوابات عصر جديد تنفتح ، وتندفع منها الجماهير لتصنع التاريخ ، كما حدث في الثورتين الفرنسية والروسية . هناك أحلام عظمة وبس . ورعب من فقدان السيطرة . إعدامات بالجملة والمفرّق لمن يتحدى هذه الأحلام وهذه السيطرة . وفي أقل الحالات سوءاً ، سعي لامتلاك حس بالأمان تجاه الكنه والوجود الغامضين المقلقين ، وتجاه حس بالموت يتزايد بتزايد العمر .

بعد صمت قصير نبر بصوت خفيض ولكن جاتش : « هذا ما لم تستقصه مدارس علم النفس : كيف تسرطنت طبيعة الناس بحس التملك .. حتى العقد الجنسية عقد تملكية . انظر الى هذه المدينة المتلألئة المشعشعة

بالأضواء ، كم فيها من الظلمات التي لا يدخلها الضوء أبداً . في جميع انحاء العـالم ، يحدثونك عن قدسية الملكية الفردية . يبنون قوانينهم على أساسها . وكـذلـك يقتلون ، ويغتصبـون ، ويتشـوهـون ، يشنـون الحروب ، يبيعون الشعوب ، يتفرجون على السرطان والمجاعات ، للحفاظ على الملكية الفردية . »

أعطت بدايـة الحـديث لعلوان راحة وحساً بالاستثناء . لكنه سرعان ما تبين الشطط وشطح الخيال في اعتبار السكين والمسدس مجرد أداتين للشر . إنهما أيضاً أداتان لتقشير البرتقال وقتل الأفاعي . همجية أبي زينب وحقد سلطان لا يمكن أن يصـما البشـريـة جمعـاء . وسرعان ما رأى في حديث سميره إيغالاً تخصصيـاً في التفكـير والاستنتـاج ، ومحـاولـة لتعـزية النفس بعد مقتل زينب وخلدون . لكنه لم يشأ المصادمة ، انسجاماً مع حسه الإنساني رغم كل شيء مع هذا الثرثار .

صعـد الـدرجـات الحجرية صامتاً منكمشاً . أولئك الثلاثة ، سعدون وخلدون وزيد ، يتكلمون بوثوقية فظيعة . ليس عندهم احتمالات أبداً . ولا هامش للخطأ . وعلى هذا الأسـاس الـوثوقي الرافض للرأي الآخر ، يلونون أساطيرهـم الشخصية الفاقعة . على أي حال ، لا زيد ولا غيره يعرف شيئاً .

بامتنـان بهيـج اعتـذر زيد عن الدخول : « أمينة وحدها ، وأنا أخذت كفايتي من الأنس والثرثرة . »

في البـاحـة كان سلطان يقتعد الكرسي نفسه الذي غادره علوان ويحاول أن يتعلم لعبـة الـورق . انطلقت الصيحـات لدخول علوان . وأصريسير ، الذي أيقظه دخول سلطان من قبل ، أن يجلس المعلمان معاً ويلعب . « المعلم

سلطان أفضاله على الحارة كلها ، والمعلم علوان أفضاله على الحارة كلها . »
صاح أبــوحسن : « يا أخي يســير ، المعلم سلطــان لا يلعب هذه اللعبـة .
والمعلم علوان لا يلعب غيرها . » وأسرع سلطان يحسم الموقف بحب أكبر :
دعا أخاه وصديقه إلى غداء عنده بعد صلاة الجمعة غداً ، وترك الجميع بألف
خير من الله .

قالت نازك إنهــا لا تعــرف ماذا وراء سلطــان ولا تريــد أن تعـرف .
ولاحظت انشغال علوان وقلقه ، فخففت من مصارمتها : « طول الوقت وهو
هادىء وعادي . حاول أن يمزح ، ما ظهر منه غير السماجة . »

« هادىء وعادي ، يعني أنه يضمر شراً . أنت لا تعرفين هذا
الصنف . »

« ولا أريد أن أعرف . هو صديقك وأنت أدري به . »

نظـرت بلا اكـتراث نحـو الباحة . لم تكن لامبالاتها عزوفاً عن حديث
كريـه بل كبر يـاء من امـرأة ترفض أن تنجـر وراء رجل لمجرد أنه زوجها . وقد
وضعتهـا الكـبر يـاء على قمـة يأس خاصة . من هناك نظرت ورأت علوان في
السهل ، إن لم يكن في مكان أوطأ . وبفعل هذا اليأس صار يسعها أن تتكلم
معـه بدلاً من مقـاطعتـه . لقد أنشأ بينهما مسافة أمان يستحيل اجتيازها . إنها
الآن لا تحتاج منه إلى شيء فترغمها الحاجة الى الاقتراب المذل .

أيقن علوان أن نازك كفت عن فهمــه . بل إنهــا صارت تفهمــه على
الـدوام فهـماً غلطاً . ولعلها فقدت كل مقدرة على التعاطف معه . « سلطان
صديقي ؟ من أين . »

« أطلقتم النار على الصبيان سوية . »

« من جاءكم أثناء مشواري مع زيد وتكرّم بهذه الكذبة . »

«الذي جاءنا . »

« المفروض أن تقولي من . »

«أنا سأصدق أنها كذبة . لا لأنها كذبة . بس لأني لا أريد أن أتصورك في ذاك الموقع . »

« نازك . أشكرك . لازم أن تستردي ثقتك بي . أنا لم أتغير من الداخل . أنا علوان . أحياناً يخيل إلي أنك لم تعودي تعرفينني . ماذا حدث يانازك ؟ أنا علوان الذي يحبك . علوان الذي يبني مجد حياتك . أنت تقاطعينني بلا سبب . ترفضين مشاركتي في مسيرة تحلم بها كل امرأة . »

أرسلت إليه نظرة مخترقة ، هادئة وثابتة : « أنت سقطت يا علوان . سقطت . وأنا لا أعرف لماذا أنا باقية في هذا البيت معك . »

« نازك ! انسي كل شيء ، وتذكرينا نحن بس . نازك وعلوان . ضحينا كثيراً ، وتحدينا كثيراً ، وتعبنا معاً . أنا أنجزت مالا يستطيع أن ينجزه أحد . اتركي الذي أفعله خارج البيت ولا يعجبك خارج ذهنك . حياة الناس كلها هكذا : عيشي في النعيم ولا تسألي عن مداميكه . أنت تريدين بيتاً وأولاداً . سيكون لك بيت وأولاد ، وكل ما تشتهي نفسك . وهذه هي السعادة . وأنا أحبك . أحبك يانازك . لا تجرحي هذا الحب وتخنقيه بانفصالك وغربتك . اصرارك على هذا الضمير النظري سيدمر حياتنا . »

« أنت دائماً شاطر في تحريك اللغة . ما عليه . كلمة ورد غطاها . أنا عندي قرف ويأس . وليس ما ذكرت أنت . أنا أحب أن أمتلك . لا اكذب على نفسي من هذه الناحية . لكن إذا كنت سأخسر نفسي ، ما بودي هذه الملكية . ما عليه . أول ما جئنا الى هذه الحارة ، قلت إنك دخلت جنة لا

تقدر أن تشوفها إلا اذا أغمضت عينيك . قلت اتركيني مغمض العينين حتى نستلم بيتنـا الاشـتراكي . البيت ضاع وانتهى . افتـح عينيـك . افتحهـا الآن ، في هذه اللحظـة . اتـرك هذه الحـارة . وبكـرة ، بدلاً من مقـابلة سلطـان ، خلنـا نخـرج من الحارة . أنا سأنسى تأكيده أنك قتلت . سأنسى مأساة اليوم . لكن اترك أم اللولو ، وخلنا نبدأ من الصفر . »

« بعـد كل الـذي صنعتـه يداي ! أنا الآن سيد الحارة . لا أحد يتحرك فيها إلا بأمري . مستحيل . أنت كأنك تقولين لي : صر لاجئاً مثلهم . اترك مركـزك ومكـانتـك وثروتك ، وكل الآفاق العظيمة الغنية التي انفتحت لك ، وصـر تافهـاً ، ذليـلاً ، ضائعاً ، مستلباً . أنا لا أفهم أي شيء أصابك ! يوم طارت منـا فروغيـة أبـو خليـل هسـترتِ ، جننتني ، كوبست عليّ باحتقـارك لمثاليتي . الآن أنا لا أفعل شيئاً غير المشي في طريق أنت نفسك شجعتني على المشي فيه . »

« أنـا كنت غلطـانة . هذا الطريق أوله فرح وآخره جريمة . إذا كان له آخـر . أنـا أريـد نظافة الضمير وصحبة أم عبودة . إذا كان يستحيل أن تصير غنيـاً وقـويـاً إلا بالعنف والخسـة فأنا سأنتقل الى دار أم عبودة . أترك لك هذا المجـد . لكن ، لا . المسألـة ليست مسألـة فروغية . لا . العلة فيك أنت . وإلا كيـف ضاع بيتـنـا . ياإلهي ! من كان يتصـور ؟ علوان ! لوكنت أنت وغيرك أصيلين ، كان نجح مشروع التعاون السكني . »

في اليـوم التـالي ذهب للقـاء سلطـان . بالطبـع كان لابـد من صلاة الجمعة ، وبشكل خاص الاستماع الى الخطبة التي موضوعها أن الله يمهل ولا يهمـل . كان المسجـد غاصاً بالمصلين . حتى يسير كان هناك . رآه علوان في طرف الجماعة وتعوّذ بالله من صباحه . »

كان سلطـان يرتـدي جلابيتـه العـريقـة . وكـانت غرفـة الجلوس التي اعتكفا فيها مؤثثة تأثيثاً رزح على علوان بحس من الضآلة والانكماش . عاد وعيـه بنفسـه الى شهـور خلت . وبصمت ، وفيـما عينـاه تنقبـان في الأثـاث النفيس ، قطع على نفسه عهداً سكّينياً ألا يعود الى ذلك الوضع الوضيع .

تنـاثـرت كلمات سلطـان القـوية المباشرة الحميمة عن الصداقة والأخوة والمحبـة والتضـامن والإخلاص والإيثار والكرم والوفاء ، وأضفت على الجلسة سدياً مقلقاً . كان علوان قد عبّأ نفسه لمواجهة رجل لا يطول به الكلام حتى يعيـده الى أصله القـديم : القبضـاي الـذي أخضـع حارة يومـاً بالقوة . وفي رفضه الآن أن يستقطبها أحد غيره ، سيرتد الى سيرته الأولى . لكن الكلام الـذي يعني ولا يعني ، الـذي إذا قبله علوان وقـع ، واذا رفضـه تنكـر للمثـل العليـا ، الـذي لامس أذنيـه فنبـه الأعصاب ولكن أتعب الفهم ـ كان صورة جديـدة للابس الجـلابيـة لم يستـوعبها جيداً لابس البدلة الأنيقة . كان « هذا العلج » أكثر دهاء ودبلوماسية من أن يلزم نفسه بكلام قاطع .

قال علوان : « معـلم سلطـــان ، نحن كل ما ذكـــرت . نحن أخـــوة وأصـدقـاء وكـل شيء . لكن ، أرجـوك ، قل بالضبـط ماذا تريـد . من قبل لمحت لي تلاميح . والآن نفس الشيء . مادمنا أخوة وأصدقاء كلمني بصراحة . »

ابتسم سلطان بشيء من الاحتجاج والوجل . هل قال شيئاً أثار غضب أخيـه ؟ واستغفـر الله . الأمر غاية في البساطة . لو أن المرء يراقب كيف تلتقي نملتـان لأدرك المـوقف . مع أن طريقهـما المشترك أضيق من زاروب أوزقاق ، تراهما تقفان وتشبكان رأسيهما ـ سبحان الله ! ـ كأنهما في كلام . ثم تفترقان . كل إلى حال سبيلهـا . يستحيـل أن تلتقي نملتـان إلا وتـوقفتـا لأجل ما يبدو تشاوراً وتحاوراً ، وهذا سر من أسرار الخلق غاية في الجمال والواقعية .

هذا كله صحيح ؛ رد علوان . لكن العلاقة بين المجتمع النملي والمجتمع البشري تحتاج إلى كشف وشرح .

تنهد سلطان . كم هو مؤلم ويحز في النفس أن تكون هذه الحشرة التافهة أفضل من إبن آدم . كم هو مؤلم أن يكون هناك الوئام والسلام والانسجام ، وان يكون هنا الشقاق والنفاق والافتراق .

منذ البداية أثقلت المعاني على علوان . ثم جاءت اللغة فجعلت الثقل باهظاً ، ولفعت المعاني بغلالة مغاوية . لقد تعلم في هذه الحارة أن هناك ثلاث لغات في الحقيقة ، لا لغة واحدة : لغة الإشارات العنيفة التي يتكلمها الرعاع ؛ ولغة المخاتلة واللامباشرة التي يتكلمها سلطان ؛ ولغة الصور والاستعارات التي تتكلمها أم يسير . وفوق هذا كله تربع إعلان سلطان المفاجىء الشغوف : « كم هي جميلة اشتراكية النمل . ليس فيها يسار يصطدم مع يمين . » وأضاف : « هناك فقط التعاون والتضامن والتوازن . » فالبتس قصد القائل ومعنى القول .

هل سلطان يتحول الى الإيمان بالاشتراكية .

معاذ الله ! الحياة زقاق ضيق ، ولا يمكن أن يشترك اثنان في عبوره معاً . أحدهما يجب أن يتنحى تكرماً وتفضلاً ليمر الأخر . والأمر بسيط لا يحتاج الى محاورة ومناظرة : الذي يحمل للبشرية الخير الأعظم هو الذي يجب أن يتقدم .

« يتقدم في أي مجال يا معلم سلطان ؟ » سأل علوان بتحفز .

« مفهومك واسع يا معلم علوان . في مجال خدمة الإنسانية وتحقيق العروة الوثقى . وأنا لأجل هذا الهدف المبارك بالذات ؛ رجوتك أن تشرفني بزيارة ، لنفعل كما يفعل النمل . »

« بخصوص أي شيء »

« عليك نور ! بخصوص أي شيء ؟ بخصوص ابقاء تضامننا قائماً ودائماً . وأنت تعرف ، الكبير هو الله وحده . »

« معلم سلطان ، كلما ظننت أني اقتربت من فهم ما تريد ، شفت أني ازددت بعداً . »

« هونّ عليك يا معلم علوان ، لا بعد ولا شيء ، ولايطلع خلقك . أنا أردت حديثك ، نعم ، لنتفادى طلعة الخلق ، وأي طلعة ، وأي صدام وملام وخصام . »

« بخصوص أي شيء ؟ »

« نحن في حارة واحدة . وفي هذا المكان الصغير من العالم ، تنطبق القواعد نفسها المنطبقة على بقية العالم . ولا تؤاخذني للتشبيه : كل مزبلة ولها ديكها . . هنا ، وفي أي مكان من العالم . »

ضحك علوان ، وتحولت ابتسامة سلطان الى ضحكة .

قال علوان شبه منشرح الصدر : « إذا كنت فهمتك جيداً ، فلا يهمك . أنا أكوّم مزبلتي الخاصة بي . وأظن أنه لا اعتراض لديك على ذلك . »

« مستحيل ! » هتف سلطان . ولم يفهم علوان جيداً ، هل الاستحالة متعلقة بالتكويم أم الاعتراض . لكن نهوض سلطان المفاجىء عن أريكته بدد محاولته للفهم وأعطى اهتماماً مختلفاً .

خطا سلطان نحو نافذة أسدلت ستارتها . هناك وقف جامداً برهة

طويلة . ثم التفت . كان وجهـه مفصـلاً على ابتسامة صلبة غامقة : « معلم علوان . اشــتر لك قصــراً ، أو فيــلا ، إذا بودك ، في حارة غير هذه . وإذا لزمـك مال أنـا مستعـد ، مع أن الله أعطـاك ومـدّ لك . هذه الحارة يمكن أن تحتمل عدداً من الأغنياء ، لكنها لا تحتمل أكثر من رأس واحد . »

« عليك نور ! الآن بدأت أفهم . لنلتق كما تفعل نملتان ، واشرح لي وجهة نظرك . »

« أنا قصدي شريف . وكله أخوّة وحرص على التشارك بدل التعارك .

الذي أنت ماش فيه الآن سيصل بنا الى أن يحاول اثنان عبور زقاق لا يتسع الا لواحـد بس . أظنـك فاهماً علي . نحن سنظـل أخوة ، متعاونين متضامنين ، لكن الحارة لا تحتمل رأسين هذا هو شأن العالم كله . ونحن لسنا حالة خاصة . »

« لكن الرؤوس في العالم تحاول أن تتفاهم . »

« نعم . لكن كل واحد يكون في حارة . »

« سأقول لنازك إنك اتفقت معها على رأي واحد . وإن تكن الأسباب مختلفة . »

« بساط أحمدي ، معلم علوان . لو لم تستعمل حضرتك الرشاش ذلك النهـار ، بتلك المهـارة والفـاعليـة ، لما خفت أنا على أخوتنا وصداقتنا أكثر مما كنت خائفاً . . »

« والآن تريدني أن أترك كل شيء وأسجن نفسي في قصر وأبّهة فارغة

أترك مجالي الحيوي ومصدر قوتي . لأنك أنت خائف . »

« نعم . وأنـا خوفي خوف القـوي ، لا خوف الضعيف . كنت خائفـاً أسـاسـاً من صلتـك بأم اللولـو . الآن ، تأكـدت فاعليتـك ، بعـد أن تأكـد طموحك وشطارتك . هذه صراحة أخوة . حتى لا تقول في المستقبل سلطان تنكر للمبادىء . »

« وصرت تخاف أكثر من . . . أن أحل محلك ، مثلاً ، عند أم اللولو . »

« عليك نور . وهذا ما لن أسمح به . أنت تعرف . »

« أنـا سأبـادلـك صراحـة بصراحة . شخصياً ، أعتقد أنك لم تخلق لها وهي لم تخلق لك . »

« إذن ، أنت ترى . خوفي في محله . أنت ترشح نفسك بديلاً . »

كان قد وضـع قبضتـه اليمنى على راحته اليسرى ، وتكلم باتجاه ستارة أخـرى . وجهـه العـريض اسـترد تلك الابتسـامة الصلبة الغامقة ، مكتسياً بمسحـة من الشـرود . ومثل رجل حسم الشك باليقين أخيراً ، وهبطت عليه برودة ناجعة ، دندن نغماً بهدوء ووضوح ونبرة خفيضة ـ كأنه يبهج نفسه أولاً ، والمكان الذي فيه علوان ، والزمان المطلق : « كلنا نحب القمر ، والقمر يحب مين ؟ » ثم اتـسعت ابتسـامتــه ، والتفت الى علوان : « صدقني ياأخي إذا قلت لك إنــك رجـل مغمض العينـين . » وهـز رأسـه هزات قصـيرة . « أم اللولـو . أم اللولـو . » وأمـال رأسـه الى اليمـين ، ثم أسنـد راحتيه الى ظهر أريكته ، وطأطأ : « معلم علوان . اقبل نصيحتي ولن تندم . »

نهنه علوان بارتباك من صمم على موقف معاكس ، ولا يريد في الوقت نفسه أن يكون مؤذياً : « لكن أم اللولو هي التي تحتاجك ، وليس العكس .

أنت ملك الحـارة . لا أعني من ناحيـة ماديـة وبس . إنـما من ناحيـة روحيـة وأخلاقية ، وإنسانية بشكل خاص . »

« هذا أول خطأ في حساباتك . أم اللولو لا تحتاج الى احد . يعني إذا قالت لأحد : كشّ ، فلا يقدر إلا أن يكش . ولا تظن أنك مستثنى من هذه الحتمية . وأم اللولو لا تتردد في قول : كش ؛ عند اللزوم . أنت تتصور أنك ستعيش معها في نعيم إذا كششتني . لا تغلط . أنت لا تعرفها . »

أسند عثنونه على سبابته وإبهامه ، وراح يتمشى بحذاء الستارة نصف مطرق . كان مبتسماً مثل من يتمعن في أمر طريف ؛ وصافي الملامح ، مثل من قرر نهائيـاً الـدخول في فعل نتيجته إما قاتل أو مقتول . وبعد فترة وقف مقابل علوان ، وراح يشرب وجهه بنظرة نفاذة مشفقة : « أنت لا تعرفها . أم اللولو كتلة من الـدود . علقم . أم اللولـو حزمـة أسـلاك حديـدية مثلجة . أم الولو ابتسامة قاتلة ، وقبلة سامة ، وعناق خانق ، ولمعان يعمي البصيرة . عالم من الكـلاليب تظنهـا العـين أصـابـع إخاء وحرية ومساواة . أم اللولو أشد همجية وشهوة للدم من هؤلاء الذين نسميهم الغوغاء والرعاع . »

« ومع ذلك أنت لن تتركها . »

« إذا أنـا حاولت ـ مثلما حاول غيري ـ أن أمتلك شيئـاً من الاستقـلال والـرأي ، ستقتلني كما قتلت غيري . اتعـظ بما جرى لي وانج بنفسك . أنا لا أستطيـع أن أكـون شيئـاً من دونهـا . أنت تستطيع . عندك امرأة تعبدك ، لا تستبـدل بها امـرأة تستعبـدك . وفّـر علي وعليـك وبـال الاقتتال بين الأخوة .

ونكون نحن الاثنان كاسبين . لأني لن أسمح لك بالاقتراب من أم اللولو قيد شعرة أكثر مما اقتربت حتى الآن . »

« نحن الاثنين نقدر أن نوقفها عند حدها ، إذا تضامنّا تضامناً صادقاً . »

« لا ، لا . نحن لا شيء من دونها . أم اللولو هي الكل بالكل ، لا أحد يقدر أن يوقفها عند حد . »

قال علوان بامتداح أراده اقتناصاً للمعلومات : « يصعب علي تصديق هذا الكلام . أنت زعيم بحسب حسابه ، لا في الحارة وحدها ، ولكن في كل حارة . وأنت زوج أم اللولو . كيف أصدق أنها الكل بالكل ؟ »

« أنا فعلاً زعيم بحسب حسابه . ولا أشكو من أي ضعف والحمد لله ـ ما دام ارتباطي بأم اللولو قائماً . لكن سأشرح لك بعض الجوانب ، لكي تستوعب الدرس . أول القصة ، لما خرجت أم الجوجو ، قلت الى جهنم وبئس المصير . وجاءت أم اللولو فقلنا ارتحنا بإذن الله من الباشا والبيك ، الذين كانوا متسلطين على الحارة . أصحاب الدكاكين جنّوا جنوناً بأم اللولو . لكنهم كانوا ضدي ، لأني قبضاي أصلاً ، ولأني تشددت يومها في الأمر والنهي ، كما علمني الشيخ محمد . جاءت أم اللولو وربطتنا نحن الاثنين برباط الاستشهارات السلعية . أرباح مئة بالمئة . وفيها بات الباشا والبيك نسياً منسياً ، ازدهرت الدكاكين وصارت بفضل الله سوبر ماركتات ، وشركات ، وفنادق . ولكن . . من غامض علم الله ، طلع علينا هؤلاء الدهماء ، وجاء ناس مثل سعدون وخلدون ، شوّشوا عقولهم النائمة بالأفكار الهدامة ، وعبارات الجماهير الكادحة ، وحاولوا اقناعهم أن النظام الإلهي ـ « وخلقناكم بعضكم فوق بعض درجات » ـ نظام غير عادل ، وأن الدرجات يجب أن تلغى . النتيجة الوحيدة ، نتيجة لم تخطر لي على بال ، أن أمثالك صاروا ضروريين ، وصارت أم اللولو تعتمد على طقم كامل منكم . أنت من هؤلاء الدهماء ، تعيش بينهم ، تتكلم لغتهم ، وتنادي بشعاراتهم ، وتقدر على

لجمهم . أنت متعطش للعلو ، لأن تتسلط حباً بالتسلط . لكن أنا ـ لن أسمح لأحد من هذا الطقم بأن يعلو علي ، مهما كان ضرورياً لها . »

كانت عينا علوان قد تخثرتا على وجه سلطان المضطرم بالانفعالات . لقد سمع من حليفه اللدود كلاماً لا يمكن الاستخفاف به . هذا العلج ، البدائي ، علمته تجربته الطاحنة مع أم اللولو كيف يتكلم . فجأة وإذا هو قادر على تلخيص حقبة تاريخية راهنة . فجأة وإذا أم اللولو دود وعلقم وسموم .

نهض مبتسماً ـ بهدوء وصفراوية وقلب ضعيف . ذلك الخوف العريق استيقظ مرة أخرى . لقد ارتفع حقاً ، لكن عليه دائماً أن يراجع حساباته :

« طيب . الحقيقة صراحتك جميلة . يومين أو ثلاثة وأرد لك خبراً . »

التقطه سلطان من زنده : « لأ . الآن . الآن يجب أن تعدني أنك ستترك الحارة . »

« معلم سلطان . إلا إذا وقفت أم اللولو معك تماماً ضدي تماماً ، أنت لا تقدر أن تؤذني . »

« تكفيك أفلام الفيديو . فيها ثروة كبيرة . اترك أمور الحارة للحارة . »

« أنت تهددني يامعلم ؟ »

« أبداً . أنا أنصحك . أنا أخوك الكبير وأعرف مصلحتك . لا تجعل مصلحتك تتضارب مع مصلحتي . ماذا قلت ؟ »

« يومين ثلاثة ، وأرد لك خبراً . »

« مثلما تحب . لقد أعذر من أنذر . »

- ٧ -

طبعـاً ، لم تكن تهديـدات سلطان لتخيفني . حتى أنها لم تكن مهمة . وعلى العكس ، فهي مؤشر على أني صرت القوة الأولى حيث ظن نفسه الى حين القـوة الـوحيـدة . غير أني عدت منقبض النفس . وخلال يومين كاملين عشت كآبـة حس عميق بأن الـوجـود ضيق ، وأن نفس الإنسان أضيق . من قبل ، عانيت مشاعر حادة مؤسية من أن أساس كل علاقة فردية بين بشريين هو الصراع ، وليس فقط بين الجماعات . الآن صارت هذه المشاعر رمضاء . لماذا الصـراع ؟ الحقيقـة ، ليست هنـاك أية نبالة في العلاقات الفردية . حتى بعد هذه التجربة المريرة كلها ، ونتائجها الأمرّ ، أقول بلا تردد ولا ظلم ، إن أحـداً لا يركن إلى أحـد إلا بعد هزيمة حاسمة في صراع الإرادات . طالما أن أحداً يأنس في نفسه القوة فستكون مصلحته وليس إنسانيته أساس علاقاته ، الصـور المثـاليـة عن العـلاقات الانسانية ـ إضافات مقصودة ، مثل من يرش السكر على الموت ، كما تقول أم يسير . والمثل العليا التي ينادى بها في مجتمع ما هي على طول الخـط عكس الحقـائق الـواقعيـة المعشـة في هذا المجتمـع . والمشـاعـر التي تطفـو وتطفر ، افرازات مخادعة من خوف عميق مصدره العنف والوحدة .

لكني قلقت من نازك وحـزنت لأجلهـا . لقـد صارت ثلاجـة بكـل المعـاني . وعبثاً حاولت فتـح البـاب وتفكيـك الثلج منها وتذويبه . كلما انفتح الباب وهبت عليها نسائم دافئة أو حارة ، تكاثف مزيد من الثلج داخلها وعلى جوانبهـا وازداد . وفي الآونـة الأخـيرة لم تعـد توجـد في البيت معظم الوقت . تركت التلفزيون والفيديو وأعظم الأفلام ، والجنة الصغيرة التي صنعتها لها . أفـلام يتسـابق النـاس عليهـا . أعظم المخرجين ، وأعظم المنتجين ، وأعظم

الممثلين ، وأعظم المصورين . تغني عن خوض أية تجربة لأنها تقدم جميع التجارب ، بتشويق وفنية وتكثيف وصدق وشمولية . كنت منتبهاً الى أن ثقافة المقهى العقاري ليست ثقافة . هناك ناس يجدون راحة عمرهم في تكديس المال . هناك من يفضلون التزعم الاجتماعي ؛ أو حياة الصخب والشهوات .

أنا شخصياً ، لم أجد نفسي ، لا في المقهى ولا في هذه الميادين . بل أحسست دائماً أني مكظوم ولست أنا . كلها بلا مجد ولا سمو ولا إبداع . ولكن أن تترك البيت الى أولاد أبو حسن وماجد القذرين الشرهين ، أو تغيب ساعات وساعات . . لقد تقلصت نازك وانكمشت إلى أبعد حد ممكن . وباتت ترفض كل تقارب رغم أن الطبيب أوصى به لأجل الولد . وكل هذا لأني حققت لها أحلامها ورغباتها .

وقد قال زيد كلمات جعلتني أحس بشيء طفيف من الخطر . إن نازك في رأيه كانت تعاني انتكاسة ونكوصاً . واقعة تحت ضغط عاطفي شديد بسبب حاجتها المحبطة للولد . هذه الحاجة التي ترفض أن تلبيها ، بالغة في رأيه حد المرض ، لأنها يائسة من تلبيتها . لكن الخطر الذي أحسسته لم يكن هنا . كان في ما أعلنه زيد عن أن حاجة نازك للولد قد تدفعها الى تغيير موضوع عواطفها الجنسية .

طبعاً ، أنا لا يمكن أن أقبل بأي حال من الأحوال أن تصير نازك ملكاً لغيري . وكنت واثقاً أنها لن تصير . نازك تحبني أنا . ومشكلتها ليست عاطفية . كانت نوعاً من العجز . إنها لا تستطيع أن تكبر على مرحلة عمر معينة ، المراهقة على الأغلب ، وتتقبل حقائق الحياة الواقعية الأصيلة . هذه المثاليات التي تبخّ في رؤوسنا ضباباً ونحن في السابعة عشرة ، مازالت تملأ رأسها حتى الآن ، وقد تجاوزت السابعة والعشرين . لو أنها فهمت أن الموقف

المثالي أفيون الحياة ، وأن الحب تتويج للنجاح المادي ، لتجاوزت أزمتها بكل راحة .

أم اللولو إذن ، هي الكل بالكل . هي النضج ، والوعي ، والسعة ، والامكانات ، والمستقبل ، والعمق ، والتحقق ، والجمال الكامل . وفي تلك الأونة رمحت على صهوة حس عظيم بأن فاوست قد احتل مكانه اللائق به ، ودخل أبداً من القوة والعلاء . لم يكن في هذا الحس مكان لغير الأسف على الضآلة والتخلف اللذين اختارتهما نازك . لكن الانشغال الأكبر كان ايجاد مناسبة تجمعني وأم اللولو لننهل نخب الظفر والمجد والحب .

كانت أم اللولو مشغولة . وسرعان ماأدركت أن لقاءنا بعيد ذلك الحادث الانتحاري قد لا يكون حكيماً . لا أحد يجرؤ على التفوه بشيء ، لكن الحرص والاستتار مطلوبان .

غير أن اللقاء بات حاجة ماسة . حتى ذلك الحين لم نلتق اللقاء الفطري الكامل . لقد توافقت بيننا إيقاعات الحياة . وكثير من إيقاعات النفس . رأينا نفسينا على درب واحد وفي مسيرة واحدة . لكن كثيراً من إيقاعات النفس لم تلتق بعد . والسبب أن إيقاعات الحياة كانت جارفة ومتلاحقة . وقد انفتحنا عليها بالكامل فبقيت الذات مغمضة العينين . هل سميتها عشيقة ؟ ربما . لكن التسمية لم تكن واقعية تماماً . فنحن لم نلتحم في عري الجسد ، ودفق نبضاته ، إلا جزئياً . كان هناك دائماً ثياب ، أوعجالة ، أو تضارب في تواتر التوترات . الآن انتهت المشاكل والقلق ، واستقام الدرب الطويل العريض . انتظم العالم الموضوعي والحقيقة التاريخية . لم يبق عائق أمام ازهرار العالم الذاتي والحقيقة الشعرية .

لكني لم أستطع مقابلتها . حتى الهاتف لم يعثر عليها . وقلت حسناً ،

يبدو أن فترة التريث أطول مما حسبت . وفي اليوم الرابع استيقظنا على أمر غريب .

كان رجال من البلدية يعتلون الأسطح . لوهلة ظننتهم الرعاع ، وتناولت المسدس . صعدت إليهم وأنا بملابس النوم . كانوا ثلاثة . كل واحد كان واقفاً وسط سطح وبيده معول ورفش . كان في الدار أربع غرف خالية . واحدة لصق « مخدع » أم يسير ، والثلاثة الأخرى بين الغرف المسكونة ، وآخرها غرفة خلدون المجاورة للمدخل العاتم . وقد وقف الرجال على سطوح الغرف الخالية .

أجابوا بلطف وهدوء عن جميع أسئلتي . معهم أوامر خطية ـ رأيتها ـ بتوقيع الاستاذ عبد اللطيف / لحفر دائرة قطرها متر في سطح كل غرفة غير مسكونة / حتى لا يتشجع أحد ويسكن فيها / إذا امتلأت الغرف بالساكنين ، صعب على البلدية إخراجهم / من ناحية إنسانية ، وربما صح لهم محام بارع يكسب لهم حقاً في بيوت حديثة / هم لا يريدون أن يتكلموا في أمور لا تخصهم / لكن كرامة المعلم علوان عندهم فوق كل شيء / مستعدون لأن يعرضوا أنفسهم للعقوبة لأجله / طبعاً هو لن يخبر أحداً بما أخبروه / وعلى كل حال ، أبو خليل صاحب الترابية تحت ، وهو يعرف كل شيء .

كان ارتباكهم سخيفاً . ما الذي يضير ني من فعل قانوني صرف ؟ أظهرت لهم رضاي عن ولائهم لي ، ثم طمأنتهم . في الباحة كان أبو خليل جالساً يشرب الشاي الذي قدمته أم حسن ، فيما أم يسير تقول له :

« صحتين ياحج أبو خليل . » هو أيضاً رأى في الحَفْر فعلاً محرجاً ، وربما مسيئاً . وكان التراب يهور من السقف ويتكوم وسط الغرفة ، تلة صغيرة متعارمة ، وفيما يتشقق حلقه بضحكة رنانة ، استجابة لطرفة من أم يسير ،

كانت عيـدان السقف وألـواح خشبـه تتشقف تحت ضربـات المعـول . كانت بهجتـه الطـافحـة بما يحدث سخيفـة تمامـاً ، وضحكته المنغنغة ، الخلاسية ، توحي وكأن سروره ناجم ليس من ثقب السطوح ، بل أنه جاء يسترد مني ديناً قديماً . هذا الـتراب له . اشـتراه مع الخشب والحديد في الدار كلها . ويريد الآن أن يؤكد ـ من باب الاحتياط طبعاً ـ حقه فيه . لكيلا تسول لأحد نفسه أن يتمسك بالدار .

طبعـاً رفضت الجلوس معـه . حاول أن يستـدرجني ففشل . سألني إن كنت سأحضـر غداً المزاد العلني لشقق جمعيتنا السكنية المفلسة ، فقلت إن لي شقـة سأكسب من بيعهـا أكثر مما سأكسب من شراء غيرها . وذكرته أني لست تاجـراً ، وأني ضد كل التجـار . ما دام بوسعيَ شراء قصـر فلماذا أضيـع وقتي وطاقتي في مزادات علنية تافهة .

تركته الى بيتي . لسوف يستمر سروره البخس ، ولغة إشاراته المخاتلة الى الإساءة المزعومة في حفر السطوح . رغم أنه يعرف تماماً ما وصلت اليه من قوة وعلو وغنى .

كانت نازك جالسـة في الغـرفـة المطلة على البـاحة . ذراعها على حافة الشبـاك . وذقنهـا على ذراعهـا . وكـانت عيناها تتوغلان في المشهد المضحك أمـامهـا . ولكن ، لحظـة تأملتها من البهو ، أيقنت أنها تراه عبر غمامة ، وإن الغمامة تمطر ، وأن المطر ينزل من زوايا عينيها .

خرجت من الـدار . كان الـوقت باكـراً نسبيـاً . لكن كان علي أن أقرر متى أقـدم استقـالتي من التعليم ، ومشيت لأعمـل حسـاباتي . كانت المدينة زحمـة وحـافلة . استعـادت مخيلتي صور الحفـر والـتراب الهـابـط عبر خشب متشقق . صور كئيبـة ومقبضـة للنفس . بل إني أحسست بتـوجس مقلق ،

أغـاظني لأنـه بلا سبب . حقـاً كنت مسروراً بهذا الحفر . ما حاجتي لمزيد من السكان ؟ الذين عندي يكفونني . آخر مرة جاءنا خلدون . وخلال أسبوعين قامت القيـامـة . لا أريـد أمثـال خلدون في الـدار مرة أخرى . كان أبو خليل يخدمني ، رغم أن ضحكتـه وأسنـانـه الصفراء صورة للبشاعة ، وحنفية ضيق وتشاؤم . أراد أن يقول كلامـاً بضحكته هذه ، وليس بلسانه . كأنه لا يرى ما بوسعي أن أفعل به ، أو له . مثلما أشاء .

حيتني أيـادي ووجـوه وعيـون كثيرة . تحيات صافية عفوية . واضح أن أخبار الحارة قد انتشرت في المدينة كلها ، وأني صرت علماً ومركز قوة . وجوه لم أرهـا من قبـل ، فياضة بالود والنشاط . جعلتني أرتاح بعد انقباض . لا شيء يخفى على الناس . إن من يعمل مثقال ذرة خيراً أو شراً ير الناس عمله .

ولأني تمعنت النـاس من ذلـك المـوقـع السـامق المـديـد ـ تحس قدميك واقفتـين برســوخ ، وعينيك تريـان بوضـوح وعمق ، وأنـك في غير حاجـة للمسـدس ـ لأني تمعنتهم من هنـاك ـ طبعـاً أنا لا يمكن أن أنفصل عنهم مثلما فعـل سلطـان ، أنا منهم وفيهم ، ولكن شاءت الطبيعة أن أرتفع ، ورغم قوة البصـر ونفـاذ الشعـور رأيتهم . . أجـل ، رأيتهم صغـاراً . أحجـامهم قليلة ومحـدودة . يتحـركـون هنـا وهنـاك بهذه الضـآلة . وكان استيائي وتوجسي ما يزالان يبرزان بين الفينـة والفينـة . وقـد جعلتهما هذه الرؤية أقوى وأمضى . إن مثـل هذا العلو بُعــد . وواحــد مثــلي ، ضاربـة جذوره في أعـماق هذه الحـارات ، لا يستطيـع أن ينفصل عن تربته الطبيعية لمجرد أن مداره قد اتسع وعظم . لكنهم كانوا صغاراً . لا أحد منهم يمكنه أن يستمع بوعي وفهم الى نجاوى نفسي وخلجاتها .

رأيتني أتجـه الى باب شعــوب وهنــاك صافحت وجهي حرارة وراحـة انطلقتـا من الحشـد البشـري الكثيف . الـذي عشقتـه دائـماً . رأيت حيـاة

متـدفقـة . وأدركت لماذا تحب أم اللولـو المجيء الى هذه الأمكنـة . بشر يتحركون على الدوام . وعلى الدوام تتلامس أجسامهم بسبب كثرتهم وضيق المجال بهم . كانوا مستغرقين تماماً في حياة تلك الثواني الراهنة . حتى المتسول المشلول جذعـه ، والمتسـول الأعمى ـ وقـد رأيتهـما لأول مرة ـ كانـا ممدودي اليدين بطريقة من ينتظر حسنة في اللحظة التالية .

هنـاك نهض ضيـقـي وتـوجسي جنبـاً الى جنب مع فرحي بالحيـاة واستجابتي لها . تمنيت لو زيـد إلى جانبي ، ليشـرح لي كيف يندفع الشعور بكـل إيجـابيتـه وقـوته وحرارته إلى الحياة التي حوله ، فيعود بخواء رخو وخشية واترة . رغم التحيات . رغم انتصاب الناس للتحيات ، ودعواتهم .

لاشك أن ثمة ضريبة لكل علو .

عدت أدراجي الى الـدار . كان أبـو خليل ورجال البلدية قد اختفوا ، والمهمة أنجزت . عاينت الغرف المثقوبة . الحقيقة أن المنظر كان بشعاً وكئيباً . وسـط الغـرفـة تلة تراب دائرية ، نتأت منها عيدان وكسور خشب مثل شواهد الأضـرحـة . وفي سقفها تدويرة إهليلجية . يُنظر منها الى السماء كما ينظر إلى عورة مكشـوفـة . ثلاث غرف . وقـد اختفت الشبابيك والأبواب وإطاراتها . أجـل ، قلت لنفسي ، لابـد من الاعتراف أن المنظر موحش وموجس . وكان لا بد أيضاً من قبوله . لأن ماركات لغمية من نوع خلدون ، لا يمكن قبولها هنا .

استدرت للصعود الى البيت ، كان الأطفال ورائي . أطفال من الحارة أيضـاً . ووراءهم أم يسـير ممطـوطة الفم . كانوا صامتين فلم أكترث لوقوفهم الفضولي . لكن عيونهم تكلمت . ضايقني أني لم أفهم الكلامَ ، رغم قوته . هززت رأسي بلا مبـالاة . هكـذا أرْوَح . نحن كما نحن سعـداء ، ولسنـا بحاجة الى خلخلة .

رأيت نازك في الغرفة المطلة على الباحة . ورأيت عند الباب شنطة مجهزة ، وأخرى كبيرة فيها ثياب . وعلى الكنبات المودرن استلقت ثياب أخرى . كان منظراً صاعقاً . وقفت ، ووقفت هي ، وتوغلت أعيننا في بعضها البعض .

لزمني وقت لأبتلع ما فهمت . وفي هذه الأثناء قالت هي : « أنا تاركة لك البيت . » ولم يكن قد صار بوسعي الكلام . « ليس الى بيت أهلي . هذه سيرة انتهت ؛ سأستأجر مع معلمة زميلة . »

صار بوسعي أن أتصرف . تناولت الحقيبة وخبطتها على الجدار بشراسة عجماء . كانت نازك قد اقتربت ، تريد تخليص الحقيبة من يدي . دفعتها هي الأخرى ، ربما بقوة أعظم . تراجع قوامها النحيل متطوحاً حتى سقط على الكنبة . « اسمع يا وحش ! » صرخت بي . « هذه حياتي ، وأنا حرة فيها . . »

كل شيء كان أبيض أمام عيني . « أنت حرة في أن تلتعني . لكن ترك البيت ، لأ . »

كانت تود النهوض فالمقاومة . لكن راحتيها بقيتا على الكنبة . « اسحب مسدسك . اسحبه . »

قلت بنبرة كظيمة : « إذا لزم الأمر ، أسحبه . أنا أسمح لك بالتفكير الغلط . لكن الفعل الغلط ، لأ . »

« كان ممكناً أن أتحاور معك . لكني الآن مصممة على الذهاب ، لأشوف ، ياترى ستسحب المسدس وتبقيني بالقوة ، أو لأ . »

صار واضحاً أنها لن تسلك طريق العنف . قلت : « في هذه الظروف انسحابك طعنة في الظهر . وكل الوسائل مباح استعمالها ضد الخيانة . »

فجأة انـدفعت عن الكنبـة وهـرعت الى البهـو . « الخيـانـة أن أبقى معك . خذ حتى ثيابي . »

لكني التقطتهـا من زندها ، وشددتها الى الخلف فرميتها على الكنبة . « قلت لك اهمدي . »

تصاولت أعيننا بصمت واستغراق . ومرة أخرى ارتددت الى اللغة بدلاً من الفعـل ؛ ويقينـا لا أعـرف أيهـا كان أقـوى . قالت : « أنت تظن أنـك تكشفت عن شخصيـة عظيمـة . أنـا منـذهلة . ما هذه العظمـة ؟ أنت ماذا أنجزت لتظن أنك عظيم ؟ جاءتك ظروف . ظروف بيع وشراء . جعلت منها اسطـورة . وعميت عن نتائجها . أخيراً ! صار عندك اسطورة . يحيك عدد من النـاس بتـزلف وتملق . يجعلونك تصدق أوهامك . أنت ماذا أنت ؟ انت أي شيء ؟ أنت من ؟ أنت لم تأت بشيء غير القتل والخراب . »

« ارجعي ثيابك الى الخزانة . »

« رح اسحب مسـدسـك على سلطـان . اليـوم ، الغـرف الفاضية . بكرة ، الغرف المليانة . »

« أرجعي ثيابك الى الخزانة . »

« اسمع علوان . أنت لم تعد تريدني . وأنا لم أعد أريدك . أنت مشيت على درب أم اللولو ، خلص . وبقائي أنا ، في بيت مسكون . . بخفافيش أوهـامـك ، لن يكـون إلا تحت تهديـد المسدس . وحتى في هذه الحالة ، أنا سأعرف شغلي . »

« اعتبري من هذه اللحظة أن حياتك هي ثمن خروجك . »

« ليس في بقائي تحت مرمى مسدسك غصباً عني ، ما يشرف عظمتك . »

« ابقي ولا تمري برأسك في طريق الرصاص . أنا أعرف كيف أجدك ، وأرميك . »

هذا التخلف فظاعة لم أعد أطيقها ، قلت لأم اللولو . صارت تستعمل لغة الإشارات العنيفة ، ماشاء الله . لغة الرعاع . وليس لغتنا نحن ، لغة اللغة ، والتفكير السليم والتعبير الدقيق الصحيح . عبثاً . مهما تحرر الإنسان من ظروفه وشروط حياته ، تظل له ارتباطات سقيمة لابد من الاحتفاظ بها . « تستأجر ، قال . ليقولوا زوجة المعلم علوان شقت عليه عصا الطاعة ، وطلعت ضده . »

طبعاً تمددت على الكنبة البيضوية . وتمدت روحي أيضاً . كنت قد اقتحمت المكان شبه اقتحام . لحسن الحظ لم أكن مضطراً لرؤية قصر سلطان ، فقصرها هي في جانب معاكس . وتلقتني هي بابتسامة معجبة وذراعين متهللين . تلك القبلة كانت أطول قبلة في حياتي . فجأة انطفأت الأضواء ، كأنما بإيعاز . ورغم الرداء ، انساحت يداي على بحار القشطة والعسل والكثافات الشبقة . كانت هي تنفجر شبقاً . صاحت وتأوهت ونحن ما نزال واقفين . وعندما ارتمينا على أرياش الموكيت المبتردة ، كانت أطرافها متكلبة حولي ، وإيقاعات جسدها أمواجاً تطمس رعشات جسدي . أحسست فعلاً أن هذا هو الحب . كانت قبلة حس كثيف ، وقلق رفرف فصار انعتاقاً ، ووعي تشعشع بالممكن وأمسك بالمستحيل . كانت فعلاً قبلة فاوست آسيا لهيلين الإغريق . وعندما استرخينا على الكنبة ، وقد ضاء المكان فجأة ، ورحنا نلتقط أنفاسنا ، راعني الفرق الكبير بين ما يكونه الإنسان وما يمكن أن يكونه . كل هذه الأعراف والاعتبارات التي قلصت وجوده وكينونته الى الحد الأدنى ، يجب ألا يقبل بها . يجب أن يترك لجناحي النسر اللذين فيه أن ينبثقا ويطيرا به . لقد طلب منا زيد ذات يوم أن نتجاوز شروط عيشنا وتخوم

ذواتنا ، فنكتشف كوناً جديداً وبشرية أخرى . ولم أع ما في قوله من إيمان بالإنسان وطاقاته التي لا تحد ولا تفنى ، إلا لحظة ارتمينا ، أم اللولو أنا ، على الكنبتين الأثيريتين ، في ذلك المكان الفضائي والزمان المطلق .

وكنت في تلك اللحظة متأكداً أن الرجل الذي أرسلته أم اللولو لمراقبة نازك ، واقف عند المدخل .

فجأة ضحكت ، ونظرت أم اللولو مستطلعة . قلت باستمتاع وطرب إن سلطان طلب مني الابتعاد عنها ، وهدد . وحكيت لها ما فعله في الدار ، دافعاً أبو خليل ليكون وجه سخام .

اعتكر وجهها : « انتبه لسلطان . لا تستهن به . »

قلت إني عارف كيف أتصرف معه ،وإن مسيرة المغامرة المبدعة لن تتوقف .

لم يفارق العكر وجهها : « الناس في هذا البلد يفكرون أنهم يحق لهم امتلاك الناس أيضاً . وهذا سخف . سلطان لا يستطيع ، لكنه يريد أن يمتلكني . ولأن عقله مغروس في تربة الاستبداد والاستعباد ، يظن أنه إذا لم يستطع امتلاكي فربما يستطيع غيره . هذا سخف . أنا ، لا أحد يستطيع امتلاكي . »

طبعا ؛ قلت لها . « ومن سوف يحترم مملوكاً ؟ ومن يقبل إنساناً لا يحترمه ؟ »

لكن الملكية الأخرى مهمة بالتأكيد ، قالت . وغمغمت بكلام عن تغيير محتمل في مخطط البلدية لتجميل المدينة ، سيترتب عليه انخفاض حاد في أسعار عقاراتي التي أنتظر تضاعف أثمانها .

« لديك مال سائل ؟ »

قلت إن كل ما لدي تقريباً موظف في هذا المشروع . « المغامرة المادية ، أيضاً لها فرحتها . »

« حاول أن تدبر حالك بسرعة . » وبابتسامة كتلك التي لفلفتني يوم رأيتها من شباكها أول مرة ، قالت إنها لم تكن تنوي مقابلة أحد في هذه الآونة . وإن من الحكمة أن نلتقي في وقت آخر .

من كان يدري أن ذاك هو اللقاء قبل الأخير مع أم اللولو ؟ لقد تتالت الأحداث بسرعة ، وبسرعة حلت تلك اللحظة التي انكشف فيها كل شيء فانتهى .

جمعت أم حسن وعزيزة معاً ، وقلت لها إن أعصاب نازك متعبة جدا ، وإنها يمكن أن تقوم بفعل ما يؤذيها . مددت لكل منهما ألفاً ، وقلت : « لا تتركوها . إذا خرجت من الدار ، واحدة منكما تلحق بها حتى تعرف تماماً أين هي . وبعدها تقول لي . »

في المقهى العقاري رأيت جمهوراً أضخم من المعتاد . سألوني فقلت إني لن أبيع . وكان ما أنذرت به أم اللولو قد تجسد شائعة كالكهرباء في سريانها واستتارها . لكني أعلنت أني لن أبيع . وانصرفت الى لعب النرد . كان شيء يتفشى في الأذهان والعيون ، بسبب خبر بندوق ترجرج كالزئبق على سطح زلق . وسرعان ما أمسى الجلوس هناك مضاضة وابتذالاً ، فنهضت .

طغت الوحشة والتوجس على السطح . وكان لابد من التمعن في الوضع على كافة وجوهه . بالطبع لم يكن وارداً أن أبيع بالرخص . بل إني تمنيت لو امتلكت مالاً أشتري به العقارات التعسة الحظ . عندما أبني قصراً

هناك ، وسوبر ماركت ، وفندقاً سياحياً ، سترتفع الأسعار كالزوبعة ، ويندم هؤلاء التابعون المضاربون ، الذين لا يملكون أن يحوّلوا ظرفاً سيئاً لمصلحتهم . المشكلة هي قصر النظر ، وعدم إيمان بالنفس . إن هؤلاء أناس تأخذهم كلمة وتجيء بهم أخرى . لو كانت لديهم رؤ ية ، وعزم على تحقيق أمر جليل ، لانهارت الإشاعات ، وظلوا هم منبع القوة الوحيد في السوق . لكنه زمن خلاسي . يتسيد فيه أشباه الرجال . البطولة تعطي مكانها للمضاربات والمساومة ، والجهال للمساحيق . وأنا رجل لا أساوم ولا أتبرج .

كنت في مأمن . مستقبل العقارات مضمون بفضل إيرادات الأفلام والأشرطة : قصر سيينى هناك وسوق كبر ى وفندق سياحي . الآن وقد أعلن سلطان الحرب علي ، فالأولوية يجب أن تكون للقضاء على رجل الجهل والتعصب ومثالية اللؤم والنتن . وأنا أعرف أن أستعمل ما في غمدي لإخراسه نهائياً ، وإلقائه متكوماً بين قدمي أم اللولو .

- ٨ -

في الصباح التالي لم يجد يسير ماء يتوضأ به . فتح الصنبور ففوجىء بشهقة مديدة متطاولة . التفت حوله . ما عاد أبو حسن ينام تحت السقيفة . ولأن سعدون ينام حتى الضحى ، فإيقاظه حرام . نظر ثانية الى الصنبور .

كان الشهيق قد تلاشى . ومثل من أيقن أن أحداً لا يسمعه ، هز رأسه وغمغم : « اقتربت الساعة وانشق القمر . » وقف ساكناً بضع لحظات ، ثم تيمم وصلى ، وخرج الى عمله .

خلال النهار تدبر أهل الدار أمرهم من ماء السبيل . لم يتغير شيء . سوى أن أم يسير تضايقت . لقد عز عليها أن تنقطع عن رش الباحة بالماء عند العصر .

قبيل المغيب عاد ماجد . أراد أن يغسل رجليه فأفهمته عزيزة الوضع . وخرج ، فسأل . وعاد يقول ان الماء متدفق في بيوت الجيران .

عندها هبط علوان الى الباحة وجلس مع جيرانه صامتاً . كان أبو حسن يبيع المرطبات في دكانه ، بعد أن أفهمته زوجته استحالة التسكع هنا وهناك ومجاراة الكبار في ألعابهم . وبعد دقائق أحس الجميع بالحاجة الى وجوده . لم يكن بوسع أحد ، فيما بدا ، أن يجري حديثاً ، ناهيك بنكتة .

تلاشى الضوء وتفشى العتم . صاروا بحاجة الى الكهرباء . كانت الكهرباء مقطوعة أيضاً . مرة أخرى خرج ماجد . وتزايد الصمت في الدار مع تزايد الظلمة . حتى سعدون ظل صامتاً . كان تعبير وجهه المنشغل بأمر بعيد متعاكساً مع وجوم صارم تلبس وجه علوان . عاد ماجد ، ليس بموفق الكهربائي الذي اختفى من كل مكان ، وإنما ببضع شمعات وبأبي حسن .

« يا جماعة ، الماء والكهرباء مقطوعة عن دارنا بس . الحارة كلها مولّعة ، والميّة فيها سواقي . وأظن هالوساخة من المعلم سلطان . »

لم يرفع علوان رأسه . كان يعرف أن كلام ماجد صحيح . وأفرحه برهة التضامن المؤكد فيه . من طرف عينه نظر الى يسير القابع في الزاوية الشمالية من الدار . حدق الى وجهه السادر ، الملفلف بالظلام ، الخالي من أية لغة . وتمنى لو تصدر عنه تلك الصرخة الأعماقية . كان الحديث قد بدأ يدور ، واهناً متقطعاً . وأخذ الأطفال ينشئون اهتماماتهم وأصواتهم الخاصة . لكن أحداً لم يشعل شمعة . لا في الباحة ولا الغرف .

هتفت أم يسير فجأة : « والله جاء وقت وقلت لحالي ، الحمد لله صار عندنا أكل وميّة وكهربا . شوفي هالوقت . صار عمري سبعين سنة وحبتين ، وأنا أبكي عالأكل والميّة والكهرباء . الله يلعن هالعمر . »

هتف أبوحسن : « كلمة من المعلم علوان لأم اللولو ، وترجع الكهرباء والماء . »

كان واضحاً أن الجميع يعرفون ـ أو يحدسون . قال علوان : « مصلحتنا تقتضي أن يذهب وفد منكم إليها . ذهابي أنا يضر لا ينفع . لأن الآتي أعظم . ويجب أن نوفر امكاناتنا للمعركة الفاصلة . »

صمتوا . بفهم قليل وقبول شبه تام ، راقبهم علوان مستتراً بالظلام وباضطرابهم الذي أحدثته فكرته . « ياالله ياشباب ! » صاح ماجد وهبّ واقفاً . « ياالله يا يسير . وأنت ياعزيزة ، ويا أم يسير . »

قال علوان : « خالة أم يسير ، روحي وقولي لها يا حاجة أم اللولو ، رجّعي لنا الماء والكهرباء . »

هتفت نازك من البهو بصوت يكاد ألا يسمع : « أحد ما يجلب لي شمعة ، يا جماعة . »

دبت الحياة في يسير . هرع الى ماجد . نتز منه شمعة ، وصعد إلى نازك .

خلال دقائق استأنفت الدار صمتها . قبل أن يخرج أبوحسن ، حشر أولاده في الغرفة وحظر عليهم الخروج . حتى الذين أرادوا أن يناموا قرب تلة التراب في الغرفة المثقوبة ، تعين عليهم انتظار عودته . واستأنف يسير جلسته ، وعلوان تحديقه إليه ، وسعدون رغبته المؤجلة في الكلام . ومن

البهـو ، حيث جلست نازك وحـدها ، خفق ضوء شاحب وحوّل الظلام هناك إلى ظلال رمادية .

فجأة التفت علوان وسعدون نحو غرفة خلدون . كان ضوء يسطع منها بقـوة متـزايـدة وينبسـط في الدار . دفعهما الفضول والمفاجأة الى النهوض قبل الكلام . اتجها نحو الغرفة . لاشك ان ثمة بشراً هناك .

كان زول يتحرك بثقل نسبي ، كأنه أفاق من النوم قبل لحظات فقط . نبر سعـدون : « هه . ثائـر آخر من الطبقة المتوسطة ؟ » تحرك الضوء القوي - ضوء مصباح غازيّ كما بدا - باتجاه الباب وخرج . وراءه وقفت قامة . لم تكن بيّنـة المـلامـح . لكن صوتـاً عميقاً هادئاً خرج منها بنبرة ودودة ، شبه فرحة : « وما لها ، الطبقة المتوسطة ، يا أخ سعدون ؟ »

صارت المفـاجأة أكـبر بكثـير . هذا الصـوت ! كان علوان مستعداً أن يقسم ، لولا درجة إضافية من الثخن ، أنه صوت خلدون . وقد أمسك بهذه الـدرجـة لئـلا يضطرب عقله . وتوقع صرخة هستيرية من يسير ، بفعل هذا الظهور المباغت .

تقـدم حامـل المصبـاح . حيا الرجلين الواقفين . وعلى الشريط الذي حمل اللمبـة الكبـيرة ، علّق مصباحه وجلس . نظر إليهما ، وقد استدارا بآلية خائرة مع خط تحركه : « ألا ترحبان بجاركما الجديد ؟ »

كان أخذ الأمور بهذه البساطة مستحيلاً . اذا كان الصوت قد حرك في علوان أعـماقـاً جائشة بالخوف ، وفي سعدون موجة كراهية ، فإن الوجه الذي طالعهـما في ضوء المصبـاح الساطع كان حقيقة فيزيائية مستحيلة . كان أمامهما خلدون بلحمـه وشحمـه : تقـاطيعـه ، سيـماؤه ، محيـاه ، طولـه . تغييران طفيفـان لم يخففـا شيئـاً : شعره القصير وقامته الأنحل . بالطبع . هذه الفترة

المضنية لابد أن تترك أثراً على البدن . إن شاهداً واحداً قد انتفض فزال عنه القبر والكفن ، وجاء الى قاعة عقل علوان معلناً أنه لم يمت كما قال زيد ، وإنه الآن سيتكلم . كل حادثة وكل تفصيل ارتد الى جبين علوان المسيج بالرؤ ى والطموحات .

تحرك سعدون : استحالة أو واقع ـ هو يريد أن يعرف . خلدون أو غيره ، لا فرق . مثل هذا بالنسبة له أناس لا يهزون شعرة من مفرقه . مغامرون أو أطفال . وعنتراتهم لا تجوز على من يفهم التاريخ .

ابتسم الزول لسعدون المقترب : « أنا أقول ، لا ثورة بلا طبقة متوسطة . المهم أن تعرف كيف توصلها ، أو توصل ما استطعت من شرائحها الى الموقع الثوري . أما شتمها وشرشحتها ، هذه موضة دراجة ، مبتذلة . المهم أن يقف الإنسان في قلب الصراع . وإذا اختار الوقوف على طرف ، فخله على الأقل يمتلك تواضع المتفرجين ، لا أن يعتبر نفسه حكماً ومرجعاً . »

كانت يد علوان قد تراجعت الى غمد مسدسه ، وهو يقترب وراء سعدون .

« لا داعي للمسدس ياسيد علوان . أنا لست خلدون . »

تجمدت يد علوان ، بأصابعها المنفرجة والتوائها الى الخلف . وسطعت الكهرباء في الدار . انطلقت من الأولاد زغاريد وصيحات ، ومن فم الزول ابتسامة .

« من أنت إذن ؟ »

« أنا خالد . » ونهض فأطفأ مصباحه . ثم لم يضف شيئاً . تقدم

علوان وجلس الى جانبه وهو ما يزال يسربله بنظرات التحقيق والارتياب . وظل سعدون واقفاً . لقد صاغ لهما جوابه أسئلة جديدة .

دخل الوفد بزخم وصياح ولغط . « وبكرة ، صباحاً ، الماء . » صرخ أبو حسن . وفي منتصف الباحة توقفوا مباغتين وجامدين . تحركوا قليلاً ، فقط ليضعوا أجسادهم في الأماكن الأفضل للرؤ ية .

« ما لكم يا جماعة ! ما هكذا يرحب الكرام بجار جديد . »

« خالد ! » صرخ أبو حسن . وركض فعانق الرجل الذي وقف لتحيته . « عليّ الحلال ، خمنت أن الأرض بلعتك . اقعد ، يا رجل ، اقعد . أم حسن ! هاتي الشاي فوراً . أين أرضك كل هالمدة ، يا مشرد ، يا مفجوع ؟ »

لأجل هذا اقترب الجميع من خالد . وطار الأولاد الى بيت علوان فأنزلوا كراسي . ثم جلس الرجال والنساء .

قال علوان : « ماذا حدث يا أبو حسن ؟ »

انتصب أبو حسن واقفاً : « العفو منك يا معلم علوان . أنا غلطان ومنك السماح . اليوم نسهر مع خالد وتعرف السبب في لهفتي عليه . أم اللولو ، ست الكل ، قالت تكرم عيونكم . والحكي بسرك يمكن سلطان هو الذي فعلها . لكن ست الكل رفضت هالشيء بالكامل . جاءت بموفق من تحت الأرض . والميّة ، بكرة يا معلم . لكن أم اللولو قالت . إنّا ارتخينا مع جيراننا ، هنا . » وأشار الى دار أم عبودة . « قالت نحن ارتخينا ، ولهذا السبب طلعوا على السطوح . إي والله . هذا كلامها . »

« فعلاً » . قال خالد . وأضاف مبتسماً : « شدوا البراغي . »

ابتسم الجميع . ولأن علوان لم يتكلم ، انصرفوا الى معاينة الساكن الجديد . حتى نازك أطلت من الشباك المكسر الزجاج ، وتابعت المشهد الحي بابتسامة حية .

دخل سعدون غرفته وأغلق الباب . وعبر لغط ملفوح بالأنس ، استغرق السكان في الفرح . ان هذا الجار الجديد ، الساكن في غرفة مثقوبة السطح ، طريف حقاً .

لبث علوان واقفاً . بالتدريج صار مجرد قامة منتصبة مبهمة ، ثم شبحاً ثابتاً تلامسه زوايا العيون وهي تطبع في بؤ رها صور الرغد المتتابعة . وكان وجه نازك ، المطل عليهم من الشباك كغيمة صغيرة ، يشرب الأصوات والحركات بابتسامة سائلة . إلا هو : وقف هناك كنتوء عارٍ ، كثقل متدل . لو شاء لفرض عليهم تغيير ضجيجهم وتنغيم أصواتهم حوله . لكن إطلالة نازك حولت نحوها غيظه وكربه . لقد رأى في بشر ذلك الوجه استمراراً في خذلانها له وتحديها ، وإصراراً على تحطيم اللغة التي صاغاها معاً . ها هي ذي تهبط الى المستوى الحسي الذي خلصها منه بالحب ذات يوم . إنها مبتهجة بضجيج هذه الأميبات .

خرج . على كل حال ، يبدو أن الغربة نصيب المتفوقين . الذين يقفون بقوة ومجد عند ذلك العلو ، يقفون وحدهم . مثل النسور التي لا تجد في فضاء السماء أنداداً لها تفرح بهم ، ولا ضحايا يشفيها اقتناصهم .

نزل الدرجات الحجرية ، بنصف انتباه قادته قدماه الى قبوه القديم .

التحيات نفسها ، والوجوه المشوقة غير المعروفة . بل إن أحدهم وقف ، وشد على يده ، وهزها ، وأمطره بالثناء والاعجاب . لقد لقنت رجولته درساً قاصماً لكل أشقياء المدينة ، وصار اسمه على كل شفة ولسان .

بسهولة استطاعت ذاكرته أن تستعيد المكان الذي اشتر يا منه كيلو الخيار ذاك . من ذلك المكان فتحت نازك الباب لهما نحو العالم الأخضر الفسيح الأرجاء .

وقف أمام مبنى فؤاد بك : أوشك حسه بجسمه أن يتلاشى . الصنوبرات الباسقة الوارفة ، اجتثت عن سطح الأرض . تلك الرائحة الجبلية الأولية ، الرائحة التوأم لرائحة الخيار ، وتلك الخضرة الدائمة والحفيف القيثاري ـ كله غاب الآن . والقبو أيضاً : الوعاء الزنخ القبيح لحياة جميلة عطرة . لم يكن هناك قبو ؛ بل شقتان واسعتان حولهما ممر غطاه البلاط . لقد دفعت الصنوبرات ضريبة التجارة . وتلك هي سنّة الحياة .

لكن نازك لا تريد أن تفهم . هل يمكن لعقل أن يقبل باستبقاء ذلك القبو والغاء هاتين الشقتين ؟ إن الذي استطاع أن يعيش سعيداً في قبو رطب مظلم سقيم ، يستطيع أن يعيش أسعد وأسعد في شقة رحبة منيرة . والحياة صراع ، فلماذا نغضب اذا دخلناه ، ونكفىء إذا انتصرنا فيه ؟

لولا نازك لغادره عكره هذا ، القاتم القلق . في كل منعطف ومسرى من الدار الى القبو وبالعكس ، كانت ملامح الطريق تؤكد له أن نازك هي التي تخلت وتخاذلت . هي التي فشلت في امتحان الحضارة . ونهضت في ذهنه تساؤلات عن الجدوى والمصير ، والقيمة ، والضمير . ولأنه تتبع ، بكل ما في كيانه ووعيه من صدق وإخلاص ، هذه المسارات العظمى لحياة البشر ، وحاول استشفافها في منابعها وتجسداتها ، أراد أن يضبط توترات نفسه ويعرف أين الخطأ ، لماذا العكر ، لماذا الانقباض والتوجس ، لماذا ألف شعور كدر يمرق كل يوم .

عاد أدراجه . الطريق نفسه الذي سلكه يوم حمل شنطة الفروغية .

كان خالـد يجلس بمفـرده ؛ صامتـاً منشغـل الـذهن تحت اللمبـة الكبـيرة . حيّـاة . « ما رأيـك بنفجـان قهوة ؟ » نهض خالد تأدباً وقبولاً للضيافة . وعاد فجلس انتظاراً لعودة علوان بها .

قالت نازك : « سأشـاركـكم الجلسـة . كانت مسـترخيـة في البهو على كرسي عتيق وأمـامهـا مغـلاة مليئة . نهضت بفيض حيوية وترقب . اندفعت الى المطبـخ وعـادت بفنـاجين القهوة . « يجوز أنه جائع . لم يقدم له أحد شيئاً يأكله . ما رأيك ؟ »

هل يكـرم ذلـك الفتى الى هذا الحـد أم لا ؟ « فكـرة رائعـة ! طبعاً . يا للغباء . » كيف غفل عن سلاح كالطعام فعّال في إثبات حسن النوايا ؟

خلال دقـائق كانت الكراسي والطعام القهوة والتر بيزة في غرفة خالد .

وسـرعـان ما تكاثف تحت فجوة السقف ذلك الجو الآسيوي الناجع الفاجع . شفافية لقاء ، ومشاعر قوية تتجاوز في تدفقها نحو الأعماق ألف عقبة وعقبة ، ثم تصطـدم بها عنـد أول ارتـداد للمـوج . لا شك أن ذلك الاندفاع جاء من نازك . هذه النسـوّة الـترابية السخية أطلقت في الرجلين بعولتهما الأخصب . كان وجـه خالـد ودوداً متأنيـاً ، ووجـه علوان مظفراً كاسحاً . وصحن الملوخية مثبت على رأس تلة التراب وخالد يأكل . ونازك تحسو القهوة متضاعفة النفس والحس . و« بلا أدنى شك . لماذا لا ؟ يمكنهم أن يتجـولـوا في الـزقـاق كما يريـدون . ويمكنهم أن يكشـوا الحمام كما يريدون . هات عادل ونوبار والذي تريد ، ونتغدى سوية . »

طبعـاً خالـد يعرف أم عبودة . ويعرف الشباب . وهذه الملوخية عظيمة عظيمة . وعلوان لا يضمر عداء . بل من أين جاءت هذه الاشاعة المعادية ؟ فقط لو كان في الدار ماء . لا همّ على الست نازك . في الغرفة جرة وزمزمية .

من الصباح يمكنهم أن يتحركوا أين شاءوا . علوان ليس ضد حركتهم . لم يكن أبداً ضد حركتهم . فقط ضد أذاهم . يمكنهم حتى أن يتصلوا بشباب الدار الأخرى في شارع العروة الوثقى .

كل الناس تعرف أم عبودة . أجل ، في الفترة الأخيرة تركت شغلها في البيوت . خالد عاش معظم عمره في تلك الدار . هو الآن محام ، بمعنى ما . يحاول أن يجد ثغرة باسم المصلحة العامة ينفذ منها ضد شرعية شراء العقارات بالجملة . لا يمكن تهجير البشر باسم السياحة وتجميل المدينة . « ليس شيئاً أن أسكن في بيت مرفه . قد تسكن في فيلا ، وحتى في وطن عظيم ، وتظل تشعر أنك لاجىء . وقد تسكن في خرابة كهذه وتشعر أنك في وطنك . »

هتفت نازك . حاولت أن تقول كلاماً ، فغصت بالدمع . رفعت يدها في الهواء ، وابتسامة عريضة تجتاح وجهها . إنها مضحكة بلا شك . وهذه الدموع الخرقاء ! « ليس هؤلاء الفلسطينيون وحدهم لاجئين . »

طبعاً . ولكن يجب أن نفعل شيئاً لتفكيك الاغتراب وتفجير الطاقات المبدعة الكامنة في ذواتنا : « الانسان هو الذي بيده يصنع اغترابه أو انتماءه . لا تترك حركة الحياة تمضي وأنت واقف تتفرج عليها . هذه هي الحركة الوحيدة المتوفرة لك . اسبح في لجتها واستنفر امكاناتك ومواهبك . أو قف على الشاطىء وتفرج على عمرك ووجودك يمضيان بلا حراك . لقد قال الشاعر هذه الفكرة : توقفت أستبقي الحياة . »

وقد فضل خالد عدم النقاش . كان يبتسم دائماً ، يوافق بعمومية غالباً ، ويعترض بمودة أحياناً . واكتسبت الجلسة رونق مرح وخفة ، وعدم إطالة أيضاً . بالنسبة لعلوان ، انتهت بانتهاء الغرض منها . وبالنسبة لنازك ، بدت الإطالة تعامياً عن حزن كبير يوجد في مكان آخر .

غير أنهما وصلا الى البهو أخيراً . مشيا خطوات طبيعية لكيلا يبدوا غير طبيعيين . بهدوء وتصميم مستتر ، مضت نازك الى المطبخ لتجلو الصحن والفناجين والمغلاة .

كان علوان منشرح الصدر . جاس في المكان وأنار كل زاوية . أراد أن يطرد الظلام لئلا ينشق عن صور مقلقة . إنه الآن واثق ، ولكن غير متأكد ، من أن سلطان سينهار ، وسيخلي المكان لمن هو أجدر بالبقاء والارتقاء . غداً أو بعد غد ، ويرى الجميع حجم سلطان الضئيل ، ويرون من هو فاوست حقاً .

اقترب من نازك : « تعرفين ؟ البيت كله غبار . التلفزيون . الكنبات الخزن . اللوحات . كل شيء اشتر يناه من يوم جئنا الى هنا . »

بعد صمت قصير غمغمت نازك ، ولكن بصوت بارد واضح :

« نسيت أن تضيفني الى القائمة . »

دار على عقبيه . إن وعيه الجديد ، انبعاثه من ظلمة القبو ، جعله يراها على حقيقتها : امرأة عادية ، صبية ولكن بلا جمال ، حية ولكن بلا حياة ، واسعة العينين ولكن بلا تطلعات . امرأة ضئيلة تثير الاشفاق والرثاء .

كانت ابتسامة نازك قد تلاشت . تقدمت الى البهو ، ورائحة كبر ياء خانقة تعبق في كيانها . غيّرت الحديث دون أن تغيره : « أنا مستغربة سماحك لأولاد أم عبودة بحرية التنقل . » سألها وجهه لماذا . « لأنك ما عدت تستمتع بأحد إلا إذا أذللته . »

هذه المرأة جبل من جليد بركاني . « أمامي معركة يجب أن أنتصر فيها .

بأي ثمن . وإلا صرت لاجئاً مثلهم . وإذا انتصرت ، انتصروا معي . لذلك يجب أن نتحرك معاً . »

«لا أفهم . »

« غداً تفهمين . اليوم خرجت من الدار سائلاً نفسي أسئلتي القديمة .

بصورة خاصة . هل بت أسير أسطورة صنعتها لنفسي ففقدت بالتالي لمسة الواقع ، وصرت أرفضه ؟ مشيت إلى قبونا القديم . الذي زال من الوجود الآن . مررت بسوق الخضار ، حيث تبحبحنا ذات يوم بكيلو خيار . تذكرين حتماً . لن أطيل . وجدت أن المسار واقعي وصح . حقيقي وضروري .

ومتخلص تماماً من كل عنصر أسطوري أو تلفيقي . هناك غلط واحد : النار الشاعلة في قلوب هؤلاء ، يجب ألا تخمد . أحسستها في قلبي . قلت ، إذا انطفأت الجذوة ، انطفأت الحياة ، واشتعل الفحم في قلب سلطان . لذلك أرسلت لأم عبودة رسالة عن طريق خالد . أنا لست ضدهم . أنا ضد أذاهم لي ، بس . أنا لست عدواً لهم . بالعكس . أنا حليفهم الطبيعي ، رفيقهم لاسترداد حقهم والمقاتل الأول في سبيلهم . »

كانت قد وصلت الى الشباك المكسور الزجاج بذراعين منشبكين وخطى بطيئة . لم تسمع كلمة واحدة . ولفحه ضعف مشرئب ، بل وربما خَوَر. ما هذه السلطة العجيبة الممزِقة التي تمارسها عليه ؟ كل منطقها وأفكارها ومواقفها غلط بغلط . ومع ذلك ، تصمت بالرفض فيحس أنه هو المخطىء ، ينهار البنيان المتماسك من خياله لمجرد أنها تدير ظهرها . يراها وقد تفشى فيها الداء ، واغتالت العطالة دفقة الحياة ، ومع ذلك تفرغه هو من كل صحة وانطلاق بمجرد إشاحتها عن الحديث معه . وكان ظهرها عموداً من دخان يتلوى قرب الشباك . كأن شيئاً ما يحترق دون أن يتقد ـ بلا نار . وهذه

هي نازك . بركـان من الـدخـان . أين هي من تفـاعـلات هيـلانـة وآفـاقهـا اللانهائية . أين هي من الوجود الكوني والفيض والروعة . والروعة . من هذا الذي سماه زيد رحم العالم .

أحس أن الكهـربـاء تثقـل على عينيه ووجهه ، بل عليه كله ، فمشى بهدوء عصبي وأطفأ اللمبـات كلهـا . وعـادت عينـاه تريـان ذلـك التـداخـل الشيطـاني لظـلال الضـوء القـادم من بعيـد مع ظلمـة البيت النـاشرة . وشيئاً فشيئـاً ، عبر النـوافـذ المحطمـة والأبواب المخلعة ، عبر الدار التي لا بوابة لها والليل الذي لا حدود له ، تسلل الفرح الصغير الذي خافا عليه قبل دقائق .

لقـد انطلقت قدمـا علوان في الفضـاء وبقيت قدما نازك على الأرض . وإذا لم تكن ثمـة امـرأة ملهمـة ، فلماذا الحب ؟ من أين يأتي الشغف بجسـد كهـذا دخاني إذا لم يعش شريكاً للروح المنطلقة ؟

ذات يوم ، وكـان منفعـلاً ، ضربها وقد عاين ضآلة حظها من الجمال ، الآن ، عليـه أن يضـرب نفسـه للخديعة الذاتية التي جعلته يراها جميلة في أي وقت . وعليـه أن يُخضـع تأبيهـا الـلامعقـول هذا تجاه سطوته . إجبارها على البقـاء في البيت لا يكفي . يجب أن تخضـع له ، ومن الـداخـل ، حتى ولـو اضطر الى تفتيتها وسحق مقومات وجودها . هذا الرفض يجب أن يندثر .

مشى باتجـاههـا . وجمدت هي . تذكر أن سرّتها جميلة فعلاً ، والمساحة الصغيرة حولها كانت على الدوام مثيرة إثارة خاصة . وفيما تقدم نحوها ببطئه الشديد ، صار قوامها كله مجرد تلك الدائرة الصغيرة وبؤرتها الجميلة . وعزم على أن ينسى كل شيء سوى هذه الصـورة العـذبـة . ليس لاسترداد سعادة ضائعة ، بل لاستنهاض شهوة تحمله على ممارسة الجنس . إذا لم تخمد الممارسة شهـوة المـرأة تصـير المرأة رجلاً . وهولم يمارس منذ عهد بعيد . يجب على هذا

الأنف الشامخ أن ينحني أمام من يملك حق التصرف فيه . أولم تقل هي قبل لحظات : أنت لا تستمتع بأحد إلا إذا أذللته ؟

امتدت يده الى كتفها . دلكته . انزلقت الى الأبط . غَرَفَتْهُ . امتدت اليد الأخرى الى السرّة . شدت عليها . ألصق صدره بظهرها . واصله . وكان ذراعاها مايزالان معقودين . دون أن تلتفت ، غمغمت بنصف مزاح : « تريد أن أفتح لك ساقي ، هنا على الأرض ، أو في غرفة النوم ؟ »

توقفت حركاته . واجهها . تصادمت نظرتاهما . قالت : « ما اسم ممارسة الحب اذا كانت « ايقاعات » النفسين متنافرة ؟ عهر أو اغتصاب ؟ »

من قلب شهوته المتصاعدة انفجر غضب عات . ذها يذله . تتأبى عليه بعجزها التام أمامه . تمالك نفسه : « لا يهم أين ، المهم أن تفتحي ساقيك . ولا يهم الأسم ، المهم الفعل . »

« يعني ، عليك أن تغتصبني . أنا يهمني الأسم . »

« في الوقت المناسب . أنا الآن قرفت . »

[تقرير :

من بين الجوانب الملتبسة في سيرة علوان ، شخصية نازك . واضح حتى الآن أنه لن يقدم معلومات مضيئة بشأنها . ان موقفه منها متجاهل ومتكتم . وسوى أنها تشوّش تفكيره وخطواته ، لم يعد لها وجود حي بالنسبة له . إنها رحم بائر ، وجسد مهجور ، ونفس مثخنة بالتمزقات . إزاءه لا تملك الا قوة الكلمة ، وقوة الحضور . وغير العكر وإقلاق الراحة ، لا يمكن لهاتين

القـوتـين أن تفعـلا فيـه شيئـاً . وربـما خطـر على البـال أنهـا يجب ان تهجـره وتمضي . وهـذا هو الطبيعي ، لكنـه مستحيـل . إن نازك المتوثبة ، الواثقة ، المقتحمة ، شبه مشلولة الآن . واضح أن علوان قد أحكم ربط حياتها بسيرته هو ، فلم يعد ممكناً الانفكاك عنه،هذا طبعاً إذا لم يستعمل ضدها العنف ، وما من شك في أنه سيستعمله عند اللزوم .]

ـ ٩ ـ

كان سقـوط نازك مأسـاة صغـيرة . كل ذلـك الألق تلاشى ، وتلك الحيـويـة . ها هنـا نمـوذج من الانهيار الفاجع في الأوهام والمجردات . لم تعد مقـارنتهـا بأم اللولـو ممكنـة طبعـاً . حتى عزيـزة وأم حسن برهنتـا على نضج وفـاعليـة تفتقـر هي لهما . إنهـما أكثـر التصـاقـاً بالواقع والتطلعات الصحية .

ولذلك فهي لا تختلط بهما . تترك الناضجين وتبقى مع الأطفال ويسير . لقد بدأت رحلتها على دربه . وهي تزداد إيغالاً في التشبث بأوهامها وصور حياتها القـديمـة البـاليـة . ها هنـا نمـوذج عن عقـل بات يرى الدونية والفقر وضعاً مثالياً ، ويحن الى عهد الضعة والصغار والحاجة باعتباره عهد كرامة وصفاء .

لقد سقطت في الرجعى . ألغت الواقع الجميل ، بإنسانيته وغناه ، وأمسكت بتصـورات زائفـة . وحنينات كاذبة ، فغرق عقلها في الظلام المخاتل . حتى سلطان وحرب سلطان ، لا شيء بالنسبة لها ، هي التي وقفت ذات يوم ضد رجعية أبيها ورفضت كل مساومة . هذا الغول الرجعي غائب تماما عن وعيها .

من قبل كنت أمسح من نفسي مغاظات كيرة ، مراعاة لها وحرصاً على شعورها وإنسانيتها . الآن لم أعد أرى أي حق لها في أي شيء . لقد مضى سلطان في الحرب الى صعيد جديد خطير ، وصرت محتاجاً الى وقتي كله لمواجهته . ففي ذلك اليوم صحونا لنرى على إطار كل باب انذاراً رسمياً من البلدية ، بتوقيع المهندس عبد اللطيف نفسه ، أن يخلي ساكنو الدار رقم كذا في المحضر كذا . . غرفهم ويفرغوها من الأثاث في ظرف خمسة أيام ، سيبدأ بعدها هدم الدار . كان يوم ثلاثاء . بمعنى آخر ، سيكون اليوم الرابع جمعة ، وبالتالي فمدة الانذار الحقيقة أربعة أيام .

قلت لنفسي لا بأس . هذه آخر رمية في جعبته . بعدها سيستكين صاغراً . إذا كان فَقَدَ عقله فأم اللولو لن تقبل أن يؤذيني مجنون فيزيحني عن طريق كش الحمام بينها وبين الرعاع . إنها قد تتلكأ بادىء الأمر في أن ترمي بثقلها الى جانبي . لعل مقدراتي التي تجلت في معركة الأقبية قد أخافتها قليلاً . وطبيعي ان تحاول مراضاة سلطان بطريقة ما . لكنها سترمي بثقلها أخيراً . وأنا لن التمس من أحد شيئاً . المناورة مكشوفة ، والهدف تحجيمي بأن أطلب تدخل عبد اللطيف أو غيره ، وأضطر الى عقد صفقة مع سلطان تحقق هدفه . ويجب أن يفهموا كلهم خلال هذه الأيام الخمسة ، أن الضغط الأخرق سيزيدني قوة : سيكون مسدسي مشلولاً ! لأني تائه وحائر ! أبحث عن ملجأ ومأوى ! فكيف تُطلب مني السيطرة على الرعاع ؟

قبل أن أهبط الى الباحة فاجأتني نازك بأن كلمتني : « علوان . مازال أمامك فرصة . اترك الدار . أنت أساساً جئت إليها بشكل موقت . »

قلت : « لا شيء موقت يا عزيزتي . الموقت هو الدائم . شوفي جيرانك اللاجئين . كم سنة مضت على إقامتهم الموقتة . إذا تركت الدار

بعد هذا الانذار ، أصير مسخرة ومضحكة . أصلاً : أنا ماذا أساوي خارج هذه الحارة ؟ لن يكون لي أي مركز ، أوقوة ، أو امتياز ، ولا حتى أي اعتبار . على كل حال ، مثلي لا يقبل الهزيمة . »

نزلت الى غرفة خالد . عجيب هذا الإنسان . طبعاً لم يكن هناك . ولكن على ورقة الانذار كان قد كتب بخط يده : أنا في البلدية .

ذهبت الى البلدية . قلبت مكاتبها بحثاً عنه . لم يكن هناك . تصورت كل مكان يمكن أن يوجد فيه ، وذهبت اليه . المحاكم ، الدوائر العقارية ، المقاهي . . لا أثر له . كأنه فص ملح وذاب . دائماً : قبل دقائق ، أو منذ قليل ، كان هنا .

رأيت في خيالي جدراناً عالية تهوي ، وغباراً يملأ الفضاء . وداهمني ذلك الخوف . تمنيت لو أستطيع الحديث مع نازك . ولكن ، مستحيل .

ماذا لو غاب هذا الفتى نهائياً ؟ ماذا لو أن سلطان أو أم اللولو . . بالطبع ! يا للغباء ! بل إنه أخطر من خلدون !

انشحنت . انهجست . بدلاً من القلق والضيق ، امتلكني الخوف والبلبلة . طبعاً لن ينتظروا احتلالاً جديداً للأقبية . الرعاع لم يخرجوا الى الزقاق ، وكل شيء قد يفشل ، وأنا لا أعرف إنساناً واحداً يعرفه .

تذكرت أبو حسن . ركبت سيارة اليه وقابلته في الشركة . ضحك .

خالد هذا عفريت . يمكن ببساطة أن يوجد في أكثر من مكان واحد .

« قلبت المدينة عليه . »

« هم . شفت دار أم عبودة ؟ »

بدا لي الكلام ألعوبة أصوات ، خليطاً لا تقبله الكيمياء . ثم ركنت . كنت قد أخبرت أبو حسن بالانذار . وعندما صفنت ، سألني بكآبة واستسلام : « والعمل يا معلم علوان ؟ » قلت له إننا سنقاتل طبعاً . ولكن يجب أن نحشد جميع الطاقات والامكانات .

« والوفد ، يروح عند أم اللولو ؟ »

كان سؤالاً نافذ البصيرة . قلت : « بالتأكيد . لأني أنا لن أذهب . »

ودعته وخرجت . وإذ عدت الى الدار كان يوم كامل قد ضاع . التقيت بخالد في المساء ، بالأحرى أوائل الليل . دهش لما رآني . طبعاً ، لم يكن الاندفاع وارداً . بعد كل شيء ، هناك المكانة والكرامة . لذلك خاطبته باعتدال ورصانة . قلت إني أريد أن أريح ضميري وأرى جيراننا في الزقاق ، كعادتهم الطبيعية ، وإلا اعتقدت أنهم يظنونني عدواً لهم .

قال إنه لم ينس ما قلته أنا أمس . بالعكس هو يرحب به . وقد نقله الى أم عبودة ، وزاد عليه رأيه في ضرورة تعاون الدارين معاً لئلا يصير الجميع لاجئين بفضل استشارات أم اللولو السياحية وغير السياحية . « لكن بصراحة ، أم عبودة لم تعد لها تلك السلطة . امرأة غلبانة ، مجروحة الفؤاد . »

استجمعت شجاعة يندر وجودها عند الرجال ، واعترفت بالخطأ :

« خطأي كان أني تماديت فجرحت قلوبهم . أنا أعترف بهذا الخطأ الكبير ، ولا أبحث لنفسي عن عذر . »

« المشكلة ليست مشكلة خطأ بالضبط . الحياة صارت صعبة جداً . وضغوطها تكبس على رؤوس الجميع وتنزلهم تحت ، وتحت . قصدي هذا

الانذار ، مؤشر بمعنى ما . قد لا يعود ممكناً في المستقبل القريب أن يقف أحد في الوسط . الشباب ، بصراحة ، يرون أن طعم أم اللولوبين أضراسك . هذه هي كلماتهم . وهذا الطعم لا يزيله معجون الأسنان . »

كان الحديث ممتعاً ، وإن طياراً ومزوقاً . المهم أن يتحرك هؤلاء الأبالسة وبأقصى سرعة . كنت مبتهجاً وآملاً . وفوجئت بنازك مبتهجة أيضاً . وكنت محتاجا الى أكبر قدر من النوايا الطيبة . لذلك حكيت لها . جعلتها تشعر أنها شريكة وفاعلة . إلا أنها اكتأبت ولزمت الصمت . أوشكتُ ألا اكترث . لكن إنسانيتي غلبتني مرة أخرى . « مالك ، يانازك ؟ »

« تحاربهم وأنت في بيت يملكونه هم . اخرج الى بيت لك أنت . »

وكان علي أن أصمت أمام عقل راح يفكر بهذه الطريقة ، عقل سقط نهائياً على ما يبدو في اللاواقع ، كعقل يسير . لأني إذا خرجت الى أي بيت آخر انتهت المعركة . بخسارتي أنا طبعاً . مجرد خروجي يعني هزيمتي . يعني فقداني لمركزي ومكانتي وطريقي العريض العظيم ، وهدري لإمكاناتي وطاقاتي ونشوة حياتي .

مرة أخرى آثرت الموقف الإنساني وقلت بهدوء : « أرجوك يا نازك ، لا تحاولي أن تكوني ضميراً ثانياً لي . »

في اليوم التالي لم يخرج أحد الى الزقاق . وكذلك لم ألتق بخالد . وأوشكت قشرة اللامبالاة والانشراح ان تتشقق . هذه أول معركة حقيقية لي . ذهبت الى المقهى العقاري . اخترت ركن رواده العاديين وجلست . لكنهم تجمعوا حولي . استمعوا بابتسامة لغزاء لإعلاني عن نيتي إقامة قصر ومجمع سياحي وسوق كبيرة في عقاراتي . وكانت قيمتها المالية قد أوشكت ان تصل الى الصفر . قلت إني سأوقف معاناة هذه المدينة من الرؤى المتقلبة لجهالها .

إن مخطط التجميل الجديد يجب أن يفشل ، لأنه مغرض .

مضى اليوم الثاني ، ولم يخرج أحد الى الزقاق . عند العصر ذهب الوفد لزيارة أم اللولو ، ولكن بلا نتيجة . عندما يقال إنها لست هناك ، فهي ليست هناك . عادوا بوجوه واجمة كالحة . وكان يمكن أن يصيبهم الذعر لولا هدّأتهم بهدوئي . ما دمت أنـا واثقـاً فهم واثقـون . ولا بأس بقليل من الصراع مع أم اللولـو أيضـاً . لسـوف يمنـح مغامرتنا نكهة وحرارة خاصتين . وسوف يجعلني علوان بحق وحقيق في عينيها وأعين الناس : إنني أتصادم معها . أليست كل علاقـة صراعـاً ؟ المهم في النهـاية ان هذا الانذار سيظل حبراً على ورق . إن أسلحتي ما تزال في المستودع . إنني لم أستعملها بعد . وإن الساعة آتية .

جلست في الـدار وداعبت أم يسـير في حديث عن أم عبـودة . خلال دقـائق كان الجميـع معبأين حماسـاً للانطـلاق نحـو دارهـا . وانطلقـوا ، كل بحسب تفكيره الخاص . المهم أن يتحرك الشباب .

إلا يسـير . خلال الحـديث كان ينصت بوجـه ممسـوح . لكن كانت وداعته عداوة وانسحابه حساباً ، وبسمته سماً . منذ صباح ازمة الأقبية ووجهه ينطق بعبارة واحدة ، وعيناه الدارستان وفمه الحيواني . وهذه المرة تجرأ ولفظها لي أنـا . أنـا لم أحبب يسير هذا كثيراً . كنت أعتبره درويشـاً معاصراً ، أو مصـابـاً كما قال زيـد بانفصـام الشخصيـة ، تفكـك الكيميـاء في العقل ، أو ما شابـه . ومـرت فترة ذكرني فيها بزرقاء اليمامة . هذه المرة ، جاءني الكشف ورأيتـه على حقيقتـه . إنـه غول وليس درويشـاً . برقت عينـاه في وجهي ، ونهض نحـوي ببـطء . لم أخف منـه طبعـاً ، فقد عرفت أن الكلمات هي كل قوته . هو أساساً مصاب بالفتق ولا قبل له بمعركة عضلية . كانت الكلمات في وجهه ناراً . وقد أراد أن ينفثها في وجهي . لو أمكن فقط أن ترى وجهه ، أن ترى كيف أن للشـر حيـاة لا يمتلكهـا أي عنصـر آخر من عناصر الطبيعة . أنا

الـذي أمضيت عمـراً أسأل ما هي الطبيعة البشرية حقاً ، ما الذي يؤدي الى نشوء الشر ، وبالتالي العنف والمآسي .

إنـك لن تصـدق . بهدوء ـ بوداعة ـ بابتسامة ـ كأن جسمه يتقدم وكل شيء آخـر فيـه ينسحب . وصـل إلي . وضـع رؤ وس أصابعه على مرفقي :

« أظن يا أستاذ » ـ لاحظ كلمة استاذ ـ « اقتربت الساعة . »

ابتسمت له كي امتص انـدفـاعة الشر التي حملها إليّ وأردها الى قيعانها العميقة . ورأيت وجه نازك . كان يبرز خارج الشباك المكسور ، متدلياً فوقنا كأنه ناقوس . وماذا تظن ؟ هو أيضاً كان ينضح شراً . تلفت حولي وإذا الدار خاليـة . يد هذا المأفـون على مرفقي ، ووجـه نازك على وجهي ، يطـل من فوق ، كأنه قمر مكسور او مرآة منشقّة ، كأنه يقول القسم الثاني من العبارة ، الذي لم يقله يسير .

كأن فاوست يهمه أن تقوم القيامة . أو يهمه أن تتداعى أركان العالم إذا كان التداعي سيخفي فشلاً أو هزيمة .

وضعت أصـابـع يدي الأخـرى على أصـابعـه وابتسمت : « بإذن الله يا يسير . بإذن الله . قريباً جداً ستدق ساعة أعداء الله والإنسانية . »

ابتسم وخبّ مســرعـاً الى كرسيـه . غيمت في رأسي سحب من غبـار ورمـاد . وتمـوجت فيـه صور متداخلة متقاطعة . ابتسامة من أم اللولو ، وعين كثيفة الحاجب لأم عبودة ، ومسدس سلطان يرمي حمامة من الجو ، وذراع نازك ممدود بشيء ما لكن اليـد مبتـورة بسيف الظـلام ، وعينـان جاحظتان في رأس زينب المتدحرج .

فوجئت بيسـير يعـود إلى جانبي : « الحنفية فاضية ، عندكم شوية مية

للوضوء؟ » لكني لم أبال . إن هذه الأشباح وانفلاتات العقول اللاثئة لا تخيف عقلاً علمياً مناضلاً .

في المساء عادت المياه ، وانقطعت الكهرباء . وصرنا في حاجة مضاعفة الى خالد . لكننا مع ذلك جلسنا في العتم ، وناقشنا احتمالات خروج أبناء أم عبودة الى الحارة . وذهب الوفد إليها .

أم عبودة فرحت كثيراً . وأحبت أن تأتي إلي لتبوس جبيني وتشكرني ، وترجوني أن أفلتهم على هذه الزانية ، التي تريد أن تجعل سكان الحارة كلهم لاجئين ، لتشبع دود قلبها .

« ولماذا لم تجيء ؟ »

صمتوا . كررت السؤال . امتدت أم يسير ولامست مرفقي . كان وجهها ينحب : « قعدت تبكي ، وما عدنا قادرين نزيد عليها بالحكي . يا ابني ، أم عبودة ما عادت زي زمان . الحادثة إياها هدّتها . »

على أية حال كان هناك أمل . وعاد خالد في الليل فقال إنه سيأتينا بجواب حاسم غداً . كله تمام . يومان يكفيان لرد شر سلطان الى نحره ، وإقناع أم اللولو بالتحرك . لا التهديدات السخيفة بالماء والكهرباء ، ولا الانذار الأسخف ، سيأخذني إليه . مثلما قال خالد : لا يمكن أن أصير تابعاً . سأطيح به وآخذ مكانه عند أم اللولو ، واستعيد التواصل مع ذلك الجسد النهراني الجميل مهبطاً لأشواق روحي ورفرفات طموحي .

قبيل الحادية عشرة عادت الكهرباء . وكنا سعداء على كل حال . كان نسير قد نام . وحل خالد محل سعدون في لعب الورق .

لن أطيل . مضى النهار الثالث ، ولا شيء . لم يخرجوا . لذلك قررت

تنفيذ عزمي . كانت قد بقيت ساعتان لتغيب الشمس . لبست ثياباً بسيطة وخرجت إليهم . قد لا يريد الشباب مقابلتي ، لكني سأثبت لهم حسن النوايا . في المدخل العاتم رأيت يسير . استعذت بالله . كان يبتسم . ليس وديعاً بالضبط ، بل أقرب الى الحماس . وعلمت أنه سيرافقني . وليكن . لقد مضى النهار كله وهو أمام عيني .

لم يرافقني فقط . مشى معي جنباً إلى جنب . بل إنه أمسك بيدي ، ودخلنا معاً دار أم عبودة .

مثلما توقعت . كان أحداً ما أخبرهم ، فاختفوا . وتلك كانت أول مرة أرى فيها بهدوء ذلك المكان . في البداية ، هناك باحة ، ومبنى تماماً كمبنى دارنا . وحشد من الأطفال . ودالية وياسمينة ونارنجة . لكن ، اذا تمعنت وجدت شقوقاً وفجوات في الجدران الخلفية للغرف . مساحات فارغة يريبك ما وراءها . سألنا . فقال طفل إن أم عبودة خارج الحارة . وقال آخر إن عادل هناك ؛ وأشار الى احدى الفجوات .

لم أدر ماذا أفعل . لكن يسير قادني بجرأة ، وعزم ، وسرعة إلى إحدى الغرف ، التي دخلناها ونفذنا من فجوتها الى ما وراء الدار . كان يسير سعيداً . « هنا . هنا ، يا معلم . » لاحظ كلمة معلم . وراح يجرني الى مكان يعرفه هو جيداً ، فأوشكت أن ألهث .

توقفت ، وشددت يده ليقف . كان المكان مفاجأة بالكامل . شيء مثل ما نقرأ عن الكرنتينا في بيروت ، أو مقابر القاهرة الآهلة بمليون نسمة من الأحياء . كانت هناك حارة كاملة ، تهبط إليها لأنها في منهدم . لكن كانت هناك الفظاعة والوحشية والعفن والأسن ، مما لا يمكن أن يوصف . بيوت من تنك وتوتياء . لا ألواح ، بل قطع موصولة بمسامير ، أقيمت منها جدران ،

وسقوف معظمها منحدر . أقصى ارتفاع لها ١٧٠ سم . ومعظمها أقل . لا شبابيك طبعاً . فتحات مستطيلة للدخول ، ولا أبواب . كرتون أيضاً .

وقماش عادي أو قماش شوادر ، للسقوف . القمامة على طول مئة متر ، وارتفاع بين نصف المتر والمتر . بقايا سيارات وعربات ودواليب . أرضية سيارة صارت جداراً لبيت . علب تنكية فارغة ، زبل . زبل وقمامة . هيكل سيارة صار بيتاً . على السطوح عشرات الخرق ، والسلال المكسرة ، والألحفة البالية ، والحجارة ، والكراتين ، وقطع الخشب ، لدرء البرد والحر والمطر .

بين هذه الرثاثة المطلقة ، بين هذه الأمواج الفاجعة التي تجعلك تتمنى لو كنت أعمى ، هذه الزرائب والحظائر التي يرفضها أي حيوان متمدن ، انتصبت بضع أشجار خضراء . تين وزيتون ، وصفصاف ومشمش وزنزلخت . وفوق هذا كله خفق علم سارية . ليس لأية دولة . لكنه علم ، وله ألوان ، ويخفق . ثم بدأنا نرى الأطفال . سود الوجوه والثياب . بملابس وبلا ملابس . يحملون جرادل ، أو علب تنك فارغة ، أو يركبون على أشرطة باعتبارها خيولاً ، أو يجلسون على القمامة . وأبدانهم كلها مجرد عظم وجلد . .

لم أعد احس بيسير إطلاقاً . كأن شرّعينيه قد تجسد أمامي . تمشيت .

تقدمت . هذا هو الخوف . ها هنا هو . رأيت بيتاً مرفهاً ، جدرانه من خشب وله شكل هندسي أولي . ورأيت ما يشبه الحوش : شكل مدور ، ارتفاعه نصف متر ، داخله غرف مساحة الواحدة منها أربعة أمتار مربعة بالكثير .

غرف مظلمة تماماً ، بلا شبابيك . والناس داخلها . مجرد صندوق . كهف بدائي ، لكن التنك حل محل الصخر . أخمام غائرة في الأرض ، رطبة ، يعتبر قبونا الرث قصراً بالنسبة لها .

مشيت . رأيت ناساً تدخل وتخرج . اكتشفت أزقة وزواريب ، ودجاجاً ، وقططاً وجثث قطط ، ورجلاً مقطوع الساق يقهقه بصوت عال ويتكىء على عكازته ، وأكوام قمامة ، وزجاجة بيبسي كولا ، ومصارف مراحيض تجري على سطح الأرض ، وفراخ حمام في الأخمام وعلى الأسطح ، وكلباً مهروس الرأس ، وأطفالاً يضحكون ، وأزقة مكنوسة ، ومناشر ثياب ، وشبه شارع نظيف .

وصلت الى أبنية الأسمنت الحديثة . كان بينها وبين الأخمام سور عال من الطين . هناك رأيت سبعة قبور . هناك جمد الدم في عروقي . كانت وراء الدار والغيتو ، عند السور الذي التف حولها كجمجمة ، وقبعت داخله كذاكرة . لقد حفرت وردمت على عجل . لا أغصان ريحان ولا زينة للموتى . مجرد حجرتين لكل قبر ، واحدة للرأس وأخرى للقدمين . إذن هذا هو الثمن : لابدّ أن الأحياء قد تعلموا الآن أن يتفاهموا مع الأسكندر بدلاً من أن يقاوموه .

مؤكد ان ما ذكرته لا يزيد عن خمسة بالمئة ، ولا يلم بشيء من مواصفات الحياة هناك . لذلك عندما وصلت الى الفجوة ، ونفذت منها عائداً إلى الدار ، كنت كمن يعود من رحلة الى الجحيم . نسيت عادل ، ونسيت الانذار ، وكل شيء . قلت لنفسي ، سعدون معه حق . من يقبل أن يعيش في هذا الجحيم يوماً واحداً ، لن يرفع حصاة واحدة ويضرب بها سلطان وأم اللولو . مثل هذه البشرية الخانعة يجب أن تنقرض . إن انتظارها لتصل إلى المستوى الإنساني الممكن أن يؤهلها للمطالبة بحقوقها ، سيعني سنة ضوئية بالنسبة للحضارة ومليون سنة زمنية بالنسبة لهم .

وإذا بأم عبودة ويسير أمامي . وكانت أم عبودة فعلاً شبه متداعية .

لن أطيل . قالت أم عبودة إنها بكت حزناً على أولادها ، وليس حقداً علي . وإذا ساعدتهم على استرداد حقوقهم من تلك الزانية ، التي تنام مع أي عابر سبيل يخدمها ، فالأولاد كلهم بأمري . وإن كان على ظهورهم في الحارة ، فغداً ترسلهم من أولهم إلى آخرهم لصلاة الجمعة . سأرى عادل ، وأتفاهم معه . وهي ستقول له ألا يُيبّس رأسه ، عادل بصراحة غير متحمس . يخاف أن يتفق مع أحد . وهي لا تعرف كيف يفكرون هذه الأيام ويحسبون .

قلت لنفسي انحسم الأمر . مجرد خروجهم ، ومشيهم في الحارة الى الجامع سيقلب الموقف رأساً على عقب . لقد صرنا الآن حديث المدينة كلها . ومثل هذا الحدث سيزلزل أوصال سلطان ، وأم اللولو أيضاً . طبعاً كانت الحيطة لازمة . لذلك أديت صلاة الجمعة في مكان ثالث من المسجد .

لا مع سلطان ولا معهم . لكنهم جاءوا . جاءوا حشوداً وحشوداً . غص بهم الجامع ، وساحته ، ومساحة عظمى من شارع العروة الوثقى . وعندما خرجوا بعد خطبة الجمعة ، التي استغرقت فقط سبع دقائق ، كانت الحارة كلها تهتز بهم ، وصمت الأفواه ينشر عليها رهبة وتوجساً لم يسبق لهما مثيل . وكان الهم المباشر لكل مصلٍّ أن يعود إلى بيته بالسرعة القصوى .

ومنذ تلك الساعة وحتى صباح الأحد ، كنت سعيداً على نحو لم يسبق له مثيل . تلك كانت الساعة التي تنبأ يسير باقترابها ، ولكن ساعة أعدائي بالطبع . بحثت عنه فلم أجده . قلت خلّه يتشبر ق في الحارة مبتهجاً بتحقق نبوءته . عدت إلى الدار ، وطلبت من الوفد الذهاب ثانية إلى أم اللولو لطلب فك الانذار . وشددت عليهم ألا يعود إلا بعد مقابلتها .

لكنهم عادوا في المساء وقد يئسوا . هي ليست موجودة . قلت حسناً .

إذا لم يفك الانذار حتى صباح الأحد سأذهب إليها بنفسي . واتصلت هاتفياً لأتأكد ، فلم تُرفع السماعة من الطرف الآخر .

كان يسير قد نام . لكن الآخرين جلسوا في الباحة معي وحولي . نازك شاركتنا الجلسة ، وقد استرد وجهها بعض رونقه وإنسانيته . وكان معظم الحديث لسعدون بالطبع ، كان سعيداً بالصراع . وكان معجباً . إنه يثمن ويقدر تقديراً عالياً هذا الموقع الأبي الصامد الذي احتللته ، وكذلك هذه العبقرية العليا في المناورة وخلط الأوراق ، وحتى قلب الطاولات ، دونما حاجة لمصادمة مادية باهظة الثمن .

كان خالد غائباً . وهذه المرة ، نعمنا بالكهرباء دون الماء . ويوم السبت ، وهو الخامس والأخير ، بدأ كش الحمام . رأيتهم . فتحت عيني من النوم ورأيتهم . حجارتهم وحصاهم تطير في الجووراء الحمام الطائر .

بالعشرات كانوا . وساعتها انقلبت على خاصرتي الأخرى وتابعت نوماً هنيئاً . قلت لنفسي ، اركب يا ولد على هذه الصهوة وانتظر . وبالطبع فقد استمروا على هذا المنوال حتى غابت الشمس .

لكن السماعة لم ترتفع عنده أم اللولو لأتحدث معها ، ونحدد موعد اللقاء .

لم يكن الصباح التالي ككل الصباحات . فتحت عيني ثم أغمضتهما فوراً . لقد أيقظني نبر خفيف ولكن متلاحق ، على جبيني ووجهي . ولحظة بدأت أرى ، دخل التراب في عيني ، فأغمضتهما . انقلبت على فراشي . ابتعدت . نظرت الى السقف . كانت فجوة صغيرة بحجم الكف قد تشكلت ، وراح التراب يهور منها على الوسادة . لم أدر كيف اتسع ذهني لارتداء ثيابي . وفي البهو وجدت نازك جالسة بحذاء الشباك المكسور ،

والتراب يهوي إلى جانبها . بدا واضحاً أنها حزينة . وربما مفجوعة . ولا يملك أحد إلا أن يتعاطف معها ، بل ويحاول أن يفعل شيئاً لأجلها . ولكن ليس أنا . نازك لا يمكن أن تُسلّم طرف الخيط . إن حياتي الجديدة لا تقبل الانقطاع ، أو التراجع . يجب أن أستمر فيها . ليس هناك خيار آخر غير الاستمرار . لأن الخيار الآخر يعني انهيارها . وأنا لا أريد هذا الانهيار . خوفي منه بالغ حدَّ الرعب . وأي ميلان باتجاه نازك يمكن أن يسببه . أنا أعرف نازك ، أعرف قدرتها العناصرية على تحطيم كل ما ليس من عناصر الطبيعة . إنها لم تعد بشراً ، بل ضمير راعف منقطع عن سيرورة الحياة ويشعرني أن كل شيء خطأ موتي .

على سطوح الغرف الثلاث الأخرى رأيتهم . كانوا عدداً لا بأس به من رجال البلدية ، وكل أمسك بمعول أو رفش وانصرف تماماً الى عمله . سوى أن الدوائر الإهليلجية هناك أوشكت أن تكتمل .

في الباحة وجدت رجالاً آخرين . قالوا إنهم ينتظرون يقظتي . « معنا أوامر ، نطلع عفش بيتك للزقاق . » ابتسمت . كان الجميع حاضرين . لكن كل فكرة وكل حضور اصطدم بصورة حادة واحدة : هذا التراب الهائر على وجهي . « انتظروا شوية ، لبينما أشوف الأستاذ عبد اللطيف . »

« يا معلم ، معنا أوامر ما نقبل الالتماسات . » هززت رأسي بإشارة لا بأس . التماسات إذن . مضيت الى الزقاق . هناك وجدت يسير . « اسمع ! » صرخت بوجهه صرخة ذاوية . « إذا كنت سأرى خيالك ، خيالك هه ! من الآن وحتى أقهر هذه المؤامرة ، فعلاجك هذا . » وتناولت المسدس .

احتقنت عيناه وغامتا . تهدل حنكه ، ثم جسده . لا شك أبداً أن

صرخته تلك كانت ستنطلق لولا أن كفي عاجلته بضربة صماء انفجرت على وجهه كالرعد وطرحته أرضاً . وأسرعت إليه أمطر وجهه بوابل من الضربات كانت تشفياً منه ومنعاً لوقوع النوبة الكارثة .

فتح عينيه ؛ ورأيت وجهي فيهما . أيقنت أنه استرد أعصابه . « أنا لا أحتمل أشباحاً تطاردني ، » قلت له ، وغادرته مكوّماً على الأرض .

كانت الساعة حوالي العاشرة . قال مدير مكتب عبد اللطيف إنه سيحاول جاهداً أخذ موعد لي مع سيادة رئيس البلدية ، بسبب صداقتنا القديمة . لكن الموعد قبل ساعة مستحيل .

عدت الى الزقاق . كان الأثاث قد بدأ يصل . الكنبات أولاً ، مقشرة أو مكسرة . دخلت الدار . كانوا في حالة هياج وذعر وضياع . طمأنتهم :

نحن لم نستخدم جميع أسلحتنا بعد . كان النقل والهدم مستمرين . ونازك جالسة بهدوء تام في مكانها نفسه ، وعلى وجهها ذلك التعبير اليسيري الشرير .

عدت الى الزقاق . كان العفش قد صار ملحوظاً . كل ذلك الذوق والفن والجمال ، تكدس هناك كالقمامة . أين هم هؤلاء الأبالسة ، ولماذا لم يحتلوا الدار ؟ عدت الى البيت بسرعة . أدرت الرقم في الهاتف . لا جواب .

أسرعت الى عبد اللطيف . كان ربع ساعة قد بقي على الموعد . مشيت بين حشد من المراجعين نصف الدائخين . ولم يكن أحد منتبهاً إلى أحد في حلبة المراجعات القانونية هذه والنفوس المنسحقة .

بعد ربع ساعة نظرت الى مدير المكتب . ابتسم لي منتظراً فاقتربت منه . « الأستاذ عبد اللطيف ، يسلم عليك ويقول ، هو يعرف تماماً موضوع

زيارتك ، لكنه متأسف جداً ، لا يقدر أن يفعل شيئاً ضد القانون ، الذي كفل حماية الملكية الفردية ، وصيغ على هذا الأساس ، وأن الجماعة يطالبون بما هو حق لهم ويكفله القانون . »

كانت جملة منضدة متسلسلة ، كأنه أمضى ربع الساعة هذا وهو يراجعها في ذهنه حتى انضبطت . ربع ساعة وأنا منتظر جواباً كان يعرفه من أول دقيقة .

عدت بسرعة الى القصر . الزقاق أوشك أن يختنق بالأثاث المتكسر المحفر . لكني لم أتوقف . وعند جناح أم اللولو الخاص سلكت طريقي الذي اعتدته . اعترضني حارس عملاق ، رأيته ساعتها لأول مرة . لم يتكلم .

وقف في طريقي وحسب . تناولت مسدسي ، وبالأخمص ضربته على صدغه . وزغت منه فدفعت الباب ودخلت . لكن مسدسي سقط مني .

كانت في مخدعها . عليها رداؤها الحريري العريق . فوجئت بي . لكنها تماسكت .

صرخت بها : « نحن اتفقنا اتفاقاً وأنت خنته . »

ابتسمت . اسنانها اللؤلؤية الباهرة كادت تخمد ثورتي .

« اجلس . اجلس . وفّر حيويتك لما هو أنبل من الغيظ والانفعال . »

جلست : « أنت تتخلين عني لأجل سلطان ! ماذا حل بهيلانة وفاوست ؟ والمغامرة ؟ »

« عزيزي علوان . فاوست وهيلانة لا يمكن أن ينتهيا . لكن أين هو فاوست ؟ »

« أمامك . ما الذي تغير ؟ »

« عزيـزي علوان . يؤسفني أن أجرحك بالصراحة ، ولكني مضطرة . أنت حالة غلط . مع أنك من القلاقل الذين سعيت بنفسي إليهم . الباقون يسعون إلي بأنفسهم . جميع الذين بعت واشتريت معهم ، وهم كثيرون ، في أزقـة كثـيرة وحارات كثيرة ، نفذوا الاتفاقات بنجاح . لم ينفلش أحد . كانوا نمـوراً حقيقيين . نظمـوا العنف وقنّنـوه . حفظـوا درسهم جيـداً إلا أنت يا نميري الصغير . أنت لم تعد تنفع ضد الرعاع . قفزوا عليك ووصلوا إليّ . ما عادوا يهابونك . كان يجب ألا تقوم لهم قائمة . كان يجب أن تنهض المدينة السياحية وهم يصفقون . »

« ومن الذي أرجعهم وفتك بهم ؟ من الذي خنقهم في قمقم وحشرهم في غيتو ؟ »

« ومن الذي تركهم أمس يحتلون الأسطحة مرة أخرى . بكاملها . »

« كيف أتصدى لهم والانذار فوق رأسي ! »

« لو تصـديـت لهم لاختفى الانـذار من فوق رأسـك . أنت علوت يا علوان لتضرب الدهماء ، لا لشيء آخر . لا لتتحالف معهم ضدي . »

« يعني هناك فاوست جديد . »

« حتى الآن ، لا . لكن سأحـرص في المـرة القادمة أن يلتحق فاوست بهيلين ، لا أن يظل مع مرغريت . »

« مرغريت ؟ ! »

نظـرت إلي بشـراسة . واتقدت عيناها بلهب شيطاني . انتصبت بعنف

ونظرت إلي من زاويتي عينيها : « أنت عملت اتفاقاً مع أم عبودة ، يا علوان . أنت الذي خنت . انتهت المقابلة . »

انتفضت واقفاً : « اعطيني فرصة . . كانت لعبة صبيانية . . » لكنها استدارات باتجاه ذلك الباب الغريب الذي يخفيها بلمح البصر . أيقنت أنها إن وصلت إليه فقد ضاع علي كل شيء . اندفعت إليها . « قفي لأشرح لك . . » كالسهم . وصلت إليها ولم أصل . مددت يدي . وبكل ما فيّ من عنف اليأس ولا مبالاته أمسكت بها .

بماذا أمسكت ؟ بذلك الرداء . أمسكته من ياقة الظهر . شددت بذلك العنف . تمزق من الظهر وحتى النهاية . وشهقت هي . التفتت وشهقت . وكان حقاً لها أن تشهق . سقط الرداء . سقط ولم يكن تحته شيء . وفي ثوان خمد كل هياج بي وعنفوان . وفي ثوان اختفت هي . كأنها كانت سراباً ، وكأنني كنت أحلم . أهذه هي المرأة التي عشقتها ؟

يبدو أن الرداء كان مصمماً بحيث يحمل النهدين أيضاً . وسقط .

نهدان ؟ استطالتا لحم تدلتا حتى نهاية القفص الصدري . وبطن كأرض مفلوحة . ثم لحم بلحم . كتل بكتل . انتفاخات وتهدلات . صحيح أن وجهها ظل جميلاً . ولكن . . مستحيل ! هذا الجسم ! كيف لم أخمن أبداً أن امتلاءه ارتخاء ، وان هذا التجمل ترهل ، وهذا البحر من القشطة والعسل آفات ؟ كيف عميت ولم أر ؟

طبعاً تركتها تختفي من أمامي . كنت في دنيا ثانية . كنت كمن يشاهد العالم من وراء العالم . كنت دائخاً متيبس الادراك ، إلا من وعي صغير بصدمة وعي . وتمنيت لو أرى يسير . لو أسمع صرخته الوحشية الصاعقة لتهز من حوليّ أركان العالم وتلطمني بهديرها الوحشي المعافي .

أحسست بحاجة إلى شيء ما ولم أعرف ما هو . أنا مازلت قوياً . لكن هذا الـذي أنـا فيـه سقوط من نوع ما . لم أعرف كيف أحدده وعادني التساؤ ل القـديم : أين توجـد الحقيقـة ، في الـواقـع أم في الوعي ؟ أولا يجوز أن توجد الحقيقـة الـواحدة فيهما معاً ؟ وكيف يكون شكل العالم عندئذ ؟ وكان العذاب أني لم أستطع أن أعطي جواباً . فقط أردت ذلك الوجود المثنى المفرد للحقيقة .

[تقرير :

قد يتساءل من قرأ هذا التاريخ عن أمور بدا أن علواناً قد غفل عنها ، أو تغافل . إن هذه مسألة لا يمكن التنبؤ بها الآن . لكن رحلته مع الاسترجاع والوعي ودقة الذاكرة ـ وقد أوشكت الآن أن تتوقف ـ بدأت بنبض وانتهت الى آخر . والحقيقة أنه منذ بدأ يسرد هذا التاريخ كشف عن مفارقة غير مفهومة . لقـد كان يرقى أحيـانـاً إلى آفـاق الشعر في روايته ، وأحياناً يهبط إلى عبارات متقطعة وجمل رديئة التركيب . مع ذلك كان سرده مفهوماً ـ على الأقل بمعناه الظاهر ـ ومتابعته ممكنة . إلا أنه في هذا المقطع النهائي ، أخذ يسرع في الرواية سرعة غير عادية . وقد تخلى عن ربطها بتساؤ لاته الكبرى ، وتخلى عن وقفته القـويـة التجـاوزيـة إزاء علاقـاتـه الكبرى . وليس خافياً أنه ـ في هذا المزيع الأخير من سيرته ـ بات يؤمن تماماً أن جميع من حوله أعداء له أو متسولون . على رأس هؤلاء ، سكان الدار ، وفي مقدمتهم نازك . ويبدو أن شيئاً ما ـ في وعيه أو لا وعيه ـ جعله يرى نازك ويسير رمزاً لنوع باطني من العداء ، وفي أم يسير رمزاً لمخاتلة سامة ، وفي الآخرين رمزاً لانتهازية ووصولية لا تتورعان عن الطعن في الظهـر ، وليس غريبـاً أن يكـون سبب اقتصاره في النهاية على رواية الأحداث العارية شعور مستحكم بأن العالم كله معادٍ ، أو رافض له .]

ركضت أنـا أيضـاً ، ولكن إلى الـزقـاق . وهنـاك رأيتهم وتراجعت . زنخرت بسخرية . هذا هو الذي كان ناقصاً . هم أدخلوا أغراضي الأولى من الـزقـاق إلى الـدار ، وهم الآن ينقلون أغـراضي الثانية من الزقاق الى دار أم عبـودة . وكـانت هي تحثهم على السرعة . لا شك أنها هي صاحبة الفكرة . يتصرفون وكأنني انتهيت .

خذوا كل شيء ـ خاطبتهم بصمت . خذوه . أنا لا ملكية لي .

كان الجميـع هنـاك . ونـازك أيضاً . ويسير ـ لكنه لم ينظر إلي . وخالد الـذي ابتسم لي . وعـادل . وسـاعتهـا فقط خطر لي أن هذا الذي أشاهده قد يكـون أكـبر مني . هذا الكـابوس الذي ظننته صدمة وعي . أو هذه الصدمة التي صارت كابـوسـاً . وإلا من يصـدق ! من « خناقة » على شراء كيلو خيار الى هذا المصير . عالم من المستحيلات هذا الذي حدث ويحدث .

وأنـا الـذي صممت أن أخـرج من وعي شكّلتـه الأسطـورة إلى وعي شكله التاريخ ، أكون صانعاً لا مصنوعاً . . أتراني حدث لي العكس ؟ أتراني تركت التـاريـخ ودخلت الأسطـورة ؟ وأساطيرنا المعاصرة : أصحيح أنها كلها بهذه الهشـاشـة وسهـولـة الانقشـاع ؟ أم أنني أستطيـع أن استمر ؟ هذا الذي عشته : اسطورة ستدفعني نحو التاريخ ، أم تاريخ سيدفعني نحو الأسطورة ؟ وهـذه الإيقـاعـات : أيهـا هو ايقـاع القيمـة ؟ أيهـا هو ايقاع الأفعال العظيمة والعلاقات العظيمة ؟

ساعتهـا خطـر لي أن التقي أحـداً يعير ني لغتـه ، ونتعـاون معـاً على الكتـابـة ، حتى إذا قرأتـه فهمت المعـاني الأبعـد لكـل هذا اللامعقول الذي حدث أمام وعيي العاقل .

كانـوا يدخلون في الـدار ـ دار أم عبـودة . كانـوا يملأون الـزقـاق بحياة

وحيـويـة لم ألحظهـا من قبـل . وكنت واقفـاً بين باب أم اللولو المغلق ، وباب زينب المغلق . وصار كل ما حدث يعبر جبيني ، وكل ما يحدث يلطم عيني . لأول مرة أرى الحـارة منفصلة عني . ولأول مرة أرى الـرعـاع يتحـركون وكأني لست موجـوداً . وكأن حركتهم تبـدأ تاريخـاً ، كانوا ينقلون الأثاثات . بشكل خاص ، لفت نظري كرسي أم يسير الصغير ، وفراش أبي حسن التاريخي . لكن المنظر الأهم كان نازك المنضوية داخل ذراع أم عبودة . لقد سارت المرأتان ولم تلتفتا الى الوراء . وكانت خطوات نازك متعثرة ولكن مطمئنة . كأنها طفلة تتدرب على المشي بين يدي أم جديدة .

وصـــل سعـــدون إلي . كان وجهـــه كظيـــاً : « ماهـذا كله ! » هتف باحتقـار . وأضـاف : « يجب ألا تنجـرف . برأيي ، يمكنك أن تشتري بيتاً خاصـاً بك . » ونهنـه بسخـريـة : « تصـور ! كتبي بقيت هناك ، والهدم ربما يطمرها . » وأضاف : ما يجري أمامك ـ لايهم – هذه نكسة لا هزيمة . »

نظـرت إلى دار أم عبـودة الغـاصـة بالنـاس . وصـل خالد إلي وغمغم مبتسـاً : « همه ؟ ألن تدخـل ؟ سيكـون مسـدسك مفيداً هناك . » واقترب عادل مني بسـرعـة ، فهمس في عيني : « الآن يمكننـا أن نبـدأ مع أم اللولو . ما عاد بيننا أي حاجز . »

صنعاء

٢٥ / ٤ / ١٩٨٥

منشورات اتحاد الكتاب العرب

هذا الكتاب

تتميز (بلد واحد هو العالم). للروائي هاني الراهب، بثلاث خصائص رئيسية. أولاها الاستخدام المركزي لأسطورة (فاوست)، كما طرحها غوته، في بيئة تنتمي إلى العالم المتخلف. وثانيتها النسيج الرمزي الكثيف، ولكن المموه حتى يصعب التقاطهم الذي تكمن فيه اطروحات الرواية. وثالثتها الصياغة المتقنه لمعادل روائي يحل محل الواقع، ويعيد تشكيله بدل أن يغترف منه وحسب.

بالتأكيد لاتلتقي هذه الرواية بسرد التجربة، وإنما تنقلها إلى صعيد الرؤيا والشمول. وعبر هذه التقنية تحاول أن تستشرف الدور المحوري لشرائح اجتماعية هامة في العالم الثالث، تتوسط صراعات القوى الضاغطة والقوى المضغوطة.

ثمن النسخة : ٣٥ ل.س داخل القطر
٤٥ ل.س خارج القطر

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
١٩٨٥